الخلافة والإمامة

ديانة .. وسياسة

دراسة مقارنة للحكم والحكومة فى الإسلام

تأليف
عبد الكريم الخطيب

الطبعة الأولى

١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الخلافة والإمامة

ديانة .. وسياسة

دراسة مقارنة للحكم والحكومة في الإسلام

تأليف

عبد الكريم الخطيب

الطبعة الأولى

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

مطـــابع
دار الكتاب العربى بمصر
محمد حلمى المنياوى

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى اللهُ علَى سيدّنا محمد ، وعلى آلهِ وصَحْبِهِ وسلم

مقدمة

* * *

تجرى الأحداث فى هذا العصر . . مسرعة متلاحقة . . تبدّل فى أوضاع الحياة ، وتغيرّ من أنظمتهما ، على وجه لم تشهده الإنسانية ، ولم تعرف له مثيلا من قبل . . فى شموله ، وسعة دائرته ، وفى تعدد ألوانه ، وكثرة صوره !

وتدلُّل الأحوال ، وتغير الأوضاع سنّة قائمة على هذا الوجود ، ونظام ممسك بكل كائن فى هذه الحياة . . لا يفلت شىء من قبضته ، ولا يخرج كائن عن سلطانه ! .

فطبيعى إذن هذا التغير الذى يجرى كل يوم على مسرح الحياة ، ويبدّل من أوضاعها وأحوالها . . ليؤلف من هذا التخالف بين الصور والأشكال ، ومن هذا التغاير فى الأوضاع والأحوال — لحناً متسق النغم ، مؤتلف الصدَى ؛ وإن تعددت موارده ، واختلفت مصادره !

ولكن الظاهرة التى تلفت النظر فى هذا التغيرّ والتبدل الذى يجرى على مسرح الحياة فى هذا العصر ، هى ذلك الانطلاق السريع لجريان الأحداث ، وهذا التلاحق المتتابع فى توالدها . . ثم هذا الامتداد البعيد لأفلاكها التى تدور فيها . .

ففى كل يوم وليد جديد من تلك الأحداث . . يطوّف فى أرجاء الدنيا ، ويؤذن فى كل أفق من آفاقها بأن قافلة الحياة ستبدأ مرحلة جديدة . . فى اتجاه جديد . . وأن على الناس أن يتزودوا لهذه المرحلة ، وأن يعدّلوا من وضع أقدامهم ، لتستقيم مع هذه الوجهة الجديدة التى تتجه إليها القافلة . . وما أن

يتدبرّ الناس أمرهم ، و تتضح معالم الطريق الجديد لهم ، حتى يفجؤهم صوت صارخ : أن قفوا ! ! إن القافلة ستغير من وجهتها .. فهيّا إلى الوجه الجديد ! . وهكذا يركب الناس كل يوم طريقا جديدا فى الحياة .. تسوقهم إليه تلك الأحداث المتتابعة سوقا عنيفا لاهثا ، حتى لتكاد تتقطع أنفاسهم ، وتدمى أقدامهم، وتنحل عزماتهم .

وأعجب مافى هذه الأحداث المتوالدة المتوالية أنها أحداث عالمية ، تطوى الناس جميعاً تحت جناحها ، قريبهم وبعيدهم على حدّ سواء ! .. وهيهات أن يقع اليوم حدث فى أية بقعة من بقاع الأرض ، وفى أىّ قطر من أقطارها ، دون أن يتردد صداه فى العالم كله ، وتتأثر له أوبه أمم الأرض جميعاً .

فلقد أصبح العالم اليوم رقعة واحدة تحت يد الأحداث .. تنشرها وتطويها . كما ينشر الثوب أو يطوى . . ولم تعد المسافات الشاسعة ، والمحيطات الواسعة التى تفصل بين القارات شيئا يحسب حسابه فى هذا المجال . . فإن لمسة بالإصبع على جهاز من أجهزة «الراديو» تهز أوصال العالم كله ، وتطوف بجميع أرجائه .. فى لحظات ، فتجمع أنباء الدنيا وأحوالها ، وتجىء بكل ما يجرى فيها من خير أو شر ! .. وإن لمسة بالإصبع على مهماز «صاروخ» ذرى لتنقل الخراب والدمار . من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، أو بالعكس.. فى ثوان معدودات ، وإذا أمم بأكملها كانت شاخصة ثم ذهبت ،وإذا قارات بأجمعها كانت قائمة ثم اختفت . !

لقد تغير فى هذا العصر كل شىء . . فمقاييس الزمان ، ومعايير المكان لها اليوم حساب غير حسابها بالأمس،وغداً سيكون لها حساب غير حساب اليوم .. وتوقعات الحياة لا يمسكها عقل ، ولا يطمئن إليها قلب .. فلا يدرى أحد اليوم فى صباحه مصير العالم كله فى مسائه ! .

إن إنسان اليوم لا يستطيع أن يفكرّ لنفسه ، ولا لأهله ، ولا لوطنه ،دون أن يصل تفكيره وتقديره فى جميع الأحوال — بالعالم كله — ، وما يجرى فيه من أحـداث ، وما يقع من تطورات ! وليس يصح فى عقل عاقل اليوم

أن يفتح عينه على وجوده هو فى ذاته ، أو فى أهله ، ووطنه . ثم لا يمدّ بصره إلى العالم كله فى جميع شعوبه وأممه.. إن ذلك يكون أشبه بمن يعبر ميدانا فسيحا تنطلق فيه السيارات إلى كل وجهة ، ثم يجعل بصره أمامه . . لا يلتفت يمينا ، أو شمالا ، أو وراء . . فإن دهمته سيارة . . يكون هناك من يقع عليه اللوم غيره ! ؟ .

* * *

نقول هذا لنعرف مدى المسئولية الضخمة التى فرضتها علينا الحياة اليوم ، حتى لا تبغتنا الأحداث ، ولا تدوسنا تحت أقدامها ، ونحن نعبر طريقنا فى الحياة — إذا نحن مددنا أنظارنا إلى جميع الاتجاهات ، وعرفنا أحوال ما حولنا من قريب وبعيد . . وبهذا نجد الأمن والسلامة.. فى أنفسنا ، وفى أوطاننا . . وإنه لا سلامة ولا أمن لمن يجعل نظره اليوم فى اتجاه واحد..سواء فى ذلك الأفراد ، والجماعات والشعوب ! .

* * *

والعالم العربى — ومعه العالم الإسلامى — وإن استدعته الأحداث القاسية التى مرت به فى فترات متباعدة أو متقاربة — أن ينظر لنفسه ، وأن يأخذ فى الحياة وضعاً ترتفع فيه يد الأحداث عنه ، ويجد معه القدرة على الانطلاق فى كل متجه ، يرى منه بوادر الخير ، وملامح السلامة والأمن — هذا العالم العربى — ومعه العالم الأسلامى — إن يكن قد استخفّ فى الماضى بما كانت تستدعيه له الأحداث ، وتستصرخه من أجله ، ثم هو مع هذا لم يفقد وجوده ، ولم تضع معالمه ، مع ما أصابه من صعف ، وما حل به من علل وأوصاب — فإن استخفافه اليوم بما تنادى به الأحداث المنطلقة فى كل اتجاه ، وإن تثاقله عن التحول مع سير الحياة لن يدع له فرصة أخرى للبقاء على أية صورة ، ولو من تلك الصور الهزيلة الباهتة.. إذ أن الحياة لا تعرف اليوم غير الضربات الساحقة المميتة لمن يقع تحت ضرباتها.. إنها تحمل بين يديها من أسلحة الدمار والهلاك ما يذهب بالعالم كله فى لحظات . . وويل لمن ترميه ببعض هذا الذى فى يدها من سهام .. !

* * *

وليس هناك للعالم العربى — ومعه العالم الإسلامى — من موقف أقرب إلى السلامة وأدنى إلى العافية ، من أن تتوحد فيه أجزاء هذا الجسد الممزق ، وأن تجتمع أوصاله فى كيان واحد ، حتى تجتمع له القوة التى يستطيع أن يواجه بها عواصف العصر الحاضر.ويتق بها ضربات الأحداث المنطلقة من كل اتجاه .

فالوحدة العربية — ثم الوحدة الإسلامية — هى مركب النجاة للعرب والمسلمين فى هذا العصر ، إن هم ارادوا الإفلات من بين مخالب الأحداث وأنيابها ، وليس لهم بغير هذه الوحدة بقاء فى هذا العالم ، الذى تتعاوى فيه الأحداث ، منذرة العالم بيوم تشيب من هوله الولدان !

هذه حقيقة ينبغى أن يذكرها العرب ، وأن يذكرها المسلمون ، فى وعى ، ويقظة ، والتفات ، أكثر من أى وقت مضى .. فإن الحياة اليوم شىء جديد لم يعهده الناس منذ كانوا .. واليومُ الذى كان يستطيع فيه الإنسان الفرد أن يطلب السلامة والأمن فى الوحدة والعزلة قد مضى ولن يعود.. فإنه إذا اعتزل الناسَ والحياة فإن الحياة والناس لن يعتزلوه . . وكذلك الشأن فى الجماعات ، والأمم.. لن تستطيع جماعة، أو أمة أن تعيش فى داخل حدودها ، مقفلة على نفسها ، مهما أقامت السدود ، وأحكمت بنيانها ..

* * *

وأمر الوحدة العربية ، أو الإسلامية ، هو الذى حملنا على هذا البحث الذى أردنا به كشف الطريق إلى هذه الوحدة، وإزاحة العقبات التى تعترض طريقها .. وذلك أن أحداثا كثيرة قد عملت على إفساد الجو الذى كانت تتنفس فيه مشاعر الأمة العربية والإسلامية . . وكان من ذلك أن وقع فى إحساس كثير من أبناء الوطن العربى ، والوطن الإسلامى جفوة لهذه الوحدة ، وتوجس منها .. وأصبح كثير من هؤلاء وهؤلاء يخشون الحديث فيها . أو الدعوة لها . .

إن الحديث عن الوحدة الإسلامية — وفى داخلها الوحدة العربية — يثير عند كثير من المسلمين والعرب معاً مشاعر متناقضة متضاربة ، من شأنها أن تمزق وحدة الرأى ، واتجاه التفكير .. فى هذا الأمر .

فالوحدة الإسلامية العربية تذكّر المسلمين بالخلافة الرشيدة ، التى تمثّل فيها المسلمون سموّ المبادىء التى جاء بها الإسلام وحملتها شريعته ، كما ترفع لأنظار المسلمين مُثلا رائعة من العظمة ، والمجد ، والعزة التى امتلأ بها كيان المجتمع الإسلامى كله ، وتحلىّ بها أفراد هذا المجتمع .. فردا فردا ..

ومن جهة أخرى يذكر المسلمون من أمر الوحدة حين يذكرونها أنها قد أقامت عليهم فى كثير من الأحيان «خلافة» جبرية ، متسلطة ، جاهلة . قد ركب رأسها الحمق والطيش . فمزقت وحدة الأمة ، وجعلت أهلها شيعا وأحزابا .. يذيق بعضهم بأس بعض !

فلكم لقى الأمويون من تعذيب وتشريد على يد الخلفاء العباسيين ؟ بل قل كم أراق الأمويون من دم زكىّ طهور من آل البيت ، ومن صحابة الرسول ؟ وكم نبت فى ظل « الخلافة » الأندلسية من خـــلاف بين المسلمين ، وكم أريق من دماء بين شيعهم وأحزابهم ، حتى ضاعت الأندلس ، وذهبت دوله الإسلام فيها ؟

وقد لا تثير هذه الذكريات من مرارة وألم ما كانت تثيره من قبل . . إذ قد تقادم العهد بها ، وطال الزمن عليها . . !

ولكنّ النــاس — من مسلمين وعرب — لا تزال عالقة فى أفواههم مرارة الأسى ، ولا تزال مستولية على مشاعرهم أحاسيس الألم ، لمـا أذاقتهم الخلافة العثمانية من كئوس مريرة ، ولمـا سلطت عليهم من سياط العذاب والنكال . .

فلقد يذكر المسلمون ، ويذكر العرب اليوم — وكثير منهم عاصر أحداث هذه الخلافة ، ولبس ثوب الهوان والبلاء على يديها — يذكرون أن الخلافة « العثمانية » قد أقامت الأتراك على رأس المجتمع الإسلامى الذى كان تحت يدها .

وأن هذا المجتمع قد أنزله الأتراك ، منزلة العبيد . . لا يستطيع أحد أن يرفع رأسه ، أو يفتح فمه !

لقد ذهبت الخلافة « العثمانية » إلى أبعد مدىً فى الاستعلاء بالعصبية ، وإنزال المسلمين جميعاً منزلة دون منزلة الترك . . أصحاب الدولة ، والسيادة !

* * *

وحين سقطت « الخلافة » العثمانية تنفس المسلمون أنفاس الرضا . واستروحوا ريح الحياة . . إذ كانوا — فى ظل هذه الخلافة — يعيشون فى سجن كبير ، مطبق عليهم . . قد فسد هواؤه ، و نَتُنَ ريحه . !

لقد أحس المسلمون يوم سقوط هذه « الخلافة أن هذا السجن قد تهاوت جدرانه من حولهم ، فرأوا النور ، وأبصروا الشمس . . وكأنهم يرون النور ، ويبصرون الشمس لأول مرة . . !

واعجبْ لمجتمع يطير طربا لسقوط راية كان يستظل بها ، ولضياع تاج كان يزيِّنُ مفرقه ، ولذهاب وحدة كانت مبعث مجده ، وعزّه وفخره !

ولكن ما أكثر ما يتحول الخير إلى شر .. وما أكثر ما يصبح الدواء داء !..

فأطيب الطعام وأهنؤه قد يتحلل ويفسد . وإذا هو بعد هذا أذىً تتجنبه الكلاب وتعافه !! فإذا سرت فى نفوس المسلمين هزة الفرح لذهاب هذا المجد ، وضياع هذا الخير . . فما ذاك إلا لأنهم لم ينالوا من هذا المجد إلا الذلة والهوان ، ولم يروا من وجه هذا الخير إلا الشرّ والعدوان . . وإذا فرح المسلمون لزوال هذه « الخلافة » فإنما هى فرحة من يسترد العافية بعد المرض ، ومن يجد الراحة بعد طول العناء !

* * *

ولكن أتحسب أن نفوس المسلمين قد استقامت مع هذا الإحساس ، واستراحت له ، وطوت ما بينها وبين « الخلافة » ، وسوت حسابها معها على هذا الوجه ؟

إن ذلك لم يكن ، ولن يكون !

فمازالت نفوس المسلمين تَتَتَبَّع « الخلافة » وتتشمَّم ريحها ، وتتنسَّم أخبارها ، وتستعيد ذكرياتها .

إن لم يكن ذلك للخلافة العثمانية التى ذهبت ، فهو للخلافة الراشدة التى مضت ، ولم تمض آثارها الخالدة ، وآياتها البالغة الرائعة.. فى الحكم ، والسياسة ، والعدل ، والتى لبس المسلمون من أمجادها ثوب العزة والفخار..جيلا بعد جيل .

وإنه لعزيز على النفس أن ينخلع المرء من ثوب المجد وقد لبسه ، وأن يزْوِىَ وجهه عن الخير وقد سكن إليه ، وعاش فيه زمنا !

ولم يكن هذه الشعور بالرضى الذى استقبل به المسلمون سقوط الخلافة العثمانية ليعيش أكثر من يومه فى وجودهم .. لأنه شعور دخيل على تلك العاطفة القوية التى يحملها كل مسلم فى كيانه .. للأخوة الإسلامية ، والوحدة الإسلامية ، والخلافة الإسلامية ، التى تتمثل فيها وحدة المسلمين ، فى أوطان الإسلام ، على اختلاف أجناسهم ، وتباعد ديارهم . .

أرأيت إلى إنسان يسوؤه أن يرى ابنه قد انحرف عن جادة الطريق . وسلك مسالك الضلال والفساد ، على رغم ما بذل والده من نصح ، وما احتمل من ضر ؟ ثم أرأيت إلى هذا الأب ، وقد امتلأ صدره ضيقاً بهذا الابن المنحرف ، وأعياه أمره ، فأخلاه من بين يديه ، ونبذه وراء ظهره ، وألقى حبله على غاربه؟

ماذا تظن بهذا الأب ؟ وكيف تتصور حياته بعد هذا الموقف الذى وقفه من ابنه هذا ؟ أتحسب أنه قد أراح نفسه مما كان يعالج من همٍّ ، وما يجد من

كرب ، بعد أن أخلى يديه من ولده ، وسوّى حسابه معه على هذا الوجه الذى كان ؟

ربما يكون ذلك ليوم أو لبعض يوم،أو أكثر أو أقل..ولكن عاطفة الأبوة نحو هذا الابن لن تموت أبداً ، ولن تدع هذا الأب لهذا الشعور المريح . . فإنه شعور وقتى طارىء ، ستجلوه عن مكانه — إن عاجلا أو آجلا — تلك العاطفة الأصيلة المتمكنة ، التى يحملها الآباء للأبناء فى طوايا النفس ، ومسارب الشعور !

كذلك الشأن فيما بين المسلمين والوحدة الإسلامية ، أو الخلافة الإسلامية.. إنها عزيزة عليهم ، أثيرة فى نفوسهم ، عزةَ هذا الابن وأثرته فى نفس والده .. على ما فيه من عوج . . فإذا أصابهم منها مكروه أو حل بهم من جهتها سوء فضا قوابها ، وحولوا وجوهم عنها ، فذلك عارض لا يلبث أن يزول . وسحابة صيف عن قليل تقشع ، ثم تصحو عواطف الأخوة ، وتستيقظ مشاعر الوحدة .

* * *

وغايتنا من هذا البحث هو محاولة — نرجو أن تكون موفقة ناجحة — لإصلاح ما فسد من مشاعر الحبّ والولاء : بين « الخلافة » الإسلامية وبين المجتمع الإسلامى . !

وإنى لعلى يقين من أن هذه الغاية التى أقوم لها اليوم ليست سهلة الإدراك ، ولا قريبة المنال . . فى حدود هذا العمل الفردى الذى أقوم به من جهتى . . . مهما أبذل فيه من جهد ، وأخلص له من نيّة ! ذلك أن الطريق الذى بين المسلمين وبين « الخلافة » قد طمست اليوم معالمه ، واندثرت آثاره ، ونبتت عليه الأحراش ، والأشواك .. التى ربما آوى إليها كثير من الحيات والعقارب ، تترصد من يجوز هذا الطريق . . إن سلم من لدغة هذه فلن يسلم من نهشة تلك ! !

فالطريق الذى نريد « فتحه » من جديد بين المسلمين وبين « الخلافة » طريق مخوف مهجور ! . . تقوم فيه ، وعلى جوانبه أهوال ، وأهوال !!

ومع هذا . فلم نؤثر العافية والسلامة ، وأبينا إلا أن نركب هذا الطريق ، إيثارا لديننا ، ولعروبتنا . . فهو جهادٌ صحت نيتناله ، وسخت نفسُنا به . . فى سبيل الله ، والوطن . . وما كان لمجاهد فى سبيل الله — إذا أراد أن يكون فى المجاهدين — أن يلتفت إلى نفسه ، أو يطلب لها السلامة والعافية ، فذلك مما يفسد عليه جهاده ، ويغتال أجره وثوابه !

* * *

والحق أن الذى بين المسلمين وبين الخلافة من جفوة وقطيعة . هو فى الواقع جفوة وقطيعة بين المسلمين وبين « الإسلام » نفسه . . فلقد ألقت الأحداث الأليمة المفجعة التى وقعت فى محيط الخلافة — قديما وحديثا — ألقت على الإسلام سحباً كثيفة محمّلة بالغبار المتراكم الذى أثارته تلك المعارك التى دارت حول «الخلافة» فكسفت أضواء الإسلام ، وكسرت شعاعاته التى كانت تغمر الآفاق ، وبدا للكثير من الأنظار أن الإسلام دين لا يصلح عليه المجتمع الإنسانى ، ولا تحتمله طبيعة الحياة ، ولا يقيم الناس على جناح أمن وسلام ، إذا هم أخذوا بتعاليمه ، وأقاموا دولتهم على مبادئه !

لقد كانت « الخلافة » الإسلامية هى المجال الذى رأى فيه الناس ترجمة مبادئ الإسلام ، وتعاليمه ، فى أسلوب عملى ، لواقع الحياة . ! إذ قامت « الخلافة » مستظلة بظل الإسلام ، حاملة اسمه ، وقام « الخليفة » فى هذا الظل ، وباسمه .

ومن هنا بدأ الناس يرقبون الإسلام ، ويرصدون حركاته . . من أفق الخلافة ، وعلى مسرح الخليفة . . فكان كلما ركب الخليفة رأسه ، واستبدّ به هواه وقع على الإسلام من ذلك نصيب غير قليل من مآثمه وسيئاته . . وهكذا ظل ميزان الإسلام يضطرب بين صعود وهبوط ، فى نظر الراصدين والمتربصين . . إن اعتدلت حال الخلافة وحال المسلمين شيئاً بدا الميزان على شىء من الاستقامة والاعتدال . . وإن ساء حال الخلافه وحال المسلمين لاح الميزان شائلا مضطربا !! وأمر كهذا . . من شأنه أن يشوه وجه الإسلام ، ويطمس معالمه :

* * *

ولا يحسبَنّ أحد أننا إذ نسعى إلى إزالة هذه الجفوة التي بين المسلمين وبين الخلافة سندفع عن الخلافة هذه التهم التي لصقت بها ، ولا أن نمسح عن جبين بعض الخلفاء هذا الخزى الذى علق بهم . . فذلك عدوان على الحق ، وجرأة على الواقع . . ولسنا مستعدين من أجل هـذه الغاية النبيلة التى نسعى إليها أن نزيّف لها الواقع ، أو نغيّر لها معالم الحق،فنكون فى هذا كمن يسرق ليتصدّق، ومن يدفع السيئة بما هو أكثر سوءاً منها . . لا . . إننا لن نركب هذا المركب أبدا . . ونحن إنما نجاهد من أجل الحق وفى سبيل الحق . . فكيف نتخذ له الباطل مركبا ؟ !

على أن الأمر أهون من هـــذا . . فإننا لن ندافع عن الخلافة — بحق أو بباطل — ، ولن ندفع عنها ما اقترفت أيدى الخلفاء باسمها وباسم الدين من سيئات . .

ذلك أن « الخلافة » فى رأينا ـ وكما سنعرض لذلك فى هذا البحث ـ ليست أمرا من أمر الدين ، وليس قيامها أو سقوطها مما يلتفت إليه الدين ، أو يأبه له !.

إنها « حكومة » أقامها المسلمون ، فى مجتمع إسلامى . . حكومة تأخذ من الإسلام بقدر ما فى نفوس المسلمين منه . . من كثير أو قليل !

وإذاً فهى ليست مبدأ من مبادئ الإسلام ، ولا شريعةً من شرائعه ، حتى إذ تعثرت فى الحياة . . قيل : هذا مبدأ من مبادئ الإسلام قد هَوى ، وهذه شريعة من شرائعه قد عثرت ! وكلا ، ثم كلا . . !

وكذلك «الخليفة» إنه لا يعدو — فى حقيقته ، وفى نظر الإسلام — أن يكون حاكما من حكام المسلمين . وهو مطالب بحكم الإسلام،وفى مجتمع المسلمين أن يستقيم على الإسلام ، وأن يحكم بما قضى به الإسلام ، فإن سمع وأطاع ، وعمل ، فقد اهتدى ، ورشد ، وكان عند الله من المحسنين .. وإن ضَلّ ، وغوَى واستبدّ ، وظلم . . فما على الإسلام منه شئ . . وحسابه بعد ذلك على الله ، ومع الناس !

ومع هذا فدعوتنا إلى الخلافة ليست استدعاءً لها فى أشكالها ، ومظاهرها ، وإنما ندعو إليها باعتبار واحد ، هو كل غايتنا من هذا البحث ، وهو أن تقوم دولة الإسلام من جديد .. دولة موحّدة ، تحت حكم واحد ، وتحت راية واحدة .. سواء أكانت راية « الخلافة » أو غيرها ، وسواء أحمل الحاكم الذى يختاره المسلمون لهذه الدولة لقب « خليفة » أو غير خليفة . . إذ ليس اسم « الخلافة » و « الخليفة » مما يعنينا فى شىء أبدا .. وإنما الذى ندعو إليه ، ونتمنى على الأيام تحقيقه هو قيام الوحدة الإسلامية ، والدولة الإسلامية .. تحت أى اسم يختاره المسلمون ، وتحت أى نظام من أنظمة الحكم يرونه ، ويرتضونه .

* * *

هذا ، وقد جعلنا هذا البحث فى كتابين :

الكتاب الأول : فى نشأة المجتمع الإنسانى ، وتطوره ، وهو أشبه بمقدمة كاشفة ، لموضوع « الخلافة والإمامة » . . ويضم هذا الكتاب أربعة أبواب ، ومدخلاً إليها . .

وقد تحدثنا فى هذه الأبواب عن دواعى الاجتماع الإنسانى ، وآراء الفلاسفة وعلماء الاجتماع فيها ، وعن نظرية « العقد الاجتماعى » التى يقوم عليها كيان المجتمعات الإنسانية ، كما تحدثنا عن الحكم والحكومة ، والصلة التى تربط بين الحاكم والمحكومين ، والسلطة التى فى يد الحاكم ، ومن أين جاءت إليه؟.. وتحدثنا كذلك عن الملكية والتملك ، وعن دواعى الملكية وآثارها فى الحياة ، وعن الشيوعية ، وما بينها وبين الملكية من صراع . . . كما تحدثنا عن القانون ووظيفته فى حياة المجتمع ، وما بين القانون الوضعى والقانون السماوى من تقارب أو تباعد ، ومن تجاوب أو تصادم .

أما الكتاب الثانى فقد جعلنا مباحثه خالصة لموضوع « الخلافة والإمامة » . بعد أن قدمنا لها بالكتاب الأول . .

ويضم هذا الكتاب ستة أبواب ، وتذييل ، خاتمة . .

فالباب الأول : فى « الخلافة والإمامة فى الإسلام » ، وفيه تحدثنا عن مولد الخلافة ، فى المجتمع الإسلامى ، وعن المجتمع الإسلامى : أهو مجتمع أرضى أم سماوى ، وعن مفهوم الإنسان فى الإسلام ، وعن المجتمع الإسلامى ومسئولية الفرد فيه . وتحدثنا كذلك عن التشريع الإسلامى فى المجال التطبيقى فى عصر النبوة ، وبعد هذا العصر . .

والباب الثانى عن « الخلاف فى الخلافة » . . وفيه تحدثنا عن الفراغ الهائل فى المجتمع الإسلامى بعد الرسول . . وعن الإسلام :أهو دين ، أو دنيا ، أو هو الأمران معاً . . وتحدثنا كذلك عن العنصر الإنسانى وحدوده فى الشريعة ، وعن الحكومة فى عهد النبي ، كذلك تحدثنا عن التجربة الأولى لاختيار أول حاكم للسلمين .

أما الباب الثالث فقد جعلنا موضوعه : « الخلافة والدين » ، وتحدثنا فيه عن وجه الحكومة التى أقامها أبو بكر ، وعن لقب « الخليفة » وما وراءه ، وعن « الخلافه » أهى خطة دينية أم مدنية وآراء علماء المسلمين فى هذا .

« وفى الباب الرابع » تحدثنا عن « الخلافة والحياة » . . وفرقنا بين الخلافة الراشدة التى أقامها الخلفاء الراشدون الأربعة ، والخلافة التى جاءت بعدها .

« وفى الباب الخامس » تحدثنا عن « البيعة » وطبيعة هذا النظام فى اختيار الحاكم ، ووضع هذا النظام بين أنظمة الحكم المعاصرة ..

أما الفصل السادس والأخير فقد جعلنا موضوعه « الحكم والحكومة فى الإسلام» . . وتحدثنا فيه عن الدين والدولة . . وعن المجتمع الإسلامى ،وهل هو فى حاجه إلى الخلافة ؟ وعن الخلافة وهل يمكن أن تقوم مرة ثانية فى المجتمع الإسلامى .. كما تحدثنا عن الوحدة العربية والوحدة الإسلامية ، وأيهما أقرب إلى التحقيق فى هذه الأيام .

وأما التذييل فكان مـــدار بحثنا فيه عن رأى « الشيعة » ومقولاتهم فى الإمامة، ومعتقداتهم فى الأئمة . . وقد عرضنا هذه الآراء ، وتلك المعتقدات

على كتاب الله وسنة رسوله ، وعلى العقل ، والواقع . . وانتهينا من ذلك كله إلى الرأى الذى نرضى عنه ونطمئن إليه .

وأما الخاتمة فقد جعلناها عن « شوقى والخلافة » إذ كان لأمير الشعراء دور كبير فى تسجيل الأحداث التى سبقت وأعقبت سقوط الخلافة العثمانية .

* * *

أما بعد . .

فإن هذا « البحث » — فى تقديرنا — ليس إلا « بطاقة » دعوة إلى الوحدة الإسلامية، فى مجاليها : الإسلامى، والعربى .. نقدمها إلى كل مسلم، وإلى كل عربى.. فإن وجدت فى المجتمع الإسلامى العربى اليوم آذاناً واعية تصيخ لها ، وقلوبا سليمة تحتفى بها ، وعزائم صادقة تعمل على تحقيقها— كان فى ذلك مايقيم نفسى على يقين من أن الله سبحانه وتعالى قد بارك على هذا العمل الذى عملت ، وجزى خير الجزاء على ذلك الجهد الذى بذلت ، إذ أدركت يوم حصاده ، وطعمت جَنَى ثمره . . .

ولن أيأس من روح الله، ولن يسوءظنى بعُقْبىَ هذه الدعوة التى أدعو إليها؛ إن أنا لم أدرك يومها الذى انتظره . فإن الوحدة الإسلامية آتية لاريب فيها . إن لم تكن اليوم فغداً ، وإن غدا لناظره قريب .

« وعلى الله قصد السبيل » وبعونه تتم الصالحات . .

« سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين »

« والحمد لله رب العالمين »

المؤلف

القاهرة : ١٢ المحرم سنة ١٣٨٣
٧ يونيه سنة ١٩٦٣

الكتاب الأوّل

المجتمع الإنساني
نشأته .. وتطوّره

مدخل إلى البحث

كان يمكن أن ندع هذا البحث فى « نشأة المجتمع الإنسانى » ، لنستقبل البحث فى أنظمة الحكم التى قامت فى هذا المجتمع الإنسانى ، وفى الخلافة الإسلامية ، التى هى نظام من تلك الأنظمة ، والتى هى موضوع هذا الكتاب !

ولنا على هذا — أن أنظمة الحكم — ومنها الخلافة الإسلامية لم تصحب المجتمع الإنسانى منذ نشأته ، أو بمعنى أدق أنها لم تصحب الحياة الإنسانية فى أيامها الأولى ، وإنما التقت بهذه المجتمعات ، أو ظهرت فيها بعد أن تحددت معالم المجتمعات الإنسانية ، ووضحت صورتها ، واستبان وجهها !

فأى نظام حكومى بالمعنى المفهوم للحكم والحكومة ، إنما جاء بعد أن قطعت الإنسانية أشواطاً طويلة فى الحياة ، وبعد أن تنقلت فى أطوار وأحوال انتهت بها إلى حال التقت عندها بروافد كثيرة من الأسر والقبائل ، فتخلق منها مايعرف بالجسد الاجتماعى : الذى تخلق منه الجسد السياسى ، وما يشتمل عليه كيانه من حكم وحكومة .

ولكن هذا كله لا نراه مغنياً عن التعرف على المداخل الأولى التى دخل بها المجتمع الإنسانى إلى الحياة ، والدواعى التى دعت الأفراد إلى أن يكونوا فى مجتمع ، وأن ينضموا إلى جماعات ، يربطون حياتهم بها ، ويجعلون مصيرهم إليها . . كما أن ذلك لا يصرفنا عن النظر إلى الإنسان الفرد فى وضعه الجديد باعتباره جزءاً من كل بعد أن كان كلاً فى كلّ . . ماذا ربح الفرد وماذا خسر فى هذه العملية ؟ وهل كان اجتماعه إلى الجماعة عن رضى واختيار ، أم كان عن قهر وغلب ؟ وهل يستطيع الفرد أن يحل نفسه من هذا الرباط الذى ربطه بالجماعة ، وأن يأخذ نفسه ووجوده منها ليعيش فى وجوده ومع نفسه ؟

إن البحث فى هذه المسائل ، والإجابة على تلك الأسئلة يكشف لنا عن طبيعة الجماعات ، وعن التيارات المتدافعة فيها ، وعن القوى العاملة على الهدم

والبناء فى كيانها . . كما يطلعنا على الفرد وعلى التغيرات النفسية والعقلية التى مست وجوده بعد أن صار عضواً فى جسد هذا المجتمع ، وجزءاً من ضميره ، وذرة من بناء عقله !

ذلك أن الحكومة — أى حكومة — إنما تقوم على سياسة مجتمع ، وتدبير شئونه ، وتنظيم العلاقات بين أفراده ، وأنها إنما تتعامل مع المجتمع لا على أنه كيان مغلق مصمت ، وإنما باعتباره وحدة إنسانية ، مؤلفة من وحدات ، كل إنسان فيها يمثل عالماً صغيراً ، له حقوق وعليه واجبات . . ثم له بعد هذا ، أو قبل هذا ، مشاعره ، ومنازعه ، وآراؤه . . التى يتأثر بها المجتمع . كما يتأثر هو بالمشاعر والمنازع والآراء التى يعيش بها كل فرد فى المجتمع الذى يعيش هو فيه .

من أجل هذا لم يكن ذلك الذى نصنعه من التقديم لدراسة أنظمة الحكم بهذه الوقفات القصيرة مع المجتمع الإنسانى ، وعناصر وجوده ، ودواعى نشأته وتطوره — نقول لم يكن هذا الصنيع الذى نصنعه فى هذا الشأن بالأمر الدخيل على بحثنا فى « الخلافة الإسلامية » وفى « أنظمة الحكم التى تشاكلها أو تخالفها » بل إنه — كما نراه — فى الصميم منها ، لا يستقيم النظر فيها ، والفهم لها ، إلا إذا كانت مسبوقة بالنظر إليه ، والفهم له .

فالحكم — ومنه حكومة الخلافة — نظام فى الحياة ، وتنظيم لشئون مجتمع ، ولا وجود لهذا إذا لم يكن هناك المجتمع الذى يُحكم ، ويُنظم .

إن المجتمع هو الحقل الذى تغرس فيه الحكومة ما تزرع من خير أو شر . وهى التى تحصد ثمر هذا الذى تزرع . . وإنه لا زرع ولا حصاد إذا لم يكن ثمة مجتمع !

وإنه لكى يتضح عمل الحكومة ، ولكى يعرف جهدها ينبغى أن تعرف جيداً طبيعة التربة التى كانت مجال جهدها ، ومغارس زرعها ، ومنابت حصيدها ، وما تشتمل عليه هذه التربة من عناصر القوة أو الضعف . . فلقد يزرع الزارع

فى أرض سَبخة ميتة، لاتمسك ماءً ولانباتا، وقد بذل ما يبذل من جهد ثم لايجنى فى نهاية الأمر ثمرا، ولا يحصد حبًّا.. ولو أنه بذل هذا الجهد فى أرض طيبة لامتلأت يداه بالطيب الموفور من الثمر، وبالكريم الكثير من الحب!.

فالتعرف على الطبيعة الإنسانية، وعلى وجود الإنسان فى حال انفراده واجتماعه، وعلى التغيرات التى تقع للفرد فى داخل الجماعة، وما يضاف إلى وجوده حينذاك وما يذهب منه.. كل ذلك معين على تلك الدراسة التى نعرض لها فى هذا الكتاب، عن الخلافة وأنظمة الحكم، فذلك مما يكشف لنا عن الصلة بين الحاكين والمحكومين، وعن الخلافة الإسلامية، ومكانها بين ماعرف فى المجتمعات من ألوان الحكومات، وأنظمة الحكم..

* * *

وإذن فليأذن لنا القارىء بعد هذا أن نلتقى بموضوعنا «نشأة المجتمع الإنسانى» الذى أفردنا له هذا البحث، وجعلناه مقدمة بين يدى موضوع هذا الكتاب. وليسمح لنا — مقدما — أن نبسط القول فيه بعض البسط. ثم لعله يحمل نفسه معنا على الصبر، فلا يطوى هذه الصفحات فى عجلة، ولا يغمض عينيه عنها ليفتحهما على الأبواب والفصول التى تتحدث حديثا مباشراً عن الحكم والحكومة، وعن الخلافة الإسلامية، حيث يذهب عجلاً إلى مايشير إليه عنوان هذا الكتاب..

وكلا.. فإن لهذه الصفحات حقها على من هيأ نفسه للنظر فى موضوعنا هذا. الذى جعلناه عنوانا لهذا الكتاب.. وحُسبان هذه الصفحات من نافلة القول فى هذا الموضوع لاترضاه هى نفسها، ولاترضاه نحن لها. ولعل القارىء يحمد صحبتها له حين تصافحه مصافحة وداع. وهو يستقبل موضوع هذا الكتاب!!

الباب الأول

تاريخ الإنسان .. ومتى بدأ؟

يحدث الأستاذ « ول ديورانت » صاحب الموسوعة العالمية: « قصة الحضارة » فيحدد عمر التاريخ البشرى المكتوب بما لا يقل عن ستة آلاف سنة حتى الآن [1]

وسواء أكان هـذا التقدير مبنياً على شواهد صحيحة ووقائع ثابتة ، وسواء أكان هذا الرقم يزيد أو ينقص ألفاً أو بضعة آلاف من السنين . . سواء هذا أم ذاك فإن تلك الآلاف من السنين التى سجل فيها تاريخ الإنسانية لاتعد شيئا مذكوراً فى عمر الإنسانية ، ولا تمثل إلا دوراً قصيراً من أدوار الإنسان على هذا الكوكب الأرضى . .

وعلى هذا ، فإن الحديث عن التاريخ الاجتماعى للإنسان لا يحكى من تلك القصة إلا بعض الفصول التى مثلت على مسرح الحياة . . تلك الفصول التى استطاعت وسائل النحت ، والنقش ، والرسم والكتابة أن تحتفظ بشىء منها . . أما تلك الفصول الطويلة التى مثلت من قبل أن يعثر الإنسان على هذه الوسائل التى تسجل آثاره وتحفظها من البلى فقد ذهبت ، كما ذهب أصحابها .

ومع هذا ، فإن مسرح الحياة الرحيب قد ظل أميناً على قصة الإنسان كلها .. فمازال فى الحياة نماذج بشرية حية تعيش فى هذا العصر — وفى كل عصر — وهى لاتزال تخطو فى الحياة خطوات الإنسان الأول ، وتحيا حياته . . وبالنظر فى هـذه المجتمعات ، وفى ملاحظة نشاطها الإنسانى فى مجالات الحياة استطاع المؤرخون أن يملئوا معظم هـــذا الفراغ الذى عجز التاريخ عن الإمساك به ،

---

(١) قصة الحضارة : الجزء الأول من المجلد الأول ص ٩

ورصده فى بجلاته ، فرأوا فى شواهد الحال الإنسانَ الأول ، فى طفولته ، . . يعيش مع الحيوان ، بين الأدغال ، وفى الكهوف ، عاريا من كل مظهر من مظاهر الإنسانية فى أدنى منازلها . .

الأسرة أول نواة للمجتمع :

ويكاد ينعقد الإجماع بين علماء الحياة على أن الأسرة هى أول لبنة فى بناء المجتمع الإنسانى، كما أن الإجماع يكاد ينعقد بينهم أيضاً على أن هذا المجتمع الصغير — مجتمع الأسرة — إنما قام بدعوة غريزية ، طبيعية فى الإنسان ، تلك الغريزة المقدسة فى كيانه ، بل فى كيان أكثر أنواع الحيوان ! فالنبوّة ، والأبوة ، والأمومة ، والزوجية .. قوى طبيعية ، تملأ كيان الكائن الحىّ ، ومن شأنها أن ينجذب بعضها إلى بعض . . من غير احتكام إلى عقل ، أو اعتماد على إرادة ! وسنعود إلى شرح هذه الظاهرة الفطرية فى الأحياء ، بعد قليل !

القبيلة بعد الأسرة :

ثم كانت القبيلة هى المجتمع الإنسانى التالى لمجتمع الأسرة . . حيث يجتمع أكثر من أسرة تنتمى إلى جد واحد ، تعرف جميعها نسبتها إليه ، وعدد الآباء التى تصلها به .

والقبيلة — فى حقيقتها — ليست إلا أسرة كبيرة ، وهى من أجل هذا تشبه الأسرة شبها قويا فى أنها مجتمع فطرى ، يجتمع على دعوة العاطفة ، ونداء الغريزة . .

غير أنه قد تتسع دائرة القبيلة ، ويكثر عدد أفرادها ، وتمتد وتطول جدور أصولها ، فلا تكون الدوافع الأولى — دوافع الغريرة — هى التى تمسك نظام هذا المجتمع الكثير العدد ، بل يقوم إلى جانب الغريزة عقل وإرادة ، يشدّان من رابطة هذا المجتمع ، ويمسكان به .

فالعنصر العقلى الإرادى هو الذى جمع هذا المجتمع الكبير وحفظ وحدته ، بعد أن كانت الغريزة هى التى أقامت بناءه الأول ..

فليست إذن عواطف القرابة والدم ،هي التي تجمع هذا العدد الكبير في القبيلة الكبيرة ، بل هناك دوافع أخرى ساقت الأفراد إلى الدخول في هذه الدائرة ، هي دوافع المصلحة المتبادلة ، والخير المشترك . الذي يعود عليهم جميعاً من هذا الاجتماع . . وأقلّ مايتحقق لهم في ظل هذا الاجتماع هو الأمن ، والسلامة والعزة ، في ظل هذا العدد العديد ، في الحياة القَبَلية ، التي تقوم القوة فيها مقام القانون ! .

هذا ، ويذهب بعض الباحثين إلى اعتبار القبيلة — لا الأسرة — هي أول نظام اجتماعي إنساني ، باعتبار أن الأسرة ليست نظاما اجتماعيا ، وإنما هي وليدة الفطرة والغريزة ، وليست مستولدة من تفكير ولا عن إرادة ، كما هو الشأن في القبيلة المحدودة العدد ، التي يظهر فيها ـ أي في تكوينها ـ عنصر العقل والإرادة

يقول « ول ديورانت » :

« كانت القبيلة،أول صورة للنظام الاجتماعي الدائم ، ونقصد بالقبيلة جماعة من أسرات ترتبط بأواصر القربىَ ، وتشغل بقعة من الأرض على سبيل الشيوع . ولها « طوطم » [1] مشترك ؛ وتحكمها حكومة بعينها ؛ وفق قوانين معينة .. !

« فإذا ما اتحدت عدة قبائل تحت رئيس واحد تكونت بذلك العشيرة ، فالعشيرة هي الخطوة الثانية نحو تكوين الدولة . .

« لكن التطور في هذه السبيل كان بطيئاً . إذ كان كثير من الجماعات بغير رؤساء ، وجماعات أخرى كثيرة لم تقبل نظام الرياسة — فيما نظن — إلا في حالة الحرب » [2] .

والذي يذهب إليه «ديورانت» هنا من أن الاجتماع القَبَلي أو العَشَري قد يقوم تحت سلطان القهر والغلب . . يعني أن هذا ليس هو النظام القبلي المستقر ، الذي يقوم على روابط القرابة ، وتلاحم النسب .. وإنما هو حال من

---

(١) الطوطم : معبود القبيلة الذي تتعلق به عواطفها الدينية .
(٢) قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الأول ص ٤٣

الحالات التى تتهيأ فيها الحياة لاستقبال دولة جديدة ، تندمج فيها مجموعات من القبائل أو العشائر تحت سلطان واحد ، نتيجة للقوة والقهر ، وهذا ماقامت عليه معظم الأمم ، كما سنرى ذلك فيما بعد .

* * *

الشعب والأمة :

الشعب أو الأمة فى الاصطلاح المعروف مجموعة كثيرة العدد من الناس ، تجمع بينها أواصر مختلفة : من الدم ، واللغة ، والعقيدة ، والمصالح المشتركة فى الرقعة التى تحتلها من الأرض ، وتعدّها حدوداً لها ، وحتّى لوطنها .

ووجود الشعب أو الأمة بهذا المعنى إنما يحدث فى مرحلة متأخرة من الحياة القَبَلية ، وبعد محاولات وتجارب كثيرة من التحام وانفصال بين القبائل . . تجىء فى صور من التحالف الموقوت أو الدائم ، أو فى أعقاب حروب بين مجموعات من القبائل ، تنتهى بانتصار قبيلة منها انتصاراً حاسماً ، يمكّن لها من وضع يدها على مواطن المقاومة والمغالبة فى تلك القبائل ، وفرض سيادتها عليها .

« فالدولة مرحلة متأخرة فى سُلّم التطور . لم تكد تظهر قبل عهد التاريخ المدوّن ، لأن قيام الدولة يقتضى تغيرا فى مبدأ التنظيم الاجتماعى من أساسه .. فيكون المبدأ هو أن الحكم لمن يسيطر ، بدل أن يكون لذوى القربى ، كما كانت القاعدة السائدة فى المجتمعات البدائية » (١)

دواعى الاجتماع الإنسانى :

ويظهر مما سبق أن دواعى الاجتماع الإنسانى تختلف باختلاف كل صورة من صور الاجتماع . . الأسرى ، أو القبلى ، أو الشعبى .

ففى مجتمع الأسرة كانت — ولا تزال — دواعى هذا الاجتماع فطرية غريزية ، ينزع الإنسان إليه بحيوانيته قبل أن تدعوه إليه إنسانيته . . فليس

---

(١) قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الأول ص ٤٦

للإنسان فى هذا الاجتماع اختيار ، وليس له انفكاك عنه .. إنه مقهور عليه بقوة الغريزة الحيوانية الغالبة عليه فى هذا المجتمع .

أما الاجتماع القَبَلى أو العَشَرى ، فإن الإنسان فى هذا الاجتماع يكون أكثر من حيوان .. إنه إنسان وحيوان معا .. تجمعه إلى قبيلته غريزة حيوانية هى التى جمعته إلى أسرته ، وتمسكه بها مصالح مشتركة ، ومنافع متبادلة لا يستطيع تحقيقها إذا كان وحده ، أو فى محيط الأسرة ..

وهو بهذا الإحساس المزدوج يعيش فى قبيلته .. ينسى نفسه ، ويَذْهل عن وجوده إذا تحرك فيه الحيوان الذى يشدّه إلى القبيلة ، ويضمه إليها .. فلا يذكر حينذاك إلا أنه قطعة من هذا الجسد ، وعضو من أعضائه ! وبهذا الإحساس نطق الشاعر العربى القَبَلى ، معبرا عن هذا الكيان الجسدى الواحد ، الذى تعيش فيه القبيلة .. يقول شاعرهم هذا .

قومٌ إذا الشرّ أبدى ناجذَيْه لهم طاروا إليه زَرَافاتٍ ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يَنْدبهم فى النائبات على ما قال برهانا !

وقد يشرق هذا الإحساس الحيوانى بلمعة من لمعات الإنسانية المندسّة فى كيان الإنسان ، فيرى الأمور بعينى حيوانيته وإنسانيته معاً ، كما ترى ذلك فى قول الشاعر العربى البدوى ، وقد قتل قومُه أخاه . يقول :

قوْمى هم قتلوا أميْم . . أخِى فإذا رميت يصيبنى سهْمى
فلئن عفوت لأعفونْ جَلَلاً ولئن رميت لأوهِنَنْ عظمى

أما رأس هذا المجتمع ، وهو « شيخ القبيلة » فإن الإحساس الذى يغلب عليه غالبا هو إحساس عاقل رشيد ، حكيم ، يزن الأمور بميزان السياسة ، وفنون الحكم ! . . إنه يمثل العقل فى هذا المجتمع !

يقول شيخ من شيوخ هذه القبائل فيما بينه وبين أفراد قبيلته .. من أقربين وأبعدين :

وإنّ الذى بينى وبين بنى أبى … وبين بنى عمّى لمختلفٌ جدًّا
إذا أكلوا لحمى وفرْتُ لحومهم … وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
وإن زجروا طيرا بنحس تمرّ بى … زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا
ولا أحمــــل الحقد القديم عليهمُ … وليس رئيس القوْم من يحمل الحقدا

تلك هى الأحاسيس التى يقوم عليها مجتمع القبيلة . . أحاسيس حيوانية يجدها المرء فى وشائج الدم التى تجرى فى عروقه ، وتصل بينه وبين أفراد قبيلته ، فرداً فرداً . . وأحاسيس إنسانية يشعر فيها المرء بذاتيته كإنسان له وجوده ، وله سلطانه على مقدرات حياته ، وعلى الأسلوب الذى يهيء له التنفس فى جو آماله وأحلامه .

فإذا ما انتقلنا إلى المجتمع البشرى فى صورة شعب أو أمة ، رأينا الملامح الواضحة للإنسان . رأينا مشاعره ، وأفكاره ، ونظرته إلى نفسه ، وإلى الحياة من حوله .. قد تعقدت كثيراً ، واختلط بعضها ببعض ، وركب الإنسانَ منها حيرة وقلق ، فلا يكاد يعرف طريقه فى وسط هذا الموكب المضطرب المتماوج ، ولا يكاد يدرى لمن يعطى وجوده وولاءه فى هذا المجتمع : أيكون وجوده كله لنفسه يصرف إليها ولاءه ، ويحبس عليها آماله وأحلامه ؟ وأين هى وقد غرقت فى هذا البحر العريض الطويل ؟ أم يكون ولاءه لأسرته ؟ وأين هى أيضاً وقد ضمها هذا البحر اللجى فى متلاطم عبابه ؟ أم يعطى وجوده هذا للمجتمع الذى يعيش فيه ؟ وأين يقع هذا الوجود الضئيل فى ذلك العباب الزخار ؟ وما جدوى قطرة ماء فى هذا البحر المحيط ؟

مشكلة مزمنة :

ومن هنا تبدأ الإنسانية فى صراعها الدائم الخالد الذى لم ينته ولن ينتهى أبداً . .

ومن هنا أيضاً تبدأ يقظة الإنسان . وتتجمع قواه ، وتظهر كوامن ملكاته ،

وتبرق لمعات ذكائه ، حين يدخل فى هذا الصراع . ويشترك فيه . وتستدعيه الحال أن يطلب السلامة لنفسه ، والحفاظ على وجوده !

فمنذ أن يقوم المجتمع الإنسانى — أى مجتمع — على صورة أمة أو شعب ، تشهد الحياة على مسرح الوجود بحراً ثائراً موارا ، تتصاخب أمواجه ، وتتدافع تياراته ، وتتراكم فوق سمائه ظلمات من الضباب والغيام .

فهذا الشعب الذى اجتمع إليه هذا العدد العديد من الناس الذين وهت بينهم أواصر القرابة ، وبهتت فيهم صلات الدم ، ولحمة النسب ، التى كانت تمسك بهم وتشدّهم فى قوة طاغية إلى مجتمع الأسرة أو القبيلة — هؤلاء الناس — وقد انقطعت بينهم هـذه الروابط أو كادت — لم يعد يمسكهم فى هذا المجتمع إلا مصلحتهم الخاصة، وإلا منفعتهم الذاتية التى يقدّرون الحصول عليها فى ظل هذا الاجتماع . . وهى مصالح متدافعة ، ومنافع متباعدة ، لا يلتقى عندها الناس ؛ ولا يتصالحون عليها إلا فى ظل سلطان يضع كل إنسان فى موضعه ، ويقف به عند حدّه .

وأين تلك القوة التى تمسك هذه العواصف المزمجرة فى النفوس ؟ وأين ذلك السلطان الذى يحبس هذه الأهواء المتدافعة فى الصدور ؟

ومن للسفينة المضطربة وسط الأمواج المتلاطمة ، والعواصف الثائرة بمن يمسك زمامها ، ويقيم قلوعها ، ويدفع بها إلى شطـآن الأمن والسلامة ؟

ولـكن مالنا ولهذه المشـكلة الآن ؟ لقد انتقلنا إليها انتقالا خاطفاً ، وكأننا فى صاروخ منطلق ، وصل إلى هدفه دون أن يعرّج على شىء أو يلتفت إلى شىء فى طريقه ، ودون أن يعرف من طبيعة الطريق الذى سلـكه شيئاً !

وغير هذا أولى بنا فى هذه المرحلة من البحث !

فإن فى طريقنا إلى هذه المشكلة — مشكلة الحـكم — التى أسرعنا إليها إسراعاً ، مواقف كثيرة يجب أن نقف عندها ، وننظر فيها ، ونلتقط منها ماقد يكون فيه نفع فى فهم طبيعة هذه المشكلة ، ومعرفة العناصر التى تشكلت منها .

— لماذا يجتمع الناس فى صورة أمة أو شعب ؟

— وماذا يكسب الإنسان أو يخسر فى انضوائه إلى هذا المجتمع ؟

— وكيف يوفق الإنسان بين ولائه لنفسه وولائه للمجتمع الذى يعيش فيه ؟

— ومن أين تنبع القوة أو القوى التى تنظم علاقات هذا المجتمع وتحفظ نظامه ؟

تلك أسئلة ينبغى أن نقف عندها . وننظر فيها ، فإذا كان ذلك أمكننا أن نجاوزها إلى ملاقاة المشكلة التى وقفنا إزاءها من قبل . .

لماذا يجتمع الناس فى صورة أمة أو شعب :

اختلف علماء الاجتماع فى الإجابة على هذا السؤال اختلافاً كبيراً متباعداً.

(ا) هل الإنسان اجتماعى بطبعه ؟

فبينا يرى بعضهم أن داعية هذا الاجتماع هى الفطرة التى فى كيان الإنسان ذاته ، إذ هو « اجتماعى » بطبعه ،لا يعيش إلا فى مجتمع ، ولا تطيب له الحياة إلا مع الناس ، من حيث هم ناس ، غير مشدود إلى ذلك بعاطفة دم ، أو لحمة نسب . . وإنما هو إنسان ، وإنسانيته هى بعض الناس ، ولا يستغنى بعض الشىء بحال عن كله — بينما يرى بعض العلماء هذا الرأى إذ يقف منه فريق آخر موقفاً مبايناً ، معارضاً . .

وقد كان الفيلسوف « أرسطو » يقول بهذا الرأى ، ويقيم عليه آراءه الفلسفيةفى الإنسان ، وفى المجتمع الإنسانى ، وفى أنظمة الحكم التى تقوم فى هذا المجتمع ، وفى المدن الفاضلة التى تتخلق منه .

رأى « أرسطو » :

يقول (أرسطو) فى كتابه : السياسة :

« إن الدولة هى من عمل الطبع ، وإن الإنسان بالطبع كائن اجتماعى .. وإن

الذى يبقى متوحشاً — بحكم النظام ، لا بحكم المصادفة — هو على التحقيق إنسان ساقط ، أو إنسان أسمى من النوع الإنسانى !![1]»

إن « أرسطو » لا يرضى للإنسان أن يتحلل من رابطة المجتمع أبداً بمحض اختياره ، وأن الإنسان الذى يذهب هذا المذهب بمحض إرادته ليس إنساناً من الناس .. فهو إما فى منزلة دون منزلة الناس ، أو فى درجة فوق درجتهم .. أما أن يكون إنساناً ، ولا يعيش فى مجتمع فذلك لن يكون !

رأى ابن خلدون :

ومن أنصار هذا الرأى الفيلسوف العربى « ابن خلدون » الذى كان له فى الاجتماع نظرات عميقة صادقة . . يقول ابن خلدون :

« إن الاجتماع الإنسانى ضرورى ، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم :

« إن الإنسان مدنى بالطبع ، أى لا بد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم ، وهو معنى العمران » .

ثم يشرح « ابن خلدون » هذه النظرية التى ينقلها عن الحكماء — كما يقول — فيقول » :

« وبيانه : أن الله خلق الإنسان وركبه على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء ، وهداه إلى التماسه بفطرته ، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله .

« إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجاته من ذلك الغذاء ، غير موفية بمادة حياته .

« ولو فرضنا منه — أى من الغذاء — أقل ما يمكن فرضه ، وهو قوت يوم من الحنطة مثلا ، فلا يحصل إلا بعلاج كثير . . من الطحن ، والعجن والطبخ . . وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات ، لا تتم إلا بصناعات متعددة . . من حداد ، ونجار ، وفاخورى !

---

(١) كتاب « السياسة » لأرسطو — ترجمة أحمد لطفى السيد ص٦٩

وهَبْ أنه يأكله من غير علاج ، فهو أيضاً محتاج فى تحصيله حبًّا إلى أعمال أخرى أكثر من هذه . . من الزراعة ، والحصاد ، والدراس الذى يخرج الحب من غلاف السنبل . . ويحتاج كل واحد من هذه إلى آلات متعددة ، وصنائع كثيرة أكثر من الأولى . . »

ثم يخلص ابن خلدون من هذا المثل الذى ضربه لحاجة محدودة من حاجات الإنسان ، وهى لقمة العيش — يخلص من هذا إلى تلك النتيجة : إذ يقول :

« فلا بد من اجتماع القُدَر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم ، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف »

ثم يعرض ابن خلدون بعد هذا داعية أخرى من دواعى اجتماع الإنسان إلى الجماعة ، وهى داعية الدفاع عن النفس . . فيقول :

« وكذلك يحتاج كل واحد أيضاً فى الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه ، لأن الله سبحانه وتعالى ركب الطباع فى الحيوانات كلها ، وقسم القُدَر بينها ، وجعل حظوظ كثير من الحيوانات العُجم من القدرة أكمل من حظ الإنسان . . . ولما كان العدوان طبيعيا فى الحيوان جعل الله لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعة ما يصل إليه من عادية غيره ، وجعل للإنسان عوضاً عن ذلك كله الفكر واليد . فاليد مهيأة للصنائع بخدمة الفكر . . . »

ثم ينتهى ابن خلدون من هذا إلى تقرير هذه الحقيقة التى يدور حولها ، فيقول : « وإذا لم يكن له — أى للإنسان — هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولاغذاء ، ولاتتم حياته . . لما ركبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء فى حياته ، ولما يحصل له أيضا من دفاع عن نفسه ، لفقدان السلاح ، فيكون فريسة للحيوانات ، ويعاجله الهلاك عن مدى حياته ، ويبطل نوع البشر !

« وإذا كان التعاون قد حصَّل له القوت للغذاء ، والسلاح للمدافعة ، وتمت حكمة الله تعالى فى بقائه وحفظ نوعه — فإن هذا الإجتماع ضرورى للنوع الإنسانى .

وإلا لم يكمل وجودهم ، وماأراده الله من اعتمار العالم بهم ، واستخلافهم إياه . . وهذا هو معنى العمران »[1] .

فالذى يريد أن يقرره ابن خلدون هنا هو أن الدوافع الفطرية المستنيرة هى التى دفعت بالإنسان وأغرته بالدخول فى حظيرة هذا المجتمع الإنسانى الكبير ، الذى نسميه أمة أو شعباً .

رأى « ول ديورانت » :

وإلى هذا الرأى يذهب — فى شىء من التحفظ — العالم الاجتماعى المعاصر « ول ديورانت » فى موسوعته « قصة الحضارة » . . فيقول :

كان اتحاد الناس فى تحصيلهم للقوت مما أعان على قيام الدولة »[2]

(ب) هل القوة هى التى خلقت الشعوب والأمم ؟ :

هذا الرأى يميل إليه معظم علماء الاجتماع المعاصرين . . متخذين شواهدهم على ذلك من طبيعة الإنسان نفسه ، ومن واقع التاريخ لنشأة الأمم والشعوب . .

رأى « ديورانت » أيضا :

وقد نقلنا من قبل رأياً للعالم الكبير « ول ديورانت » يقرر فيه أن داعية الإنسان إلى الاجتماع كانت رغبته فى تحصيل القوت ، على نحو ما يذهب إليه « ابن خلدون »

ولكن « ديورانت » حين ينظر إلى هذا الأمر من زاوية أخرى نراه يقرر فى صراحة صريحة أن داعية اجتماع الناس فى صورة أمة أو شعب لم تكن عن طبيعة ، وإنما كانت القوة هى العامل الأول فى خلق الاجتماع الذى انضموا إليه ، وأن ذلك لم يكن عن إرادتهم ومحض اختيارهم . . يقول :

« ليس الإنسان حيوانا سياسيا عن رضى وطواعية ، فالرجل لا يتحد مع زملائه مدفوعا برغبته ، بقدر ما يتحد معهم بحكم العادة والتقليد ، والظروف القاهرة . .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤١ وما بعدها .

(٢) قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الأول ص ١٢

« فهو لا يحبّ المجتمع بقدر ما يخشى العزلة ، ولذلك تراه يتحد مع غيره من الناس ؛ لأن اعتزاله يعرضه للخطر ، ولأن ثمة أشياء كثيرة يمكن أن يجوّدَ أداؤها بالتعاون أكثر مما يُجوَّد بالانفراد . .

« وعلى ذلك فالرجل من الناس وحتى فى صميمه : يتصدى للعالم كله تصدّى العدوّ لأعدائه بكل مايتطلب ذلك من بطولة ! .

« فلو جرت الأمور على ما يشتهى الرجل المتوسط لكان الأرجح ألا تقوم للناس قائمة . . بل إنك لتراه فى يومنا هذا يمقت الدولة مقتاً ، ولا يفرق بين الموت وجباية الضرائب ! ويتحرق شوقا إلى حكومة لا تحكم من أموره إلا أقلها . .

« ولو رأيته يطالب بزيادة القوانين فما ذلك إلا لأنه يعتقد أن جاره لا بدّ له من تلك القوانين ! ! أما هو إذا ترك لهواه فينزع إلى الفوضى التى لا يضبطها تفكير فلسفى . . ويظن أن القوانين — فيما يختص بحالته — زائدة ، لا حاجة إليها » (1) !

وأنت ترى أن « ديورانت » يغوص فى أعماق النفس الإنسانية هنا ، ويعثر على تلك الجذور العميقة التى تكمن فى كيان الإنسان تحت سلطان القانون ، ورقابة المجتمع — تلك الجذور التى تغذى — فى خفاء — ذاتية الإنسان وتحدثه — فى تخافت — عن وجوده الذاتى ، لتذكره دائما بنفسه ، وتحذره أن يذوب فى المجتمع ، أو يغرق فى أمواجه ، أو يحترق بأنفاسه !

على أن « ديورانت » يقرر فى صراحة أيضا أن الاجتماع البشرى ، وإن يكن قد قام على القوة والقهر فى أول أمره ، فإن ذلك قد كشف للإنسان عن حياة أفضل من حياة العزلة والوحدة ، وأنه . . وإن شرب هذا الدواء المرّ الذى كان

---

(1) قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الأول ص ٣٩

يتجرّعه أول أحواله مع الجامة ولايكاد يسيغه — فإنه سرعان ما يألف هذا الدواء ، ويصبح له عادة وإلفا . . ليس من العسير التخلي عنه ، والحياة من غيره !

يقول « ديورانت » :

« إن كل دولة تبدأ بالقهر . .

« لكن سَرْعان ما تصبح عادات الطاعة هي مضمون الضمير ، ثم سَرْعان مايهتز كل مواطن بشعور الولاء للعَلَمَ — علم الدولة .

« والمواطن فى ذلك على صواب . . فهما تكن بداية الدولة فسرعان ماتصبح دعامة لا غنى عنها للنظام »[١] .

رأى نيتشه :

بل وأكثر من هذا . . !

فإن الفيلسوف (نيتشه) يصوِّرَ فى سخرية لاذعة ممتزجة بالمرارة — المجتمع الإنسانى مجتمعا حيوانيا بكل مافى كلمة (حيوانى) من معنى . . وأن هذا المجتمع قد تسلطت فيه الوحوش الكاسرة المفترسة على الحيوانات الضعيفة ، فساقتها الى حظيرة أشبه بحظيرة الراعى الذى يضم إليها قطعانا من الغنم ، يشرب من لبنها، ويكتسى من صوفها ، ثم يذبحها آخر الأمر ليغتذى بلحمها !

يقول (نيتشه) :

« إن جماعة من الوحوش الكواسر .. شقراء البشرة !! جماعة من الغُزَاة السادة ، بكل مالها من أنظمة حربية ، وقوى منظمة ، تنقضّ بمخالبها المخيفة على طائفة كبيرة من الناس ، ربما فاقتها من حيث العدد إلى حد بعيد ، لكنها لم تتخذ بعد نظاما يحدّد أوضاعها . .

« ذلك هو أصل الدولة . . »[١]

---

(١) قصة الحضارة — الجزء الأول — المجلد الأول ص ٤٤

ولعل نيتشه ينظر هنا إلى الاستعمار، وما جنى على المجتمعات الإنسانية حين أذاب وجودها فى وجوده .. ولعله كان ينظر نظرة خاصة إلى الاستعمار الإنجليزى للهند .. جزيرة صغيرة .. تحتل قارة بأسرها!

ويقول « يستر وُورد »: تبدأ الدولة باعتبارها متخلفة عن النظام القبلى .. بأن يغزو جنس من الناس جنساً آخر.

رأى (أوبنهمر) :

ويقول « أوبنهمر »: إنك لترى أينما وجهت البصر قبيلة مقاتلة تعتدى على قبيلة أخرى أقل منها استعدادا للقتال .. ثم تستقر فى أرضها مكونة جماعة الأشراف فيها، ومؤسسة لها الدولة .. [1]

رأى (راتسنهوفر) :

ويقول (راتسنهوفر) العنف هو الأداة التى خلقت الدولة.

وكذلك يقول سمنر: إن الدولة نتيجة القوة، وهى تظل قائمة بسند القوة »[2]

هذان رأيان متناقضان فى نشأة الأمم والشعوب ..

رأى يقول: إن هذه النشأة قامت بدافع الغريزة والفطرة المركوزة فى الإنسان، والتى تدعوه فى قوة إلى أن يكون فى مجتمع ..

ورأى يقول: إن الإنسان وحشى بالطبع، وأنه لو ترك وشأنه لآثر العزلة، والبعد عن الناس .. وأنه ما انضوى إلى الناس إلا تحت سلطان القوة والقهر .. وأن أناسا من الناس قد أوتوا من القوة والذكاء ما جعلهم بالمكان الذى يخضعون فيه جماعات كثيرة من الناس لسلطانهم، بالقهر والقوة .. فذلك عندهم هو أصل الدولة.

---

(١) قصة الحضارة — الجزء الأول — المجلد الأول ص ٤
(٢) قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الأول ص ٤

حـ — نظرية العقد الاجتماعى :

وقد نظر كثير من الفلاسفة إلى الاجتماع البشرى نظرة أدق وأعمق من تلك النظرات المجردة ، فألبسوا هذه الظاهرة الاجتماعية رداء الفلسفة ، وأجروْها فى حلبة النظريات الفلسفية ، فبدت وكأنها حلقة من حلقات تلك السلسلة ، التى ينظم فيها الفلاسفة هذا الوجود كله !

نظرية « روسو » فى العقد الاجتماعى :

ويعتبر الكاتب الفرنسى الكبير « جان جاك روسو » أظهر من تصدَّوْا لبحث هذه الظاهرة الاجتماعية ، وجعلوا منها مذهباً يقوم على منطق الفلسفة وأدلتها .

إن « روسو » قد أبرز هذه الظاهرة ، ولفت الأنظار إليها بعد أن كانت تبدو فى دراسات الدارسين عَرَضاً ، وتجىء تبعاً لا أصلا . .

وقد ألف « روسو » كتابه « العقد الاجتماعى » وجعل أبوابه وفصوله لهذه النظرية وحدها .

وتقوم نظرية « العقد الاجتماعى » على أساس أن الاجتماع الذى يقع بين الناس . . فى صورة شعب أو أمة . إنما يقوم على تعاقد بين الأفراد . . كل فرد قد دخل مع أفراد مجتمعه كله فرداً فرداً فى عملية تعاقد ، وهذا التعاقد يقضى بأن يصبح الفرد جزءاً من هذا المجتمع ، أو بمعنى آخر يصبح عضواً فى هذا « الجسد الاجتماعى » كما يسميه « روسو » .

يقول « روسو » :

« إن عقد الاتحاد بين أفراد المجتمع — ينطوى على التزام متبادل بين المجموع والأفراد ، وأن كل فرد كأنما يتعاقد مع نفسه . . ويترتب عليه التزام مزدوج : بوصفه عضواً فى المجموع صاحب السيادة قِبَلَ الأفراد من المواطنين . . وبوصفه مواطناً عضواً فى الدولة قِبَلَ المجموع صاحب السيادة . . »[1]

---

(١) العقد الاجتماعى ص ٩٤

ثم يقول :

« بيد أننا لا نستطيع هنا أن نطبق قاعدة القانون المدنى التى بمقتضاها لا يترتب على المرء التزام بمقتضى تعاقده مع نفسه ، لأن هناك فارقا كبيراً بين واجب الإنسان نحو نفسه ، وواجبه نحو مجموع هو جزء منه » .

ويتضح من قول روسو هنا أمران :

أولهما : أن الفرد حين يبرم صيغة التعاقد بينه وبين مجتمعه يكون ذا صفتين :

الصفة الأولى : أنه فرد من أفراد هذا المجتمع ، له شخصيته ، وله ذاتيته .

والصفة الثانية : أن هذا الفرد عضو فى الجسد الذى تخلق من هذا المجتمع .

والفرد بالصفة الأولى يعقد عقداً ملزما ، لا يمكن أن يتحلل منه . . فهو بمقتضى هذا العقد عضو فى هذا المجتمع الذى تعاقد معه . . لا يملك أن يخرج منه . أو عليه ، بعد أن يتم العقد ، ويبرم .

ثم إن الفرد بالصفة الثانية — أى باعتباره عضواً فى هذا الجسد — الدولة — لا يكون تعاقده ملزما له هذا الإلزام المطلق الذى يقع فى العقود المدنية ، لأنه — وقد صار عضواً فى جسد — يُعَدّ متعاقداً مع نفسه ، لأن المجتمع هو جسده الذى يعيش فيه ، ومن ثَمّ كان له أن يخرج على أى تعاقد يبرمه مع المجتمع ، لأنه فى الحقيقة — إنما تعاقد مع نفسه . . وليست هناك قوة تلزم المتعاقد مع نفسه ، والممثل لطرفى العقد — أن يتقيد بهذا العقد ، وأن يقيد نفسه بالقيد الذى صنعه بيده !

إن «روسو» إذ نراه يجعل من الفرد فى تعاقده ، مع الجماعة لبنة فى بناء تلك الجماعة ، وأن هذا التعاقد يفرض عليه تنفيذ أحكامه ويلزمه بها — نراه من جهة أخرى يجعل الفرد فى داخل هذه الجماعة ممثلا لها كلها . . أى أن الجماعة قد أصبحت فردا واحدا ، وأن هذا الفرد لم يكن قد تعاقد مع أفراد ، وإنما تعاقد مع نفسه ، وإذن فالتعاقد صورى . . لأن المتعاقد مع نفسه غير ملزم بإنفاذ العقد الذى أبرمه بهذه الصورة .

والأمر الثانى الذى يتضح من رأى « روسو » — الذى نقلناه آنفاً —

هو أنه خلق من المجتمع قوة معنوية هى « الدولة » التى تمثل المجتمع ، وتجعل منه كائنا ذا كيان واحد ، وعقل واحد ، وقلب واحد ، وإرادة واحدة .

فهناك إذن — حسب هذا الرأى — مجتمع ، ودولة ، نشأ نتيجة لهذا التعاقد الاجتماعى الذى تم بين الأفراد .

فالمجتمع وجه من وجهى هذا التعاقد — والدولة هى الوجه الآخر له . .

ويظهر أثر هذه التفرقة بين المجتمع والدولة فى الوضع الذى يبدو فيه الفرد فى كل منهما .

ففى « المجتمع » يبدو الفرد مشخصًا بكل مقوماته الذاتية . . له فى المجتمع مكانه ، ووجوده كذات عاقلة ، لها عالمها الذى تعيش فيه .

وفى « الدولة » يبدو الفرد وكأنه خلية فى بناء هذا الجسد الكبير ، لا تعرف له ذاتية ، ولا يعترف له بوجود ذاتى منفصل عن هذا الجسد . . إنه خيط من هذه الخيوط الكثيرة المتلاحمة طولا وعرضاً ، والتى تكوّن منها هذا الثوب الطويل العريض ، الذى يعرف بالدولة . . فالدولة كالنهر المجتمع من ماء المطر ، تراه فتقول : قطرات ماء متجمعة ، أو تقول : هو ماء يجرى فى نهر !

* * *

ينظر « روسو » إلى الإنسان على أنه ذو شخصية مزدوجة . . هو فرد من حيث هو مجرد إنسان .. وهو عضو فى جسد كبير باعتبار أنه إنسان اجتماعى !.

فالإنسان قبل أن يعاقد مع المجتمع حر ، حرية مطلقة ، لا حدود لحريته ، ولا قيود عليها . . وهو حين يدخل مع الجماعة فى عقد اجتماعى يتقيد بقيود كثيرة لا حصر لها . . من عادات ، وتقاليد ، وقوانين وضعية وسماوية . . وهذه القيود لا مفر للإنسان أن يتقيد بها . أو يقيد هو نفسه بها ، راضياً أو كارهاً ! فذلك على أى حال هو الخير الذى أراد الله أن يسوقه للإنسان ، أو يسوق الإنسان إليه !

يقول « روسو » :

« ولد الإنسان حرًّا ، وهو مكبّل بالقيود فى كل مكان !!

« ينبغى على الإنسان أن يحمد دواما تلك اللحظة السعيدة ، لحظة « العقد الاجتماعى » ، التى انتشلته إلى الأبد من حالة الطبيعة التى ولد فيها ، والتى حوّلت

ذلك الحيوان الغبيّ المحدود الأفق إلى كائن ذكى . . وإنسان ! »[1]

ماذا يكسب الإنسان وماذا يخسر فى صفقة التعاقد الاجتماعى ؟ :

إن الإنسان من حيث هو إنسان — مجرد إنسان — ليس إلا حيواناً غبياً محدود الأفق ، وما كان له أن يبرح هذه المنزلة لو ظلّ منطويا على نفسه ، يعيش فى وجوده الذاتى . .

ولكن السرّ الذى تنبع منه عظمة الإنسان ، وتتفجر منه ينابيع ذكائه وإنسانيته ليس عقله وما فيه من قوى التفكير ، وإنما هو طبعه الاجتماعى الذى أبى عليه أن يعيش فى داخل نفسه ، فدعاه إلى الحيـاة فى داخل الجماعة الإنسانية ، وهنا احتكت شرارات الذكاء الكامنة فى الناس فتولد منها هذا النور الذى أضاء لهم سبل الحياة ، وأراهم أسرار الوجود ، ومكن لهم من امتلاك زمام الكثير من هذه الأسرار ، والتحكم فيها . . !

وليس كل هذا الذى كسبه الإنسان باندماجه فى المجتمع قد كان بلا مقابل ، وبدون تضحية . . كلا ، فإن الحياة لا تعرف هذا اللون من التعامل . . إنها لا تعطى إلا إذا أخذت ، ولا تأخذ إلا لتعطى .

وهذه الصفقة التى دخل بها الإنسان فى المجتمع ، وكسب منها هذا الكسب قد اقتضته كثيرا من التضحيات . فلقد فَقَدَ حريته غير المحدودة ، وقصّ قدرا كبيرا من أجنحته الطويلة التى كان يحلّق بها فى جميع الآفاق ، ويرتاد بها كل مرَادَ .

يقول « روسو » :

« إن ما يفتقده الإنسان نتيجة للعقد الاجتماعى هو حريته الطبيعية وحقّه غير المحدود فى الاستيلاء على ما يريد ، وما يستطيع الحصول عليه . .

أما ما يكسبه فهو الحرية المدنية ، وملكية كل ما فى حيازته . . ويمكننا أن نضيف إلى

---

(١) العقد الاجتماعى ص ٣٥

ذلك : الحرية المعنوية التى هى وحدها تجعل الإنسان سيد نفسه حقاً . . إذ أن الخضوع للشهوات عبودية . بينما طاعة ماتصعه لأنفسنا من قوانين هى الحرية »[١] !

إنها نقلة كبيرة تلك التى انتقلها الإنسان من حال حياته فى انفراد وعزلة ، إلى حياة الجماعة والمجتمع . . فلقد أحدث هذا الانتقال تحولا كبيرا فى حياته المادية والمعنوية جميعاً . .

لقد تغيرت نظرة الإنسان إلى الوجود كله ، إذ لم يعد ينظر إلى العالم من خلال نفسه ، ولم يعد يفسره من وحى معطياته العقلية أو النفسية، وإنما هو ينظر إلى الحياة بين المجتمع الذى يعيش فيه ، ويفسر الأشياء بما تمليه معطيات المجتمع . .

يقول « روسو » :

« أدى الانتقال من حالة الطبيعة إلى حالة المدنية إلى تغيرات واضحة حقيقية فى الفرد !

« فقد أحل العدالة محل الغريزة فى سلوكه ، وأضفى على تصرفاته أساساً أخلاقياً كان يعوزها من قبل !

« إن الإنسان لا يدرك أنه ملزم بطاعة مبادىء مختلفة مع نزعاته الذاتية ، وأن عليه أن يسترشد بعقله ، لاأن يستجيب لدوافع رغباته فحسب — لايدرك ذلك إلا عندما يُحلّ صوت الواجب محل النزعات الجسدية ، ويحل الحق محل الاستجابة للشهوات . . فعندئذ فقط يدرك الإنسان ذلك ، وقد كان من قبل لا يهتم إلا بنفسه وحدها !

ومع أنه قد يجدنفسه محروما منعدة مزايا كان يتمتع بها فىحالته الطبيعية ، فسيدرك أنه حصل على مزايا أخرى ذات قيمة أكبر بكثير . . فستنمو ملكاته إذ يستعملها ، ويتسع أفقه ، وتصبح مشاعره أنبل ، وتسمو روحه إلى حد يجعله يبارك بلا انقطاع اليوم الذى حرره إلى الأبد من حالته القديمة ، وحوّله من

---

(١) العقد الاجتماعى ص ٩٨

حيوان غير محدود الأفق إلى إنسان ذكى . وإنسان ! "

وأحسب أن (روسو) يبالغ فى إبراز هذه الحقيقة التى يضعها فى رصيد الانسان ، ويضمها إلى مكاسبه التى حصل عليها بالعقد الاجتماعى الذى دخل به المجتمع الإنسانى !

إن الإنسان — فى داخل المجتمع — لا يجد ما يذكّره بهذه الحقيقة ، ولا من يقدم له هذا الحساب . . وإنما الحقيقة التى يذاكرها دائماً هو وجوده الذاتى ، وما يلقى هذا الوجود من مصادمات بينه وبين المجتمع الذى يعيش فيه.

ومن هنا كان الفرد فى أكثر الأحيان ساخطاً على الجماعة ، متبرماً بها ، خارجاً على أنظمتها ، معتديا على حرماتها . . مقدراً أنه مغبون معتدى على حقوقه . . غير موضوع الوضع الذى يستأهله . . ! ومن هنا أيضاً تجىء التصدعات التى تقع فى بناء المجتمع وتزعزع من أوضاعه .

ولو أن الإنسان التفت إلى هذه الحقيقة التى أشار إليها « روسو » وهى الثمرات الطيبة التى جناها الفرد من وجوده فى المجتمع — لو أن الإنسان التفت إلى ذلك على النحو الذى صوره « روسو » لحمد تلك اللحظة السعيدة التى انتشلته إلى الأبد من حالته الطبيعية التى ولد فيها ، وحولته من ذلك الحيوان الغبىّ المحدود إلى كائن ذكى وإنسان ! :

ولكن الحقيقة شىء والحياة فى الحقيقة شىء آخر ! .. إن ظل المجتمع ثقيل على الإنسان ، وأسعد لحظاته هى تلك اللحظات التى تواتيه العرصة فيها ، ليفلت من هذا الحصار الاجتماعى ، ويطلق لرغباته ومنازعه حبلها على غاربها .

الجسد السياسى بعد الجسد الاجتماعى :

إذا ولد المجتمع على تلك الصورة التى صورها (روسو) فكان (جسداً اجتماعيا) نتيجة للعقد الاجتماعى — فإن هذا المجتمع يعود كائنا واحدا ، هو «الدّولة» ، أو (الجسد السياسى) كما يسميه (روسو)

وهذا الجسد السياسى أشبه بالجسد الإنسانى بأعضائه ، ومشاعره ، ووجداناته ،

وأفكاره . . هو كيان واحد ، وإن اختلفت أعضاؤه ، واختلفت وظائف هذه الأعضاء . . تماما كافى جسم الإنسان وأعضائه ووظائفها .

يقول (روسو) :

« وبمجرد أن تتحد جماعة فى جسد سياسى فإن أى اعتداء على أى فرد فيها يعتبر اعتداء على الجسد !

« وأكثر من هذا . . لايمكن الاعتداء على « الجسد السياسى » فى مجموعه إلا إذا كان لذلك أثره فى كل فرد فيه . . ! » [١]

إن تشبيه المجتمع البشرى بالجسد الإنسانى قد ساعد (روسو) على تلك المبالغات التى ظهرت فى أحكامه التى رتبها على الترابط الذى جعله بين الفرد والجماعة . . فهو يرى أن الاعتداء على الفرد هو اعتداء على المجتمع كله !. فهل حقاً يشعر المجتمع بهذه الحقيقة ؟ وهل يسلك نحوها ما يسلكه الفرد عندما يصاب فى عضو من أعضائه ؟ .

تلك مثالية نظرية لا تقع أبداً كما يتحدث عنها « روسو » ، وإن وقعت فإنما تقع فى صورة غامضة باهتة ، وليست بهذا الوضوح الذى يجده الإنسان الفرد فيما بينه وبين أعضائه ..

ثم إن وقوع هذا الإحساس على تلك الصورة الغامضة التى نقول بها لا يقع إلا فى مجتمع سليم معافىً فى جميع أفراده . قد مسّت مشاعرهم نفحة علوية ، ذهبت بكثير من نوازع الأنانية ، والأثرة ، التى تعيش فى كيان الإنسان ..

ولعلنا نذكر هنا قول نبىّ الإسلام صلى الله عليه وسلم : « مَثل المؤمنين فى تراحمهم ، وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمّى والسّهر » !

ذلك مثل للمجتمع المثالى الذى رفعه الرسول الكريم لأنظار المجتمع الإسلامى ودعاه إليه وحثّه على الحياة فيه !

---

(١) العقد الاجتماعى ص ٩٥

ومرة أخرى تقول : المُثُل العليا شيء ، وتحقيق هذه المـثُل والعمل بها شيء آخر !

ثم يعود « روسو » ليؤكد هذه الحقيقة فيقول :

« ومن ثمّ فإن كلاً من المصلحة والواجب يلزم الطرفين المتعاقدين بالمساعدة المتبادلة .. وينبغى على الناس أنفسهم — أى الأفراد — أن يعملوا على توحيد كل المزايا التى تنبثق من هذا الوضع المزدوج فى ظل الجسد السياسى ..

« ولما كان الشعب صاحب السيادة لا وجود له خارج الأفراد الذين يتكون منهم ، فإنه لا مصلحة له ، ولا يمكن أن تكون له مصلحة خلاف مصلحتهم .

« وبناء عليه ، فالسلطة صاحبة السيادة — « الجسد السياسى » — لا تحتاج إلى تقديم ضمان لرعاياها ، حيث أنه من المستحيل أن يهدف الجسد إلى إيذاء أعضائه جميعاً ! كما لا يستطيع أيضا أن يؤذى أى فرد[1] » .

وأنت ترى أن « روسو » قد ذهب بعيداً بهذه النظرة التى ينظر بها إلى المجتمع .. حين يضعه فى إطار « الجسد السياسى » الذى هو وحدة المجتمع المتولدة من الجسد الاجتماعى .

إن المجتمع فى هذا الجسد — كما يقرر « روسو » — أشد تماسكا ، وارتباطا مما بين الجسد وأعضائه فى الكائن الحىّ ..

« من المستحيل أن يهدف الجسد السياسى إلى إيذاء أعضائه جميعاً ، كما لا يستطيع أيضا أن يؤذى أى فرد » .. أهكذا حقاً ؟ وكيف يكون هذا ؟ إن جسد الإنسان الفرد قد تقوم به نوازع ، وتتحرك فيه رغبات قد تذهب بالجسد كله مذاهب الهلاك والرّدى ! إن شهوة اللسان إلى تذوق طعم من الطعوم قد تغريه بأن يستزيد من طعام ما حتّى يتخم المعدة ، ويفسد صحة

---

(١) العقد الاجتماعى ص ٩٥

الجسد كله . فكيف بهذا الجسد الذى صوّره « روسو » من الألوف ، ومئات الألوف ، والملايين من الأعضاء الحيّة ، العاقلة ، المختلفة المشارب والمنازع ؟

على أن « روسو » يصحح هذه النظرة حين يرجع البصر كرة أخرى إلى الفرد فى داخل (الجسد السياسى) فيراه متحركا فى غير الاتجاه الذى يتحرك فيه الجسد السياسى ، يقول :

« ولكن لاينطبق نفس الشىء على علاقة الرعية — أى الأفراد — بصاحب السيادة — الجسد السياسى — فرغم اتفاق المصلحة — بين الجسد السياسى والأفراد — لا يقوم أى ضمان يدل على أن الفرد سيقوم بتعهده قِبَلَ صاحب السيادة — الجسد السياسى — إلا إذا توفرت الوسائل لتوكيد ولائه[1] .

وهذا حق ، فإن الفرد لا يستقيم مع الجسد السياسى ، ولا يتجه معه الاتجاه الذى يريد إلا إذا قامت من ورائه قوة قاهرة . . من قانون أوشريعة ، تأخذه بالثواب أو العقاب ، ليكون سلوكه مستقيما مع الخطة العامة للجسد السياسى كله .

ثم يقول :

« والواقع أن لكل فرد بوصفه « إنسانا » إرادة خاصة مختلفة أو متناقضة مع الإرادة العامة التى يسهم فيها باعتباره مواطناً .. إذ أن مصلحته الخاصة قد تملى عليه تصرفات غير تلك التى تقتضيها مصلحة المجموع تماما .

فقد يدفعه وجوده المطلق ، المستقلّ بطبعه ، إلى الاعتقاد بأن مايجب عليه أن يؤديه نحو القضية المشتركة شىء يؤديه بلا مقابل !

وقد يقرر أنه إذا لم يدفع دَيْنه — أى الواجب — فإن مايسببه من ضرر لأقرانه أقل مما يترتب على الوفاء من ضرر نحو نفسه .

« إذ لما كانت الدولة — أى الجسد السياسى — ليست شخصاً حقيقياً ، فإنه — أى الفرد — يريد أن يتمتع بحقوق المواطن ، دون أن يقوم بواجبات

الرعية . . وهذا ظلم قد ينمو حتى يفضى إلى القضاء على الجسد السياسى[1] » !

وهذا كلام طيب فى هذا الجانب الذى يمثل الإنسان باعتباره فرداً ، ذا كيان وذاتية ، ولكنه يتناقض مع تركيب — الجسد السياسى الذى يتركب من الأفراد ذوى الإرادات المختلفة المتضاربة حيث يعتبر « روسو » هذا الجسد قائماً على صراط مستقيم ، لا عوج فيه ، ولا انحراف !

أرسطو والجسد السياسى :

يرى « أرسطو » أن الاجتماع أو « الجسد الاجتماعى » إنما يقوم على القوة والقهر — خلافا لما يراه « روسو » — أما « الاجتماع السياسى » فإنه يقوم عنده على أساس طبيعى ، يدعو الناس إلى احترام القانون ، والقيام بالعدل :

ويفسر « أرسطو » هذا التخالف بين قيام المجتمع الاجتماعى ، والمجتمع السياسى بأن اجتماع الإنسان إلى الإنسان يقع تحت ظروف قهرية أول الأمر ، فإذا ما وقع هذا الاجتماع أدى إلى تفاعل بين الأفراد ، وعن هذا التفاعل يتولد إحساس بتنظيم المجتمع ، وإقامة قواعد للحكم يخضع لها الأفراد جميعاً ، وبهذا يتحول ما كان أول الأمر من خضوع تحت القوة والقهر إلى عادة ، أو مايجرى مجرى العادة ، يعيش فيه الناس دون أن يشعروا بأن كائناً غريباً يعيش فيهم ويفرض وجوده عليهم . .

يقول أرسطو :

« الطبع يدفع الناس بغرائزهم إلى الاجتماع السياسى . . ولقد أسدى أول من رتّبه خدمة كبرى . . لأنه إذا كان الإنسان الذى بلغ كماله الخاص كله هو أول الحيوانات ، فإنه حقاً آخرها أيضاً . . متى عاش بلا قوانين ولا عدل .!!

« والواقع أنه لا شىء » أشنع من الظلم المسلح .

« لكن الإنسان قد تلقى عن الطبع أسلحة العدل والفضيلة التى ينبغى أن

---

(١) العقد الاجتماعى ص ٩٦

يستعملها ضد شهواته الخبيثة . . فبدون الفضيلة — يكون هو أكثر ما يكون فساداً وافتراساً . .

فالعدل ضرورة اجتماعية ، لأن الحق هو قاعدة الاجتماع السياسى[1] » .

الحرية وحدودها داخل الجسد السياسى :

والجسد السياسى باعتباره وحدة متكاملة ينبغى أن يسير وفق إرادة واحدة ؛ شأن الإنسان الفرد فى حياته الخاصة . .

ذلك ما يراه « روسو » فى طبيعة الجسد السياسى . .

ومن هنا دعا الأفراد المجتمعين فى هذا الجسد إلى التخفف من نزعاتهم الشخصية ، وأن يشعروا بمشاعر هذا الجسد ، ويعملوا وفق إرادته . . كما أنه وصى الجسد السياسى أن يقيم أفراده على الجادة ، ولو أدى ذلك إلى أخذهم بالقوة ، حتى يستقيموا على النهج الذى تصلح عليه أوضاع هذا الجسد . .

يقول « روسو » :

« ولكى لا يكون الميثاق الاجتماعى مجرد صيغ جوفاء فإنه يجب أن يشمل ضمنا ذلك العهد الذى يستطيع وحده أن يضفى على المجموع قوة . .

ذلك العهد هو : أن كل من يرفض طاعة الإرادة العامة لابد أن يقوم المجموع بإكراهه على الخضوع ، ولا يعنى ذلك أكثر من أنه سيرغم على الحرية — حيث أن الحرية هى ذلك الوضع الذى يجعل كل مواطن جزءا من وطنه ، وبذلك يحميه من كل خضوع شخصى .

فاعتراف الفرد بحقوق المجتمع هو وحده الذى يستطيع أن يضفى الحجية القانونية على كل التعهدات المدنية ، وإلا كانت هذه التعهدات لغواً ، وطغياناً ، وعرضة لإساءة الاستعمال[2] » .

---

(١) السياسة لأرسطو ص ٩٧ .

(٢) العقد الاجتماعى ص ٩٦ .

إذن فهذا الجسد السياسى عرضة لأن يفسد نتيجة للتدافع بين أعضائه ، وأن هذا الفساد لايمكن أن يدفع إلا بوجود قوه تبزغ فى هذا الجسد لترد كل عضو فيه إلى الوضع الملائم لحفظ التوازن فى هذا الجسد ، وذلك هو عينه الذى يحتاج إليه الإنسان الفرد فى سياسة كيانه الخاص . . إنه لابد من ضمير يبزغ فى كيانه حتى ينتظم به وجوده ، ويعتدل ميزان حياته !

د — لاعقد ولا تعاقد :

هذا ، وقد وقف كثير من الباحثين إزاء نظرية « العقد الاجتماعى » هذه موقفاً معارضاً . . ولهم على هذا أدلة وشهود . . منها :

أولا : أن هذا التعاقد — إن كان قد وقع — فإنه لايمكن أن يقع على تلك الصورة التى تمكن جميع أفراد المجتمع من أن يشهدوا هذا العقد ويبرموه . . فذلك أمر يبدو مستحيلا . . إذ أنه يقضى بأن يوقع على هذه الوثيقة كل من يدخل فى الجسد السياسى ، أو الاجتماعى . وهذا ما لم يكن . . ولن يكون أبدا . .

وإنما الذى يمكن أن يقع هو أن يشهدهذا العقد رءوس الناس ، لا أن يشهده كل أفراد المجتمع .

وثانيا : إن هذا العقد لو وقع فإنه يقع لأول جيل من أجيال المجتمع عند إنشائه لأول مرة ، ثم تمضى أحكام هذا العقد على الأجيال المتعاقبة بعد هذا ، دون أن يتجدد التعاقد جيلا بعد جيل . . وهذا معناه أن الأجيال المتعاقبة لم تكن طرفا فى هذا التعاقد الذى تم على يد جدودها الأولين ، فكيف يطلب إلى تلك الأجيال المتعاقبة أن تتقيد بهذا القيد جيلا بعد جيل ؟

يقول « هيوم » :

« إن المجتمع لا يتكون، ولن يتكون فى وقت من الأوقات إلا على أساس من القهر . . فالمجتمع قد وجد ، ونما ، وتزايد ، ولم يكن هناك عقد اجتماعى بالمعنى الدقيق المحدد للفظ « اجتماعى » [1]

(١) العقد الاجتماعى ص : ١٣

وشبيه بهذا القول مايقوله «ول ديورانت» فى موسوعته «قصة الحضارة».. فهو يذهب قريبا من هذا المذهب .. يقول :

« الحروب هى التى تخلق الرئيس ، وتخلق الملك ، وتخلق الدولة .. كما أن هؤلاء جميعاً — الرئيس والملك والدولة — هم الذين يعودون فيخلقون الحروب ! »[1] .

وعلى الرغم من أن «روسو» يقيم المجتمع على أساس من التعاقد الصادر عن الرضا — كما رأينا فى أقواله من قبل — فإن قوة الواقع وشواهد التاريخ تحمله على أن يعترف اعترافا صريحا بأن القوة هى الأساس الذى تقوم عليه المجتمعات البشرية ، وعليه وحده يعتمد بناة الدول ومنشئوها .

يقول «روسو»: تولد الدولة بعد أن تكون الحروب الأهلية قد مزقتها — تولد من جديد على الأنقاض ، وتسترد حيوية الشباب بعد أن تفلت من براثن الموت .. وهذا ماحدث لإسبرطة فى عهد «ليكورجوس» وهذا أيضا ماحدث لروما بعد آل « ترتوينوس »[1]

والوقع أن هذا البحث فى نشأة المجتمع الإنسانى على صورة شعوب وأمم نتيجة لتعاقد اجتماعى ، يدخل فيه كل فرد من أفراد المجتمع — هذا البحث على هذا الفرض ، وفى هذا المفهوم لاتؤيده — كما قلنا — شواهد التاريخ، ولا تسمح به طبيعه الحياة .

ولهذا ، فإن «روسو» إذ يذهب هذا المذهب، ويدفع به إلى غايته إنما ينظر إلى مجتمعات قد قامت بالفعل ، وجرت أمورها فى أجيال متعاقبة على هذا الوضع الذى تعيش به فى الحياة ، كأمة ذات قانون ، ونظام ، وحكومة !

وهو بهذه النظرة فى محيط الواقع رأى عرفا سائدا ، وعادات عامة مستقرة ،

---

(١) قصة الحضاره — الجزء الأول من المجلد الأول ص ٤١

(٢) العقد الاجتماعى ص ١٢٧

وتقاليد متوارثة ، مجمع على احترامها ، فسوغ له ذلك أن يصف هذا البناء القائم المستقر ، بأنه إنما قام بالتقاء إرادات هؤلاء الناس جميعاً فى هذا المجتمع . ولولا ذلك لما بقى المجتمع قائماً ، بل لما قام أصلا .. ثم سوغ له ذلك أيضاً أن يلحق الماضى بالحاضر ، ويقيسه عليه ، فيجعل قيام المجتمع الآن على العرف السائد ، والعادات العامة ، والتقاليد المستقرة — دليلا على قيام المجتمع الأول على التعاقد الاجتماعى ، وكما قامت العادات والتقاليد على رضا الأفراد وإقرارهم بها ، كذلك قام مجتمعهم الأول على شىء مثل هذا الرضا والإقرار به ، وهو التعاقد غير المكتوب بينهم ..

* * *

عناصر مقومات المجتمع :

وعلى أية داعية قام بناء المجتمع . . سواء أكان بتعاقد بين الأفراد أم بالغلبة والقهر ، فإن الاجتماع البشرى لا بد منه لقيام الحضارة والمدنية . .

إن هذه الحضارات وتلك المدنيات التى شهدتها الحياة فى أجيالها المتعاقبة ، وعلى مختلف أشكالها وألوانها ، هى نتيجة لهذا الاجتماع البشرى ، الذى أقام الأمم والشعوب ، وأنشأ الممالك والدول .

إنه لا تقوم حضارة ، ولا يتم عمران إلا فى ظل مجتمع ، وإنه حيث تلد الحياة مجتمعا من المجتمعات كان ذلك مؤذناً بميلاد دولة ، وقيام حضارة .

وقد يعترض على هذا القول بأن هناك مجتمعات كثيرة قامت فى الحياة ثم ذهبت دون أن تخط فى كتاب المدنية كلمة ، أو ترسم فى سجل الحضارة حرفاً ، ودون أن تخلف وراءها « خميرة » من خمائر المدنية ، أو تترك فى الحياة بعدها جرثومة من جراثيم الحضارة !

وهذا صحيح ، فليس كل مجتمع صالحاً لأن يستولد من الحياة مدنيــــة ، أو يستنبت حضارة . .

فهناك مجتمعات تولد ولادة غير طبيعية ، كأن تكون غير متجانسة الأعضاء أو متكاملتها ، أو أن تقع تحت ظروف زمانية أو مكانية غير ملائمة للاستقرار ،

أو مهيأة لحياة الأمن والطمأنينة . . كأن توقد بينها نيران الحروب ، أو تهددها الزلازل والبراكين ، أو تجتاحها الفيضانات ، أو يحرقها الجفاف ، أو تغتالها الأوبئة ، أو غير ذلك مما لا يدع للناس فرصَ التفكير ، ولا يتيح لهم مجالا للعمل ، فى جو مشبع بالأمل والرجاء ، فى حياة مستقرة آمنة . .

فلكى تقوم فى مجتمع ما حضارة ومدنية ينبغى أن تكون ولادة هذا المجتمع طبيعية ، بمعنى أن تكون البيئة التى يولد فيها بيئة صالحة للغرس والنماء ، وأن يكون المجتمع نفسه متجانساً متفاهماً ، تربطه روابط حيوية وثيقة من روابط الدم ، واللغة ، والعقيدة ، والمصالح المشتركة ، ونحو ذلك مما يقرب بين مشاعر الجماعة ، ويؤلف بينها .

يقول « ول ديورانت » :

« العوامل المادية ، والبيولوجية شروط لازمة لنشأة المدنية . . ولكن تلك العوامل نفسها لا تكوّن مدنية ، ولا تنشئها من عدم ، إذ لا بد أن يضاف إليها العوامل النفسية الدقيقة . فلا بد أن يسود الناس نظام سياسى مهما يبلغ ذلك النظام من الضعف حداً يدنو به من الفوضى . . ثم لا بد أن يشعر الناس شيئاً فشيئاً أنه لا حاجة بهم إلى توقع الموت . أو الضربة عند كل منعطف فى طريق حياتهم . . ولا مندوحة كذلك من وحدة لغوية إلى حد ما ، لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الأفكار ، ثم لا مندوحة أيضاً من قانون خلقى يربط بينهم عن طريق « الكنيسة » أو الأسرة أو المدرسة أو غيرها . . وبهذا ينتظم سلوك الناس بعض الشىء ويطرد [1] » .

فالقانون — أياً كان — ضرورى جداً ، ليتبين الناس به مالهم وما عليهم . والجماعة التى لا تحيا فى ظل قانون ما ، لا يمكن أن ينتظم لها أمر . أو يستقر لها شأن . .

إن القانون يشيع فى الناس روح الأمن والطمأنينة بألا ينالهم مكروه ، ولا يغشاهم شر ما داموا ملتزمين حدوده ، وأحكامه .

(١) قصة الحضارة الجزء الأول من المجلد الأول ص ٧ .

الباب الثاني

الحكم والحكومة

المجتمع والحكومة :

لا يحيا مجتمع من المجتمعات ، ولا يتماسك نظام عقده إلا فى ظل قانون ، وتحت سلطان حكومة . . أيا كان هذا القانون ، وأيا كانت تلك الحكومة . . فالقانون هو الذى يضبط النظام الذى يسير عليه الناس ، ويضع الحدود التى يقفون عندها . .

والحكومة هى التى ترقب سير الحياة فى المجتمع على وفق هذا القانون ، وتعمل على تنبيه الغافلين عنه ، وردّ الخارجين عليه . .

وقد اختلف علماء الاجتماع والسياسة فى نشأة الحكم ، وفى طبيعته ، وفى مدى صلاحيته من حيث فاعليته فى الحياة ، ومن حيث عائداته على الأفراد والمجموع . .

فلسفة الحكم :

وقد شُغلت الفلسفة اليونانية بالحكم وسياسته ، وعُنيت هذه الفلسفة عناية بالغة بالأصل الذى قام عليه الحكم فى الحياة ، وبالينابيع التى تفجر منها.. أهى طبيعية أم صناعية . . وبالصلة بين الحاكم والمحكومين . . أهى صلة قهر وغَلَب ، أم صلة تفاهم ، وتراض وتعاقد ؟

وقفة مع « أرسطو » :

وفى لقائنا مع « أرسطو » هنا . . فى هذه المشكلة . نلتقى مع العقل اليونانى

كله ، ومع الفلسفة اليونانية كلها ، إذ كان « أرسطو » قمة العقل اليوناني، وذروة الفلسفة اليونانية ، والثمرة الكريمة الطيبة الناضجة منها .

تدخل هذه المشكلة — مشكلة الحكم — في عقل « أرسطو » فيلقاها بهذا العقل الكبير ، وبهذه العبقرية الفذّة النادرة، ويضمها إليه كما تضمّ الأمّ وليدها إلى صدرها ، وتخلطه بوجودها حتى يشبّ ويخطو بين يديها ، ثم لا تزال تحوطه بعنايتها ، وترعاه بعينيها حتى يصير إلى النضج والكمال . .

هكذا استقبل « أرسطو » مشكلة الحكم ، وهكذا ربّاها في مجال تفكيره إلى أن نضجت ، وصارت خَلْقا سويا . . ثم أذِن لها بعد ذلك أن تخرج إلى الحياة ، فإذا هي قضية نيّرة مشرقة ، تقع موقع الإعجاب من كل ناظر إليها ، متأمل فيها ، لما اجتمع لها من سلامة الفطرة ، وسلاسة المنطق ، وامتداد مطارح النظر إلى أعمق الأغوار ، وأفسح الآفاق ! .

وإن يكن هناك ما نأخذه على « أرسطو » هنا فهو هذا العدوان الصارخ على إنسانية الإنسان ، وإنزاله الناسَ منازل متباينة ، لا بالكسب والعمل ، ولكن بالفطرة ، وأصل الخلقة !! وهذا هو أشنع ما في القضية التي عرض لها أرسطو في مشكلة الحكم والحكومة ! .

١ — الاجتماع البشرى قام لخير الناس جميعاً :

يبدأ « أرسطو » جولته حول هذه القضية بالنظر في الأصل الأول الذي قام عليه الاجتماع البشري . . فيقرر : « أن كل دولة هي — بالبديهة — اجتماع ، وكل اجتماع لا يتألف إلا لخير ، مادام الناس — أيا كانوا — لا يعملون أبدا شيئا إلا وهم يقصدون إلى ما يظهر لهم أنه خير [1] » .

٢ — الناس حاكم ومحكوم :

ثم يردّ « روسو » نظره بعد هذا إلى منشأ « حكومة ومحكومين » في

---

(١) السياسه لأرسطو ص ٩٢

المجتمعات الإنسانية ، فيرى أن كلا من الحكومة والمحكومين أصل من صنع الطبيعة ، وليس للناس اختيار فيه . .

يقول أرسطو : « إن الطبيعة التي ترمى إلى البقاء هي التي خلقت بعض الكائنات للإمرة ، وبعضا للطاعة – بما هي التي أرادت أن الكائن الموصوف بالعقل والتبصر .. يأمر بوصفه سيدا !! . . كما أن الطبيعة هي التي أرادت أن الكائن الكفء بخصائصه الجثمانية لتنفيذ الأوامر يطيع .. بوصفه عبداً !!

« وبهذا تمتزج منفعة السيد ، ومنفعة العبد !! [1] »

الناس في رأى «أرسطو» هم – كما خلقوا – سادة ، وعبيد ! إذ الطبيعة هي التي أخرجت السيد سيداً ، والعبد عبداً . . وتلك إذن حكمة الخالق وتدبيره !

ويزيد « أرسطو » هذا المعنى وضوحاً . . فيقول :

ينبغي الآن أن يُنظر : أيوجد أناس جعلهم الطبع كذلك أم لا يوجد ألبتة ؟ وفي حق مَنْ مِن الناس – أيا كان – تصير العبودية عدلا ونفعاً ؟ أم أن كل استرقاق هو عمل مضاد للطبع ؟

ثم يجيب على تلك الأسئلة . . فيقول :

« العقل ، والواقعيات يمكن أن تحلّ مع اليسر هذه المسائل !

« فالأمر والطاعة – الأمر من السيد والطاعة من العبد – ليسا شيئين ضرورين فحسب ، بل هما أيضاً شيئان نافعان كل النفع !

« بعض الكائنات منذ الولادة مخصص بعضها طاعة . والآخر للإمرة . . ولو على درجات وفروق شديدة التخالف بالقياس إلى هؤلاء وهؤلاء !

« فالسلطة تعلو وتتحسن بنسبة ما يكون ذلك فيمن يطبقها ، أو تقع عليه !

---

(١) السياسة لأرسطو ص ٩٢

« إنها — أي السلطة — في الناس أحسن منها في الحيوانات ، لأن كمال العمل هو تابع لكمال العمال !

« هذان العنصران: الطاعة والإمرة، لا يوجدان إلا في كل مجموع مكوّن من عدة أشياء ، تجتمع على نتيجة عامة ، وتنتهي إليها ، منفصلة كانت تلك الأشياء أو متصلة .

« هذا هو وضع فرضه الطبع على كل الكائنات الحية .

« بل ربما أمكن أن تُكْتَشَفَ بعض آثار لهذا المبدأ حتى في الأشياء التي بلا حياة !! ومثال ذلك .. الانسجام في الأصوات !![1]

لقد ذهب أرسطو بنظرته هذه مذهباً بعيداً ، ورمى بها في شطحة خيالية أشبه بالشطحات الصوفية .. وهو بهذه النظرة يرى الوجود كله وحدة مرتبة الطبقات والمقامات . . يعلو بعضها بعضاً ، ويخضع الأدنى خضوعاً طبيعياً للأعلى . . ومن هذا الخضوع تتخلق الوحدة ، والانسجام ، والتوافق، وفي هذا كله خير مشترك للأدنى والأعلى جمعاً . .

ثم يقف أرسطو وقفة خاصة عند عالم الإنسان ليكشف فيه مقررات نظريته تلك . . فيقول :

« بَدِيًّا . الموجود الحيّ مركب من روح ومن جسم .. وجد أحدهما بالطبع ليأمر ، والآخر ليطيع ! ..

« وإن سلطان النفس هذا بيّن في الإنسان الكامل .. سليم العقل والبدن.. فهو وحده الذي ينبغي أن نختبر ذلك فيه .

« أما في الفاسدين من الناس أو المستعدين للفساد فإن الجسم أحياناً يتسلط

---

(١) يشير إلى أن النغم الموسيقي المنسجم إنما يتألف من عدة نغمات متجانسة ، وهي مع تجانسها طبقات ومقامات بعضها فوق بعض .

على النفس .. ذلك بأن نموهم غير المسترشب ، هو على ضد الطبع تماما .

« أكرر .. أنه ينبغى إذن أن يُعرف — بادىء الأمر — فى الكائن الحىّ وجود سلطة تشبه سلطة سيد وحاكم معاً .. النفس تتسلط على البدن كسيد على عبده ، والعقل على الغريزة .. كحاكم .. كملك !

« وإذن فبديهى أنه لا يستطاع إنكار أن يكون من الطبيعى ، ومن الخير للجسم أن يطيع النفس ، وللجزء الحساس من ذاتنا أن يطيع العقل .. وأن المساواة ، أو انقلاب السلطة بين هذه العناصر المختلفة يكون شراً للجميع !

« والحال كذلك بين الإنسان وسائر الحيوانات .. فإن الحيوانات المستأنسة أحسن من الحيوانات المتوحشة ؟! وأن تكون المستأنسة خاضعة للإنسان فتلك مزية كبرى لها من حيث أمنها نفسه ![1]

« ومن وجهة أخرى ؛ فإن الرابطة بين الجنسين — الإنسان والحيوان — هى على هذا النحو .. أحدهما أرقى من الآخر .. ذلك — الإنسان — وجد ليحكم ، والآخر — الحيوان — وجد ليطيع ![2]

ثم ينتقل أرسطو بعد عرض هذه الصورة من المحسوس — ينتقل إلى أصل القضية ، وهو ما بين الإنسان والإنسان من صلة .. فيقول :

« ذلك — أى ما بين الإنسان والحيوان — هو أيضاً القانون العام الذى يجب أن يسود بين الناس . !

« فتى كان المرء أحطّ من أمثاله — كما يكون الجسم بالقياس إلى النفس ، والبهيمة إلى الإنسان — وهذا هو مركز جميع أولئك الذين يكون لديهم استعمال

---

(١) لن روسو يقيم حكمه على الحيوانات المستأنسة والمتوحشة من وجهة نظر الإنسان المستعبد لها .. ولكن هل تلقى « روسو » هذا الحكم من مشاعر هذه الحيوانات وأحاسيسها؟ وهل هناك وسيلة يمكن أن تكشف لنا عن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس ؟

(٢) السياسة لأرسطو ص ١٠٢ .

القوى البدنية هو أحسن ما يمكن أن ينتفع به — كان هو الرقيق »[1] !

ولنا أن نسأل « أرسطو » هنا :

ما مقياس الانحطاط أو الرفعة فى الإنسان ؟ وما هى حيثيات الحكم الذى يحكم به على إنسان بالانحطاط أو الرفعة ؟ أهو اللون ؟ أم هو المولد ؟ أم هو الهزيمة فى الحرب ؟

إن « روسو » — فيما يظهر من كلامه هنا — يرجع هـذا المقياس إلى القوة الجسدية ، والقوة العقلية فى الناس . . فمن ملك قوة جسدية كان من الخير له أن يكون مجردَ جسد يعمل ، ويأتمر بأمر غيره ، ممن ملك قوة عقليـة ! وإذن — وعلى هذا التقدير — ففريق من الناس هو عقل ، وفريق آخر هو جسد .. وأن على من كان فى فريق العقل أن يأمر ، ومن كان فى فريق الجسد أن يمتثل لمـا أمر به . .

ولنـا أن نسأل بعد هذا : ما الميزان الذى يوزن به أصحاب العقول وأصحاب الأجسام ؟ وما المرجع الذى يرْجَع إليه ليقال هـذا الإنسان « عقل » وهـذا الإنسان « جسد » ؟ ثم من يلزم الناس بأن يقبلوا هذه الأحكام ويخضعوا لها ؟ وهل كان فى الناس من تخلى عن إيمانه بنفسه ، وبأنه أعقل الناس ؟ إن ذلك لم يـكن ، ولن يـكون !

ندع هـذا . . ونلتقى مع « أرسطو » فى آخر مطافه فى تلك القضية . . يقول :

« يمكن بالبديهة إذن أن نسموّ بهذه المناقشة ، ونقرر أنه يوجد بفعـل الطبع عبيـد ، وأناس أحرار .

« ويمكن أن يؤيد بأن هـذا التميز يبقى دائماً كلما كان نافعاً لأحدهما أن

---

(١) المصدر السابق — الصفحة ذاتها .

يخدم ، باعتباره عبداً ، وللآخر أن يحكم ، باعتباره سيداً . . بل يمكن أن يؤيد آخر الأمر بأنه عادل ! وأن كلا يجب عليه تبعاً لمشيئة الطبيعة أن يقوم بالسلطة — وهو السيد الحاكم — وأن يحتملها — وهو العبد المحكوم — ! « وعلى هذا ، فسلطة السيد على العبد هي كذلك عادية ونافعة .

« وهذا لا يمنع أن سوء استعمال السلطة شؤم على الطرفين . . إن منفعة الجزء هي منفعة الكل . . ومنفعة الجسم هي منفعة الروح .. وإن العبد لهو جزء السيد ، وإنه لجزء حي من جسمه ، وإن يكن منفصلا عنه . . كذلك بين السيد والعبد ، مادامت الطبيعة هي التي صنعتهما كليهما ..

« توجد منفعة مشتركة ، حين توجد رعاية عادلة » ويكون الأمر على غير ذلك متى كان القانون ، ومجرد القوة — لا الطبيعة — هما اللذان جعلاهما ما هما .. أحدهما .. والآخر !!

ثم يقول :

« يكون المرء سيداً ليس ألبتة لأنه يعرف أن يحكم ، بل لأن له طبعا ما !! ويكون الإنسان عبدا ، أو رجلا حراً[1] بمميزات متشابهة لذلك . .

« غير أنه من الممكن أن يُطبع السادة على العلم الذى يجب عليهم أن يطبقوه ، كما يفعل بالأرقاء سواء بسواء . »[2]

ونظرية « أرسطو » هذه ونظرته فيها إلى الناس أقل مافيهامن سوء أنها تجعل الناس جميعاً — سادة وعبيدا — حكاما ومحكومين — تجعلهم مقهورين تحت حكم الطبيعة . وأنهم فى الوضع الذى وضعتهم فيه ، وفى القالب الذى أخرجتهم عليه ، لا يستطيعون الإفلات منه ، ولا تنزع بهم نازعة إلى التحول من حال إلى حال .. العبد عبد أبداً . . لأنه هكذا خلق ، والسيد سيد أبدا لأنه هكذا ولد .. وليس

---

(١) الحرية هنا ليس معناها السيادة ، فالحرية وسط بين العبودية والسيادة .
(٢) السياسة لأرسطو ص ١٠٦ — ١٠٧ .

فى مقدور من ولدته الطبيعة قصيرا قَـزْماً أن يصير عملاقا ، كما أنه ليس فى مستطاع من ولد طُـوَالاً عملاقاً أن يتحول إلى رَبْـعةٍ أو قَـزْم .

إن « أرسطو » أراد أن يحفظ نظام المجتمع الإنسانى ، وأن يجعل فيه كيانا واحداً ، يقوم فيه روح وجسد .. سادة وعبيد ، فدعاه ذلك إلى أن يمسك الناس بأوتاد راسخة فى أماكنهم التى هم فيها ، لا يتحركون يميناً أو شمالا . وخلفاً أو أماماً ، وهم إذا صاروا إلى هذا الحال لن يقع بينهم صدام .. لأن الصدام إنما يقع حين تتحرك فى الناس نوازع التحول من حال إلى حال .. حين تدعوهم نوازعهم تلك إلى الاستزادة مما فى أيديهم ، أو الارتفاع عن الوضع الذى هم فيه ، فيقع من أجل ذلك تدافع وتصاول ، وفتن وحروب !

إن «أرسطو» بهذا الرأى قد حول المجتمع الإنسانى إلى «بركة» راكدة آسنة .. كل ما فيها من ماء قد تعفن وفسد ، وإن كان بعض الماء فى السطح ، وبعضه فى القاع! السادة سادة أبداً لا يتحولون، ولا يتغيرون .. والعبيد عبيد فى كل حال .. فقيم العمل ، والسعى إذن ؟ لن ينزل السيد عن مقامه مهما بلغ من سوء ، ولن يتحول العبد عن مكان العبودية وإن بلغ ما بلغ من كمال !

ابن سيناء والمدينة الفاضلة :

وقد تأثر الفيلسوف العربى — ابن سينا — بآراء أستاذه « أرسطو » فأقام مدينته الفاضلة على هذا المذهب الذى ذهب إليه «أرسطو» وبنى مدينته تلك من أرواح وأجساد .. بعض سكانها أرواح وعقول ، وبعضهم أجساد وأشباح ..!

وماذا يقول ابن سينا عن مدينته الفاضلة تلك .. ؟ إنه يقول : « المدينة الفاضلة » تشبه الجسد الصحيح الذى تتعاون أعضاؤه كلها على تتميم حياة الحيوان ، وعلى حفظها عليه !

« وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة ، متفاضلة بالفطرة، والقوى ، وفيها عضو واحد رئيس ، وهو القلب ، وأعضاؤه — أى البدن — تقرب مراتبها من ذلك الرئيس . وكل واحد منها جعلت فيه بالطبع قوة يفعل بها فعله — أى يؤدى

بها وظيفته — ابتغاءاً لما هو بالطبع غرض ذلك العضو الرئيس . . وأعضاء أخرى تفعل أفعالها على حسب أغراض هذه القوى التى ليس بينها وبين الرئيس واسطة . . فهذه فى الرتبة الثانية . . وأعضاء أخر تفعل الأفعال على حسب غرض هؤلاء ، الذين هم فى هذه المرتبة الثانية . . ثم هكذا إلى أن ننتهى إلى أعضاء تخدم ولا ترأس أصلا . . »[1]

ينبغى أن نقف هنا وقفة نجلو فيها هذا الغموض الذى ربما يجده القارىء فى هذا الأسلوب المعقد ، والذى هو السّمة الغالبة للترجمات الفلسفية التى نقلها فلاسفتنا من الفلسفة اليونانية . .

يريد ابن سينا أن يقول :

البدن الإنسانى مجموعة من أعضاء كثيرة مختلفة الوظائف .. يقوم عليها جميعاً رئيس ، هو القلب . .

وهذه الأعضاء مختلفة المراتب والوظائف . .

بعضها تلى مرتبة القلب مباشرة ، وهى التى تخضع للقلب خضوعا مباشرا . وهذه الأعضاء ، تحتل المركز الأول فى كيان الإنسان بعد القلب . .

ثم تأتى فى المرتبة الثانية أعضاء تخدم هذه الأعضاء التى فى المركز الأول . .

ثم تأتى فى المرتبة الثالثة أعضاء تخدم الأعضاء التى فى المركز الثانى . .

وهكذا ، كل عضو أو جماعة من الأعضاء تخدم التى فوقها ، وتخدمها التى تحتها ، حتى ينتهى الأمر إلى أعضاء تأخذ آخر منزلة فى كيان الإنسان ، وهذه الأعضاء تخدم التى فوقها ، ثم لا يوجد فى الجسد ما هو أدنى منها ليخدمها !

بعد هذا ينتقل « ابن سينا » إلى مدينته الفاضلة ليبنيها على تصميم هو صورة مطابقة لهذا التصميم الذى صور فيه بناء الإنسان . .

---

(١) المدينة الفاضلة لابن سينا ص ٨٠ .

يقول « ابن سينا » :

« وكذلك المدينة . . أجزاؤها مختلفة الفطرة ، متفاضلة الهيئات . . وفيها إنسان هو رئيس ، وأُخَرُ تقرب مراتبها من الرئيس ، وفى كل واحد منها هيئة وملكة يفعل بها فعلا ، يقتضى به ما هو مقصود ذلك الرئيس . . ودون هؤلاء من يفعل الأفعال على حسب أغراض هؤلاء . . ثم هكذا تترتب أجزاء المدينة إلى أن تنتهى إلى أُخَرَ يفعلون أفعالهم على حسب أغراضهم ، فيكون هؤلاء يَخْدمون ، ولا يُخْدَمون ويكونون فى أدنى المراتب ، ويكونون هم الأسفلين ! »(١)

ولعل فى توضيحنا لمقولة ابن سينا عن الجسد مايغنى عن توضيح مقولته هذه عن المدينة .. فما يقوله هنا هو مايقوله هناك ، سواء بسواء ..

ثم بعد أن يضع «ابن سينا» مدينته هذه فى جانب ، ويضع الجسد الإنسانى فى جانب آخر ينظر إليهما معاً ، فيرى هناك فرقاً بين العضو فى الجسد وبين الإنسان فى المجتمع . العضو يعمل ما يعمل بلا إرادة ، والإنسان يعمل ما يعمل عن وعى وإرادة . . يقول ابن سينا :

«غير أن أعضاء البدن طبيعية ، والهيئات التى لها هى قوى طبيعية . . وأجزاء المدينة وإن كانوا طبيعيين فإن الهيئات والملكات التى يفعلون بها أفعالهم إرادية» .

هذا ، ولم يرتب ابن سينا على هذه التفرقة أية نتيجة . وإن كان المفهوم من هذه التفرقة أنه يعترف للإنسان بوجوده ، وبذاتيته داخل الجسد الاجتماعى

رئيس المدينة :

وينظر ابن سينا إلى رئيس المدينة نظرة خاصة ، فيرى من خلال هذه النظرة أنه هو الذى دبر أمر هذه المدينة ، ورتب وجودها قبل أن توجد . . إنه أشبه بالإلـه الخالق لكل شىء .. وإنه لولاه لما وجدت المدينة ولا انتظم لها شأن .. يقول ابن سينا: (وكما أن القلب يتكوّن أولا ثم يكون هو السبب فى أن يكون

---

(١) المدينة الفاضلة لابن سينا ص ٨١

سائر أعضاء البدن ، والسبب فى أن يحصل لها قواها ، وأن تترتب مراتبها . فإذا اختل منها عضو كان هو المرفد بما يزيل عنه هذا الاختلال .. كذلك رئيس المدينة ينبغى أن يكون هو أولا ، ثم يكون هو السبب فى أن تحصل المدينة وأجزاؤها ، والسبب فى أن تحصل لها الملكات الإرادية التى لأجزائها فى أن تترتب مراتبها » (١) .

ومفهوم هذا القول أن قيام المدينة لايكون إلا إذا وجد فى أفراد الناس من يكون فيه من الصفات مايرفعه إلى مقام فوقهم جميعاً ، من حيث القوة الروحية والعقلية ، فيكون هو فيهم أشبه بالقلب فى الجسد تمتد شرايينه بالغذاء إلى كل خلية من خلايا الجسد . ولو سكن لحظه لبردت الحرارة المتدفقة فى هذا الجسد ولفارقته الحياة وشيكا !

إن المجتمعات الإنسانية — على هذا التقدير — لا تقوم إلا بتدبير خارج عن إرادتها . . يجىء من (زعيم) له من خصائص الزعامة ما يؤهله لأن يجذب الأفراد إلى دائرة هو مركزها ، ويمسك كل شىء داخلها .

هذا الامتياز فى أصل الخلقة :

والحق أن هذا الرأى الذى يقول به أرسطو ويتابعه فيه ابن سينا وغيره من الفلاسفة — هو رأى خاطىء ، لا تزكيه الحياة ، ولا يلتفت إليه المجتمع البشرى فى تنظيم علاقاته ، وترتيب أنظمته . .

إن هذا الرأى — كما قلنا — لو قام فى مجتمع من المجتمعات لقضى على كل قوة عاملة فيه : ولقتل فى الناس نوازع العمل ، وحوافز الهمم ، ولملأ قلوبهم بأساً من أن يتحولوا من حال إلى حال . .

ولهذا فقد ظلت تلك « المدن الفاضلة » التى بناها الفلاسفة فى عقولهم من عهد أفلاطون وأرسطو إلى الفارابى وابن سينا وغيرهم — ظلت هذه المدن أحلاما ،

---

(١) المدينة الفاضلة لابن سينا ص ٨١

بل أضغاث أحلام ، لم يقع لها ظل فى واقع الحياة ؛ ولم يقم لها بين الناس وجود!

ويحدث الجاحظ فى رسالته (العثمانية) عن نظام الحكم فى بلاد فارس قبل الإسلام ؛ ويؤخذ من هذا الحديث أن سياسة الحكم فى هذه البلاد قد جرت على أن تقيم الناس حيث هم من مواضعهم التى وضعتهم ظروف الحياة فيها . . فلا يُسمح لذى حرفة أن ينتقل منها إلى حرفة أخرى ، كما لا يسمح للأبناء أن يتحولوا إلى حرفة غير حرفة أبيهم ، بل يلزمهم القانون أن يخلفوا أباهم فى حرفته . . وكأنهم يرثونها عنه ، كما يرثون عنه بعض صفاته الجسدية والنفسية . .

يقول الجاحظ فى حديث له عن سلمان الفارسى :

« ولعمرى لقد كان — أى سلمان — فى قوم ساسوا الناس سياسة ، ورتبوهم ترتيباً يقطع عن الطمع فى الملك — بآيين[1] .

« لم يجعلوا للصانع أن ينتقل عن صناعته إلى الكتابة ، ولم يجعلوا للكاتب أن ينتقل من كتابته إلى القيادة ، ولم يجعلوا لأبنائهم إلا مثل ما كان لآبائهم ، ليعوّدوا الناس عادة ، يستوحشون معها إلى الخروج منها[2] » .

وهذا النظام الذى اقتضته سياسة الدفاع عن الطمع فى الملك ، وإبعاد الناس عن الاقتراب من حماه ، وإلزامهم مواضعهم التى لا يبرحونها أبداً — هذا النظام على ما به، هو خير من مذهب أصحاب المدن الفاضلة ورأيهم فى الإنسان . .

فهذا النظام يعترف بأنه أسلوب من السياسة ، وأن هذا الإلزام الذى يأخذ به الناس بوضعهم فى مواضع لا يتعدونها ليس ناشئاً عن طبيعة خَلْقهم، وأصل نشأتهم ، وإنما هو نظام سياسى . . ومعنى هذا أنه قد تتاح الفرصة للناس يوما أن يثوروا على هذا النظام ، وأن يخرجوا عليه . وليس كذلك الوضع الذى

---

(١) الآيين . القانون بالفارسية

(٢) العثمانية للجاحظ — مطبعة دار الكتاب عربى ١٩٥٥

وضعتهم فيه المدن الفاضلة .. أنهم هناك محكومون فى هذه الأوضاع بحكم الخلقة والفطرة ، وما كان لإنسان مهما أوتى من قوة أن يخرج على قانون الطبيعة ، وأن يغير من أصل الفطرة التى فطره الله عليها .

ومن جهة أخرى فإن هذا النظام السياسى الفارسى يسمح للناس أن يتحركوا فى مجالاتهم الخاصة . وأن يجوّدوا فى الصناعات والحرف التى يعملون فيها ، وأن يرقوا درجاتها درجة درجة !

ولا شك أن هذا — على ضآلة شأنه — يجعل للناس متنفساً يتنفسون فيه ، وإن كان ضيقاً حرجاً . . وشىء خير من لا شىء ! فإن المدن الفاضلة تضع الناس فى قوالب من جديد ، لا يتعدون حدودها ، طولا أو عرضاً .

نعود بعد وقفتنا هذه مع أرسطو ، وابن سينا ، وبعد أن عرضنا لرأيهما فى المجتمع البشرى وفى الأسس التى يقوم عليها هذا المجتمع ، وفى العلاقات التى تربط بين أفراده — نعود بعد هذه الوقفة لنتابع حديثنا عن الحكم والحكومة .

نشأة الحكومة

١ — الحكم قائم على الجبر والقوة :

« لو أن الناس جميعاً كانوا يحترمون القانون والعدالة بإصرار . بحيث كانوا من تلقاء أنفسهم يمتنعون من الاعتداء على ما للآخرين لظلوا أبد الدهر فى حالة من الحرية المطلقة ، لا يخضعون لحاكم ، أو لمجتمع سياسى .

بيد أن مثل هذه الحالة تكون كالا تعجز الطبيعة حقاً عن بلوغه ! !

« وأيضاً لو أن الناس يتمتعون بفهم كامل بحيث يستطيعون دائماً أن يعرفوا مصلحتهم ؛ لما خضعوا لأية صورة من صور الحكم ، سوى تلك التى تقوم على الرضا . ولتلمس كل فرد من أفراد المجتمع السبيل لتحقيقها . .

« بيد أن هذه الحالة تكون من الكمال أيضاً أسمى من الطبيعة البشرية»[1]

(١) العقد الاجتماعى ص ٦٠

هذا ما يراه « دافيد هيوم » فى كتابه « العقد الاجتماعى » . ويبرر به قيام الحكومات فى المجتمع . .

ومعنى هذا أن الحكومات إنما وجدت تحت ظروف غير طبيعية، لتسد هذا النقص المستقر فى الطبيعة البشرية .

فلو أن الناس أقاموا العدل فيما بينهم . وجَرَوْا فى حياتهم على وفاق ، بحيث لا تتصادم رغباتهم لما كان لقيام حكومة فيهم معنى ، ولما كان للحكومة وظيفة تقوم عليها . . ولكن أبت طبيعة الحياة أن تمنح الناس هذا الخلق الذى يحجز بينهم و بين التنازع والتخاصم . والتقاتل . .

وأيضاً لو أدرك الناس إدراكا صحيحاً أن الحكومة إنما تقوم لتسد هذا النقص الموجود فيهم ، ولتقوِّم هــــذا العوج المندس فى كيانهم — لو أنهم فطنوا لهذا لجاءوا إلى الحكومات يدعمون سلطانها . ويشدّون قواها عن رضىً واختيار ، لأنهم إنما يعملون هذا العمل لخيرهم جميعاً . . ولكنهم — بما ركب فيهم من قصور نظر لا يسمح لهم بالرؤية إلا فى دائرة ذواتهم — لا يرون عائدات الخير التى تعود عليهم من قيام حكومة ذات سلطان عليهم .

من أجل هذا قامت الحكومات ، غريبة عن إحساس الناس ، بعيدة عن مشاعر الرضا فى نفوسهم !

٢ — الحكم عقد بين الحاكم والمحكومين :

ويذهب « روسو » فى نشأة الحكم مذهباً آخر غير هذا الذى يذهب إليه «هيوم » فهو يرى أن الحكم يقوم على أساس التعاقد بين الحاكم والمحكومين . كما يقوم المجتمع أصلا على أساس من التعاقد بين أفراد المجتمع .. بل إن «روسو» ليرى أن العقد الاجتماعى هو عقد سياسى ضمناً ، بل ويرى أن العقد السياسى هو إمتداد للعقد الاجتماعى « ونتيجة » لازمة من نتائجه .

ويقرر « روسو » أنه يمكن أن يحكم المجتمع نفسه بنفسه ، بعد أن تمّ تعاقد أفراده على قيام المجتمع .

يقول « روسو » :

إن عقد الاتحاد — بين أفراد المجتمع ينطوى على التزام متبادل بين المجموع والأفراد . . وأن كل فرد كأنما يتعاقد مع نفسه ، ويترتب عليه بموجب هذا التعاقد التزام مزدوج . . بوصفه عضوا فى المجموع صاحب السيادة قِبَلَ الأفراد الآخرين . . وبوصفه مواطناً عضواً فى الدولة قِبَلَ المجموع صاحب السيادة . . » (١)

يريد « روسو » أن يقول : إن الفرد حين يدخل فى تعاقد مع الأفراد الآخرين ليقيم مجتمعاً معهم ، وحين يتم هذا التعاقد ، ويقوم المجتمع — يصبح الفرد ملزما بالتزام مزدوج : التزام نحو أفراد المجتمع فردا فردا . . لأنه حينئذ ينظر إليهم بعين المجتمع الذى أصبح هو جزءا منه . . والتزام آخر نحو المجتمع . . لأنه حينئذ ينظر إلى هذا المجتمع من الخارج . . من ذاته هو باعتباره مواطناً . . عضواً فى الدولة . .

ويفرق « روسو » بين هذا التعاقد ، وبين التعاقد المدنى الذى يعقد وإنسان مع نفسه . . إن الفرد هنا فى التعاقد الاجتماعى متعاقد مع نفسه أيضا ، لأنه بعد أن يتم التعاقد يصبح هو جزءا من الطرف الآخر الذى تعاقد معه ، ولكن هناك فرق بين الحالين :

يقول « روسو » :

« بيد أننا هنا لا نستطيع أن نطبق قاعدة القانون المدنى التى بمقتضاها لا يترتب على المرء التزام بمقتضى تعاقده مع نفسه . . لأن هناك فارقا كبيرا بين واجب الإنسان نحو نفسه ، وواجبه نحو مجموع هو جزء منه . . »

ومعنى هذا أن الإنسان فى تعاقده مع المجتمع يعتبر متعاقدا مع نفسه ، والمتعاقد مع نفسه غير ملزم بما ضمّ عليه العقد ، إذ لا يتقيد المرء بقيد من صنع يده .

ويرتب « روسو » على هـذا أن الجسد السياسى — صاحب السيادة — لا يلتزم بالقانون الذى يصدره . . لأنه تعاقد مع نفسه . .

يقول « روسو »

« وهنا ينبغى الإشارة إلى أن القرار العام الذى يتطلب الطاعة من جميع الرعايا نحو صاحب السيادة لديهم بسبب الالتزام المزدوج بالنسبة لكل منهم — لا يمكن — على النقيض من ذلك أن يلزم صاحب السيادة نحو نفسه ، ومن ثَمّ فإنه مما يتناقض وطبيعة الجسد السياسى أن يفرض صاحب السيادة على نفسه قانونا لا يستطيع أن ينقضه »[1] .

ومعنى هذا أن المجتمع هو كله جسد سياسى ، أو بمعنى آخر هو المجتمع والحكومة معاً . . فليس هناك حكومة منفصلة عن المجتمع ، وإنما المجتمع هو مجتمع وحكومة معاً ، يتولى جميع أفراده تنظيم الحياة فى هذا الجسد السياسى ، كما تقوم أعضاء الجسد الحيوانى جميعها متساندة متعاونة لخدمة هذا الجسد . .

وهذه صورة من المجتمعات لا تكاد تقع فى الحياة ، وإن وقعت ففى مجال ضيق ، وفى فترة محدودة من عمر هذا المجتمع ، كما حدث شىء يشبه هذا فى المجتمع اليونانى . . حيث كانت كل مدينة تكوّن مجتمعاً خاصّاً ، وكان المجتمع كله حكومةً ، ومجتمعاً معاً . .

مقومات الجسد السياسى :

يرى « روسو » أن الجسد السياسى إنما هو حصيلة التقاء الإرادات المختلفة فى أفراد المجتمع على غاية واحدة ، واجتماعها على مصلحة مشتركة ، وأنه إذا كان فى الإنسان نزعات تذهب بإرادته إلى ما يحقق مصلحته الخاصة ، فإن فى الإنسان أيضا قدرا — ولو ضئيلا — من النزعة الاجتماعية يميل بقـدر — ولو ضئيل — من إرادته نحو غاية مشتركة بينه وبين الجماعة .

---

(١) العقد الاجتماعى ص ٤٩

يقول « روسو » :

« إن الإرادة العامة وحدها هى التى تستطيع توجيه قوى الدولة نحو الهدف من إنشائها .

« لأنه إذا كان تعارُضُ المصالح الخاصة هو الذى جعل إنشاء المجتمعات ضروريا ؛ فإن اتفاق هذه المصالح نفسها هو الذى يجعلها فى حيز الإمكان . . إذ أن مافى هـــذه المصالح المختلفة من عنصر مشترك هو ما يكوّن الروابط الاجتماعية ، ولو لم يكن هناك شيء من الاتفاق بين جميع هذه المصالح لما قامت مجتمعات مطلقا ! . . ومن ثمّ فإن المصلحة المشتركة وحدها هى ما ينبغى أن يقوم حكم المجتمع على أساسها . .

« والواقع أنه لم يكن من المتعذر أن تتلاقى إرادة خاصة فى نقطة ما مع الإرادة العامة ، وإن كان من المستحيل — غالباً — أن يكون هذا التلاقى ثابتاً ومستقرا . .

« لأن الإرادة الخاصة تجنح بطبيعتها إلى المحاباة ، بينما تجنح الإرادة العامة إلى المساواة ، كما أنه أكثر من هذا استحالةً أيضا أن يكون هناك ضمان لهذا التلاقى ، وإن من الضرورة مع ذلك أن يوجد هذا التلاقى دائما ، فهو يوجد بمرد الصدفة ، وليس نتيجة لتدبير » !!

ثم يقول أيضا :

« وقد يستطيع صاحب السيادة — الجسد السياسى — أن يقول : أريد الآن ما يريده هذا الشخص أو ذاك ، أو على الأقل ما يقول إنه يريده » . . ولكنه لا يستطيع أن يقول : إن ما سيريده هذا الرجل غداً سأريده أنا ، حيث أنه يكون من السخف أن تقيد الإرادة نفسها بالمستقبل ! .

« ومن ثم فإن الشعب إذا وافق على مجرد الطاعة فإنه يحل نفسه بمقتضى هذا التصرف ، ويفقد صفته بوصفه شعباً . .

فمجرد أن يوجد سيد للشعب لايعود الشعب صاحب سيادة :

ومن ثمّ يتحطم الجسد السياسي : (١)

ولا بأس أن نقف وقفة عند هذه الآراء . . نجملها فى عبارة محدودة ، ثم نبدى ملاحظتنا عليها ، ورأينا فيها . .

فأما الآراء التى يريد « روسو » إبرازها هنا فهى :

أولا : أنه لابد من قيام إرادة عامة فى المجتمع . . هى الجسد السياسى الذى يتحقق به الخير المشترك ، وبغير هذه الإرادة لايقوم مجتمع أبداً .

وثانيا : إمكان تلاقى الإرادات الخاصة مع الإرادة العامة فى نقطة ما ، ولكن لا ضمان لهذا التلاقى ، ولا ضابط له ، وإنما يقع بمحض الصدفة . !

وثالثا : الإرادة العامة هى التى تعطى الجسد السياسى — أى الشعب — صلاحية حكم نفسه بنفسه . دون حاكم يختار من بين أعضائه للقيام بهذه المهمة .

هذا هو مجمل رأى «روسو» فى تقريره نظرية الجسد السياسى « أو الدولة » .

ولنا على هذه الآراء ملاحظتان :

أولاهما : هذا التلاقى الذى يتم بين إرادات الأفراد من غير ضمان ، بل بالصدفة — كما يقول — روسو — لا يمكن أن يحقق وحدة سياسية دائمة ، فإنه كما تلتقى الإرادات صدفة ، قد تنحلّ وتتفرط صدفة أيضا !

وثانيا : لكى يكون للمجتمع ضمان من هذا الانحلال المطل عليه من مفاجآت الصدف ينبغى أن توجد الحكومة التى من شأنها أن تجمع إرادات المجتمع فى كيانها ، وتكون هى عوضا عن هذه الإرادات إذا لم تتلاق فى حال من الأحوال .

وقد حاول بعض المفكرين الذين يؤيدون وجهة نظر « روسو » فى « العقد السياسى » — حاول هؤلاء أن يقربوا بين هذه المثالية فى هذه النظرية ، وبين

واقع الحياة . ليكون لها مجال للعمل فى المجتمع الإنسانى . .

فالفيلسوف لوك « يرى أن المجتمع المتعاقد له أن يعين هيئة أو حكومة من الأوصياء ، دون أن يعقد معها اتفاقا ، وله أن يعزلها بسبب نقضها لشروط الوصاية ، على حسب تفسيره هو لطبيعة الوصاية .

هذا على حين يرى (هوبز) أنه قد يتنازل المجتمع عن جميع حقوقه «لعملاق» صاحب سيادة مطلقة ، ولا يعقد هذا العملاق أى اتفاق مع المجتمع . وبذلك لا يخضع لأى من الحدود التى يفرضها الحكم »[1]

وأنت ترى هنا أن العقد الاجتماعى يتحول فى نظر لوك إلى وصاية أو وكالة

يقول لوك :

«فالمجتمع ، وهو منشىء الأمانة يدخل فى عقد مع الأمين — أى الحكومة — بيد أنه لا يدخل فى أى عقد بوصفه مستفيدا .

«والمجتمع هو المستفيد أساساً من هذا العقد !

« ومن وجهة النظر هذه — أى باعتبار أن المجتمع وحده هو المستفيد — تدخل الحكومة فى عقد مع المجتمع الذى تقوم نحوه بدور الأمين ، بل هى تقبل التزاما ، وهى تقبله من جانب واحد ، مدركة للحدود التى تفرضها الأمانة ، ويفرضها قانون « الله والطبيعة » الذى يقف وراء الأمانة !

« ومن ثم فإن الأمانة السياسية هى عبء من الالتزام ، وأبرز جانب فيها هو المسئولية التى تترتب فيها على إساءة استعمال السلطات التى تنطوى عليها الأمانة ، أو حتى إهمالها ، وهى مسئولية قد تؤدى إلى العزل بسبب إهمال لا يتفق مع الأمانة »[2]

والتفرقة هنا واضحة بين العقد ، وبين الأمانة . فالعقد ينتهى عن اتفاق بين طرفين مستقلين لكل منهما حقوقه الخاصة به ، ويسلم كل منهما فى بعض

---

(١) ، (٢) العقد الاجتماعى ص ٣٥

الحقوق مقابل عوض يتلقاه ، على حين أن الأمين لا يُعَدُّ طرفاً مستقلا قِبَلَ المستفيد ، فليس هناك تسليم متبادل فى الحقوق مقابل عرض متبادل ، فعلى الأمين واجبات ، وليس له حقوق فى مواجهة المستفيد ، وللمستفيد حقوق ، وليس عليه واجبات قِبَلَ الأمين) [١]

إن الحكومة — حسب رأى لوك — تتلق سلطة الحكم على أنها أمانة فى يدها ، وهذا التلقى هو التزام بأداء الأمانة كاملة !

ولا يقف (لوك) عند هذا ، بل يجعل أمانة الحكم مستندة إلى الله ، وأن الذين يتلقون هذه الأمانة إنما يتلقونها من الله ، فإذا خانوها ، فقد خانوا الأمانة فى ذاتها ، وخانوا الله أيضا . .

ويغلو (لوك) غلواً كبيراً حين يجعل (الأمين) — الحكومة — ملتزمة بحقوق تؤديها ، قِبَلَ الشعب ، وليس على الشعب واجبات يؤديها إزاء هذه الحقوق . .

وسنرى أن الشريعة الإسلامية وإن جعلت الحكم أمانة فإنما جعلته أمانة مشتركة بين الحاكم والمحكومين . . على الحاكم العدل والإحسان ، وعلى المحكومين الطاعة والولاء . .

٣ — الحكم : للقوة فى عقد ضمنى

أما دافيد هيوم فإنه يعطى صك العقد ليد الحاكم ، ويجعله الطرفين المتعاقدين معاً ويقول هيوم :

« وواضح أن مامن عقد واتفاق تمّ بصراحة من أجل الخضوع العام ، فهذا بعيد فى كل أمة عن فهم البدائيين » .

ثم يقول :

« إن جميع الحكومات القائمة فى الوقت الحاضر ، وتلك التى يحكى عنها — أى

---

(١) عقد الاجتماعى ص ٢٦

بجل فى التاريخ — قامت أصلا : إما على أساس الاغتصاب ، وإما الفرد ، وإما عليهما معا ، دون أى تظاهر بالحصول على رضا الناس ، أو خضوعهم الاختيارى . .

« فعندما يوضع رجل جرىء ماهر على رأس جيش ، أو فريق ، كثيراً ما يكون من اليسير عليه أن يفرض سيطرته بالعنف أحيانا ، وبالادعاء الكاذب أحيانا ، على شعب يزيد تعداده مئة مرة على أنصاره ، فلا يسمح بأن تتسرب علناً أية معلومات تجعل فى وسع أعدائه أن يعرفوا عددهم ، أو قوتهم بالتأكيد ، ولا يسمح لهم بالوقت الكافى ليتجمعوا فى هيئة واحدة ليقاوموه ، بل وقد يكون جميع أولئك الذين استعملهم أدوات فى اغتصابه ، ممن يريدون سقوطه ، ولكن جهلكم بحقيقة نوايا بعضهم يجعلهم فى خوف ، وهو السبب الوحيد فى سلامته »[1] .

إذن فالحكم إنما يجىء إلى الناس — حسب رأى هيوم — فى صورة قوة قاهرة ، تفرض سلطانها على الناس بيد رجل ، قوىّ ، ذكىّ ، ماهر ، متسلط ، استطاع بقوته وذكائه أن يضع نفسه موضع الحاكم ، وأن يفرض سلطانه على المجتمع !

فإذا كان ثمة تعاقد بعد هذا فهو التعاقد القائم على التسليم بالأمر الواقع !

يقول « هيوم » :

« وعندما يقوم حكم جديد — أيا كانت الوسائل التى قام بها — لا يرضى الناس عنها عادة ، ويطيعونها خوفاً ، وللضرورة ، أكثر مما يطيعونها على أساس من فكرة الولاء أو الالتزام الأخلاقى . .

« أما الأمير — الحاكم — فيكون على حذر ، وفى حال من الغيرة !

« ويزيل مضىّ الزمن هذه المصاعب بالتدريج ، وتتعود الأمة أن تعتبر حكامها شرعيين أو وطنيين ، بعد أن كانت تنظر إليهم فى أول الأمر بوصفهم أسرة غاصبة ، أو غازية ، أو أجنبية .

---

(٣) العقد الاجتماعى ص ٥٧

« وهم — أى العامة — لا يلجأون فى تكوين هذا الرأى إلى أية فكرة عن الرضا الاختيارى ، أو التعهد ، وهم يعرفون أن الرضا أو التعهد فى حالتهم لم يَسْعَ إليه أحد أبداً ، ولم يتوقع مطلقاً !

« فالتأسيس الأول — للحكم — تَمّ بالعنف ، وخضع الناس له بحكم الضرورة . . وإدارة شئون البلاد بعد ذلك تدعمها أيضاً القوة ، ويخضع لها الناس باعتبار الأمر إلزاماً ، لا اختياراً ، وهم لا يفكرون فى أن رضاهم يضفى على أميرهم حقا ، ولكنهم يقبلون طواعية لأنهم يعتقدون أنه اكتسب بمضى المدة حقاً مستقلا عن اختيارهم ، أو رغبتهم »[1]

إن « هيوم » يعطى الواقع قوة الحق ، ويقيمه مقامه ، كما أنه يجعل للزمن آثاراً واضحة فى التمكين للواقع من نفوس الناس ، وفى تغيير صورته ، من كراهية وتبرم ، إلى رضى وتسليم . .

ويبدو أن « هيوم » يبرر الحكم الذى يستند إلى القوة والغصب ، ويقيم له منطقاً يقبله الناس به . . فالحكم عنده ، وإن يبدأ مستظلا بالقوة مستنداً إليها ، فإنه ينتهى بالإلف والمرادعة ، ويلتقى آخر الأمر بالناس فى وفاق ورضى ، وكأنه جاء إليهم فى صورة تعاقد بينهم وبين الحاكم !

إن « هيوم » ينظر إلى الحياة نظرة واقعية . غير تلك النظرة الشاعرية الحالمة التى ينظر بها « روسو » أو حتى « لوك » .

إن رضا الناس فى صورة « إجماع » لا يقع على صورة دقيقة محكمة بحال أبداً ، كما أن هذا الرضا لا يتوقف عليه قيام الحكومات التى يستطيع مؤسسوها لأول مرة أن يجدوا فى القوة التى بين أيديهم ما يغنيهم من استجداء هذا الرضا الإجماعى ، الذى لا نكاد يجتمع عليه الناس أبداً !

وهل انتظر « معاوية » — مثلا — الحصول على هذا الرضا فى البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ؟

---

(١) العقد الاجتماعى ص ٦١٠

لقد كانت القوة فى يد « معاوية » ، وكان فى يده من القوة ما يغنى عن طلب هذا الرضا . . ولكن كان من تدبيره وسياسته أن يرفد هذه القوة بما يستطيع الحصول عليه من الرضا ، الذى هو فى غير حاجة ماسة إليه . .

ولقد جلس « معاوية » للوفود يوماً يتقبل مبايعتها ليزيد ، ويستمع لخطبائها وشعرائها .. فقام خطيب القوم ليقول :

« أمير المؤمنين هذا — وأشار إلى معاوية !

« فإن هلك فهذا — وأشار إلى يزيد !

« فمن أبى فهذا — وأشار إلى سيفه !

فقال معاوية : اجلس . . لافُضّ فوك . . أنت خطيب القوم !

يقول « هيوم » :

إن العقل والتجربة تدلنا على أن المجتمعات السياسية ترجع إلى أصول أقل دقة وانتظاماً من ذلك . .

« ولو أراد المرء أن يختار الفترة التى كان فيها رضا الناس أقل مايكون اعتباراً فى الشئون العامة لكانت تلك الفترة هى بالذات التى جرى فيها إنشاء حكم جديد . .

ثم يقول :

إن افتراض أن كل الحكومات تقوم على الرضا هو بمثابة أن كل الناس يتمتعون بذلك الكمال فى الفهم ، الذى يجعلهم يدركون مصلحتهم الخاصة دائماً ، ولكن هذه الحالة من الكمال أسمى من الطبيعة البشرية .

« وإذا لجأتَ إلى القول بأن هناك على أى الأحوال رضاً ضمنياً ، أو ما يدل على وجود هذا الرضا ، ودعّمت حجتك بأن الإنسان يعلن عن هذا الرضا بمجرد بقائه فى البلد ، وهو يستطيع مغادرتها إذا شاء . . !

« فالجواب : أنه لا يمكن أن يكون هناك رضى من أى نوع كان إلا إذا كانت

هناك حرية فى الاختيار ، وأنه ليس هناك فى الواقع مثل هذه الحرية .. إنك لن تستطيع أن تهاجر دون إذن إذا رأى الملك ذلك !

«وهل يمكن القول بأن العيش تحت حكم أمير يستطيع المرء أن يغادره يعنى أن كل فرد قد أعرب عن رضاه الضمنى بسلطته ، وتعهده بطاعته ؟

« تستطيع الإجابة بأن هذا الرضا الضمنى لا محل له !

«وهل تستطيع القول بصورة جدية بأن فلاحاً ، أو جاهلا فقيراً لديه حرية الاختيار فى مفارقة بلده ؟ وكيف ؟ وهو لا يعرف لغة أجنبية ، أو عادات بلاد أخرى .. ويعيش من يوم إلى يوم على الأجور الضئيلة التى يحصل عليها ؟

« إن لنا — قياساً على ذلك — أن نؤكد أن الإنسان ببقائه فى السفينة إنما يقبل طواعية سيطرة ربانها ، رغم أنه نقل إليها وهو نائم ، وليس أمامه لكى يغادرها إلا أن يقفز فى المحيط ويهلك[1] .

ويكاد « هيوم » يصرح بأن هذا الحكم فى صورته تلك ، وإن أهدر إرادة الناس ، وأبطل اختيارهم ، وطلع عليهم من حيث لا يحسبون ولا يقدرون — هذا الحكم هو خير للناس ، وأبقى لوجودهم مما لو تركوا وشأنهم : بلا حاكم ولا حكومة !

٤ — الحكم وظيفة إنسانية .

يذهب « ابن خلدون » إلى أن الحكم — ويعبر عنه بالملك — منصب طبيعى ، ووظيفة من وظائف الحياة فى نظام العمران . . لا يمكن أن تخلو منه الحياة الإنسانية إذا صارت إلى مستوى المجتمعات التى تضم أعداداً كثيرة من الناس .

والحكم فى نظر ابن خلدون ولو أنه وظيفة طبيعية ، ضرورية فى الحياة — لا يقوم حين يقوم إلا على القوة والقهر ، ولا يستند أكثر ما يستند إلا إلى العصبية التى ترد عنه أعين الطامحين إليه ، أو الطامعين فيه .. إذ كان هذا المنصب

(١) العقد الاجتماعى ص ٦٢ .

رغبة كل نفس ، ومهوى كل قلب ، لما ركب فى نفوس الناس من التطلع إلى السلطان ، والتنافس فى الوصول إليه ، وبذل المهج ، والأرواح فى الاستمساك به .

يقول ابن خلدون :

« الملك منصب طبيعى للإنسان ، لأنا قد بينا أن البشر لا يمكن وجودهم وحياتهم إلا باجتماعهم ، وتعاونهم على تحصيل قوتهم ، وضروراتهم .

« وإذا اجتمعوا دعت الضرورة إلى المعاملة واقتضاء الحاجات ، ومدّ كل واحد منهم يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه ، لما فى الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان ، بعضهم على بعض ، ويمانعه الآخر عنها ، بمقتضى الغضب والأنفة ، وبمقتضى القوة البشرية فى ذلك ، فيقع التنازع المفضى إلى المقاتلة ، وهى — بدورها — تؤدى إلى الهرج ، وسفك الدماء ، وإذهاب النفوس ، المفضى إلى انقطاع النوع ، وهو مما خصه البارىء — سبحانه — بالمحافظة . . فاستحال بقاؤهم فوضى ، دون حاكم يزع بعضهم عن بعض . . واحتاجوا من أجل ذلك إلى الوازع ، وهو الحاكم عليهم . .

« وهو بمقتضى الطبيعة البشرية : الملك ، القاهر ، المتحكم .

« وهذا الملك كما تراه منصب شريف ، تتوجه نحوه المطالبات ، ويحتاج إلى المدافعات ، ولا يتم شىء من ذلك إلا بالعصبيات .

وإنما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ، ويجبى الأموال ، ويبعث البعوث ، ويحمى الثغور ، ولا تكون فوق يده يد قاهرة ، وهذا هو معنى الملك وحقيقته[1]

ويلاحظ أن ابن خلدون هنا لم ينظر إلى الشعب ، ولم يفكر فى دوره فى قيام « الحكومة » التى تتولى تدبير أمره ، ولم يحدد الصفة التى يتصرف الحاكم فى الشعب بمقتضاها . . أهى عقد وتعاقد بينه وبين الشعب كما يقول « روسو » ؟ أم هى أمانة كما يرى لوك ؟ أم هى القوة والجبرية التى تتحول بمضى الزمن إلى تسليم ورضى كما يرى « دافيد هيوم » ؟

(١) مقدمة ابن خلدون صـ ١٧٢ .

لم يقف ابن خلدون عند شيء من هذا . . ذلك أنه يرى أن كلا من الشعب والملك كيانان طبيعيان . . ينشأ كل منهما نشأة مستقلة عن الآخر !

ومع هذا ، فإن « ابن خلدون » لا يغفل أمر الصلة القائمة بين كل من الحاكم والمحكوم . . فالملك وإن كان له وجوده الطبيعي ، والشعب وإن كان له وجوده الطبيعي كذلك — فإن كلا منهما يتأثر بالآخر ويؤثر فيه .

يقول ابن خلدون :

« إن الملك والسلطان من الأمور الإضافية ، وهى نسبة بين منتسبين . . فحقيقة السلطان : أنه المالك للرعية ، والقائم فى أمورهم عليهم . . فالسلطان من له رعية . !

والرعية من لها سلطان . !

« والصيفة التى له — أى للسلطان — من حيث إضافته لهم هى التى تسمى « الملكة » ، وهى كونه يملكهم » [(١)]

هذه هى الرابطة بين الحاكم والمحكوم كما يراها ابن خلدون ، بل ، كما يراها كل معاصريه من حكام ومحكومين . . الشعب رعية . والملك راع ، والرعية مِلْكٌ للملك يتصرف فيها تصرف المالك فيما يملك .

ويفرق ابن خلدون بين أصحاب الملك بحسب سياستهم فى الرعية . وحسن أو سوء رعايتهم لما استرعوه . .

يقول ابن خلدون :

« فإذا كانت هذه المِلْكة وتوابعها من الجودة بمكان حصل المقصود من السلطان على أتم الوجوه . . كما أنها إذا كانت جميلة صالحة كان ذلك مصلحة لهم .

« وإن كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضررا عليهم وإهلاكا لهم . [(٢)]

ثم يذكر ابن خلدون الصفات التى تجعل ملكة الملك حسنة رشيدة . . يقول : ويعود حسن المِلْكة إلى الرفق . . فإن كان الملك إذا كان قاهرا باطشا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٧
(٢) « « « ص ١٧٨

بالعقوبات ، منقبا عن عورات الناس أو تعديد ذنوبهم شملهم الخوف والذل ، ولاذوا منه بالكذب ، والمكر ، والخديعة ، فتخلقوا بها ، وفسدت بصائرهم وأخلاقهم . . وربما خذلوه فى مواطن الحروب والمدافعات ، فتفسد الحماية بفساد النيات ، فتفسد الدولة ، ويخرب السياج . !

« وإذا كان رفيقا بهم متجاوزاً عن سيئاتهم استناموا إليه ، ولاذوا به ، وأشربوا محبته ، واستماتوا دونه فى محاربة أعدائه..فاستقام الأمر من كل جانب !

« وأما توابع الملكة ، فهى النعمة عليهم ، والمدافعة عنهم . . فالمدافعة بها تتم حقيقة الملك . . وأما النعمة عليهم ، والإحسان اليهم فمن جملة ، الرفق بهم ، والنظر لهم فى معاشهم ، وهى أصل كبير فى التحبب إلى الرعية »[1] .

ثم ينتهى ابن خلدون من هذا إلى رأى قد يبدو غريبا يخالف ما ألف الناس أن يتمثلوه فى الحاكم وأن يختاروه من أجله : وهوا الفطنة والذكاء ، إن ابن خلدون يرى أن حدة الذكاء فى المَـلِك مضرة بالرعية . . يقول :

« واعلم أنه قلما تكون ملكة الرفق فيمن كان يقظا شديد الذكاء من الناس، وأكثر ما يوجد الرفق فى الغفل والتغفّل : وأقل ما يكون فى اليقظ أنه يكلف الرعية فوق طاقتهم ، لنفوذ نظره فيما وراء إدراكهم ، واطلاعه على عواقب الأمور فى مباديها بألمعيته ، فيهلكون ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « سيروا بسير أضعفكم » . . ومن هذا الباب اشترط الشارع فى الحاكم قلة الإفراط فى الذكاء ، ومأخذه — أى مأخذ الشارع هذا الشرط — من قصة « زياد بن أبى سفيان » لما عزله « عمر » عن العراق ؛ وقال له : لم عزلتنى ياأمير المؤمنين ؟ . ألعجز أم لخيانة ؟ فقال عمر : لم أعزلك لواحدة منهما ، ولكنى كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس ، فأخذ من هذا أن الحاكم لايكون مفرط الذكاء والكيس ، مثل زياد بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، لما يكون فى ذلك من التعسف وسوء الملكة ، وحمل الوجود على ماليس فى طبعه ! !»[2]

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٨

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٨

وإذا كانت سياسة الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد سلكت فى بعض الأحيان هذا المسلك مع بعض الأشخاص الذين عرفوا بالفطنة والدهاء فلم يولّهم الحكم على الناس — فإن ذلك لاينبغى أن يكون حكما عاما يؤخذ به فى جميع الأحوال ومع جميع الأذكياء .. ثم إذا أريد الأخذ به فليكن منظورا إليه على أنه تدبير من رجل عرف بالحكمة ، وصدق النظر ، وسداد الرأى ، وأن فيه الأسوة الصالحة ، والقدوة الطيبة . . ولكن لاينبغى أن يكون ذلك محسوباً على أنه شريعة واجبة الاتباع ، فى سياسة الحكم ، وتقدير حاجة المحكومين . . فقد يوجد مع الذكاء الحكمة والرفق ، وقد يكون معه الخفة والطيش . . فشتان بين ذكاء وذكاء . .

وما نحسب أن عمر رضى الله عنه عزل زياداً — إن صح هذا الخبر — لذكائه وحده ، بل لابد أن يكون قد اجتمع فيه مع هذا الذكاء حال انطوت عليها نفسه لايصلح معها لسياسة العراق ، ولو وجه إلى بلد آخر وصحب معه هذا الذكاء لاستقامت له أمور الحكم ، وصلح عليه أمر الناس !

وهل كان عمرو بن العاص دون زياد بن أبيه ذكاء وفطنة ؟ لقد ولى عمر رضى الله عنه عمرو بن العاص « مصر » . . فكيف يتفق هذا مع ذاك ؟

* * *

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٨

الباب الثالث

الملكية

الملكية والحكومة :

لم يعرف الناس التملك ، أو بمعنى أدق لم يجدوا طعمه ، ولم يحققوا غايته إلا فى ظل الحكومات ، التى كان من أبرز آثارها فى المجتمعات احترام الملكيات ، وحمايتها من عدوان المعتدين . . وأنه فى مقابل اطمئنان الناس على ما فى أيديهم تنازلوا عن كثير من حريتهم مختارين ، ليحققوا هذا الاطمئنان ، ويعيشوا فى ظله .

وأكثر من هذا ، فإن التملك كان داعية من دواعى قيام الحكومات ، والتعجيل بظهورها فى الحياة البشرية . . فإنه لولا المِـلْك لما احتاج الناس إلى حكومة تقوم عليهم ، وتنظم موارد حياتهم ومصادرها . . فما اختلف الناس فيما بينهم ، ولا وقع الشر فى مجتمعهم إلا من أجل الملك والتملك . . إذ أنه حين تتجه رغبات الناس إلى شىء من الأشياء ، يشتد تنافسهم فيه ، وتسابقهم عليه . . ومن هنا يبدأ الاحتكاك ، فإن كان هذا الشىء بحيث لا يسع الناس ، ولا يتسع لرغباتهم وقع العدوان ، وقامت الحروب ، ولا حجاز لهذا الشر ، ولا مدفع له إلا بحكومة لها سلطانها الذى يلزم الناس حدودهم ، ويحفظ لهم ثمرات أعمالهم .

غريزة حب التملك . . وسيرها فى الحياة :

وحب التملك غريزة طبيعية فى الإنسان ، تدعوه إلى أن يضم إليه أكبر قدر مستطاع لحوله وحيلته أن يصـــل إليه من ماديات الحياة ، التى ينتفع بها فى وجوده ، ويكسب من ورائها قوة ومنعة ، أو جاهاً أو سلطاناً !

ولا نريد أن نبسط القول فى هذه الغريزة وفى آثارها فى حياة الناس ، وفى الصراع الطويل الذى قام بينهم من أجل إشباعها . . وإنما الذى نود أن نلفت إليه النظر من هذه الغريزة هو أن نعترف لها بفاعليتها فى الحياة ، وبأنها أقوى ظاهرة تدور فى المجتمع الإنسانى ، وتتحكم فيه ، وأنها القوة التى تدفع ركب الحياة فى كل متجه ، فلا يتوقف أبدا ، ولا يعتريه فتور ، ولا يمسه لغوب !

وهذه الغريزة ، أو الظاهرة — كما نسميها منذ الآن — لا تبدو فى صورة مشكلة إلا حين يكون هناك مجتمع . . أما حيث لا يوجد مجتمع فلا تبرز المشكلة أبدا ، إذ كل شىء مباح لهذا الإنسان الذى تفرد وحده بالمكان ، والأشياء جميعاً . . المكان الذى يعيش فيه ، والأشياء التى تقع فى حيز هذا المكان . . فى أوسع حدوده ، أو الذى لا حدود له .

ومن هنا لا تبدو الملكية فى صورة مشكلة فى المجتمعات البدائية ، حيث ينطلق الناس إلى كل شىء ، وحيث تمتد أيديهم إلى كل شىء . . فالأشياء هناك مباحة للناس جميعاً . . ليس لأحد يد على شىء منها ! ولا حق على ثمرة من ثمارها .

فالشيوعية بمعناها المطلق الفسيح لا تتجلى فى أظهر معانيها وأوضحها إلا فى المجتمعات البدائية . . إنها شيوعية فطرية ، خالية من الضغط والتحكم ، بريئة من السخط والتبرم . . إنها لا تخضع لقانون ، ولا تقوم تحت حماية القوة .

لقد كانت هذه الظاهرة فى الحياة البدائية أمراً طبيعياً ، لم تتولد عن أحداث ، ولم تجىء عن ثورات ، ولا تقم على أنقاض أنظمة اقتصادية وسياسية واجتماعية منحرفة ، وإنما ولدت على صورتها تلك من غير أن يستولدها الناس ، أو يحدثوا أنفسهم بها . .

يقول « ول ديورانت » :

« فى الحياة البدائية تبدو الشيوعية — الشيوعية المطلقة — وكأنها النظام

الذى تقوم عليه هذه الحياة . فكل شىء فى حياة الناس هو للناس جميعاً » .

ويسأل « ول ديورانت » هذا السؤال :

لماذا احتفت الشيوعية البدائية ، حين نهض الإنسان إلى ما نطلق عليه فى شىء من التحيز ، اسم « المدنية » ؟

ويأخذ الجواب على هذا من فم الفيلسوف « تَمْنر » الذى يقول :

« إنها القناعة » أى أن القناعة هى السبب فى قيام الشيوعية فى المجتمع البدائى .

ثم يقول :

« إنها — أى القناعة البدائية التى تولدت عنها الشيوعية — ليست بيولوجية (طبيعية) فى اتجاهها ، لأنها عقبة فى سبيل تنازع البقاء ، وأنها لم تحفز الناس بما يكفى لتشجيعهم على الاختراع والنشاط ، والاقتصاد ، وأن عدم مكافأتها للأقدر ، وعقابها لمن هو أقلّ سوّى بين الكفايات تسوية تعاند النموّ ، وتعارض التنافس الناجح مع سائر الجماعات .

وكتب « لوكسيل » عن بعض القبائل الهندية فى الشمال الشرقى يقول : إنهم من الكسل بحيث لا يزرعون شيئاً بأنفسهم ، بل يعتمدون كل الاعتماد على احتمال أن غيرهم لن يرفض أن يقاسموه إنتاجه »[1] .

وهذا صحيح ، فإن الاشتراكية البدائية معناها أن الناس ما زالوا يعيشون فى عزلة اجتماعية ، وأن شرارة الحياة الإنسانية لم تنقدح بعد بينهم ، فإن هذه الشرارة لا تنقدح إلا بالاحتكاك ، الذى يتولد عن تصادم الرغبات !

إن ذاتية الفرد هنا لا وجود لها ، إذ أن هذه الذاتية لا تظهر إلا حين يكون الناس فى سباق مع الحياة ، تتكشف فيه مواهبهم ، وتبرز فيه ملكاتهم ، وتترتب به منازلهم .

ولا شك أن هذا الذى نسميه شيوعية هنا يختلف كثيراً عن « الشيوعية »

---

(١) قصة الحضارة — الجزء الأول من المجلد الأول ص ٣٣

التي ظهرت بعد ذلك فى الحياة ، بعد أن قطع الناس أشواطاً بعيدة فيها ، وبعد أن تفرقت بهم المذاهب والمنازل ، فقامت ثورات اجتماعية تريد أن تقضي على هذه الفوارق الشاسعة التي صارت بالناس إلى أحوال متباينة متباعدة . . أناس يملكون كل شيء ، وآخرون لا يملكون أى شيء . . أناس يموتون بالبطنة والتخمة ، وآخرون يموتون بالجوع والمسغبة . . وقد تمخضت بعض هذه الثورات عن هذا النظام « الشيوعى » الذى عرف فى هذا العصر . وفى كثير من العصور الماضية .. فجاء هذا النظام محملا بغبار كثير من الأحقاد والأضغان ، وملطخاً بدماء غزيرة من هذا الصراع المرير ، الذى احتدم بين الطبقات،وهيهات أن يذهب هذا الغبار من الأحقاد والأضغان المنعقد فى سماء الشيوعية ، وهيهات أن تجف الدماء التي تسيل على أرضها !

أرسطو والملكية :

كانت مسألة التملك مثار فتن ، وثورات ، وقلاقل ، وحروب فى المجتمعات الإنسانية كلها ،من أقدم العصور إلى يوم الناس هذا ، وإلى غدهم، ومابعد هذا الغد!

وحسبنا أن نذكر هنا أن « أرسطو » (ولد سنة ٣٨٤ ق . م) قد أدرك هذه المشكلة ، وكانت قد دارت دورتها فى الحيـــاة ، وفى عقول الفلاسفة وأرباب السياسة .

ولقد أفسح « أرسطو » لهذه المشكلة مجالا كبيراً فى كتابه « السياسة » ، وحاول جاهداً أن يجد لها حلاً ، وأن يضع حدا لهذا الصراع المحتدم حول «الملكية » التي تثير صداعاً دائماً فى كيان المجتمع الإنسانى كله !

سأل « أرسطو » نفسه هذا السؤال :

« ماذا يجب أن يكون نظام الملكية فى أحسن دستور للدولة ؟ وهل يلزم قبول شيوعية الأموال أو رفضها ؟

ثم فرع على هذا السؤال أسئلة أخرى :

« أينبغى أن تشمل الشيوعية الأعيان أم الثمرة فحسب ؟

« وعلى هذا .. هل ينبغى أن تحصل غلات الأرض المملوكة للأفراد فتستهلك ثمراتها على الشيوع كما تصنع بعض الأمم ؟

« أو على ضد ذلك الملكية والزرع معاً ، باعتبارهما شائعين ، ينبغى أن تقسم ثمراتهما بين الأفراد ؟ . . وهو نوع من الشيوعية يؤكدون أنه موجود الآن عند بعض الشعوب المتوحشة ؟ .

« أو هل يجب أن تكون العقارات وغلاتها على السواء موضوعة فى المشاع ؟

الشيوعية ومساوئها :

ويجيب «أرسطو» على السؤال الخاص بالقول بشيوعية الثمرات لا الأعيان . فيقول :

« إذا سُلِّمت الزراعة إلى أيد أجنبية[1] فالمسألة ليست معقدة تماماً ، وحلها أسهل سهولة .

« لكن إذا كان أهل المدينة يعملون بأشخاصهم لأنفسهم كانت المسألة أشدّ تعقداً وحيرة ..

« فإن العمل والاستمتاع بما أنهما ليسا موزعين بالسويّة ، فستثار بالضرورة مسألة أولئك الذين يستمتعون أو يأخذون كثيراً ، إذ يعملون قليلا .. تثار عليهم ثائرة أولئك الذين يؤتون قليلا ، إذ هم يعملون كثيرا !

« إن روابط العيش ، والاشتراك فى المنافع بين الناس هى على العموم من الصعوبة بموضع .. لكنها أشد من ذلك بكثير فى الأمر الذى يشغلنا ها هنا — وهو القول بشيوعية الأموال — .

« إلى هذا المحذور الأول — أى الاحتكاك بين الناس بسبب روابط العيش والاشتراك فى المنافع — تضيف شيوعية الأموال محذورات ليست أقل خطر !

« وإنى لأفضل عليها بكثير النظامَ الحاضر مكملا بالآداب العامة ، ومستنداً إلى قوانين حسنة .. إنه يجمع بين مزايا النظامين الآخرين .. أعنى نظام الشيوعية ، والحيازة على جهة الاختصاص ..

(١) يريد بالأيدى الأجنبية عمال يعملون من غير أهل المدينة ، حيث كانت المدن تعيش منعزلة عن بعضها أشبه بالدول المستقلة .

«وحينئذ تصير الملكية مشتركة بوجه ما ، وهى باقية كما هى فردية .. فإن الاستغلالات حيث إنها مفصلة تمام الانفصال . لا توجد شيئاً من المشاجرات ، بل هى تنمو أكثر ، لأن كل واحد يهتم بها كما يهتم بمنفعة شخصية ، وفضيلة أهل المدينة تنظم استخدامها كما فى المثل : « بين الأصدقاء كل شيء شائع »[١] .

ونحن إذ نستمع إلى آراء « أرسطو » هذه فى الملكية الفردية نعجب أشد العجب لهذه التشابه الكبير بين هذه النظرة الحكيمة التى نظر بها ذلك العقل الكبير إلى نظام الملكية . وما جاءت به الشريعة الإسلامية بعد ذلك فى شأن هذا النظام . .

إن أرسطو يقر مبدأ الملكية الفردية المطلقة من كل قيد ، إلا قيد الآداب العامة التى تجعل ما فى يد الفرد غير مقصور عليه وحده ، بل إن هده الآداب العامة تجعل للناس حقاً فيما فى يده . . وهذا الحق لا يفرضه قانون ، ولا تمليه سلطة ، وإنما تدعو إليه المروءة والإنسانية . .

أما الإسلام فقد اعترف أيضا اعترافا صريحاً بالملكية الفردية وأطلقها من كل قيد إلا قيد الآداب العامة التى ألقاها فى نفوس أتباعه..من التراحم ، والتواد ، والتعاطف ، والإخاء الذى يجمع الناس إلى الناس فى هذا الإحساس الإنسانى الوارد من أصفى الموارد ، وأنقى المشاعر !

ويشعرنا أرسطو بهذا القول بأن الحياة التى كان يحياها الناس لعهده كانت حياة أقرب إلى الخير الفطرى فى الناس ، وأشبه بالحياة التى كان عليها عرب الجاهلية قبل الإسلام من تكافل ومروءة ، ومؤاساة ، لم يهتدوا إليها بدين ، وإنما هى فطرة مطبوعة غير مصنوعة . .

يقول أرسطو :

« وحتى اليوم توجد فى بعض المدائن آثار لهذا المذهب — أى الملكية الفردية المكملة بالآداب العامة — تثبت أنه ليس بممتنع ، وعلى الخصوص فى

(١) السياسة لأرسطو ص ١٣٤

الدولة المنظمة تنظيما حسنا ، فإن المواطنين مع أنهم يملكون ملكا شخصيا فإنهم ينزلون لأصدقائهم عن بعض الأشياء ، أو يرخصون لهم فى الانتفاع بها على الشيوع . . ففى « لقد مونيا » لكل من أهلها أن يستخدم عبيد غيره وخيله ، وكلابه ، كما لو كانت ملكا خالصا له .

ثم يخرج أرسطو من هذا التعميم ، إلى التحديد ، فيقول :

« فمن البيّن إذن أن الأفضل هو أن تكون الملكية خصوصية ، وأن يكون الانتفاع بها وحده هو الذى يصيرها شائعة ، وإن لفتَ العقول إلى هذا الحدَّ من الرعاية يتعلق على الخصوص بالمقنِّن » (١)

إن أرسطو يقولها صريحة بأن الأفضل هو أن تكون الملكية خصوصية ، بمعنى أن يستحوذ الإنسان على ثمرة جهده وعمله . . أما الانتفاع بهذه الثمرة فإنه يرى فيها الشيوع ، وهو يعنى بهذا أن يضع المشرّع نصب عينيه أن تكون هناك حقوق للناس فى هذا الذى فى ملك الإنسان . . ! وذلك بما يفرض من ضرائب على كسب العمل أو على التركات الموروثة ونحو ذلك . . وهذا غير ما تفرض الواجبات الخلقية والإنسانية على القادرين من المالكين .

حب الذات ليس عيباً :

ويعود (أرسطو) ليؤكد أن حب الذات — الذى هو داعية التملك — ليس عيباً فى ذاته ، بل إنه قوة دافعة إلى العمل المثمر فى مجال التنافس الشريف وإنما يكون حب الذات كريها ممقوتا إذا انقلب إلى أثَرَة وشَرَه ، وتحول فى يد أصحابه إلى أداة تطلب المال للقهر والتسلط والاستعلاء على الناس واستعبادهم .

يقول أرسطو :

« ليس من المستطاع التعبير عن كل ما ينطوى عليه معنى الملكية والإحساس بها من اللذة » !

---

(١) السياسة لأرسطو ص ١٣٥

« فإن حب الذات الذى ينطوى عليه كل منا ليس شعوراً مستنكراً ألبتة ، بل هو إحساس طبيعى محض .

« وهذا لا يمنع أن يُـلامَ بحقٍّ على الأثرة التى ليست من ذلك الإحساس ذاته ، بل هى ليست منه إلا إفراطاً آثماً .

« وإنه لحسن جميل الإفضال على الأصدقاء والضيوف والصحاب ، ومساعدتهم وليس إلا الملكية الفردية هى التى تـكفل لنا هذه السعادة . »[1]

الشيوعية تقتل المشاعر النبيلة فى الإنسان :

ولا يكتفى أرسطو بكشف الآثار السيئة التى تتركها الشيوعية فى المجتمع ، والتى من أبرزها قتل الشعور الذاتى الذى يدفع الناس إلى العمل . لا يكتفى بهذا بل ينظر إلى تلك الآثار النفسية والروحية السيئة التى يصاب بها الناس فى ظل النظام الشيوعى .

يقول أرسطو :

« يُـفسد ذلك الإحساس — أى إحساس اللذة بالإفضال على الأصدقاء والضيوف — من يعمد إلى تقرير هذه الوحدة للمبالغ فيها للدولة ، كما أنه يؤدى أيضاً بكل فرحة لتعاطى فضيلتين أخريين : إحداهما العفة ، لأن من الفضيلة احترام امرأة الغير بدافع الحكمة[2] . . والأخرى السخاء الذى لا يمكن أن يكون إلا مع الملكية ، لأن المواطن فى هذه الجمهورية — جمهورية الشيوعية — لا يستطيع أبداً أن يظهر أنه جواد ، وأن يقوم بأى عمل من أعمال الكرم ما دام أن هذه الفضيلة لا يمكن أن تكون إلا بأن يستخدم المرء ما يملك . .

[وهو فى هذا النظام الشيوعى لا يملك شيئاً] .

---

(١) السياسة لأرسطو ص ١٣٦

(٢) هذا فى الشيوعية التى تبيح للناس كل شىء حتى الأعراض ، كما كان ذلك فى شيوعية مانى ، وبابك الخرمى ، وغيرهما مما كان يباح فيها المال والعرض جميعا

ظاهر الشيوعية الخدّاع :

ثم يحاول « أرسطو » أن يرد على أستاذه أفلا طون ، وأن يفنّد حججه المموهة ببريق من العواطف الكاذبة التي تحملها دعوة الشيوعية بين يديها تحت كلمات : المساواة ، والإخاء ، والعدل . . !

فلقد كان [أفلاطون] من الدعاة إلى هذا المذهب الشيوعي ، وعلى أساسه أقام مدينته الفاضلة . . تلك المدينة التي كانت في واقعها جملة مدن يعيش بعضها داخل بعض ، أو فوق بعض . . السادة في مدينة ، والعبيد في مدينة ، والعوام في مدينة ، والحكام في مدينة ، والفلاسفة في مدينة . . وهم جميعا في المدينة الأفلاطونية الفاضلة داخل سور واحد ! !

يقول أرسطو في كشفه عن حقيقة هذه الشيوعية الأفلاطونية :

« وإني لأعترف بأن في مذهب أفلاطون ظاهراً خلابا من محبة الإنسانية.. فإنه أول وهلة يسحر اللب بالتكافؤ العجيب للرعاية التي يحبّ — فيما يظهر — أن يوحي به إلى أهل المدينة أجمعين ، خصوصا حين يقصد إلى أن انتقاد عيوب الدساتير الحالية ، وإسناد هذه العيوب كلها إلى أن الملكية ليست شائعة ! ! مثال ذلك . . الخصومات التي تتولد من العقود — أي عقود التعامل في البيع والشراء والإيجار ونحوها — والإدانات المرتبة على شهادات الزور ، وصنوف التزلف للأغنياء . .

« وكل هذه الأشياء المعيبة التي ينسبها أفلاطون إلى الملكية الفردية لا تمت إلى الحيازة الشخصية للأموال ألبتة ، بل إلى فساد أخلاق الناس . . .

« وفي الواقع .. أليس يرى بين الشركاء والملاك على الشيوع في أكثر أحوالهم من الخصومات أكثر مما بين ملاك الأموال على الانفراد ؟ »[1] .

---

(١) سياسة لأرسطو ص ١٣٦

وحدة مشاعر ... لا وحدة شيوع :

ثم يستطرد (أرسطو) فى تفنيد آراء أستاذه (أفلاطون) ، وآراء أستاذ أستاذه (سقراط) فيما كانا يذهبان إليه من الدعوة إلى الشيوعية والانتصار لها .. فيقول :

« فنى الشيوعية لا تطاق المعيشة .. فيما يظهر لى .

« إن خطأ (سقراط) يجىء من بطلان المبدأ الذى صدر عنه !

ثم يقول :

« لاشك أن فى الدولة والعائلة ينبغى أن يكون لها نوع من الوحدة ..

« لكن لا وحدة مطلقة ألبتة ..

« فإن بهذه الوحدة — وحدة الشيوع — التى ذهب بها (سقراط) إلى حدّ ما لا بقاء معه للدولة بعد — فإن بقيت فركزها موجب للحسرة ، لأنها دائماً تكون على شفا جرف من العدم . كالشأن فيمن يتصدى لتأليف لحن بنغمة واحدة ، ووزن بإيقاع واحد .. !)[٢]

اشتراكية نابعة من الضمير :

ثم يرسم (أرسطو) المنهج السليم لقيام الدولة على نظام اشتراكى ، لا يقوم على سلطة القانون وحسب، بل يعتمد اعتمادا قويا على تربية العنصر الأخلاقى فى الإنسان ، وربط المجتمع به ..

يقول (أرسطو) :

« إنما هو بالتربية يمكن ردّ الدولة — التى هى متعددة التركيب — إلى الاشتراكية ، وإلى الوحدة .. وإنه ليدهشنى أن يتصور المرء لمجرد إدخال التربية فى الدولة — وبواسطتها ستكون السعادة — أن يستطاع تنظيمها بتش

---

(٢) السياسة لأرسطو ص ١٣٧

هذه الوسائل — أى وسائل التشريعات الشيوعية — بدلا من الاعتماد على الأخلاق العامة ، والفلسفة والقوانين » .

الزمن شاهد ضد الشيوعية :

ويأخذ (أرسطو) من الزمن شاهداً على فساد النظام الشيوعى ، وأنه أشبه بأضغاث الأحلام للجائعين ، والمكدودين ، والمحرومين .. تقيم لهم الحياة فى أحلامهم معالم الأفراح ، وتنصب لهم موائد الطعام ، حتى إذا مدوا أيديهم إلى ما عليها طار طائر النوم عنهم ، فإذا عيونهم تتفتح على الواقع الأسود المرير ..

يقول (أرسطو) :

« كذلك لا يستطاع ألاّ يعتدّ بهذا التسلسل الطويل للزمان والسنين التى ما كان لمثل هذا المذهب أن يبقى من غير شك مجهولا فيها إن كان صالحاً ..

بل يمكن أن يقال فى هذا الباب : إن ذلك — أى البحث عن الشيوعية — قد تناوله التصور .

« ولكن من الأفكار مالم يكن أن يتخذ .. ومنها مالم يوضع موضع الاستعمال مع أنها معلومة »[1] .

وتمضى الأزمنة وتتعاقب الأجيال . وتضاف إلى الحياة تجارب كثيرة متعددة للأنظمة الاقتصادية ، ومع هذا تظل نظرة أرسطو إلى (الشيوعية) هى التى تنظر بها الحياة الحاضرة إليها . .

فإن الشيوعية التى تعيش فى الحياة الآن لا تزال فى (بوتقة) التجربة . تفور ، وتغلى ، وتتصاعد منها أدخنة وأبخرة تحى كثيراً من حقيقتها ، وإن كانت تشير إلى المصير المحتوم الذى ستنتهى إليه ، أو تنتهى به

(١) السياسة لأرسطو : ترجمة أحمد لطفى السيد ص ١٣٧

إن الشيوعية تبدو فى الواقع ، أو على الأقل تحت نظر المجتمعات التى تقف منها موقف المشاهد المتأمل — تبدو وكأنها تسوق الناس سوقا عنيفاً ، تميت فيهم مشاعر المودة والرحمة والحنان ، وتمزّق تلك الأواصر النفسية التى تربط الإنسان بالإنسان !

نظرات معاصرة .. إلى الشيوعية :

وإذ كنا قد أتينا بأعظم شاهد يشهد على الشيوعية فى الأزمان الغابرة ، ويصوّر موضعها المضطرب القلق فى الحياة آنذاك — وهو « أرسطو » — فإنا نقدم شاهداً آخر يشهد على شيوعية هذا العصر الحاضر ، ويحدث عن أخبارها . وذلكم هو العالم الفيلسوف ، والكاتب الاجتماعى « ول ديورانت » صاحب الموسوعة الضخمة « قصة الحضارة » .

ومن غير شك أن « ول ديورانت » قد انتفع انتفاعاً كبيراً بآراء «أرسطو» التى بسطها عن الشيوعية فى كتابه «السياسة» ، والتى نقلنا بعضاً منها فيما سبق .

وكما عرضنا آراء « أرسطو » عن الشيوعية تحت عناوين تشير إلى مضمون آرائه .. فإنا سنفعل ذلك مع آراء « ول ديورانت » .. سنضع العنوان المناسب لكل رأى من آرائه ، ونعلق عليه بما يبدو لنا .

١ — ملكية خاصة محدودة :

وأول مايلقانا من آراء «ول ديورانت» رأيه فى نشأة الملكيه ، وفى إحساس الناس بها ، ومشاعرهم نحوها ، وتقديرهم لها ..

يقول « ول ديورانت » :

« فى المراحل الأولى من التطور الاقتصادى كانت الملكية محصورة — فى الأعم الأغلب — فى حدود الأشياء التى يستخدمها المالك لشخصه .

وكان معنى الملكية هذا من القوة بحيث لازمت الأشياءُ المملوكة مالكها ، وغالباً ما دفنت معه فى قبره ، وانطبق هذا على الزوجة نفسها .

« وأما الأشياء التي لا تتعلق بشخص المالك فلم تكن الملكية مفهومة بالنسبة إليها مثل هذا الفهم القوى .. فتكاد تجد الأرض فى كل الشعوب البدائية ملكا للمجتمع بأسره .

« وقد وجد الأستاذ « رفرز » شيوعية الأرض لا تزال قائمة فى « مالينزيا » « وبولونيزيا » ويمكنك أن تلحظها اليوم فى داخل « ليبريا »[1] .

« أما شيوعية القوت فقد كانت أقل من ذلك انتشارا ، فمن المألوف عند الهمج أن من يملك طعاماً يقتسمه على من لا يملك منه شيئاً !.. كما كان من المألوف كذلك للمسافرين .. إذا ما أرادوا طعاماً أن يقفوا عند أى دار يصادفونه فى طريقهم .. وكان من المألوف أن تستعين الجماعات التى ينزل بها القحط بجيرانها[2] »

وهذا الذى يحدث عنه « ول ديورانت » ، من شيوعية الطعام لا تزال آثاره باقية إلى الآن فى ريف مصر ، وفى الصعيد بوجه خاص .. وكان عرب الجاهلية أصدق مثل لهذه الصورة التى ينقلها الكاتب هنا عن اشتراكية الطعام . كانوا يوقدون النار بالليل ليراها المسافرون فيقبلون إليها ، ويجدون عندها الطعام والدفء والأمن . يقول شاعرهم :

ناري ونار الجــار واحدة   وإليه قبلى تنزل القــدرْ

ويقول أيضا :

أقسّم جسمي فى جسوم كثيرة   وأحسو قراح الماء والماء بارد

ويذكر القرآن الكريم مجىء إخوة يوسف من أرض كنعان بالشام إلى مصر ليميروا طعاما لأهليهم وقومهم بعد أن نزل القحط ببلادهم من أرض الشام !

وقد أخذوا حاجتهم من ميرة وطعام .. وظاهرة شيوعية الطعام هذه تكاد تكون دائما فى حياة البادية ، وفى المواطن الذى ينزل بها القحط ، وتحل بها المجاعات ، حيث تدعو هذه الحياة والظروف المتلبسة بها إلى المواساة والتعاطف بين الناس »

---

(١) أنا رأيت هذا بنفسى أثناء رحلة خاصة إلى هذه البلاد منذ بضع سنين ... ورأيت بعض المغتربين من السوريين واللبنانيين هناك يمشون مزارع فسيحة فى الغابات والأدغال .

(٢) قصة الحضارة — الجزء الأول المجلد الأول ص ٣١ .

٢ — التيوعية ظاهرة الاجتماعية :

يقول ول « ديورانت » :

ربما كان من الأسباب التى تميل بالشيوعية إلى الظهور فى بداية المدنية أنها تزدهر ازدهارا سريعاً فى أوقات القحط ، التى يندمج فيها الفرد فى جماعة ، مدفوعا بعامل الخطر المشترك ، الذى يهدد الجميع بالموت جوعا !

٣ — والملكية ظاهرة اجتماعية أيضا :

« أما إذا كثرت الخيرات وزال الخطر ، فإن التماسك الاجتماعى بين الأفراد تقلّ شدته بمقدار ماتزداد الفردية . .

« فكأنما تنتهى الشيوعية حين يبدأ الترف ، وإذا ماازدادت حياة المجتمع تعقداً ، وأخذ العمل بين الناس يقسمهم فى أعمال مختلفة ، وصناعات مختلفة ، يصبح من المتعذر — وتزداد الصعوبة شيئا فشيئا — أن تكون كل هاتيك الخدمات التى يقوم بها الأفراد على قدم المساواة من حيث قيمتها للمجتمع . .

وإذن فلا مناص من أن الفريق الذى مكنته زيادة قدرته عن الآخرين من القيام بالأعمال التى هى أكثر أهمية : سيأخذ من الثروة التى تنتجها الجماعة أكثر مما يقضى به التعادل فى التقسيم !

٤ — الملكية سبب فى نموّ المدنية :

« فكل مدنية نامية إن هى إلا مشهد تتكاثر فيه وجوه التفاوت بين الناس ، إذ تتحد الفوارق الطبيعية الكائنة — بين جهود الأفراد مع الفوارق الناشئة فى الفرص السانحة فتنتجان فوارق صناعية فى الثروة والقوة . .

٥ — الملكية وطغيانها :

« فإذا لم يكن هناك قوانين ، أو إذا لم يكن هناك طاغية يعمل على كبح هذه الفوارق الصناعية ، فإنها تصل آخر الأمر إلى درجة الانفجار ، حين لا يجد الفقراء فى أيديهم مايخافون من ضياعه إذا ما أعلنوا العصيان . فتهب الثورة بفوضاها ، التى تسوّى بين الناس من جديد فى فقر شامل » !

٦ — حلم الشيوعية :

ومن هنا نرى حلم الشيوعية كامناً فى كل مجتمع حديث ، لأنه ذكرى انحدرت للناس من حياة آبائهم الأولين ، حيث الحياة أبسط من حياتنا ، وأقرب إلى المساواة ، فإذا ما وحد الناس أنفسهم فى تفاوت يفرق بينهم ، وفى حالة من القلق على أرزاقهم ، بحيث لم يعودوا يحتملون هذا القلق ، وذلك التفاوت ، فإنهم يرحبون بالعودة إلى الماضى الذى يفيضون عليه من خيالهم مجالا ، بأن يذكروا ما كانوا فيه من مساواة ، وينسوا ما كانوا قاسوه من فقر . . لهذا كله نرى الأرض يعاد تقسيمها حيناً بعد حين بانتظام . . . وكذلك نرى الثروة يعاد تقسيمها حيناً بعد حين بانتظام ، سواء أتم ذلك بمصادرة الأملاك مصادرة بالقوة ، أم بفرض الضرائب على الدخول والتركات بحيث تؤدى إلى المصادرة فى آخر الأمر . !

٧ — العودة إلى الملكية بعد الشيوعية :

وبعدئذ يبدأ السباق فى سبيل الثروة ، والمتاع ، والقوة من جديد ، ويتشكل الناس بحكم قدراتهم المختلفة فى هيئة الهرم مرة أخرى . . فمهما يكن من أمر القوانين الموضوعة ، فلابد للأقدر من الناس أن يظفروا بالتربه الأخصب بوجه من الوجوه ، وأن يحتلوا المكانة العليا ، ويأخذوا نصيب الأسد ، وسرعان ما تبيح لهم قوتهم أن يسيطروا على الدولة ، وأن يعيدوا سن القوانين أو يعيدوا شرحها بحيث تتفق وهواهم ، فيأتى يوم يشتد فيه التفاوت بين الناس كما كان من قبل .

٨ — الحياة بين الملكية والشيوعية :

فالتاريخ الاقتصادى كله — فى هذا الصدد — إن هو إلا نبضات قلب الكائن الاجتماعى . . هو انقباض لهذا القلب الكبير ، ثم انبساط يتمثلان فى تركيز الثروة تركزا طبيعياً ثم انفجار الثروة انفجارا طبيعياً كذلك ![1]

(١) قصة الحضارة : الجزء الأول من المجلد الأول — هامش .

ودورة الشيوعية فى الحياة — كما يرويها ول ديورانت « — دورة طبيعية ، تمثل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى والاقتصادى لحياة الشعب أو الأمة ، غير أن المرحلة التى تظهر فيها الشيوعية هى مرحلة لا تظهر إلا فى أحوال الجوع أو التخمة . أما فى الأحوال المعتدلة التى تجرى فيها الحياة فى طريق وسط فلا تجد الشيوعية مكانا لها فى قلوب الناس أو عقولهم .

* *

وأرانا قد أطلنا الوقوف عند الملكية الشيوعية ، ولم ننظر إلى الجوانب الأخرى من وجوه التملك التى تذهب بها النظريات الاقتصادية مذاهب شتى !

ونحسب أن حديثنا عن الملكية الشيوعية يكفى لما قصدنا إليه هنا من الحديث عن التملك كظاهرة إنسانية لها آثارها فى المجتمع الإنسانى ، ولها مجالاتها التى يتصارع فيها الناس ، كما يتصارع عليها أيضاً الحاكمون والمحكومون . . إذ أن الملكية ذات أثر عظيم فى نظام الحكم ، وفيما يكون بين الحاكمين والمحكومين من ائتلاف أو اختلاف .

* * *

الباب الرابع

القانون

الحكومة والقانون :

لا تقوم حكومة فى أى مجتمع إلا وفى يدها قانون ، أو شريعة تحمل الناس عليها ، وتأخذهم بها !

يقول ول « ديورانت » :

« يأتى القانون مصاحبا للملكية ، والزواج ، والحكومة .. فأحط المجتمعات تدبر أمرها بقانون .

« وأول المراحل فى تطور القانون أخذ الإنسان لنفسه بالثأر . .

« والخطوة الثانية نحو القانون والمدنية — من حيث التصرف إزاء الجريمة — هى الأخذ بالتعويض بدل الثأر .

« والخطوة الثالثة هى قيام المحاكم ، حيث كان الرؤساء ، أو الكهنة ، أو الشيوخ يجلسون بمجلس القضاء ليقضوا فيما ينشب بين الناس من خلاف .

« ورابع الخطوات التى خطاها القانون فى تطوره هى أن تعهد الرئيس أو تعهدت الدولة أن تحول دون الاعتداء ، وأن تنزل العقاب بالمعتدى .. وبهذا لم يعد الرئيس قاضيا ، بل أصبح إلى جانب ذلك مشرعا يسن القوانين » [1]

إن الناس لا يعرفون الحكومة ، ولا يرون لها وجهاً إلا فى القانون الذى تحكمهم به ، وإلا فى الشريعة التى تدينهم بها . . إذ أنه حين يظهر الحاكم الذى

(١) قصة حضارة — جزء الأول من المجلد الأول ص ٥٣

يطلب من الناس الولاء له ، والخضوع لحكمه ، يسأل الناس أنفسهم :

ماذا يطلب هذا الحاكم منا ؟ وما الذى يحقق الولاء له ؟ وكيف نكسب رضاه ، ونأمن عقابه ؟

ولا ينتظر الحاكم أسئلة الناس هذه ، بل إنه لأول يوم لحكمه يعلن فيهم شريعته التى يحكمهم بها ، ويلزمهم التزامها . .

وهنا يحتك الناس بالقانون ، وتظهر آثاره فيهم ، وينكشف ما بينه وبينهم من اتفاق أو اختلاف ، ورضا أو سخط .

ومن هنا تبدو صلاحية القانون أو فساده بالنسبة للمجتمع الذى يُدان به . فإذا تجاوب الناس مع القانون ، وسكنوا إليه ، وأنزلوه منزلة التقدير والاحترام من نفوسهم كان قانوناً مثالياً إلى حد بعيد . . أما إذا كان شأن الناس غير هذا الشأن مع القانون ، فإن أقل ما يقال عن هذا القانون أنه محتاج إلى تعديل ، أو تقويم ، حتى يلتقى مع الناس ، ويجرى مع طبيعة الحياة .

القانون المثالى

ولا تحسبن أن هناك قانوناً يبلغ رضا الناس جميعا ، ويتجاوب معهم فردا فردا ، مهما يبذل واضعو القانون من جهد ، ومهما يقدموا بين يدى هذا الجهد من نوايا حسنة ، وطوايا سليمة ، لإقامة العدل بين الناس !

فالناس — من حيث هم ناس — يختلفون منازعَ وأهواء ، ويتفاوتون فهماً وإدراكا . . وليس لهذا الاختلاف أو ذلك التفاوت حد يبلغه الحصر ، أو يحيط به . . ولك أن تتصور إلى أى مدى يكون هذا الإختلاف و التفاوت إذ أنت عددت الناس فردا فردا ، ونظرت فى أحوالهم حالا حالاً فلم تجد إنسانا يشبه إنسانا ، ولا حال تتفق مع حالاً . .

إن كلّ إنسان عالم وحده ، والقانون الذى يرضيه هو الذى يكون مقيساً عليه ، مقدراً بما يناسب مشاعره ، وعواطفه . ومنازعه ، وأهواءه .

ولو كان من شأن القانون أن يرضى الناس جميعاً لوجب أن يكون لكل إنسان قانون خاص به .

أما وذلك مما لا يحقق وظيفه القانون من حيث عموميته ، كما أنه لا يتفق وقيام المجتمع الذى ينبغى أن تتحد وجهته ، وتتلاقى غاياته ، كما أنه لا يلائم طبيعة الحاكم الذى يجب أن تتركز سلطته ، وتجتمع قوته فى كيان واحد — نقول أما وذلك هو الشأن فإنه لا مفر من أن يكون للجماعة قانون واحد ، يقوم عليهم جميعاً ، بلا تفرقة بين إنسان وإنسان !

وأفضل القوانين هنا ، وأقربها إلى الكمال هو الذى يستطيع أن يرضى . . إلى حد ما — الجانب الأكبر من المجتمع . لا كل المجتمع ، فإن هذا من المحال ، وهو الذى يرضى الجانب الأكبر أيضاً من منازع الإنسان ، لا كل منازعه ، فإن هذا من المحال أيضاً .

القانون السماوى . . ومدى صلاحيته :

يقول « روسو » :

« تتطلب أفضل قواعد المجتمع التى تتلاءم مع طبيعة الأمم — عقلاً ممتازاً ، يرى كل أهواء الناس ، على ألا يتعرض هو لأى منها .. عقل لا صلة له بطبيعتنا البشريه ، ولكنه يدرك جذورها . . عقل تكون سعادته مستقلة عن سعادتنا ، ولكنه مع ذلك يهتم بسعادتنا .

« وأخيراً يتطلب الأمر أن يرنوَ هذا العقل ببصره إلى المستقبل البعيد ، وينتظر يوم مجده فى عهد لم يأت بعد . . أى أنه يزرع فى قرن ، ويحصد الثمار فى قرن ! !

« وبعبارة أخرى . . إن الأمر يتطلب آلهة تمنح البشر قوانينها[1] »

وأنت ترى من هذا أن عملية وضع القوانين ليست من اليسر بالمفهوم الذى

(١) العقد الاجتماعى ص ١٢١ .

قد يتصوره بعض الناس . . فإن على من يتصدى لوضع قانون لنظام مجتمع من المجتمعات يجب أن يستشف دخائل هذا المجتمع ، ويغوص فى أعماقه ، ويخلط مشاعره ، وأحاسيسه بمشاعر المجتمع وأحاسيسه ، هذا إلى ما ينبغى أن يكون عليه من نفاذ البصيرة ، وحسن الإدراك ، وسلامة التقدير ، إلى إيمان عميق بالعدل بين الناس جميعاً .

والقانون الأمثل لا يمكن أن تصوغه العقول البشرية ، ولا تمليه إرادتهم ، وإنما الذى يصنعه هو الله سبحانه ، فهو الحكيم ، العليم بما يصلح أمر الناس ، ويحفظ أمنهم وسلامتهم .

ومعنى هذا أن الدين السماوى بما يتضمن من تشريعات وأحكام ، وأخلاقيات ، هو أصفى مصدر تستمد منه القوانين مادتها ، وحيويتها ، وسلطانها القوى على النفوس .

لهذا كان الدين أقدم ظاهرة للنشاط الإنسانى ، كما كان أقوى قوة عاملة فى قيام المجتمعات البشرية ، وفى تماسكها وانتظام نظامها .

فلقد استخدم الدين من أول يوم الناس إلى يومنا هذا ، وإلى ما بعد هذا اليوم — استخدم كقوة غيبية تبسط سلطانها على الناس حيثما توجهوا ، وأينما كانوا .

ومن هذه القوة الغيبية نسج بعض الناس من خيوطها أمراساً يشدون الناس بها إليهم ، ويمسكون بهم أن يخرجوا على سلطانهم ، أو أن يشقوا عصا الطاعة عليهم . . يقول « روسو » : « إنه ما من دولة قامت إلا كان الدين لها أساساً »[1] .

القانون والدين :

والقانون فى حقيقته هو قوة قائمة على المجتمع . . لأنه هو الذى يقف

---

(١) العقد الاجتماعى ص ٢٣٣ .

للناس موقف المراقب المحاسب ، حين يخرجون عليه أو يجاوزون حدوده .

وللدين قوة وسلطان مبسوطان على النفوس أقوى من قوة القوانين ، وأكبر من سلطانها .

لقد كان للدين الدور الأول فى قيام المجتمعات ،وفى بقائها متماسكة .. إذ أنه بسلطان الدين وتحت لوائه قام الزعماء والقادة فى الأمم والشعوب ممثلين هذه القوة الغيبية — إن صدقا ، وإن ادعاء — هذه القوة التى يهابها الناس ويخافون نقمتها ، ويرجون ثوابها .. مُدّعين أنهم باسمها يحكمون ، وبوحيها يعملون .. فمن خضع لهم فإنما يخضع لإرادة تلك القوة الغيبية ، ومن خرج عليهم ، فقد خرج على تلك القوة وتمرد عليها .

ومن أجل هذا كان أول نشاط سياسى للناس مستوحى من الدين ، ومستلهما من موارده ، وكان رجال الدين هم أول من أخضع الناس لسلطان بشرى خضوعا قائما على التسليم والولاء .

وطبيعى أننا إذ نتحدث عن الدين هنا ، فإننا لانقصره على الدين السماوى وحده ، ولانقف به عند الديانات ذات المبادىء الأخلاقية العالية ، التى تنبع من ينابيع الفلسفة وتنهل من موارد الحكمة ، وإنما يغلب أن يكون الدين الذى نتحدث عنه هنا هو دين الخرافات والأساطير التى كانت تملك حياة الناس كلها فى الأدوار الأولى للحياة للإنسانية ، والتى كان سلطانها ممسكا بزمام الحياة كلها ، ومستولياً على كيان الإنسان كله .. وحسبنا أن نذكر ديانة المصريين القدماء وكيف كان سلطان الكهنة فيها ، وكيف كان مقام الملوك « الفراعنة » بين الناس ، وكيف دارت حياة الناس كلها إذ ذاك فى فلك الدين ، فلم يكن للقوم دنيا ، ولم تكن لهم حياة إلا للدين ، ولحساب الدين ..

إن الأديان التى ولدتها الخرافات والأساطير ، والتى ننظر إليها نحن الآن نظرة ساخرة قد كانت سيدة الموقف بين جميع القوى التى كانت تدور فى حياة الناس آنذاك .

يقول « ول ديورانت » :

« لقد سار القانون والعقائد الأسطورية جنباً إلى جنب خلال العصور ، يتعاونان معاً على حكم البشر ، ويتعاقبان الواحد بعد الآخر ، ولم تجرؤ دولة من الدول حتى يومنا هذا أن تفصل بينهما »[١]

هناك وازعان لابد منهما لكى يستقيم الإنسان على النهج القويم فى الحياة . ويخضع لكلمة الحق والعدل . . هذان الوازعان هما :

وازع الضمير . ووازع القانون

فوازع الضمير إنما يخلقه الدين ، ويربيه فى النفوس ، وهو وازع مستقر فى كيان كل إنسان ذى دين . . وعلى قدر ما فى الدين من مُثُـل كريمة ، وما فى قلب الإنسان وعقله من هذا الدين يكون الوازع الذى يكمن فى الضمير . .

وأما وازع القانون فهو الذى يقيمه الحاكم على الناس بسلطانه ، ويفرضه عليهم بقوته . .

وكلا الوازعين : وازع الدين ، ووازع القانون — يكمل الآخر ، ويقوى جانبه ، ويشد ركنه .

فإن ضعف وازع الضمير فى نفس إنسان — وما أكثر ما يضعف — كان وازع السلطان من ورائه ، يمسك به إن خرج عن الجادة ، أو حاد عن الطريق القويم .

وإن غفل سلطان القانون — وما أكثر ما يغفل — كان سلطان الضمير أو الدين هو الذى يمسك بالإنسان ، ويحاول أن يحول بينه وبين الوقوع فى المحظور .

من أجل هذا حرص الناس من أول وجودهم فى الحياة فى صورة مجتمع أن يُـفيدوا من سلطان الدين عليهم ، وأن يقيموه بينهم ، ليزَعَ بعضهم عن بعض

---

(١) قصة الحضارة : الجزء الأول من المجلد الأول ص ١ :

وليكون حتى يلجئون إليه فى حماية بعضهم من بعض ، قبل أن يقوم بينهم سلطان الحاكم الذى يتسلط عليهم من بينهم .

وأكثر من هذا . . فإنه حين أخرجت الحياة الاجتماعية للناس ذلك البطل الذى يحكمهم ، ويتولى قيادة جماعتهم لم يكن لهذا البطل غنى عن الدين ، يستند إليه ، وينتسب له ، حتى يستطيع أن يمسك بيده القوية المستندة إلى الدين قيادةَ جماعته ، ويبسط سلطانه عليها .

من أجل هذا كانت الحكومات الأولى للمجتمعات الإنسانية دينية خالصة ، أو دينية تتجسد فى إنسان من الناس ، يدعى أنه إلـه ، أو ابن إلـه . .

الدين ووظيفته فى سلوك المجتمع :

قسّم « روسو » الدين من حيث علاقة المجتمع به ، ومن حيث الآثار التى يتركها فى المجتمع إلى ثلاثة أنواع :

(ا) دين الإنسان

وهو ذلك النوع من الدين الذى يقوم فى ضمير الإنسان . . بلا معابد ، ولا هياكل ، ولا طقوس . . . دين محدود بالعبادة الداخلية — النفسية — لله الأعلى ، ومقصور على الواجبات الأخلاقية .

(ب) دين المواطن .

وهو — كما يقول [روسو] — مدوّن فى بلد واحد ، ويمنحه آلهته — أى زعماؤه — وحماته لأهل هذا البلد ، وله عقائده ، وطقوسه ، وعباداته الخارجية فى صورة قوانين ، وكل شخص من غير الأمة التى تعتنقه يعتبر كافرا ، وأجنبياً وبربريا .. فهوَ أى هـذا الدينَ لا يمد واجبات الإنسان وحقوقه خارج حدود هيكله ..

وكانت هذه الصورة للدين هى أديان جميع الشعوب الأولى ، التى يمكن أن نطلق عليها [القانون الإلـهى المدنى أو الوضعى]

(حـ) دين [اللاما]

وهو دين غريب جدا بين الأديان . . يعطى الناس تشريعين ، ورئيسين ، ووطنيين . ويخضعهم لواجبات متناقضة ، ويمنعهم من أن يصيروا مواطنين ومؤمنين فى وقت واحد . .

وهذا هو دين اللاما[١] ، ودين اليابان[٢] ، ودين المسيحية الرومانية . . ويمكننا أن نطلق عليه دين الكهنة والقساوسة ، وينشأ عنه نوع من القانون المختلط المتنافر ، لا اسم له »[٣]

ثم يعود « روسو » فينظر إلى هذه الأديان من الجانب السياسى الذى تتركه فى الحياة ، ويزنها بميزان السياسة ومعيارها . ويضع كل منها بالموضع الذى يستحقه ، حسب المعطيات التى يعطيها من هذا الجانب . .

فأولا : دين الإنسان ، وهو الدين الذى يقوم فى ضمير الفرد ، لا يشاركه فيه أحد ، ولا يشترك فيه هو مع أحد . . دين يرفعه الإنسان حباً خالصا وولاءَ خاشعاً لله ، . ينبعث من قرارة النفس ، غير متأثر بمقولات الكهنة ، والقسس ، وغير مستمع إلا إلى نداء الضمير ، وخلجات النفس . .

هذا الدين هو — كما يراه (روسو) — دين المسيحية . . مسيحية الإنجيل ، لا مسيحية اليوم . .

وهذا الدين على مابه من سموّ روحىّ وما يفيض على الإنسان من مشاعر طيبة نبيلة — هو روح لاجسد فيه . . لايقوم عليه مجتمع ، ولا يستند إليه نظام سياسى فى الحياة . .

يقول « روسو » :

« بيد أن هذا الدين — أى الدين المسيحى — دين الإنجيل ، لما لم تكن له

---

(١) دين اللاما مذهب دينى يعم منطقة التبت لشمال الهند ، ويعتبر « اللاما » عند أتباعه إلهاً يقوم بين الناس فى الأرض .

(٢) تعتبر اليابان أمبراطورها من نسل الآلهة . فتحيطه بقداسة لا حدود لها . وقد تزعزعت هذه العقيدة بعد هزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية

(٣) العقد الاجتماعى ص ٢٣٤ .

أية علاقة بالجسد السياسى ، فإنه يترك للقوانين القوة الوحيدة التى تستمدها من ذاتها ، ولا يضيف إليها أية قوة أخرى . . وبذلك تظل رابطة من أهم روابط المجتمع بلا أثر . .

وأكثر من ذلك — بدلا من أن يربط — هذا الدين — قلوب المواطنين بالدولة ، فإنه يبعدها عنها ، باعتبارها من أشياء الدنيا . . ولست أعرف شيئا أكثر تناقضاً مع الروح الاجتماعى من ذلك » !

ثم يقول :

« يقولون لنا : إنه إذا وحد شعب من المسيحيين الحقيقيين فإنهم يؤلفون مجتمعاً ، هو أكثر المجتمعات — التى نستطيع أن نتصورها — كمالا .

« وأنا لا أرى فى هذا الفرض سوى صعوبة كبرى واحدة .. هى أن المجتمع المكون من مسيحيين حقيقيين لا يعود مجتمعاً من بشر ! . . بل وأقول : إن هذا المجتمع المزعوم لن يكون — رغم كماله — أقوى المجتمعات ، ولا أدومها . فإنه بقدر كماله ستعوزه الرابطة ، وتكون جرثومة هلاكه فى كماله ذاته ! .

« فكل إنسان — فى هذا الدين — سيقوم بواجبه : يخضع الشعب للقانون .. الرؤساء عادلون ، ومنصفون . . والحكام مخلصون . . والجنود يحتقرون الموت . . ولن يكون هناك خيلاء أو ترف !

« وكل ذلك جميل جداً !

« ولكن دعنا ننظر فيما هو أبعد من ذلك ! . .

« إن المسيحية دين روحانى تماما . . المسيحى لا تشغله سوى أمور السماء وحدها . . ووطن المسيحى ليس فى هذا العالم !

« وصحيح أنه يقوم بواجبه . . ولكنه يقوم به بدون مبالاة عميقة بنجاح مايعهد إليه به ، أو فشله . . فهو إذ يجد مالا يلوم عليه نفسه ، لايهمه كثيراً أن يسوء الحال أو يحسن على هذه الأرض !

« فإذا ازدهرت الدولة لايكاد يجرؤ على التمتع بالبهجة العامة ، ويخشى أن

يُفخر بمجد بلاده .. وإذا هلكت الدولة يبارك يد الرب الذى ألقى ثقلها على شعبه !

« ومن جهة أخرى — فإن يجب فى هذه الحالة أن يكون جميع المواطنين بلا استثناء مسيحيين ، صالحين ، على السواء ، حتى يسود السلام المجتمع ، ويعم التوافق .. ولكن إذا وجد لسوء الحظ — ولابد أن يوجد — رجل واحد .. طموح .. مراءٍ ، فإنه سيجد بلاريب سوقاً رائجة فى مواطنيه الأتقياء .!

ثم يخلص « روسو » من هذا كله فى شأن الدين الإنسانى .. دين المسيحية الأولى .. دين الإنجيل ـ يخلص من هذا فيقول :

« بيد أنى أخطىء إذ أتحدث عن جمهورية مسيحية .. فالكلمتان متنافيتان .. إن المسيحية تبشر بالعبودية ، والطاعة .. وروحها ملائمة أكثر مما ينبغى للطغيان . ويستغلّ الطغيان هذه الحقيقة لصالحه !

« إن المسيحيين الحقيقيين خلقوا ليكونوا عبيداً . وهم يعرفون ذلك ، ولا يهتمون مطلقا ، فهذه الحياة القصيرة لا تساوى عندهم شيئا !

« والصليبيون . وجنود الصليبيين الذين يتحدثون عن بطولاتهم فى الحرب .. إنهم لم يكونوا جنود المسيح .. بل جنود القساوسة ، ومواطنى الكنيسة .. فالوطن الذى قاتلوا من أجله كان وطناً روحياً ، ولست أدرى كيف جعلته المسيحية وطنا زمنياً ؟ » (١)

وواضح من هذا أن المسيحية التى جاء بها المسيح مشرقةً صافية لا تساند المجتمع ولا تغذيه من ينابيعها ، بل إنها على عكس هذا تفت الوحدة الاجتماعية ، وتحيلها شبحا لا حقيقة له إذا صدقت عقيدة المسيحى . وأخلص لمسيحيته .. إنه قديس ، لا يغبر قدمه بتراب الأرض ! .

وعلى هذا فإن وضع المسيحى المخلص فى المجتمع البشرى وضع شاذ قلق .

---

(١) العقد الاجتماعى ص ٢٣٨

لا استقرار له أبداً ، إلا إذا كان هناك مجتمع جميع أفراده على تلك الشاكلة . . وهيهات أن تحتمل طبيعة البشر جميعاً هذا الدين ، وتستقيم على شريعته . . إن الناس لن يكونوا ملائكة أبداً . . وإذا كان فيهم من تهيئوه طبيعته لهذا المنزع الملائكي ، فإن ذلك قليل نادر إلى جانب الكثرة ، التي ستظل دائما ملتصقة بالأرض ، متمسكة بوجودها البشرى فيها . .

وعلى هذا . فإننا إذ نلتمس مجتمعاً سياسياً تقوم فيه شريعة المسيح عليه السلام فإنا لن نظفر به إلا على تلك الصورة التى تعيش فيها مسيحية اليوم فى تلك الدول التى تدين — اسما — بالمسيحية ، والتى تناقض تماما دين المسيح وشريعته !

يقول « روسو » :

« وكانت هذه هى الظروف التى جاء فيها المسيح يؤسس على الأرض مملكة روحية ، تلك المملكة التى يفصلها النظام اللاهوتى عن النظام السياسى ، والتى جعلت الدولة دولتين ، وأدت إلى الانقسامات الداخلية التى ما برحت تثير الاضطرابات بين الشعوب المسيحية حتى الآن . .

« بيد أن هذه الفكرة الجديدة عن وجود مملكة فى العالم الآخر لمَّا لم تفلح فى السيطرة على عقول الوثنيين فإنهم عَدُّوا المسيحيين — الحقيقيين — دائما عصاة ، يظهرون الخضوع ، ولا ينتظرون سوى اللحظة التى يكونون فيها مستقلين وسادة حتى يغتصبوا فوراً السلطة التى يتظاهرون باحترامها فى ضعفهم .. وهذا هو السبب فى الاضطهاد .

« وحدث ما كان الوثنيون يختشونه ، ومن ثَمَّ تغير كل شىء ، فقد غير المسيحيون المتواضعون لهجتهم ، وسرعان ماتمثلت بمملكة العالم الآخر هذه وهى تحت قيادة رئيس من الآدميين أفظع حكم استبدادى فى هذا العالم ! ! »[1] .

أرأيت كيف تحولت مثالية الدِّين ؟ وكيف صارت سماحته ، وتسامحه إلى

---

(١) العقد الاجتماعى ص ٣٢١ .

ما صارت إليه من تعصب ، وبغى وعدوان ؟ حين أصبحت فى نفوس الناس ، وحين دخلت فى معترك الحياة ، وتنفست فى أجوائها المحملة بالدخان والغبار المتصاعد من هذا الصراع المحتوم بين الناس والناس ؟ إن المثل العليا حين تتنزل من سماواتها إلى هذا العالم الأرضى ، وتتصل بالناس ، وتدور فى الحياة - تتشكل فى قوالب بشرية ، فيها من التراب والطين بقدر ما فيها من النور والضياء !

ما يلصق بالدين من عيوب :

ونسأل : أهذا عيب فى الدين ونقص فى طبيعته ؟ وهل يقوم الدين دائماً هذا المقام الغريب فى دنيا للناس ؟

وجوابنا على هذا . هو أن الدين — كما قلنا — أقوى قوة تعمل فى الحياة . . ولكن قد تنحرف هذه القوة فى يد الناس فتقع فى غير الموقع الذى يجب أن تتجه إليه .

وطبيعى أن دعوة السيد المسيح كانت دعوة إنسانية رفيعة . . كريمة . . مثالية .. أشبه بالغيث فى صفاتها ، وفيما تحمل من قوى الإحياء لموات القلوب ، وجفاف النفوس . .

ولكن هذه الدعوة الكريمة لم تفهم الفهم — الصحيح — لها ، ولم تأخذ الاتجاه السليم لوجهتها ، فقد انحرف بها المنحرفون ، ومال بها المضللون فجعلوها دعوة عامة للناس جميعاً ، وللحياة كلها فى امتداد أزمانها . . وهى التى ما جاءت إلا لجماعة محدودة العدد من الناس ، وهم بنو إسرائيل ، أو خراف إسرائيل ، كما كان يدعوهم السيد المسيح . وما كانت أيضاً إلا دواء موقوتاً لهذا الجيل من أبناء إسرائيل . . الذى عاصر المسيح ، والذى كان قد ركبه داء غليظ من كزازة الطبع ، وقساوة القلب ، وفساد الكيان الداخلى كله لهذا المجتمع . .

ولهذا لم يكن ما جاء به السيد المسيح شريعة ، وإنما جاء بمواعظ تطرق

الأسماع . وتهز المشاعر ، وتحيي موات القلوب . . وأما شريعته فهى شريعة (موسى) عليه السلام !

وإذن فليس مما يؤخذ على دعوة السيد المسيح أنها سارت بالناس إلى هذا المصير ، وإنما تقع اللائمة على أولئك الذين وضعوها فى غير موضعها ، وغرسوها فى غير مغارسها . . وماذا ينفع الدواء إذا استعمل لغير الداء ، وأخذ على غير ما وصف الطبيب . . ؟

إن الدين الذى يعيش فى الحياة ، ويعمل عمله المثمر فى المجتمعات الإنسانية ليس مجرد عاطفة تعيش فى ذات الإنسان وتدور فى كيانه ، وإنما هو مع هذا مشاعر طيبة . وأحاسيس كريمة تصل الإنسان بالناس وبالحياة ، كما تصله من قبل هذا بالخالق جل وعلا !

ثانيا : دين المواطن . . هو الدين الذى ينبع من الشعور عبادةً وصلاةً وتمجيداً للموطن على نحو ما كان يدعو اليه هتلر ، وكما ترى « الشيوعية » المعاصرة !

هذا الدين يراه « روسو » خيرا ، ويراه شرا .. فى وقت معاً ! . فهو خير فى حدود أنه يجعل من الوطن هدف عبادة المواطنين ، ومن ثم فالموت فى سبيل الوطن استشهاد ، وخرق القوانين إلحاد . .

وهو سيء فى حدود . . لأنه يقوم على أخطاء وأكاذيب — فإنه يخدع الناس ويجعلهم بلهاء .. وهو سيء عندما يصير متعصبا ، وطاغيا ، فيجعل الشعب سفّاكا متعصبا ، بحيث لا يتنفس إلا القتل والمذابح . . » [1]

هذا ولا ينظر « روسو » إلى هذا الدين — دين المواطن — على أنه الدين الذى ينبت فى أرض الوطن استجابة لدعوة زعيم ، أو قائد . وإنما ينظر إليه أيضا بهذه النظرة إذا كان عقيدة دينية ذات شعائر وطقوس ، تخلط بين الحياة

---

(١) العقد الاجتماعى ص ١٣٦

الروحية والحياة الجسدية ، بين الولاء للسماء والولاء للأرض ، بين الدنيا والدين . .

فكل دين — « عند رسو » — يجمع بين حياة الروح وحياة الجسد ، بين داخل الإنسان وخارجه ، لا بد أن يسوق إلى هذ المصير من الحياة المضطربة ، التي توحد مشاعر الناس من جهة ، ثم تمزق هذه الوحدة من جهة أخرى . . ! سواء أكان هذا الدين سماويا أم أرضيا . . على يد نبيٍّ ، أو من صنع مصلح أو زعيم .

ثالثا : دين الكهنة . . وهذا الدين فى نظر « روسو » هو أسوأ دين يدين به الإنسان . . إذ يكون الإنسان فيه خاضعاً لما يمليه عليه الكاهن ، أو من يشبه الكاهن ، من أولئك الذين يقيمون أنفسهم بالوصاية الدينية على الناس . ويدّعون لهم حقاً فى الوساطة بين الله والناس . . وهم بحكم هذه الوصاية ، وتلك الوساطة يفرضون سلطان الدين على الناس . .

ولكن أى دين هذا ؟ إنه لن يكون أبدا الدين الذى أرادته السماء . . إنه دين صنعه أربابه من ذات أنفسهم ، وألقوْا فيه من المقولات والوصايا مايملأ قلوب الناس رهبة . وخشية منهم . . وبهذا يتحول الناس إلى عبّاد كهنة ، وإلى دُمًى متحركة فى المعابد والهياكل ، بلا مشيئة ولا إرادة ، إلا ما يشاء الكاهن أو يريد ! وهنا يتحول الكاهن إلى طاغية مستبد ، لا يقف لسلطانه سلطان ، ولا يَحدّ من جبروته وطغيانه أحد .

لقد كان فى صدر « روسو » ثورة عاصفة على رجال الدين فى عصره حيث قتلوا فى الناس كل قوى المقاومة والثورة على الظلم والطغيان ، وحيث أقاموا الناس على هذا المرعى الوبيل من الاستسلام الذليل ، والولاء المهين ، للكهنة والقسوس والرهبان ، وبهذا أحالوا المجتمع إلى قطيع من الماشية يتحرك تحت عصا الملوك والأمراء !

من أجل هذا كانت ثورة «روسو» على الأديان كلها ، وكانت نظرته إليها..

تلك النظرة غير المطمئنة إلى التقاء الدين والسياسة على حال من الوفاق والخير أبداً !!

نظرة أخرى إلى الدين

وإذا كان « روسو » قد رأى أن يعزل الدين عن السياسة عزلا كاملا ، وأن يصفى حسابه فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، وأن يقبض شعاعاته المنطلقة من كيان الناس إلى أيديهم والسنتهم ، أعمالا وأقوالا ، يدبرون بها شئونهم فى الحياة ، وأن يجعل الدين عاطفة ذاتية ، لا تتحرك إلا فى كيان صاحبها . ولا تعيش إلا فى داخل هذا الكيان —

— إذا كان « روسو » قد رأى فى الدين هذا الرأى ، متأثرا بالواقع الذى كان يعيش فيه المجتمع فى عصره — فإن الفيلسوف « دافيد هيوم » يعزّ عليه أن تفتقد الحياة يوما من أيامها ظلّ الدين ، الذى صحبها وصحبته منذ يومها الأول فى الحياة . . إن الدين كان الرفيق الأول للإنسان فى الحياة . . وَجَدَه أول ما وجده مشاعر غامضة ، وأحاسيس مختلطة ، تجمع بين الخوف والرجاء ، وبين المقت والحب ، وبين العداوة والولاء . . ثم تخلّق فى كيانه من هذه المشاعر معبوداً يدين له بالطاعة ، ويزجى إليه القرابين ، ويقدم له الابتهالات والصلوات . ومن يوم أن ولد هذا الوليد ، مصورا من تلك المشاعر على هذه الصورة وهو يتوالد ويتكاثر مع الناس ، على نحو ما يتوالدون ويتكاثرون ، وإذ مع كل إنسان دين يصحبه ، ويعيش معه داخل كيانه وخارجه !

فكيف يصبح الناس ويمسون بلا دين ، يسعى معهم فى الحياة ، ويلتقى بهم مصبحين وممسين .. فى كل وجه من وجوهها ؟

لقد عزّ على (هيوم) أن تغرب شمس الدين من الحياة وأن يغيب فى ضمير الناس كما تغيب الشمس فى أعماق المحيط !

ولهذا فقد قبل (هيوم) الحياة بخيرها وشرها ما دامت فى صحبة الدين ، وآثر أن يقرّ أى حكم ظالم أو عادل ، وأن يخضع الناس لأى حاكم ظالماً كان

أو عادلا ، وأن يتقبل سيئات الحياة كلها ما دام ذلك يدع للدين مقامه بين الناس ومكانه فى الحياة !

لقد تأثر (هيوم) بالمسيحية تأثراً عميقاً من حيث دعوتها إلى السماحة ، والسلام ، والاستخفاف بما على الأرض ، والزهد فيه ، حتى يستطيع الإنسان التحليق فى الملأ الأعلى ، واللحاق بالمنطلقين إليه ، والمستقرين فيه .

إن هيوم لم يأخذ من المسيحية شريعة وقانوناً لحكم الناس فى الأرض ، ولكنه أخذ منها تلك الروح المستسلمة ، التى تخضع الناس جميعاً لسلطان الحاكم ، سواء أكان هذا الحاكم رشيداً أم غشوماً ، عادلا أم باغياً متسلطاً .

إن الحكم كما يرى (هيوم) نظام أراده الله على الصورة التى وقع عليها ، أيا كانت هذه الصورة . . كريهة ، أم طيبة ، شريرة أم خيِّرة . . فإنه لا يقع فى الحياة إلا ما أراده الله ، وما أراده الله فلن ينبغى لأحد أن يخرج عليه !

يقول « هيوم » :

« وكون الله هو المبدع النهائى لكل حكم : ليس مما ينكره مطلقاً أحد ؛ ممن يؤمنون بالعناية الإلهية ، ويعترفون بأن أحداث الكون كلها تسير طبقاً لخطة موحدة ، وموجهة نحو أهداف حكيمة » !

ثم يقول :

« ولما كان من المستحيل على الجنس البشرى البقاء — على الأقل فى حالة مريحة أو آمنة — دون حماية حكومة ، فإن هذا النظام لابد — بالتأكيد — كان من بين ما قصده ذلك (الخالق[1]) الكريم الذى يريد لمخلوقاته كل الخير ! »

ثم يقول أيضاً :

« ولما كانت عملية الحكم قد حدثت — فى الواقع — فى كل البلاد ،

(١) فى أصل الترجمة « الكائن » ، وتعالى الله سبحانه أن يكون كائناً . . لأن الكائن ما كان بعد أن لم يكن . . وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وفى كل العصور ، فإن لنا أن نخلص من ذلك بثقة أكبر إلى أنها — أى عملية الحكم — بين ما قصده ذلك « الخالق » العليم بكل شىء !

ويقـــول :

« يبد أنه لما كان — الله — قد خلق الحكم بقدرته الخفية التى تشمل كل ما فى الكون ، وليس بأية معجزة بذاتها — فإن الملك لا يمكن أن يعتبر — على أساس سليم — نائباً عن « الخالق » بأى معنى آخر غير ما قد يقال عن كل قوة أو قدرة بأنها تعمل بأمر منه — أى من الخالق — حيث أنها مستمدة منه .

« إن كل ما يحدث إنما يفهم على ضوء الخطة العامة للعناية الإلهية ومقاصدها . .

« وليس لأعظم أمير مهما كان شرعياً الحق فى الادعاء — على هذا الأساس — بقدسية خاصة ، أو سلطان مصون أكثر مما لأى حاكم مرءوس ، أو حتى من أى مغتصب ، أو حتى من قاطع طريق ، أو قرصان !

«إن المهيمن الإلـهى الذى أعطى « تيتوس » أو « تراجان » السلطة لأهداف حكيمة ، هو نفسه الذى منح « بورجيا » أو « أنجريا » السلطة أيضاً لأهداف لا تقل حكمة ، وإن كانت خافية علينا »[1] .

وهذا الكلام من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تعليق ، وإنما نود أن نلفت النظر إلى ما يقرره « هيوم » هنا من أن « الحكم » ليس إلا جزءاً من الخطة العامة للعناية الإلـهية ، وأن « الحاكم » — أى حاكم — ليس إلا مظهراً من مظاهر هذه الخطة ، فليس لأى حاكم قداسة خاصة ينفصل بها عن الوضع المرسوم بيد القدرة ، لكل كائن فى هذا الوجود . . فهو يؤدى وظيفته كما يؤدى الماء وظيفته ، وكما تؤدى النار وظيفتها . . إنه مسخر بيد القدرة الخالقة ، شأن كل شىء فى هذا الوجود !

---

(١) العقد الاجتماعى .

وهذه النظرة التى ينظر بها «هيوم» إلى الوجود كله نظرة مستسلمة ، لا تدع للإنسان مجالا للتحرك فى أى اتجاه . . إنها نظرة « تجمد » كل شىء فى نظر الإنسان ، وتميت نوازع التحول من حال إلى حال كما هو شأن الإنسان بما أودع الخالق فيه من عقل وحكمة وتدبير !

إن « هيوم » ينظر إلى الوجود نظرة أشبه بنظرة الصوفى الذى يؤمن بوحدة الوجود ، ويجعل من الكون كله كياناً واحداً . . لا فاضل فيه ولا مفضول . .

وإذن فأوضاع الحياة القائمة — فى أى زمان وفى أى مكان — هى الأوضاع التى ليس وراءها ما هو خير منها ، أو بمعنى أدق هى الأوضاع التى لا يستطيع أحد استبدالها بغيرها بحال أبداً ، لأنها من تدبير الخالق ، وما كان لقوة أن تعترض هذا التدبير ، أو تحوّل اتجاهه . .

« فالحكم » و « الحاكم » فى هذا المفهوم الذى يراه « هيوم » هو ظاهرة من ظواهر الوجود ، أرادها الله لتأخذ وضعها فى الحياة بين ظواهر الوجود كلها .

وهذه النظرة التى ينظر بها «هيوم» إلى الحياة يمكن أن توصف بأنها نظرة يأس واستسلام . . ترضى بالواقع ، وتسلم به دون أن تفكر فى الالتحام به ، والتفاعل معه . . بل تقف وقفة محايدة ، تنظر إلى الحياة من خارج الحياة .

إن العنصر الإنسانى الذى من شأنه أن يدخل فى الحياة ، ويعدّل ويغير من أوضاعها مفقود تماما فى هذه النظرة اليائسة المستسلمة . .

إن « هيوم » كما قلنا ، ينظر بعين أشبه بعين « الصوفى » . . يملأ عينيه من هذا الوجود ثم تنعكس هذه النظرة مشاعر مختلطة بكيانه . . ولسان حاله يقول : ليس فى الإمكان أبدع مما كان !

ولكن الناس لا يحيوْن فى الحياة على هذه « الفلسفة » المتصوّفة ، ولا يتعاملون معها . . بل إنهم دائماً أبداً فى صراع مع الحياة ، ومع ظواهر الحياة ،

يسون ، ويهدمون . . إنهم دائماً أبداً فى حرب مع أنفسهم ، حاكمين ومحكومين ، وفى حرب مع الطبيعة ، يَغْلِبون ويغْلَبونَ . . حرب لا تنتهى مادام الناس فى هذه الحياة !

* * *

ولا نريد أن تذهب فى هذا البحث إلى أبعد من هذا . . فى الصلة التى بين « الحكم والدين » فإن لهذا البحث مجالا آخر ، سنعرض له عند بحثنا فى « الخلافة الإسلامية » التى آن لنا أن نلتقى بها الآن ، بعد أن قدّمنا بين يديها هذا البحث .

* * *

الكتاب الثاني

الخلافة والإمامة في الإسلام

الباب الأول

الإسلام والمسلمون بعد النبي

نظرة تاريخية :

كان الحكم الذى قام فى المجتمع الإسلامى فى عصر النبوّة ، وفى فترة الخلفاء الراشدين حكما فريداً فى الحياة . لم تعرف الدنيا له شبيهاً من قبل ، ولم تشهد البشرية فى مختلف أزمانها وأجيالها حكما يدانيه ، فيما وجد الناس فيه من عدل ، وبما نعموا فى رحابه من حرية ، وكرامة ، ومساواة !

هذه حقيقة قامت الحياة كلها شاهدة لها ، وتظاهرت نقول المؤرخين من مسلمين وغير مسلمين على تسجيلها ، فى صفحات وضيئة مشرقة ، تحكى آيات بينات لهذا المجتمع الإسلامى الذى أقامه الرسول . وغرس فيه من معالم الحق ما أقام النفوس على التقوى ، وعمر القلوب بالخير ، وجمع بين الناس على المودة والرحمة والإخاء !

لقد كان هذا مما لفت الأنظار إلى الإسلام ، وإلى موارد شريعته ، ومناهل أحكامه — فكان الإسلام منذ أيامه الأولى موضع تأمل ، ودراسة ، وتحقيق ، لا عند المسلمين ، وفقهاء المسلمين وحدهم ، بل عند الفلاسفة ، والسّاسة ، والمشرّعين من غير المسلمين أيضا !

لقد وقفوا جميعاً — من مسلمين وغير مسلمين — عند هذه الظاهرة العجيبة من أمر هذا الدين ، ومن معجزاته المعجزة فى بناء المجتمع الإنسانى،على أكمل صورة تطمع فيها الحياة ، وتتمثلها مثالية الفلاسفة فى المدن الفاضلة .

التى بنوها فى عقولهم ، ولم تسمح الحياة بظهورها فى الوجود واقعاً يعيش الناس فيه .

يقول جرونيباوم :

« والحق أن سنوات حكم النبىّ — صلى الله عليه وسلم — العَشر فى المدينة ، مضافا إليها — فى الراجح — الثلاثون سنةً التى أعقبت وفاته — كانت قوام العصر الذى صارت فيه الجماعة الإنسانية أقربَ ما يرجى من الكمال » .

ومن ثمّ ، فإن سوابق تلك الفترة فى النظم ، والقانون ، والمالية — فضلا عن الدين — هى التى أثمرت مصطلحاتٍ ، وفرائضَ . وأفكار ذلك النظام الكامل . نظام الله »[١] .

وإنه لولا هذه النكسة التى أصابت الحكم الإسلامى وماوقع فيه من أحداث فى أخريات حكم الخليفة الراشد « عثمان » رضى الله عنه — وفى خلافة الخليفة من بعده علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه — لولا هذه النكسة لكانت تلك التجربة آية الآيات فى الشهادة لهذا الدين عند من لايؤمنون به ، ولأخرست كثيراً من تلك الألسنة التى تتطاول على الإسلام ، وتحاول جاهدة أن تنال منه ، وأن تشوه معالمه ، وتحمّى السبل إليه .

والحق أن هذا الدخان الكثير الذى تصاعد من تلك الفتن التى نجم قرنها فى السنوات الأخيرة من حكم « عثمان » ، وطول خلافة « علىّ » — هذا الدخان الذى قدغشّى على كثير من الأبصار . وحجب عنها حقيقة هذا الدين وأثره فى الجسد السياسى للمجتمع .. فراح كثير من هؤلاء ينعونَ على هذا الدين ، ويلقون عليه كل الأوزار والفتن التى ولدت فى أخريات الخلافة الراشدة ، ثم امتدت بعدها قرونا بعد قرون . جاعلين فى حسابهم أن كل ما وقع من أحداث كان بسبب « الخلافة » وأن الخلافة ما كانت تثير مثل هذه الخلافات الحادّة العاصفة لو لم تكن محسوبة على الدين ، ومستندة إليه ، ومستظلة بظله . فإنه لولا جانب الدين الذى اصطبغت به الخلافة لما كان لها

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٨٤

فى الناس هذا المقام المكين من نفوسهم . ولما وقع هذا الصراع العنيف من أجلها ، ولما اشترك فيه العامة والخاصة جميعاً ، إذ كان كل مسلم يرى أن له بالخلافة نسباً ، هو نسب الدين يدين به ، والذى تقوم الخلافة باسمه ، وتحت رايته ! فإذا حدث خلاف حول « الخلافة » كان ذلك بمثابة دعوة عامة للمسلمين جميعاً أن يدخلوا فى هذا الخلاف ، وأن يشاركوا فيه ، قولا وعملا . . فمن لم يدخل فى هذا الخلاف بهواتف السياسة ، دخل فيه بعواطف الدين !

هذا بعض ما يرمى به الإسلامَ بعضُ المتعصبين ، ممن لا يعنيهم أن ينظروا إليه نظرة متوازنة ، ترى الواقع على حقيقته ، وإنما همهم هو التماس العيوب . والبحث عن مظانها ، والتلهف على اصطيادها .. ومن طلب عيباً وجده .. حتى فى أكمل صور الكمال ! .

تغيّر الناس ، فتغيرت معالم الدين :

للإمام « على » كرّم الله وجهه قولة مأثورة تلخص فى دقة وحكمة أسباب هذا الاضطراب المائج الذى أصاب المجتمع فى عصره . وتشير إشارة بليغة إلى مهابّ الفتن التى دارت بها رءوس الناس آنذك .

قال على كرم الله وجهه — وقد سأله سائل : « ما بال الناس قد اختلفوا عليك ، ولم يختلفوا على أبى بكر وعمر؟ — قال : لأن أبا بكر وعمر كانا والِيَيْن على مثلى .. وأنا وال على مثلك ! » .

إن الدين — أى دين — لا يمكن أن يطرق قلب إنسان دون أن يَمَسّ وجدانه . وينفض بعض آثاره على سلوكه فى الحياة ، وعلى صلاته بالمجتمع .

على أنه ليس من الحتم اللازم أن كل من يدين بدين أن يستقيم على تعاليمه ، وينهج على شريعته . . وإنما بقدر ما يكون فى القلب من إيمان بالدين ، وعلى قدر ما يكون لأحكامه وتعاليمه من مفهوم عند من يدين به — بقدر هذا وذاك يكون تأثر المتديّن به ، ثم يكون أثره فى سلوكه ، وآثاره فى حياته .

إن الدين أشبه بالماء يمطره السحاب، فيقع مواقع شتى من الأرض . . يقع فى أرض طيبة فيحيي مواتها ، ويكسو أديمها حللا مختلفة الألوان من الزروع ، ومن جنات ألفاف ، وحدائق غلب . . ويقع على أرض من الحجر الصلد ، لاتمسك منه شيئاً ، فتظل عارية من كل خير . . هكذا أبد الدهر !

وفى هذا يقول النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « مَثَلُ مابعثنى الله به عزّ وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة طيبة قبلت المـاء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت المـاء ، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا ، ورعَوْا،وأصاب طائفة منها أخرى ، إنما هى قيعان لاتمسك ماءاً ، ولا تنبت كلأ . . فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه بمـا بعثنى الله به ، فعلم وعلم . . ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » (١)

وإذن فليست أجيال الناس إزاء الدين على سمت واحد ،كما أن أفراد الناس ليسوا معه على حال سواء . . بعضهم ينتفع بتعاليم الدين انتفاعاً يكاد يكون تاما ، لا يكاد ينحرف عنه قيد أنملة ، وبعضهم لا يخالط الدين ذرة من كيانه ، ولا يمسّ شيئا من عقـــله أو قلبه . . وبين هذين الطرفين المتباعدين تكون حظوظ الناس من الدين ، ويكون حظ الدين منهم .

والدين — أى دين — يعيش فى المجتمعات الإنسانيه أشبه بالكائن الحى، يكون له بينهم أدوار تشبه أدوار الكائن الحىّ تمـاما . . يكون له طفولة ، وصِبيٌ ، وشباب ، واكتهال ، وشيخوخة ، وهرم، وفناء !

إن الدين يأخذ لونه من النفوس التى تتشربه، وتتفاعل به، وإن خير مثل لهذا الدين الإسلامى ! :

فلقد شهد الناس، وشهدت الحياة فى جيل واحد من أجيال الناس — صورتين متباعدتين أشد الابتعاد للأثر الدينى فى المجتمع الإسلامى . فى أفراده وجماعاته على السواء

---

(١) صحيح مسلم جزء ٧ ص ٦٣

فى عصر النبوة ، وفى السنوات القليلة التى تلت هذا العصر كان الدين هو كل شىء فى المجتمع الإسلامى ، وكانت الحياة كلها ترجع إلى الدين ، وتتحرك بوحيه ، وتتجه نحو إشارته . .

لقد كان سلطان الدين فى هذه الفتره — وفى فترة النبوة بالذات — كان أقوى من كل قوة ظاهرة أو خفية تعرفها الحياة .ويخضع لها الناس ، ويتأثرون بها .

كانت شخصية الرسول الكريم ، وما تمدّه به السماء من أمدادها المتصلة ، قد استولت على مشاعر الناس ، وعلى عقولهم ، وعلى كيانهم المادى والمعنوى جميعاً ، فأسلموا له وجودهم ، فوسعتهم منهم نفس رحيبة رحيمة ، وضمهم إليه جناح هين لين ، وأجرت أمورهم معه يد حكيمة رفيقة تملؤها السماء عدلا ، وبراً ، ورحمة !

لقد أسلم المسلمون للنبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه — أسلموا له ظاهرهم وباطنهم جميعاً ، فلا يكتمونه شيئاً ، ولا يقولون قولا أو يعملون عملا إلا وهم على إحساس بأن ما يقولون أو يعملون — فى تخافت أو جهر ، وفى سر أو علانية — لا يلبث أن ينكشف للنبى . ويعرض على رءوس الأشهاد . . إما قرآناً يتلى ، وإما سنّةً تروى .

فنى القرآن الكريم كثير من المواقف التى تحدّث عما كان يُلْقَى إلى النبى صلى الله عليه وسلم من أخبار تكشف له مايبيت له بعض الناس من كيد ، أو جرى على ألسنتهم من سوء . .

وأكثر ما جاء فى القرآن الكريم من هذا كان فى شأن المنافقين ، الذين كانوا يَلقوْن الناس بوجوه شتى . . يلقون المسلمين بوجه ، ويلقون اليهود بوجه ، ويلقون كفار قريش بوجه . . وهكذا . . فكان ينزل من القرآن فى شأنهم مايخزيهم ويفضح أمرهم . . يقول سبحانه وتعالى : « يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل لاتعتذروا لن نؤمن لكم ،قد نبأنا الله من أخباركم ... »[1]

(١) سورة التوبة آية ٩٤

ويقول سبحانه: «إذا جاءك المنافقون . . قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لـكاذبون »[١]

ويقول جل شأنه : « هم الذين يقولون لاتنفقوا على مَنْ عند رسول الله حتى ينفضُّوا ؛ ولله خزائن السموات والأرض ، ولـكن المنافقين لا يفقهون »[٢]

ويقول سبحانه : « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجَنّ الأعز منها الأذل ؛ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . . ولـكن المنافقين لايعلمون »[٣]

وكانت هذه الآيات قد نزلت فى عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين ، وكان قد خرج مع المسلمين فى غزوة أحد . . ثم انحاز بثلث الجيش ، ورجع دون أن يشهد الحرب . . !

وفى سورة التحريم يقول سبحانه وتعالى : « وإذ أسرّ النبى إلى بعض أزواجه حديثا،فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه، وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ، قال نبأنى العليم الخبير » .

ويروى عن عائشة رضى الله عنها،قالت: «خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من كلب ، فبعثنى أنظر إليها . . فقال لى كيف رأيت ؟ ؟ فقلت : ما رأيت طائلا ! . . قال : لقد رأيت خالا بخدها ؛ اقشعرّ كل شعرة منك على حدَة ! » فقالت : مادونك ستر ! ! »[٤]

وهكذا كانت أحوال الناس وأقوالهم تنكشف للرسول صلى الله عليه وسلم فى كثير من الأحيان، فيكشفها لهم ،ويطالعهم بها،أو يحجزها عنهم ويسوسهم بمقتضاها .

وقد عاش هذا الإحساس فترة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ الزمن يعمل عمله فى هذا الإحساس، فجعل يبرد شيئا فشيئا ، وبدأت أنظار الناس المتعلقة بالسماء تتراخى شيئا فشيئا حتى جاء وقت كانت فيه تلك الأنظار قد أخذت وضعا فى الحياة . لاترى فيه شيئا غير الأرض ، وما على الأرض

(١) سورة المنافقون آية ١
(٢) المنافقون آية ٧
(٣) سورة المنافقون آية ٨
(٤) عيون الأخبار جزء ٤ ص ١٩

من خير وشر . ولا تعيش إلا فيما يتعاقب فيه الليل والنهار على الناس من صراع وكفاح !

وكان من هذا أن شهد الناس تبدلا واضحاً فى الحياة التى كانوا يحيونها فى عصر النبوّة وما بعد هذا العصر بقليل . وبدأت أعراض الشر التى كانوا قد برئوا منها فى عهد النبوة تزحف على المجتمع الإسلامى ، وتثير فى الناس ما كانت تثير قبل عصر النبوّة من أحقاد وأضغان ، وعصبيات

موقف يثير حيرة وتساؤلا :

وقد كانت هذه الحال التى عاش فيها المسلمون فترة وضيئة مشرقة ، اختلسها لهم الحياة ، وآثرتهم بها دون الناس جميعاً — كانت هذه الحال ثم إفلاتها من يد المسلمين مثار حيرة وقلق وتساؤل ، عند كثير من المسلمين ، وغير المسلمين على السواء !

لقد جاء الإسلام إلى العرب، وهم جماعات متناثرة . وقلوب قاسية ؛ وصدور تغلى بالعداوة والحقد . ووحوش كاسرة تعمل بالأنياب والمخالب . .

فإذا الإسلام فى سنوات معدودة يخلق من هذه الأعضاء المتنابذة المتناثرة جسدا اجتماعيا متجانساً متآلفا ، كأنه جسد واحد . ينبض فيه قلب واحد : وتتحرك فيه نوازع واحدة ؛ وتوجهه إرادة موحدة . .

« واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتمْ أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها »[١] .

هكذا كان العرب قبل الإسلام ، وهكذا أصبحوا بعده .

بل وأكثر من هذا ، فإن هذا الجسد الاجتماعى العربى الذى صبّ فى قالب الإسلا ، وتشكل بتعاليمه ، واصطبغ بشريعته — هذا الجسد قد استطاع أن يتقبل أمماً وشعوبا من مختلف الأجناس ، وأن يزداد بها كيانه طولا وعرضا ، أضعافاً مضاعفة ، دون أن تتغير مشاعره ، أو تنحلّ إرادته ، أو تتضارب منازعه !

---

(١) سورة آل عمران . . آية ١٠٣

بل ظل هو هو ذلك الجسد الذى رُبِّىَ فى حجر النبوة ، وصنع على عينها . . يخفق بقلب واحد ، ويحيا بمشاعر واحدة ، ومتجه واحد !

وكما كان ظهور هذا الجسد الواحد على تلك الصورة الفريدة الرائعة، وفى هذه الفترة القصيرة من الزمن مدعاة للعجب والدهش ، كذلك كانت أعراض التفكك والانحلال التى بدأت على هذا الجسد وهو فى ريعان شبابه وفتاء قوته . وكان هذا التصدع فى ذلك البناء الشامخ الذى أقامه الإسلام منذ قليل — كان ذلك أيضا مدعاة لمزيد من العجب والدهش، ومبعثاً للحيرة والتساؤل !

لقد عاش كثير من الناس فى هذه الفترة وعاصروا هاتين الحياتين معاً . . حياة الوحدة الاجتماعية الإنسانية فى أكمل صورها وأصفى ألوانها ، وحياة التفكك ، والتصدع فى أقسى قسوتها ، وأبشع صورها . .

بل وأكثر من هذا، فإن أعدادا غير قليلة من هؤلاء الناس قد عاشوا ثلاث حيوات متعاقبة متباينة . . حياة الجاهلية وما فيها من فساد وانحلال ، وجهل وظلام ، وحياة النبوة وصدرا من عهد الخلفاء الراشدين وما فيها من سموّ روحى ، وإشراق نفسى ، ومشاعر إنسانية تملأ كيان الناس رحمة ومودة وإخاء . . ثم تلك الحياة التى ظهرت فى أعقاب الخلافة الراشدة ، والتى ثارت فيها ثائرات الفتن ، والأحقاد ، والتفلت من ذلك الرباط الوثيق الذى شدّ به الإسلام عقول الناس وربط به على قلوبهم . .

دورة سريعة من الزمن ، انتقل فيها الناس بين ثلاثة عوالم مختلفة أشد الاختلاف . . من ظلام حالك مطبق . . إلى نور يغمر الوجود ويملأ العيون . . إلى عواصف محملة بسحب كثيفة من التراب والرمال ، تسوّد وجه النهار ، وتطمس العيون ، وتخنق الأنفاس .

لقد أوقعت هذه الحال أكثر الناس إذ ذاك فى حيرة ، وبلبال .. لايدرون من أمرهم مايأتون ، وما يدعون .

أيعودون إلى الجاهلية وما كانوا عليه فيها من ظلام ، وجهل ، وخوف ، وكفر ؟ ؟

أم يحتفظون بهذا الخير الكثير الذى تركه النبىّ الكريم فى قلوبهم وفى عقولهم جميعاً ؟

أيتحولون عن هذه الحال التى ذاقوا فيها نعمة الأمن والسلام ، وراحة الضمير ، ونشوة الروح . . أم يظلون متشبثين بما هم فيه ، قابضين عليه ، وإن اشتدت عليهم الضربات ، وتلاطمت بهم الأمواج ؟

ومن لهم بهذا ، وقد ركب الناس ظهرَ الفتنة ، وأطلقوا لها العنان ؟ وأين لهم تلك القوة التى تعينهم على النجاة ، وقد اضطربت بهم السفينة وأوشكت أن تغوص فى القاع ؟

إنه لامفر للمرء فى هذه الحال من أن يركب أحد طريقين : إما أن يفرّ بدينه ، وبما بين يديه وما فى قلبه وعقله منه ، فيعتزل الناس ، ويعتزل الحياة . . وإما أن يأخذ فيما أخذ فيه الناس ، ويتجه متجههم ، ويستقبل المصير الذى يصيرون إليه ، فيسلم إن سلموا ، ويعطب إن عطبوا .

وهيهات أن يجد الإنسان — فى هذا الجوّ المغبرّ الذى تعذرت فيه الرؤية — هيهات أن يجد الطريق الذى يتجه إليه . . إن وجد أوله ؛ فبعيد أن يعرف آخره ، وبعيد أن يعرف المصير الذى تنتهى به رحلته فيه !

إن المرء هنا ليرى فتناً كقطع الليل ، ويرى وجوه الرأى تتخالف عليه ، وتتضارب فى كيانه .

إنه يرى حربا قائمة ، ورماحاً مشرَعة ، وسيوفا قائمة ، ودماء تسيل ، وأرواحاً ترهق ، وأشلاء تتناثر ، وأوصالا تتقطع . . !

وبين من ؟ ومع من ؟ وفيمن تعمل هذه الرماح وتلك السيوف ؟ ؟ إنها مع جماعة المسلمين ، وفى جماعة المسلمين . . بين أصحاب رسول الله ، ومع صحابة رسول الله ، وفى رقابهم ورءوسهم !

أرأيت إذن موقفاً كهذا الموقف يحرَج فيه المسلم ، ويكرَب له ؟

أفيَسْلَم للمسلم دينه إذا اعتزل هذه الحروب ، وأغمد سيفه ، وأغلق عليه باب بيته ، فلم يكن مع هذه الطائفة أو تلك.. من الطائفتين المتقاتلتين ؟

إن هناك طائفتين من المؤمنين — ومن صحابة رسول الله بالذات — تقتتلان . .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وإن طائفتان من المؤمنين اقْتَتَلوا ، فأصْلِحوا بينهما ، فإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى، فقاتلوا التي تَبْغِي حتى تَفِيءَ إلى أمر الله . . فإن فَاءَتْ فَأصْلِحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحبّ المقسطين »[1] .

وامتثالا لأمر الله هنا ينبغي على المسلم أن يكون له فى هذا الأمر موقف . فإذا لم تسكن الطائفتان إلى دعوة الصلح ، ولم تستجب لها ووقعت الحرب بينهما كان على المسلم أن يقف فى جبهة الطائفة المبغىّ عليها ، ضد الفئة الباغية . هذا ما يأمر به الدين فى تلك الحال ، فليس للمسلم إذن مفرّ من أن يكون فى ميدان المعركة، يقاتل الطائفة الباغية !

ولو كان الأمر مع غير هؤلاء النفر الكرام من صحابة رسول الله لكان للمسلم أن يجتهد ، وأن يحمل نفسه على ما انتهى إليه رأيه ، وأداه إليه اجتهاده !

ولكن ماذا يرى فى صحابة رسول الله ؟ وماذا يقول وقد وقعت بينهم الواقعة. وسقط فى ميدان المعركة بسيوفهم ألوف وألوف من المسلمين من الصحابة . وغير الصحابة ؟

هذا علىّ بن أبى طالب ومعه كثير من الصحابة ، وألوف من المسلمين فى جبهة القتال . . وهذه عائشة — أم المؤمنين — تقف فى الجبهة الاخرى تقاتل عليّا ، ومعها طلحة والزبير وكثير من وجوه الصحابة ، وألوف من المسلمين. .

فإلى أية جبهة يتجه المسلم ؟ وإلى أى وجه من هذه الوجوه يوجه سيفه أو رمحه ؟ أإلى على بن أبى طالب فارس الإسلام وربيب بيت النبوّة ، ومن ضمه

---

(١) سورة الحجرات آية ٩

الرسول إليه ، ونَشَّأه على يديه ، وآخاه دون الناس ، وزوّجه ابنته فاطمة ؟
أم إلى « عائشة » زوج الرسول الكريم ، وحِبّه، وابنة الصديق حِبّ الرسول وصاحبه فى الغار ؟

أم إلى طلحة والزبير . . حَوَارِيَّىْ الرسول ، ومن العشرة المبشرين بالجنة؟ إن الأمر لأعقد من ذنب الضبّ كما يقولون !

ومع هذا فقد انحاز كثير من المسلمين إلى « علىّ » كما انحاز كثير منهم أيضا إلى عائشة . . والتقى الفريقان ، والتحم الجيشان . . وخرّ صرعى كثيرون من هؤلاء وأولئك ..وانحسرت المعركة عن انتصار « علىّ » .. وخمدت نار الحرب، وسكن غبارها فى ميدان المعركة . . ولكن مازالت الحرب قائمة فى الصدور ، ومازال المسلمون فريقين : فريقاً مع « على » وفريقاً عليه !

والسؤال الذى يرد هنا هو : ما هى النظرة التى نظر بها كل من الفريقين إلى الجهة التى انحاز إليها ؟ وما الشواهد التى انتصبت له ليتجه إلى هـذا الفريق أو ذاك ؟

والجواب على هذا لا يمكن أن يكون محدداً قاطعاً ، يعطى صورة واضحة لما كان عند طائفتى المسلمين إذ ذاك من شواهد وبراهين تبرر الموقف الذى وقفوه.

ذلك أن ما كان يجرى فى صدور المسلمين ويدور فى تفكيرهم يومئذ من معطيات الفتن والأحداث التى طلعت عليهم لم يكن واضحاً ، ذلك الوضوح الذى يقيم صاحبه على رأى ، ويبيته على يقين من أمره ، وطمأنينة من موقفه !

ولا نقول هذا عن أصحاب الأدوار الثانوية من الفريقين فى هذه الحرب ، ممن دخلوا فيها متأثرين بعواطف دينية أو غير دينية ، بل نقوله أيضا عن قادة الفريقين جميعا . . نقوله عن « علىّ » كرم الله وجهه ، كما نقوله عن « عائشة » رضى الله عنها . .

فما نظن أحداً يشك فى أن كلا من « علىّ » ومن معه من أعلام الصحابة و « عائشة » ومن معها من هؤلاء الأعلام — لا يشك أحد فى أن هؤلاء

جميعاً قد وقفوا هذا الموقف كارهين له أشدّ الكره ، مبغضين له أشد البغض ، ولكنها الأحداث كانت أقوى من أن يقف لها أحد ، أو أن يحول بينها وبين أن تبلغ المدى الذى بلغته . . !

إنها عاصفة هوجاء عصفت بالمجتمع الإسلامى كله ، ودفعت به دفعاً إلى هذا المرعى الوبيل ، بعد أن أخذت على الناس كل سبيل إلى النجاة ، أو الفرار من هذا المصير المحتوم !

وإنك لتقرأ من أحداث هذه الفتنة ، ومن مواقف الذين أصابهم صَوْبها ما يملأ عليك قلبك أسًى وحسرةً أن تطوى هذه الأحداث نفوساً منطوية على الخير ، مشرقة بالإيمان ، لا تطلب إلا السلامة لدينها ، وإلا العافية لآخرتها . . ثم تجىء المقادير على غير ما قدرت ، وتقع الأحداث على غير ما أرادت ، وإذا هى تواجه البلاء ، وتدخل فى هذه المحنة وكأن سائقاً عيفاً يسوقها إليها !

فى موقعة الجمل ، وقد تهيأ الجمعان للقتال ، ووقف كل منهما إزاء صاحبه ، خرج « علىّ » بنفسه حاسراً ؛ على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا سلاح عليه ! فادى « يازبير » اخرج إلىّ ، فخرج الزبير شاكّاً سلاحه ، فقيل لعائشة .. فقالت: واحرباه يا أسماء[1] ! فقيل لها : إن علياً حاسر !! فاطمأنت .. واعتنق كل منهما صاحبه . .

فقال له علىّ : ويحك يازبير ! ما الذى أخرجك ؟

قال : دم عثمان ! !

قال علىّ : قتل الله أَوْلاَنا بدم عثمان ! أما تذكر يازبير يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بنى غنم ، فنظر إلىّ فضحك وضحكت إليه .. فقلتَ : لايدع ابن أبى طالب زَهْوَه . .

---

(١) لما أحرت عائشة بخروج الزبير للاقاة على تيقنت أنه مقتول ، لأن علياً لم يبارز أحدا إلا قتله .. وكان الزبير زوج اختها أسماء ، بنت أبى بكر الصديق . . ذات النطاقين

فقال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم : صَـهْ . . إنه ليس به زهو ، ولتقاتلنّـه وأنت له ظالم ! ؟

فقال الزبير : أستغفر الله ، ولو ذكرتها ما خرجت !

فقال يازبير . . ارجع !

فقال : وكيف أرجع الآن ، وقد التقت حَـلقَـتَـا الـبِطان[1] ! هذا والله هو العار الذى لا يغسل !

فقال : يازبير . . ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار !! فرجع الزبير وهو يقول :

اخترتُ عارا على نارٍ مؤججة ما إن يقوم لها خَـلْـق من الطين
نادى « علىّ » بأمر لست أجهله عار لعمرك فى الدنيا وفى الدين
فقلت حسبك من عَـذْل أباحسن
بعض الذى قلت منذ اليوم يكفينى

فقال له ابنه « عبد الله » أين تدعنا ؟

فقال : يابنى . . أذكرنى أبو الحسن بأمر كنت أنسيتهُ !

فقال : لا ، ولكنك فررت من سيوف بنى عبد المطلب !

فقال : لا ، والله ، ولكنى ذكرت ما أنسانيه الدهر .. فاخترت العار على النار . . أبالجبن تعيرنى ؟ لا أبالك !! ثم أمال سنانه فشده فى الميمنة . . فقال علىّ : أفرجوا له فقد هاجوه .. ثم رجع فشد فى الميسرة، ثم رجع فشد فى القلب .. ثم عاد إلى ابنه فقال : أيفعل هذا جبان ؟ ثم مضى منصرفا ...؟[2]

إنها محنة ، ابتلى فيها المؤمنون ، حتى ليذهل كثير منهم عما وعى صدره من آيات الحق ، ومعالم الهدى .

---

(١) حلقتا البطان . البطان : حزام القتب للبعير، وهو مثل يضرب لخروج الأمر من يد صاحبه
(٢) تاريخ الطبرى، جزء : ٥ ص ٢٠٠

ولقد اعتزل هذه الفتنة بعض الصحابة رضوان الله عليهم ، ولكن أتراهم كانوا أقل حرجا ، وأقل ضيقاً من لابسوها وتمرسوا بها ؟ لا أظن .. فإنه كما دخل المعركة من دخل على غير بينة واضحة ، فقد اعتزلها من اعتزلها على غير بينة واضحة أيضاً !

فهذا « سعد بن أبى وقاص » رضى الله عنه وقد جاءه من يدعوه إلى البيعة « لعلى بن أبى طالب » كرم الله وجهه بعد أن بايعه جمهور المسلمين ... وكان « سعد » ممن أمسكوا أيديهم عن بيعة علىّ تخوفا من خوض غمار الفتنة المتوقعة بعد مقتل الخليفة الشهيد عثمان بن عفان — هذا سعد يجىء إلى «علىّ» رضى الله عنه فيقول : « والله ياأمير المؤمنين ! لاريب عندى فى أنك أحق الناس بالخلافة ، وأنك أمين على الدين والدنيا . غير أنه سينازعك على هذا الأمر أناس ! فلو رغبتَ فى بيعتى لك إعطنى سيفاً له لسان .. يقول لى : خذْ هذا ، ودع هذا ! »[1]

وأين عقل سعد ، وبصره ومنطقه ؟ وهل ترى أن من يقول هذا القول يكون راضياً كل الرضا عن موقفه هذا الموقف الحيادى ؟ لا أظن أيضاً .

لقد دارت الفتنة بالرءوس ، وذهبت بالأبصار ، وأخرست الألسنة !

ثم هذا «الزبير بن العوام» — كما رأيت — قد خاض المعركة فى أولها ، وكان أحد قائديها . لقد أغمد سيفه والمعركة دائرة ، ومضى إلى حيث كان فى مدينة الرسول وفى جواره .. لا فرارا من الموت ، ولكن من الفتنة ، ولا خوفا على نفسه أن تهلك ، ولكن خوفا على دينه أن يفسد .. فقدكان الزبير رضى الله عنه فارس الهيجاء ومسعر الحرب .. ولكن لم يقدّر له أن يبلغ الغاية التى يريد ، فقتله غيلة وهو فى الطريق من يدعى ابن « جرموز » :

* * *

(١) تاريخ اليعقوبى جزء ٢ : ص ١٢٥

فهل كان « الزبير » يتحول عن ميدان المعركة بعد أن تلاقت السيوف وتصاول الأبطال لو أنه كان على يقين مما هو فيه ؟ ! أو كان على بينة من أمره هذا ؟ إنه دخل المعركة وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى !

روى الطبرى فى تاريخه الكبير ، قال : « لما بايع أهل البصرة الزبير وطلحة قال الزبير : ألاّ ألفٌ فارس أسير بهم إلى « على» ؟ فإما بيّته وإما صبحته لعلى أقتله قبل أن يصل إلينا ؟ ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : إن هذه لهى الفتنة التى كنا نحدّث عنها : فقال مولاه : أتسميها فتنة وتقاتل فيها؟ قال :ويحك: إنا نُبْصر، ولا نُبصر : : ماكان أمر قط إلا علمت موضع قدمى فيه غير هذا الأمر ، فإنى لا أدرى أمقبل أنا أم مدبر (١) ! ! ..

* * *

هذه المعارك التى دارت بين المسلمين فى موقعة الجمل ، وفى صفين ، وفى الحروب الكثيرة التى جاءت بعد هذا مع الخوارج ، والأمويين ، والعلويين ، والعباسيين — هذه المعارك كلها كانت باسم الدين ، ولحساب الدين ، حيث كان الناس قد اعتادوا أن ينظروا إلى الحياة كلها من خلال الدين ، وأن يضيفوا وجودهم كله إلى الدين . .

وقد أضفى الدين على هذه المعارك شيئا غير قليل من صور التضحية والاستشهاد ، وأثار فى النفوس مشاعر الحمية والاستبسال فى سبيل العقيدة . . فأعادت هذه الحروب الدائرة بين المسلمين والمسلمين مشاهد مما كان من حميتهم واستبسالهم وهم فى غزواتهم وفى حروبهم لنصرة هذا الدين وتأييده .. وحسبنا أن نذكر هنا مصارع الخوارج ، وما كان منهم من استهانة بالموت وتدافع عليه فى لهفة وشوق ، بل حسبنا أن نذكر موقف الحسين بن على رضى الله عنهما فى موقعة (كربلاء) ، وما أبدى من آيات الشجاعة ، وضروب الإقدام والبطولة هو وآل بيته والنفر القليل من صحبه . . فلقد لقى هو ومن معه الموت عيانا ، فلم يتراجعوا ، ولم يتحولوا عن موقفهم ، بل قذفوا بأنفسهم بين فكىّ هذا الجيش اللجب، يَقتُلون ويُقتَلون حتى استشهدوا جميعاً ..ومن جهة أخرى، فإن هذه الحروب المستظلة بالدين قد فتحت عيون كثيرة من ذوى الأطماع أن يدخلوها

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٥ ص ١٨٤

مغامرين لعلة ن تنتصب لهم راية أو تقوم لهم دولة . . إذ كان الدين أقوى قوة عاملة فى الحياة ، وإذ كانت كلمة الدين أفعل كلمة فى النفوس وأوقعها فى القلوب . . يستجيب لها كل من يسمعها ، ويخفّ لندائها كل قريب وبعيد !

ومن أجل هذا فقد شمل العالم الإسلامى كله فتن وأحداث ، تجتمع وتنفض باسم الدين ، وتحت راية الدين .. فكثر الخارجون على « الخلافة » الداعون إلى حكم إسلامى . . يضعون هم التفسير الذى يرونه مهيجا للخواطر مثيراً للنفوس .

ولقد ظل هذا الخلاف على « الخلافة » يعمق ويشتد مع الأيام ، حتى قضى على الدولة الأموية ، ثم مزق الدولة العباسية . . وأحال المجتمع الإسلامى الموحد إلى مجتمعات متعادية متنابذة . . سياسة وديناً . . تدور بينها المعارك فى ميادين القتال ، كما يدور بينها الصراع فى مجال الدين والرأى . .

وكان من أثر هذا كله أن تمزقت دولة الإسلام ، وضعف شأن المسلمين ، فأطمع ذلك أعداءهم فيهم ، فذهبت دولتهم من الأندلس ، ثم جاءتهم زحوف الصليبيين فدمرت وخربت وقتلت مئات الألوف منهم ، وكادت تخرجهم من أوطانهم . .

ثم زحفت عليهم بعد ذلك جحافل الغرب الطامع المستعمر ، الذى وضع يده على أوطان الإسلام يمتص دمها ، ويفسد عقيدتها ، ويحيل وجودها ووجود الدين معها إلى أشباح متحركة ، وخيالات باهتة مضطربة . .

وكان من هذا كله أيضاً أن كثر تساؤل المتسائلين : ماذا أصار المسلمين إلى هذا المصير المشئوم ؟ ومن أية جهة دخل عليهم هذا البلاء ؟

وعلى أىٍّ فقد كان من أكثر الأجوبة ردًّا على مثل هذه الأسئلة هو أن الخلافة الإسلامية والصورة التى وقعت فى نفوس المسلمين لها كانت أكبر عامل فى هذه الفتن التى قامت فى المجتمع الإسلامى ، وتتابعت عليه جيلا بعد جيل . . وأنها كانت سبب هذا الضعف الذى شمل مواطن الإسلام كلها . .

ولا نريد أن نقول هنا شيئا فيما كان للخلافة من دور فى هذا الشأن . فلذلك موضعه من هذا البحث . .

وإنما الذى يعنينا أن نقرره الآن هو أن هذه الأحداث التى ألمت بالمسلمين بعد عصر النبوة ، واستشرت فى أعقاب الخلافة الراشدة قد زلزلت بالمجتمع الإسلامى ..فى تفكيره ، وفى مشاعره ، بل وفى عقيدته أيضا . . فى الدين الذى آمن به ، وفى الشريعة التى جاء بها هذا الدين .

إن هذه الفتن التى نجمت ، وهذه الحروب التى قامت ، وتلك الدماء التى أريقت ، والأرواح التى ذهبت كلها ليست شيئا إلى ماحـــدث من تصدّع واضطراب ، وبلبلة فى تفكير المسلم وفى عقيدته . .

عم يتساءلون :

ومنذ هبت أول ريح لهذه الفتن . وعقول المسلمين تموج وتضطرب بأسئلة كثيرة مزعجة ومحيرة . .

فما يكاد المسلم يخلو إلى نفسه ، أو إلى أهل أو صديق حتى تطل من رأسه وتجرى على لسانه أسئلة كثيرة يعييه الجواب عليها ، كما يؤرّقه السكوت عنها ..

أين أنا ؟ وما هذه الحياة التى عشنها فى صحبة النبىّ ، ومع الخليفتين الراشدين من بعده أبى بكر وعمر ؟ ثم مع الخليفتين الراشدين من بعدهما عثمان وعلى ؟

وما هذا الدين الذى أدين به ؟ أهو عقيدة بينى وبين الله ؟ أم هو عقيدة وشريعة معا .. لله منها جانب فى نفسى ، وللناس وللحياة جانب آخر ؟ ثم إلى من أتجه فى أمر عقيدتى وشريعتى إذا اختلف علىّ أمر أو عرضت لى شبهة ؟ أهناك من يقوم مقام النبي بعد أن فارق هذه الدنيا .. يرجى عنده جلاء الشك وكشف الريب ؟ وما صفة هذا الإنسان وما سلطانه الروحى أو المادى ؟ أهو وصىّ النبى ووليه ؟ أم هو ممن يختاره الناس ويرضونه ؟ . . . إلى كثير من هذه الأسئلة التى كانت تزحم حياة الناس ، وتملأ وجودهم . . فردا فردا . وجماعة جماعة ! .

ثم جاءت أجوبة هذه الأسئلة فى صور وأشكال شتى . .

جاء بعضها فى صورة أحزاب سياسية ، ومذاهب دينية . . من خوارج . وشيعة ، وأموية . .

ثم جاءت أجوبة أخرى فى صورة مذاهب فقهية . . من سنية ، ومعتزلة وقدرية وخوارج ، وشيعة أيضاً . . .

وفى جميع هذه الأحوال ، وعلى مختلف تلك الصور كانت القوة تأخذ مكانها إلى جانب الرأى ، وكان السيف يأخذ موضعه إلى جانب اللسان متى وجد الفرصة السانحة له ، واليد القوية الممسكة به !! . .

* * *

الخلافة والمجتمع الإسلامى

قلنا إن الأحداث والفتن التى نجمت فى المجتمع الإسلامى منذ وفاة النبىّ صلى الله عليه وسلم ، قد أثارت فى هذا المجتمع موجات فكرية متضاربة متناقضة ، أوقعت الناس فى حيرة وبَلْبال ، وأشرفت بهم على مهاوى سحيقة ، تصاعد منها أتربة وأدخنة ، تزكم الأنوف ، وتغشى الأبصار ، وتدير الرءوس . .

وقلنا كذلك إن أول ما وقع بين المسلمين من خلاف بعد وفاة « النبى » صلى الله عليه وسلم كان مطلعه من جهة الخلافة ، وبسببها . . ولهذا ، فإنه كان كلما امتد الزمن ، واتسعت رقعة الخلاف بين المسلمين اتجه الناس بأبصارهم إلى « الخلافة » وتتبعوا سيرها فى الحياة معهم ، ومقامها فيهم ، فوجدوا كل خلاف ينجم بينهم إنما تهب عليهم ريحه من جهتها . .

فى الساعات الأولى لوفاة النبىّ .. خلاف بين المهاجرين والأنصار حول من يخلف المسلمين بعد النبى . . ثم لا يكاد ينحسم هذا الخلاف آخر النهار حتى يطلع الصباح بخلاف جديد بين الخليفة الأولى — أبى بكر — وبين علىّ وشيعته من آل بيت الرسول . ثم ينتهى هذا الخلاف ، ويمضى أبو بكر بخلافه ، ثم يخلفه عمر . . ثم تطل الفتنة من جديد بعد عمر وتأخذ مكانها بين أولئك النفر الستة الذين حصر « عمر » الخلافة فيهم ، وجعل منهم مجلس الشورى الذى يختاره الخليفة من بعده .. وتنطفىء شرارات هذه الفتنة دون أن تورىَ نارا . ويتولى عثمان الخلافة ، ويقطع بها شوطاً يبلغ ست سنوات ، ثم لا يلبث أن

يجد حوله دخانا يتصاعد من خلل هذا الرماد المتخلف من تلك الشرارات التى انقدحت فى مجلس الشورى الذى أقامه خليفة على المسلمين .. ويتخلّق من هذا الدخان نار .. ثم تتحول هذه النار إلى حريق يدخل على الخليفة فى بيته ، فيموت به شهيدا ، والمصحف فى حجره ! ، ثم يقوم « على » بأمر الخلافة بعد موت عثمان ويحاول جاهدا أن يطفىء هذه النار ، وأن يمسك هذا اللهب أن يمتد إلى خارج المدينة .. ولكن رياحا عاصفة تهب من كل جهة فتزيد النار اشتعالا ، واللهب امتدادا .. فتظل هذه النار مشبوبة الأوار قرونا كثيرة ، تتبع الخلافة فى كل زمان ، وتتعلق بأذيالها فى كل موطن . !

قلنا هذا ، أو شيئا منه فيما مضى .. ونستحضر هذا الآن فى مواجهة تلك الأسئلة الكثيرة التى تلقانا لأول نظرة فى الخلافة الإسلامية ..

ولعلّ أول ما يلقانا من هذه الأسئلة الكثيرة .. هذا السؤال :

ماموقف الشريعة الإسلامية من المجتمع الإنسانى ؟

أو بمعنى آخر : ماهو المجتمع الذى أراد الإسلام أن يقيمه على الأرض ؟

أهو مجتمع « الله » أى مجتمع دينى يشد الناس إلى السماء ، ويرفعهم إلى عالم الروح . ويدخل بهم فى ملكوت الله ؟

أم أنه مجتمع « الحياة » الذى أراد الله — سبحانه — أن يغرسه فى الأرض كما تغرس الحبّة فى الثرى .. ثم سقاه بهذا الدين الذى حمله الرسول إليه كما يسقى النبات بالماء .. ليخرج فى الحياة ثمرا طيبا وحبا مباركا ؟

والجواب مع هذا السؤال ، وعلى تلك الأسئلة المتفرعة منه ليس بالأمر الهين — كما يبدو — بل إنه لأشكل مشكلة دارت فى رءوس المسلمين ، وشغلت جانبا كبيرا من حياتهم المادية والنفسية والعقلية جميعاً !

ولك أن تسأل نفسك هذه الأسئلة وتطلب الجواب لها ، لتعرف مدى الحيرة التى ترد عليك ، والحرج الذى يملأ صدرك به ..

ولن أدَعَك لهذه الأسئلة الكثيرة المتشعبة ، بل أختصرها لك فى سؤال واحد . . هو :

إلى من تعطى ولاءَك كله فى هذه الحياة ؟ أللسَّماء أم للأرض ؟ أ لِلدِّين أم للدُّنيا . . لله أم للشيطان ؟

ولا تحسبن أنك تخدعنى أو تخدع نفسك حين تقول : وهل يحتمل الأمر تفكيرا ؟

فطبيعى أن يكون ولائى كله للسماء .. للدين .. لله !.. وليس للأرض ، ولا للدنيا ، ولا للشيطان ! ..

وأقول لك . إن هذا ليس جوابك أنت وحدك ، بل هو جوابى أنا أيضاء وجواب كل إنسان تلقى إليه بمثل هذا السؤال .

ولكن أتظن أن هذا الجواب يمثل الواقع حقاً ؟ ؟

وكلا ... فإنه أقرب شيء إلى أن يكون أمنية من الأمانى ، وأملاً من الآمال والأمانى شيء وتحقيقها شيء آخر ، والآمال قلما تبلغها الأعمال !

إن أحسن أحوالك وأحوال أى من الناس ـ أن يعطى جانبا منه للسماء وجانبا للأرض . . جانبا لله ، وجانبا لنفسه أو للشيطان !

إنه لمن أشق الأمورِ على المؤمن أن يؤلف بين الدين والدنيا فى قلبه ، وأن يجمعهما على كلمة سواء فيه .

فهذا الجمع بينهما على الصورة السوية المتوازنة لايجىء إلا بعد تجربة طويلة من الصراع المتبادل بين الدين والدنيا ، حتى يقع بينهما هذا التصالح الذى يعيشان فى ظله متساندين متآخيين .. وهيهات !

وإنه ليسيرٌ على المؤمن أن يخلى قلبه من الدنيا ، وأن يجليها عنه ، وأن ينفض يديه منها ، ويعيش مجانبا لها ... فذلك على ماقد يكون فيه من قسوة ـ أيسر بكثير من أن يجمع بينها وبين الدين ، وأن يجعل قلبه مسرحاً لمعارك لاتنتهى أبداً .

وأيسر من هذا أن يتجه إلى الدنيا بكل وجوده وأن يقبل عليها بكل كيانه، وأن يأخذ كل مايقدر عليه من زخرفها ومتاعها!

ولكن أن يجمع المرء بين الدين والدنيا جمعاً متوازياً متوافقاً فذلك مالا يكون إلا بمجاهدة ومصابرة ، لايحتملها إلا أهل التقوى وإلا أصحاب العزمات القوية المكينة من الناس .

وإذ كان من العسير على الإنسان أن يؤلف بين الدين والدنيا فى قلبه ، فإنه من العسير أيضاً أن يفصل بينهما ، وأن يجعل لكل منها دائرة لا يتعداها ، وأن يجعل بينهما برزخا ، فلا يبغى أحدهما على الآخر . . ثم يعيش فى هذا الجانب حينا، وفى ذلك الجانب حيناً آخر . . فإذا كان فى الدنيا لم يخالطه شىء من شئون الدين ، وإذا كان فى الدين لم يدخل عليه أمر من أمور الدنيا . .

إن ذلك لن يكون أبدا . . إذليس فى مقدور الإنسان ، ولا فى طبيعته أن يعزل عواطفه بعضها عن بعض ، وأن يجعل منها وحدات مستقلة فى وجودها ، حين تظهر أوحين تختفى !

إن أيةعاطفة من عواطف الإنسان ،لاتجىء إلا متلبسة بأكثر من عاطفة ، وإن أى منزع من منازع تفكيره لايظهر إلا وبين يديه ومن خلفه أكثر من منزع !

مجتمع أرضى سماوى :

والذى ينظر فى الشريعة الإسلامية نظرة منصفة محايدة يجد أنها لم تحمل إلى الناس دواء يعالج داءاً طارئا ، أوتدفع به وباء متفشيا حتى إذا سكن الداء ، أو ذهب الوباء استغنى عنه ، وبطل تأثيره .

والحق أن الإسلام إنما جاء ليصحب الإنسانية صحبة دائمة، حتى لكأنه عقل مع عقلها وضمير إلى ضميرها ، وروح إلى روحها .. جاء ليكون سندا للإنسانية ، ورِدْءاً . . يشد ظهرها ، ويقوى عزمها ، ويثبت خطوها ، ويقيم وجهتها على الطريق القاصد المستقيم .

إنه والأمر كذلك — أشبه بالأب الرحيم الحكيم يقوم من وراء أبنائه وقد بلغ بهم مبلغ الرجال . . يرعاهم ، وينظر فى أحوالهم ، فمن استقام خطوه ، واعتدل ميزان حياته بارك عليه ، وتركه يمضى راشداً فى طريقه ، ومن مال أو انحرف نبهه إلى ميله ، ولفته إلى انحرافه ، ثم لم يكن له أن يمسك به ويجره جرًّا إلى الطريق القويم ، لأنه يحترم عقله ، ويحفظ عليه رجولته ، يريد له أن يكون أمره إليه ، بعد هذا النصح والتوجيه ! .

وهكذا جاءت تعاليم الإسلام . . أرضية سماوية . . مادية روحية . . تحفظ كيان الإنسان كله . . تحفظ أرضه وسماءه . . جسده وروحه . . لأنها تريده أن يحيا فى الحياة ، وأن يعيش على الأرض . . ولم تجىء لتمسخ طبيعته ، أو تغير منها . . إنه إنسان . . إنسان بخيره وشره ، بنوره وظلامه ، بروحه وجسده ، بعلوه وإسفافه ، بأرضه وسمائه .

فى هذا المفهوم للشريعة الإسلامية وموقفها من الإنسان ونظرتها إليه تتضح تعاليم الإسلام ، وتنحل كل مشكلة تبدو فى تعاليم هذا الدين .

فالاعتراف الواضح الصريح بحق الإنسان — كإنسان يحيا فى الحياة ويمشى على الأرض — هو أبرز تعاليم الإسلام ، وهو ماجاءت الشريعة الإسلامية لتقرره ، وتؤكده ، وتقيم حياة الناس عليه .

مفهوم الإنسان فى الإسلام :

ولكن ما مفهوم هذا الإنسان فى نظر الشريعة الإسلامية هذه ؟ وما هذا الإنسان الذى يدعوه الإسلام إليه ، ويتعامل بتلك الشريعة معه ؟

أهو الإنسان لذاته من حيث هو إنسان فرد . . له ذاتيته وشخصيته ، وله عالمه الشخصى الذى يعيش فيه مدى عمره المقدور له فى هذه الحياة ؟

أم هو الإنسان من حيث هو منسوب إلى الإنسانية ، محسوب بأنه ذرة من ذرات تلك الخلايا التى يتكون منها الجسد الاجتماعى أو المجتمع الإنسانى ؟

فأى هذين الإنسانين يخاطبه الإسلام ، ويتعامل معه ؟

وندع — مؤقتا — الجواب الذى يعطيه الإسلام عن هذا السؤال .. لنسأل الحياة نفسها هذا السؤال . . فما جواب الحياة عنه ؟

بل نسأل الإنسان هذا السؤال أيضا . . نسأله : مع من يتعامل فى الحياة ؟ أيتعامل مع نفسه . . يأخذ ويعطى ؟ أم يتعامل مع الناس آخذاً ومعطيا ؟

والجواب الذى لاخلاف عليه ،هو : أن الحياة تتعامل مع الإنسان بوجهيه معاً . . تستقبله فردا فتعطيه وتأخذ منه . . وتستقبله مع المجتمع أو المجتمعات فى جميع مستوياتها فتعطيه وتأخذ منه أيضا . . وهى فى كلا الحالين تراه بكل مشخصاتة . . تراه مرة كما يبدو من خلال « عدسة » المصورة إذا كان بمفرده فى مجال « العدسة » وتراه فى الحالة الأخرى كما يبدو من خلال « عدسة » المصورة هذه وقد وقف فى مجالها مع ملايين الملايين من الناس !

وكذلك شأن الإنسان مع الحياة ومع الناس . . إنه يرى نفسه من خلال نظرتين . . نظرة لايرى منها إلا نفسه هو ، ووجوده هو . . ونظرة يرى منها نفسه عضوا — كبيرا أو صغيرا — فى المجتمع . . فهو حين يكون فى مجتمع أسرته يبدو له كيانه واضحا محددا . ثم كلما كبر المجتمع الذى ينظر إلى نفسه فيه وجد وجوده يتضاءل ويبهت شيئاً شيئا . . ولكنه لن يضيع هذا الوجود ، ولن يختفى عن نظره أبدا !

وعلى هذا التقدير ، وبتلك النظرة بجانبيها ، وعلى وجهيها معاً ؛ كان تقدير الإسلام للإنسان ، وكانت نظرته إليه ، فى دعوته إلى شريعة هذا الدين ، وفى التعامل معه بهذه الشريعة

إنه يلقاه بكل كيانه هذا الذى يعيش فيه . . فردا ومجموعاً معاً !

إن تعاليم الإسلام تعترف اعترافا كاملا واضحاً بذاتية الإنسان وبفرديته ، وتفسح لهذا الجانب منه مكانا بارزا فى تشريعاتها وأحكامها . . فهو فى نظر الإسلام — من هذه الجهة — عالم صغير ، له فلكه الذى يدور فيه . وله مشاعره التى يحيا بها ، وعواطفه التى يعيش فيها ، وضميره الذى يحتكم إليه !

ونجد لهذا شواهد كثيرة صريحة من آيات الكتاب الكريم ، ومن سنة النبي صلى الله عليه وسلم . .

فمن آيات الكتاب الكريم قوله تعالى : « قل كلٌّ يعمَلُ على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً »[1] . . وقوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت »[2] وقوله سبحانه — : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرّا يره »[3] وقوله جل وعلا : « ألا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى »[4] . وقوله سبحانه — : « من يعمل سوءًا يجزَ به » وقوله : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديَهما . . جزاءً بما كسبا . . نكالاً[5] من الله »[6] وقوله : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . . »[7] ويقول : « يأيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم ، الذى خلقك ، فسوّاكَ فعدلك فى صورة ماشاء ركبّك »[8]

ففى هذه الآيات وكثير غيرها — يجد الإنسان وجوده وجوداً كاملا ، يواجه به الشريعة الإسلامية وحده من غير أن يستند إلى أحد ، حتى لكأنما هو وحده فى هذا العالم !

ولا تقف الشريعة الإسلامية عند هذا الشأن من شئون الإنسان ، بل تذهب به — مع هذا — مذهباً آخر . . بعد أن أرته وجوده الذاتى ووقفت معه طويلا عنده وأسمعته حديثها إليه ، ووصاياها له ! — إنها تلقاه — بعد هذا — عضواً فى المجتمع الإنسانى كله من أضيق حدوده — فى مجتمع الأسرة — إلى غاية مداه مع الإنسانية جميعها . . بل إنها تتجاوز المجتمع الإنسانى إلى المجتمع الحيوانى . . بل إلى مجتمع الوجود كله . . . فهى تدعو الإنسان إلى أن يكون نغما منسجما مع هذا اللحن الخالد الذى يشترك فيه الكون كله ، معبرا به عن جلال الخالق ،

---

(١) سورة الإسراء . آية ٨٤
(٢) سورة البقرة . . آية ١٨٦
(٣) سورة الزلزلة . . آية ٧ ، ٨
(٤) سورة النجم آية ٣٨
(٥) سورة المائدة . . آية ٣٨
(٦) سورة النساء ١٢٣
(٧) سورة النور . آية ٢
(٨) سورة الإنسان آية ٦ — ٨

وعظمته ، وقدرته ، وحكمته وأنه لمن الشقاء الذى ليس مثله شقاء أن يكون الإنسان صوتا(نشازا) فى هذا اللحن العلوى العظيم . . إنه سينفصل حينئذ عن الوجود ، ثم لا يكون له وجود . . إنه يكون أشبه — إذذاك — بقطرة الماء تنفصل عن المحيط . . !

ولا نستكثر هنا من ذكر الآيات القرآنية الكريمة لنشهد لهذا القول ، فالقرآن كله — حتى فى تلك الآيات التى خوطب بها الإنسان الفرد — متجه إلى الإنسانية ـ لتقيم حياتها على قواعد سليمة من الحق والعدل، والإخاء والرحمة ، والمودة . . ولم يكن التفات الشريعة الإسلامية إلى الإنسان الفرد فى هذا المستوى إلا لتعده الإعداد المناسب ليكون عضواً صالحاً فى الجسد الاجتماعى ، وليزيد هذا المجتمع قوة كما ازداد هو قوة بهذا المجتمع . . .

يقول الله سبحانه وتعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا ، وقبائل ، لتعارفوا . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . إن الله عليم خبير[(١)] » . . ويقول — سبحانه — « إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى،وينهى عن الفحشاءوالمنكر والبغى . يعظكم لعلكم تذكرون[(٢)]

* * *

إن الذى يضمن للإنسان حياة خالدة هو أن يصحح وجوده فى هذه الحياة ، وأن يصل مشاعره . وأفكاره ، ونزعاته بالمجتمع الذى يعيش فيه ، ثم بالحياء كلها ، وبالوجود كله .

من أجل هذا جعل الإسلام للإنسان أكثر من مجال يتحرك فيه ، وأكثر من لحن ينسجم معه ، على حسب طاقته ، وقدرته ، واستعداده .

مع أسرته . . من زوج وولد . .

ومع أهله وعشيرته ، وذوى قرابته الأدنين . والأبعدين

ومع المجتمع الذى يدين بدينه ، ويعتقد معتقده

---

(٢) سورة النحل آيه ٩٠

(١) سورة الحجرات آية ١٣

ومع الإنسانية التى يلتقى معها فى أصله الأول

ومع الوجود الذى يشاركه الخضوع لله الواحد الخالق .

ففى جميع هذه المجتمعات يجد الإنسان وجوده ، ويجد الشريعة الإسلامية تحتفظ له بمكانه فيه وتدعوه إليه .

ففى مجتمع الأسرة حددت الشريعة مكان كل فرد فيها . . الزوج والزوجة ، والأبناء ، والآباء . . وحددت الحقوق والواجبات لكل عضو من أعضائها .

وفى مجتمع الأهل والعشيرة دعت الشريعة إلى صلة الأرحام ، وبر الأقربين، ورعاية الجوار . .

وفى محيط المجتمع الإسلامى جاءت دعوة الإسلام بالأخوة ، والتراحم ، والتوادّ ، والتعاون على البرّ والتقوى ، والدعوة إلى سبيل الله

وفى المجتمع الإنسانى رفع الإسلام الحواجز المصطنعة الكاذبة القائمة على مدّعيات باطلة تقطع الروابط الأخوية بين الناس ، وتجعل من أبناء آدم أجناساً بعضها فوق بعض . . فأرجع الإسلام الناس إلى معدنهم الذى خلقوا منه ، وردّهم إلى أصلهم الذى تفرعوا عنه ، ودعاهم إلى أبيهم الذى ولدوا منه . . « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائلَ لِتَعَارَفوا ، إن أكرَمَكم عند الله أتقاكم »(١)

وفى المجتمع الكونى دعا الإسلام الإنسان إلى الخضوع والولاء لله . فيمن خضع له سبحانه من كائنات الوجود كله . . . .

المجتمع الإسلامى ومسئولية الفرد فيه :

الإنسان فى الشريعة الإسلامية — كما رأينا — مطالب أن يعيش فى أكثر من وجود . . وأن يحيا فى أكثر من أفق . . وأن يظل دائما ، وفى كل حال إنسانا قائما بذاته ، مستقلا بشخصيته ، مسئولا عن أقواله وأفعاله جميعاً . .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣

والمشكلة التى تواجه الإنسان هنا هى أن يعرف لكل جانب حقه من نفسه وأن يقدّر كل حال بقدّرها ، وحسابها . .

وهنا تكثر المزالق والعثرات ، فيكون فى الناس من تغلبه أنانيته وذاتيته فيدور حول نفسه ، ويعيش لوجوده ، ذاهلاً عن المجتمع الذى يعيش فيه ، مخليا نفسه من كل شعور به ، ومن كل عاطفة نحوه !

وقد يكون فى الناس من يذهل عن نفسه، ويحيا لولده، أو لأهله ، أو لمجتمعه، أو للإنسانية كلها . . وهذا قليل نادر لا نجده إلا فى أصحاب الرسالات من الناس !

ولهذا، فإن الإسلام يعطى التكاليف الجماعية اهتمامه وعنايته ، لأنها محتاجة إلى مدد خارجى ، يقيمها فى النفس ، ويقوى وجودها فى كيان الإنسان ، على خلاف التكاليف الفردية ،فإنها قائمة فى نفس الإنسان،محدودةَ الحدود ، واضحة المعـــالم .

يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز فى هذا الشأن :

تعالوا نستفت القرآن ، ونقول له : أمام من نحن مسئولون ؟

« إن القرآن يضعنا أما سلطة ثلاثية . . كأنه يقول لنا : تصوروا أنفسكم فى نقطة مركزية . . تحيط بكم ثلاث دوائر مدرّجة الاتساع . . وتصوروا أنه قد خرج من كل دائرة سهام أو أنصاف أوتار متجهة نحو هذا المركز » . هى العين التى تراقبكم !

« انظروا فى أنفسكم . . تجدوا محكمة .

« وانظروا من حولكم . . تجدوا محكمة .

« وانظروا فوقكم . . تجدوا محكمة .

« محكمة الضمير فى قلوبكم !

« ومحكمة البشر من حولكم . .

« ومحكمة السماء من فوقكم . .

« ولكل واحدة منها أمانة فى أعناقكم ، ستحاسبكم عليها .. هذه هى نظرية القرآن . . اقرءوا — إن شئتم — قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون »[١] .

فقد جمعت هذه الآية الكريمة فى هذه الكلمات القليلة أنواع السلطات القضائية التى ستتولى محاسبتنا .

« لا تخونوا الله » . . هذه هى المسئولية الدينية

« والرسول » . . هذه هى المسئولية أمام الناس

« وتخونوا أماناتكم » . . هذه هى المسئولية الأخلاقية أمام الضمير !

« وإليكم نصاً قرآنياً آخر يؤكد هذا المعنى، ويزيده وضوحاً : «وقل اعملوا ، فسيرى الله عملكم ورسوله ، والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »[٢]

من هذا نرى أن الإنسان فى المجتمع الإسلامى مرتبط بهذا المجتمع بأكثر من رابطة ، فهو رابط ، ومرتبط معاً . .

فالمجتمع الإسلامى أشبه بأنهر تصب فيه روافد كثيرة من كل صوب . . ثم يعود هو فيمد أذرعه إلى كل اتجاه . .

ولو بدا لإنسان ما أن ينخلع عن المجتمع الذى يعيش فيه — وهيهات — فإن المجتمع لا يدعه يفلت منه ، بل يشده إليه بأكثر من خيط ، ويجذبه نحوه بأكثر من قوة .

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٧ .

(٢) سلسلة الثقافة الإسلامية — السنة الثانية — المسئولية فى الإسلام .. للدكتور دارز ص ٣٦ .

وأين يكون مقام هذا الإنسان الذى ينخلع عن المجتمع ؟ وكيف يكون حاله ؟ إنه لو اعتزل الإنسانية كلها ، وآثر أن يحيا فى القفار أو الغابات مع الوحش والطير فإن هذه الحياة ذاتها تفرض عليه أن يعقد روابط كثيرة مع هذه الجماعات من الطير أو الوحش ، بل مع ساكن الطبيعة ومتحركها فى المنطقة التى يعيش فيها . . روابط تقوم على الموادعة والمهادنة ، أو الألفة والمعاونة ، أو التربص والعداوة . .

إنه لابد له أن يتألف بعض الحيوانات . . يدينها منه ، ويريها من عطفه وحدبه ما يمسكها له ، ويحبسها إلى جوراه . . كما لا بد له من أن يحذر بعض الحيوان ، فيطردها عنه ، أو يتجنب لقاءها ، أو يقتلها إن قدر على ذلك . . وكل هذه روابط تربطه بالحياة ،وقيود تقيده بها . . فكيف إذن تكون هذه الروابط من الكثرة والقوة حين يعيش مع الناس ويتصل بهم ؟

إن أى تشريع يقوم فى الناس ينبغى أن يحمل فى اعتباره الأول هذه الروابط التى تربط الإنسان بالناس، فيعمل على إحكامها وشد عراها وحراستها من عوامل الوهن والانحلال .

وكانت شريعة الإسلام أحكم من أن تغض الطرف عن هذه الروابط أو تنظر إليها نظرة جانبية من خلال نظراتها إلى موضوعات أخرى ..

فلقد التفتت الشريعة الإسلامية إلى هذه الظاهرة التفاتا كاملا ، وأعطتها حقها من الرعاية والتقدير ، فجعلت بعض صورها جزءا من العقيدة ، وركناً من أركان الدين ، كصلاة الجماعة ، والجمعة ، والعيدين ، وكالزكاة ، والحج ..

فهذه ثلاثة أركان من أركان الإسلام الخمس تقوم على الجانب الاجتماعى وتعمل لحسابه . . الصلاة ، والزكاة ، والحج ، ففى هذه الأركان الثلاثة يقف الفرد فى الجماعة أشبه بالحرف فى جملة مفيدة . . ، أو حكمة بليغة !

يقول المرحوم فياض فى بحثه : الفقه السياسى عند المسلمين :

«المجتمع المسلم هو مجتمع يقوم على مبادىء الإسلام ، ويرتبط أفرادة بجملة روابط قوية ، تتحكم فى قوته وتوجهه إلى الهدف المنشود .

« يربط بين أفراد المجتمع اعترافهم بالسيادة المطلقة لله رب العالمين ، لأنه الصانع الذى يملك ماصنع .

« وتربط بينهم أخوة إنسانية عامة، لأنهم بنو أب واحد،وأم واحدة. وتربط بينهم أخوة فى الإيمان بالإسلام . . . عقدها الله بينهم لتكون منهاجا لتحقيق الأخوة الإنسانية العامة ، فى محيطها الواسع إذا رغبت الإنسانية فى سعادتها بالإسلام .

« وتربط بينهم وحدة الهدف ، وهو نشر الإسلام لبلوغ الإنسانية كلها إلى الكمال والسعادة والسلام .

« وتربط بينهم وحدة التكاليف لبلوغ الهدف ، فلا اختيار ، ولا امتياز لأحد منهم فى التكاليف الربانية .

« وتربط بينهم مسئولية عامة مشتركة ، عن سلامة الدين ، وسلامة الفرد والجماعة ، وتوفير كل مستطاع من وسائل الحياة الحرة الكريمة للفرد والجماعة «هذا المجتمع يقوم نتيجة لمبادىء الإسلام،ويرتبط أفراده بهذه الروابط ..

هو مجتمع يقوم فى أرض الله ، ومجموعة أفراده — الأمة — مخاطبة رأساً بتكاليف الله.. «يا أيها الناس..يا أيها الذين آمنوا.. افعلوا الخير . واعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً . .

وخطاب الله للأمة شمل جميع التكاليف الفردية . . كالصلاة والزكاة[1] ، والصوم . . والجماعية كالحكم ولوازمه من إقامة العدل . وتنفيذ الحدود . «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . . »

---

(١) تعتبر الصلاة والزكاة من التكاليف الفردية ، فهى تكاليف فردية وجماعية معاً — كما أشرنا إلى ذلك من قبل

وهذه المجموعة — أى الأمة الإسلامية — قد استخلفها الله فى أرضه لعمارتها ، وإقامة أحكامه ، المكلفة بها .

«وهذه الأمة المخاطبة ،المكلفة المسئولة، هى الأمة الإسلامية .. فإن عاشت كلها تحت لواء واحد ، وحكم واحد ، وخضعت لمقدرات واحدة فى الأرض المحدودة التى تعيش فيها شعوبها ، والتى لا يسيطر عليها أحد من أبنائها ، ولا تخضع سيادتها لسيادة غيرها — كما كان الحال فى عصور الخلافة الإسلامية مثلا — إن كانت كذلك قامت الدولة الإسلامية التى تظلل الأمة الإسلامية»(١)

ولا نقف عند هذه المقررات التى انتهى إليها الكاتب هنا من قيام الحكومة الإسلامية فى الدولة الإسلامية ، ولا نسأل : ما شأن هذه الحكومة الإسلامية، وماذا تأخذ من الدين وماذا تدع ؟ وما السلطان الذى يضفيه عليها الدين الذى تقوم باسمه ؟ وما شأن عقيدة المسلم بها ؟ وما سلطانها عليه فى تلك العقيدة ؟ .. لا نسأل عن هذا الآن ، ولا نقف عنده ، فذلك له موضعه من هذا البحث .

ويقول الأستاذ جرونيباوم فى كتابه « حضارة الإسلام » : « الإسلام مجتمع الله . . . فالله جلت قدرته هو « الحقيقة » التى يدين لها المسلم بوجوده .. والله مركز خبرته الروحية وهدفها . . على أنه — الله — أيضاً هو الرئيس الدنيوى لمجتمعه، ذلك المجتمع الذى لا يقف الله عند حدّ الولاية عليه، بل يحكمه فعلا .. فهو السبب فى وجود الدولة ، وهو أصل وحدتها ، وفكرتها الأساسية ، الذى يجمع بين دعم الدولة ، وتبرير استمرارها . . وهذا من شأنه أن يجعل الجيش الإسلامى جيشَ الله ، والخزانة الإسلامية بيتَ مال الله »(٢)

وجدير بنا أن نقف قليلا عند هذا القول ، وما انطوى عليه من أحكام لها خطورتها فى بحثنا عن الخلافة الإسلامية ، الذى سنلتقى به بعد قليل .

---

(١) سلسلة الثقافة الإسلامية (المجموعة الثانية عدد ١٤ ص ٢٠ — ٢٢)

(٢) حضارة الإسلام ص ١٨٣

والأحكام التي يصدرها جرونيباوم هنا هي :

١ — الإسلام مجتمع الله .

٢ — الله هو السبب في وجود الدولة الإسلامية .

٣ — الله هو الرئيس الدنيوي للمجتمع الإسلامي

٤ — الله هو الذي يحكم هذا المجتمع .

وعلينا أن نصحب معنا هذه المقررات حين نلتقي بمبحث « الخلافة » فإن طبيعة هذا الموضوع ستقتضينا النظر في مثل هذه الأقوال ، وفي قبولها أو دفعها..

بين التشريع والتطبيق :

لا أظن أننا في حاجة إلى أن نؤكد هذه الحقيقة . . وهي أن التشريع هو الجانب النظري ، أو المثالي في النظام الاجتماعي . . وأن هذا التشريع هو صوت الواجب ، أو صوت الحق ، أو ربما كان صوت الشيطان . .

وهذا الصوت — أيا كان مصدره — هو الذي يدعو الناس إلى الاستجابة له ، والاتجاه معه إلى الوجهة التي يشير إليها .

وليس من الحتم اللازم أن يستجيب الإنسان لصوت القانون ، وأن يسلك الطريق الذي يشير إليه ، أو يقف عند الحد الذي يرسمه له . . فكثيراً ما يضع الإنسان إصبعيه في أذنيه ، لا يسمع لهذا الصوت إلا أصداءاً مختلطة متقطعة . وكثيراً ما يسمع هذا الصوت ولا يخفّ لتلبية ندائه .. وأكثر أحوال الإنسان أنه يستجيب لهذا الصوت حيناً ويصم أذنيه عنه حيناً . أو أحيانا ..

على أن لحقيقة التشريع — أو القانون — من حيث جريانه مع طبيعة الحياة ، ومع فطرة الناس ، أو من حيث مصادمته لهذه الطبيعة . وخروجه على تلك الفطرة — نقول إن لحقيقة التشريع من هذه الجهة أو تلك دخلا كبيراً في تجاوب الناس معه ، أو نفرتهم منه ، وفي خفتهم لتلبية ندائه ، أو تثاقلهم عنه

فإذا كان التشريع — ونقصد به القانون — عاما ، عادلا مقدّرا بقدَر الفطرة الإنسانية ومحسوبا بحساب الإنسان ، ومافيه من ضعف ، وما فى كيانه من صراع بين العقل والهوى ، وبين الخير والشر — إذا جاء التشريع على هذا المستوى تجاوب الناس معه وسكنوا إليه ، وسعدوا به ، وحرصوا عليه ، ودافعوا عنه ، وأخذوا الطريق على الخارجين عليه . .

أما إن كان فى التشريع قصور فى هذه الجوانب أو فى بعضها ، فإنه بمقدار هذا القصور سيكون قرب الناس أو بعدهم من هذا التشريع .

ماذا فى التشريع الإسلامى :

وإذا نحن نظرنا إلى الشريعة الإسلامية من حيث عموم أحكامها ، وكفالتها للعدل والمساواة ، وأخذها الناس من حيث هم ناس .. بخيرهم وشرهم ، وعلوهم وإسفافهم إذا نظرنا إلى الشريعة الإسلامية من هذه الجهة نجدها قد جاءت بأعدل وأحكم قانون يمكن أن يكون للناس فى هذه الحياة ليجدوا فى ظله الأمن والطمأنينة والسلام ، وليضمنوا فيه وحدة إنسانية أخوية ، لا تنفصم عراها ، ولا يبلى جديدها . . ذلك أن مبادىء هذا القانون قد صيغت حروفها وكلماتها من الطبيعة البشرية ، ثم ألّفت يد القدرة والحكمة من هذه الحروف وتلك الكلمات هذا الدستور السماوى الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » .

وليس من همنا هنا أن نكشف عن حقيقة هذا التشريع ، ومافيه من حكمة وتدبير . .

وحسبنا من الاستدلال على هذا أن نذكر المبادىء العامة التى جاء بها الإسلام فى شأن المعاملات والأخلاقيات — وأن هذه المبادىء قد ظلت وستظل حية ، عاملة فى الحياة ، متجاوبة مع جميع المستويات الإنسانية التى يعيش فيها الناس .. وأن نذكر من لم يكن ذاكرا أن بعض أحكام هذا القانون التى غلب المسلمون أحياناً

على إقامتها فى الحياة .. كحد الشارب ، وجلد أو رجم الزانى ، وقطع يد السارق ، وما إلى ذلك نقول أن هذه الحدود لم يكن تعطيلها لأن الحياة قد بعدت عنها ، وخلفتها وراءها ، وإنما كان ذلك حين بعدت الحياة عن المسلمين ، وخلفتهم وراءها .. وإن هذه الأحكام المعطلة لم تعطل فى شباب الدولة الإسلامية وفتائها ، وإنما عطلت حين غلب المسلمون على أمرهم ، وأفلت زمام الحياة من أيديهم . . وانتظرْ يوم يعود للمسلمين وضعهم الصيحح فى الحياة ، فيومئذ تحيا فى المجتمع الإسلامى تلك الخلايا الكثيرة التى ماتت فى كيانه ، ويومئذ يجد المسلمون أن هذه الأحكام المعطلة هى العناصر القوية المغذية التى افتقدها الجسد الاجتماعى الإسلامى وأنها هى مبعث حيويته ، وقوته ، وبقائه .

الشريعة الإسلامية فى مجال التطبيق :

هناك مرحلتان متمايزتان من مراحل التطبق العملى للشريعة الإسلامية . .

المرحلة التى كان النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى يتناول الشريعة ، من السماء ، ثم يذيعها فى الناس ، ثم يأخذهم بها ، ويحاسبهم عليها ، ويقيمهم على طريقها .

ثم المرحلة أو المراحل التى جاءت بعد عصر النبوّة . . حيث أصبحت الشريعة شريعة نصوص ومواد ، تختلف أحوال الناس ، افراداً وجماعات ، حكاماً ومحكومين — فى فهمها ، وفى تقديرها ، وفى التجاوب معها ، وفى التزامها ، والأخذ بها ، والإستقامة عليها !

ولا شك أن كلا المجالين اللذين كانت تتحرك فيهما الشريعة الإسلامية فى عصر النبوّة ، وما بعد عصر النبوة — كلا المجالين بعيد عن الآخر بعداً يقصر أو يطول على حسب ما فى قلوب الناس وعقولهم للشريعة من توقير ، واحترام .

ولاشك أيضاً أن مسافة الخلف بين المجالين فى أضيق حدودها كانت فى تلك الفترة التى جاءت بعد النبي مباشرة . ، والتى امتدت حتى نهاية الخلافة الراشدة ، وإن لم تكن على مستوى واحد طوال هذه الفترة !

وهذا أمر طبيعي ، فإن الكمال النبوى لايقوم له كمال إنسانى ، مهما علا ، ونبل ، وعظم !

ولا بأس من أن نقف هنا وقفة قصيرة مع كل من هذين المجالين التطبيقيين للشريعة الإسلامية فى . . عصر النبوّة · وفيما بعد عصر النبوّة . .

في عصر النبوّة :

هناك أمران بارزان فى طبيعة تطبيق الشريعة فى العصر النبوى . . هما :

أولا : أن النبي — بصفته هذه — مطلوب منه إزاء الشريعة أن يبلغها ، وأن يكشف للناس حقيقتها ، وأن يقيمهم عليها . . إنه مطالب بأن يبذر كل ما بين يديه من حب . وأن يستنبته فى مواطنه ، وأن يتعهده ويرعاه ، ويدفع عنه الآفات ، حتى يكتمل ، ويؤتى أكلهَ .

وثانيا : أن النبي — وهو مطالب بهذا — مأنوس دائما بأمداد السماء التى لاتنقطع ، محروس من الله من أن ينطق على هوى ، أو أن ينحرف عن حق ، فهو يقضى فى الأمر حين يقضى . وهو على يقين بأن ماقضى به هو مقطع الأمر ، وهو ما أمر الله به من حق وعدل . . وأنه إن أخطأ فى قول أو عمل فلن تدعه السماء يمضى فى هذا الخطأ ، وإنما يجىء الوحى بما يكشف الأمر على الوجه الذى يرضاه الله من حق ومن عدل . . ولهذا كان مايقضى به الرسول حكما لازما لا يجوز لمسلم أن يمارىَ ، أو يتوقف ، أو يجعل لنفسه مكانا للنظر فيه . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرَة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله ، فقد ضلّ ضلالا

مبينا »[١] . . ويقول جل شأنه : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » . . ويقول سبحانه : « وما آتاكمُ الرسول ، فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » [٢] .

ومن أجل هذا استقامت فى عقول المسلمين وجوه الحقائق التى عَرضت لهم فى عصر النبوة، فلم يكن فى صدر أحد منهم خرج فى أى أمر عرض له . . فقيما كان يقول النبي شفاء لكل عارض ، وجلاء لكل ريب !

بعد عصر النبوة :

فهل إذا خلا مقام النبوة من بين الناس يكون هناك من يملأ هذا الفراغ أو بعضه فى كلا هذين الأمرين . . على هذا الوجه ، وعلى تلك الصفة ؟

والجواب على هذا واحد لا اختلاف عليه ، ولا خلاف فيه . . وهو أنه لا يمكن أن يقوم مقام النبي على تلك الصفة من يملأ هذا الفراغ ، أو بعض هذا الفراغ ، وأنه لا يمكن أيضا أن ينتقل هذا الذى كان للنبيّ مما اختصه الله به فى التشريع للمسلمين ، وفى الولاية عليهم — لا يمكن أن ينتقل هذا إلى أحد من الناس بميراث ، أو وصية ، كما لا يمكن أن ينتقل علم العالم إلى أحد ورثته.أو إلى من يوصى له به ، مع الفارق العظيم هنا بين طرفى التشبيه ووجه الشبه .

إنه ليس لأى من المسلمين أن يدعى أن له صلة بالسماء تكشف له مواطن الحق ، وتوضح له مناهج السبل ، كما كان ذلك للنبى ، فذلك أمر انقطع منذ فارق النبي هذه الدنيا ، وخلا مكانه منها .

والشريعة الإسلامية — بعد النبي — ليست لأحد المسلمين ، بل إنها للمسلمين جميعاً ، هى ميراث النبي فيهم . . لكل مسلم — فى أى زمان ، وفى أى مكان ، وفى أية أمة، ومن أى جنس — نصيبه من هذا الميراث ، لا فضل فيه لأحد على أحد بقرابة من صاحب الشريعة ، أو بسابقة فى الإسلام، وإنما يظهر الفضل ويكون التفاضل فى الانتفاع بهذا الميراث ، والفقه فيه ، والفهم له ، والعمل به ..

* * *

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٦ .

(٢) سورة الحشر آية ٧ .

الباب الثانى

الخلاف فى الخلافة

الفراغ الهائل :

الفترة التى صحب فيها المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ربيع الحياة كلها . كان المسلمون منها فى حقائق أشبه بالأحلام المسعدة ، التى يجد فيها الإنسان أكثر مما تتمنى نفسه ، وتطمح إليه آماله ، ويحلق فيه خياله ، حيث يتنقل بين فراديس الجنات ، ويسبح فى عوالم النور .

فلقد أشرف الرسول الكريم بالمسلمين على مناهل الحق فنهلوا منها شرابا طهورا ، سرى فى عقولهم ، فكان علما ، وحكمة ، وخالط قلوبهم ، فكان براً ورحمة ، وامتزج بنفوسهم ، فكان عفة وطهراً ..

وكان من هذا أن أحسّ المسلمون أن أرضهم قد شارفت السماء ، وأن أيديهم قريبة من معالم النور ، تكاد تلمسه ، وتقبس منه !

فلا عجب إذا أصبح المسلمون يوما ولم يجدوا الرسول بينهم أن تأخذهم صدمة اليقظة من هذا الحلم الجميل المسعد ، وأن يجدوا حياتهم قد خلت من هذا الخير الذى كانوا يملئون أيديهم منه ، وأن رَكْبَهمْ المصعِّد فى عالم النور قد زايله الدليل الذى يرود له معالم الطريق ، ويمده بالزاد الذى يحتاج إليه المحلِّق إلى تلك المقامات .

لقد زُلزل المسلمون زلزالاً شديدا يوم وفاة النبىّ وأحسوا — لأول مرة أن ما بينهم وبين السماء قد انقطع إلى الأبد .. وأنهم قد خلِّفوا لأنفسهم بعد أن بلغوا آخر مدًى لما يمكن أن تبلغه طبيعة الإنسان من سموٍّ وكمال ، و ليس بين أيديهم إلا ما ترك الرسول فيهم من كتاب الله .. وسنة رسول الله ..

وكان على الحياة أن ترصد مطلع هذا الركب الصاعد وقد بلغ مداه . وأن تترقب بعد ذلك أحداثا وأحداثا . . وأن تسأل وتدع الأيام تأتيها بالجواب . .

مامتجه هذا الركب بعد اليوم ؟ أيظل مكانه حيث هو إذ لا سبيل إلى أن يخطو إلى الأمام قيد أنملة ؟ أم يعود أدراجه إلى حيث كان فيستقر على الأرض ويختلط بالتراب ؟ وكيف تكون العودة ؟ أهى تراجع طبيعى يحكمه نظام وتمسك به قوة فلا يتحطم هذا « الجسد الاجتماعى » حين يحط على الأرض كما يحط الطائر على عشه الذى درج منه، بعد أن صعّد تصعيدات عالية فى آفاق السماء ؟ أم هو سقوط أشبه بسقوط الطائر وقد أصيبت مقاتله !

كان على الحياة أن ترصد هذا الركب الصاعد ، وأن تتوقع هذه التوقعات.. وأن تنتظر تأويل الأيام لها ، وجوابها عليها ! ؟

ولم تكن الحياة وحدها هى التى تتطلع إلى هذا المركب ، وتترقب الأحداث التى تدور معه ، وتهب من جهته . .

بل إن المسلمين أنفسهم كانوا أكثر تطلعاً إلى وجودهم هذا ، وأشد تشاؤما لهذا المصير الذى سيصيرون إليه ! بعد أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى .

فلقد اندمجت نفوس كثير من المسلمين بهذه الحياة التى ملكت وجودهم ، واستولت على كيانهم ، ودخلت على نفوسهم من أقطارها طيلة مقام النبى الكريم فيهم ، فلم يفكروا أنهم سيتركون هذا المقام الذى هم فيه يوما ، ولم يسمحوا لمشاعرهم أن يندس إليها شعور باليقظة من هذا الحلم المسعد الجميل .. حتى لقد رأينا عمر بن الخطاب — وهو من هو رباطة جأش ، وثبات جنان ، وقوة إيمان ، ووثاقة دين — رأيناه ينكر موت النبى حين يقول الناس: قد مات النبىّ. ويأخذ قائم سيفه بيده ، ويلوح به فى وجوه الناس ويقول :

« إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات ، والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن

قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات ، والله ليرجعنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى فليقطعن أيدىَ رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ، ! » [1]

إن مثل « عمر » لا يمكن أن يفوته ما صرح به القرآن فى أكثر من آية من أن النبي إنسان، ومحكوم عليه — بما حكم على كل حيّ — أن يموت .. « إنك ميت وإنهم ميتون » ... « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل .. أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ » [2]

ما كان مثل عمر أن تفوته هذه الحقيقة ولو لم يذكر القرآن شيئاً منها، تلميحاً أو تصريحاً . .

ولكن روعة الواقع ، وجلاله ، وشدة تعلق النفس به ، وحرصها عليه ، قد أخذ من نفس عمر القوية قوتها ، فلم يجد الجرأة على التخلى عما هو فيه ليواجه الواقع المحزن المفجع المرير !

وماذا بعد الرسول ؟

كان لا بد أن يتقبل المسلمون هذا الواقع على ما فيه من مرارة مريرة . وقسوة قاسية ، وأن يوطنوا أنفسهم على الحياة ولا نبيّ معهم ! رضوا بذلك أم أبوا . .

ولو نظر ناظر إلى الجماعة الإسلامية غداةَ وفاة النبيّ لوجد شواهد كثيرةً تحدّث عن تلك الجماعة فى واقعها الذى فرضته الحياة عليها ، وصارت بها إليه . .

لقد أخذت هذه الجماعة تنظر فى أمرها ، وتتبصر معالم الطريق الذى ستتجه إليه . . إن عليها أن تحيا ، وأن تتشبث بالحياة ، ولو عصفت بسفينتها العواصف وتلاطمت بها الأمواج !

هذا المجتمع الإسلامى الكبير الذى تركه الرسول بعد أن أقام بنيانه ، وثبت دعائمه . . ماذا من شأنه بعد وفاة النبى ؟ أيظل هكذا وحدة إسلامية ترط بين

---

(١) السيرة لابن هشام ج ٣ ص ٤٦٧ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٤٤ .

قلوب المسلمين جميعاً . . أم يخلىّ بين الناس وبين هـذا الدين ، لاسلطان لأحد عليهم بعد أن ذهب صاحب الرسالة ؟ . . إن الدين دين الله ، والصلة فيه بين الله والناس هي صلة مباشرة بين الإنسان وخالقه . . فهل هناك بين المسلمين يدبّر من صلة الناس بالله ، ويكشف معالم الطريق لهم ،ويقوم مقام النبيّ فيهم ؟

هذه بعض المشكلات التي واجهها المسلمون بعد وفاة النبيّ . . وكان عليهم أن يجدوا الحلّ الذى يوحد مشاعر المسلمين جميعاً ، ويجمعهم على كلمة سواء به .

الإسلام دين ودنيا :

ولو كان الإسلام مجرد دعوة تصل الإنسان بخالقه ، وتدعوه إلى ملكوت الله لـكان من طبيعة هذه الدعوة أن تدع الناس وشأنهم بهذا الدين . . فإنه — والأمر كذلك — دين شخصى يدور فى الـكيان الداخلى للإنسان ، دون أن يمسّ مسًّا مباشراً صلته بالناس أو بالحياة . .

ولـكن دعوة الإسلام على غير هذا الوجه . . إنها دعوة تتجه إلى كيان الإنسان كله..الداخلى والخارجى .. الروحى والجسدى .. السماوى والأرضى.. الفردى والاجتماعى . .

فلا يكون مستقيما على دعوة الإسلام من يأخذ منها جانباً ، ويدع جانباً ، ولا تتم صورة هذه الدعوة إلا إذا كانت ممسكة بجانبي الإنسان جميعا . . وحين نريد أن نلتمس الإسلام ،ونستدل على حقائقه يجب أن نلتمس ذلك فى مجالين:

مجال الإنسان الفرد . . فى كيانه الداخلى ، وما يضم من إيمان ، وتقوى . . وهذا شأن من شئون الإنسان الخاصة ، ليس لأحد أن يطلع عليه ، أو أن يدخل عليه فيه .. إنما هو لله ، وبين العبد وربه .

ومجال المجتمع الإسلامى كله . . فيما يدور فى هذا المجتمع من عبادات ومعاملات ، وفيما يأخذون وما يدعون من الحياة ..

وهذا الجانب هو فى الواقع المسرح الحقيقى الذى يتجلى فيه الدين وتظهر

حقائقه ، وتتكشف تعاليمه . . إنه ثمرة الدين ، وحصاد الغراس الذى غرسه فى الحياة

لقد وصّى الإسلام أتباعه بكثير من الحقائق ، وكانت هذه الحقائق هى التى أقام بها المجتمعَ الإسلامى ، وشدّ بها أركانه ، ورفع عليها بنيانه . . فالإخاء ، والتراحم ، والتعاطف ، والإحسان .. دعوة الإسلام إلى كل إنسان . .

والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة إلى أهلها ، والصدق فى القول ، والعدل فى الحكم ، دعوة الإسلام إلى كل مسلم .

وإقامة الحدود على العصاة من قطع يد السارق ، وجلد أو رجم الزانى . وحد شارب الخمر . . دعوة الإسلام إلى المجتمع الإسلامى كله .

وواضح أنه لاسبيل إلى تحقيق شئ من هذا إلا فى مجتمع ، وإلا بأن يقوم فى هذا المجتمع من يحكم الناس ، ويمضى حكم الله فيهم .

ويبرز لنا من هذا أمران :

أولهما : أن على المسلمين أن يقيموا مجتمعا إسلاميا حيث كانوا ، فحيث كان مسلم بين مسلمين وجب عليه أن يكون مرتبطا بهذا المجتمع ارتباطا دينيا قبل أن يرتبط به ارتباطا وطنيا أو سياسيا . . بمعنى أن رباط الدين هو اللون الغالب الذى ينبغى أن يظهر فيه المجتمع . . لأن الفرد لايستطيع أن يغذى عواطفه إلا فى هذا المجتمع ، ولا يمكن أن يحقق دعوة دينه إلا فيه .

وثانى الأمرين . . أن على المجتمع الإسلامى أن يقيم حكومة تمثل هذا « الجسد » الذى أقامه ، وأن تكون منه بمنزلة الرأس من الجسد .

وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل ، نعرض له فيما يلى :

سؤال .. وجواب :

هل جاء الإسلام بشريعة كاملة للحياة ، لا تحتاج إلى عناصر بشرية ، تضاف إليها ؟

وإذا كان الأمر على خلاف هذا ، وكانت الشريعة فى حاجة دائما إلى عناصر بشرية تضاف إليها .. فما حدود هذا ؟ ومن الذى يتولى ذلك ؟ وما الضمان الذى يحمى الشريعة من طغيان هذه الإضافات التى تدخل عليها فى كل حال ؟

هذا سؤال أو أسئلة تلقانا قبل أن نواجه مشكلة « الحكومة الإسلامية » التى هى موضوع هذا البحث .

والجواب على هذا السؤال أو تلك الأسئلة ليس جوابا واحداً قاطعا . . بل يمكن أن يكون جوابنا بنعم ، وبلا ، فى وقت معاً ..

ونعم ، لأن الإسلام قد جاء بالأصول العامة التى يقوم عليها البناء السليم لأى مجتمع إنسانى ، ولم يدع من هذه الأصول أصلا إلا جاء به فى أعدل حال . وأحكم وضع ، وأوضح بيان ...

ولا .. لأن الإسلام لم يجىء بكل الجزئيات التى تدور فى حياة الناس . وتطلع بها الايام يوما بعد يوم .. وذلك لأمرين :

أولهما : أن هذه الجزئيات متعددة .. متجددة .. لا تقع تحت حصر أبداً . فهى تجىء إلى الناس فى صور شتى .. لا ضابط لها ، ولا حصر ..

ومن المحال أن يقوم فى الناس تشريع — سماوى . أو وضعى — يفصل وقائع الحياة ، ويحصر جزئياتها .. إن ذلك أشبه بمن يضع قانونا فيعد فيه أفراد الناس فردا فردا ، ما ولد منهم ومالم يولد ، وأن يسميهم بأسمائهم .. ثم يقول : إذا فعل « فلان » هذا كذا أو كذا كان حكم القانون فيه كذا وكذا ، وإذا فعل فلان هذا كيت وكيت كان حكم القانون فيه كيت وكيت..وهكذا حتى يأتى على أسماء الناس جميعا ، فردا فردا. وحتى يأتى مع هذا على جميع ما يمكن أن يقع منهم من أحداث . . حَـدَثا . . حدثا .

إن ذلك محال كما ترى . . ثم هو فوق أنه محال عبث لا طائل تحته ، ولا عَـنَـاء فيه . . وكان يكفى أن يوضع القانون للإنسان من حيث هو إنسان

يمثل كل أفراد المجتمع العاقلين الراشدين — فيقول : إذا فعل إنسان كذا كان حكم القانون فيه كدا وكذا ..وهذا ماتقوم عليه القوانين الحكيمة السليمة فعلا.

وإذا كانت هناك قوانين تقوم على التفرقة العنصرية أو المذهبية ، فإن مثل هذه القوانين التى تضع أصحاب كل جنس فى دائرة تعتبر عارضا من عوارض المرض الاجتماعى . . فى المجتمع الذى تعيش فى مثل هذه القوانين :

* * *

ولقد وضع الإسلام مبادىء عامة تفصل بين الخير والشر . وتميز بين الحق والباطل . . ثم ترك للناس أن يتحركوا فى هذا المجال الذى بين ماهو خير وما هو شر ، وبين ما هو حق وما هو باطل . . فما كان أقربَ إلى الخير ردوه إليه ، وما كان أشكل بالشر أضافوه إليه ، وما كان من سمت الحق ألحقوه به ، وما كان من الباطل ردوه إليه .

وثانى الأمرين اللذين من أجلهما لم تجىء شريعة الإسلام بالجزئيات — أنه لو كان ذلك ممكناً لما كان من حكمة التشريع الإسلامى أن ينهج هذا النهج ويأخذ به .. فإن ذلك مما يذهب بوجود الناس ، ويميت ملكات التفكير عندهم ، ويفقدهم شخصيتهم فى الحياة .. إذ لا يدع لهم مجالا للتفكير، ولا يحملهم على البحث والنظر . إنهم والحال كذلك يتغذون تغذية صناعية ،كما يتغذى المريض من غير فمه ، لا يلبث أمره أن يسوء ، وأن تفسد صحته . . إذا لم يكن ذلك لوقت موقوت ! فإن كان ذلك هو الشأن الذى لا يتحول عنه فإن الموت منه قريب .

لهذا نقول : إن الشريعة الإسلامية لم تجىء بكل ما يجيب على كل سؤال يسأله الناس فى مواجهة مشكلات الحياة إجابة مضبوطة محددة . .

وإذا كان من تدبير هذه الشريعة أنها وضعت المعالم الواضحة ، التى تكشف للناس وجه الطريق إلى الحق ، والعدل ، والخير ، فإنها قد دعتهم مع هذا إلى أن يصحبوا عقولهم معهم ، وأن يواجهوا الحياة بها فى صحبة الدين . . فإن طريق الحياة طويل شاق ، وإن سالكه ليحتاج إلى زاد كثير ، وإن العقل لهو الزاد

العتيد لهذه الرحلة، وإن الدين إذ كان بمنزلة الماء وإن العقل بمنزلة الطعام .. لا غنى للمسافر مثل هذا السفر الطويل عن التزود بهما معاً .

وقد نبه القرآن الكريم إلى مكان العقل ومنزله فى حياة الإنسان الواحد ، وفى حياة المجتمع الإنسانى جميعه . .

يذكر القرآن من نعم الله على الإنسان هذه الجوارح التى تقيم وجوده فى الحياة، والتى تصحبه فى كل حال من أحواله ، ومع كل نَفَس من أنفاسه ، فيقول سبحانه وتعالى : « ألَمْ نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النَّجْدَيْنِ »

ولست أحدثك عن بعض روائع الإعجاز فى هذه الآيات الثلاث قبل أن تستحضر وجودك كله ، وقبل أن تأخذ لنفسك حِذْرها من هذا الجلال الذى سيطلع عليها بعد قليل . . وإنه لجلال قد تَخِرُّ منه صَعِقا !

ولا أحدثك عن الإعجاز فى هذا النظم الموسيقى المتسق ، كما لا أحدثك عن الفاصلة فى الآيات الثلاث ومجيئها بلفظ المثنى المنصوب بالياء . . عينين ، . شفتين . . النجدين . . وهل كان ذلك لتوازن الفواصل وحسب ، أم كان لشىء آخر وراء هذا ؛ لا يتم المعنى على الوجه الأكمل إلا به ؟ كما لا أقف بك عند هذا الترتيب الذى جاءت به الآيات . وما تحمل كل آية من نعمة تحدّث عنها . . وهل كان هذا الترتيب ولا شىء وراءه ؟ أم أنه يضع كل نعمة موضعها فى الفضل على لاحقتها ، فضلَ السابق على اللاحق ؟

لا أحدثك عن هذا ، إذ ليس هنا موضع استعراض بلاغة القرآن ، والكشف عن أسرار إعجازه . .

وإنما الذى أريد أن أحدثك عنه هنا هو ما تحدّث به الآية الكريمة : « وهديناه . النجدين » — من آيات الإعجاز !

والنجدان هما طريقا الخير والشر . . والعقل هو الكاشف لهما . .

فالنعمة التى تحدّث عنها الآية هنا هى نعمة العقل . .

فانظر كيف حملت الآية هذه النعمة؛ وكيف دَرَجَتْها فى غلالة .. رقيقة.. جميلة معجبة .. من الحروف والكلمات !

فأولا : لم تصرح الآية بنعمة « العقل » كما صرحت الآيتان السابقتان بالعينين ، واللسان ، والشفتين . . وهنا موضع الإعجاب والإعجاز . .

لقد ذكرت الآيتان السابقتان العينين ، واللسان،والشفتين ، ولم تحدّث عن وظائفها ، وعن المجالات التى تعمل فيها . . وأما فى الآية الثالثة فقد عمدت إلى الوظيفة التى خُلقَ لها العقل فكشفت عنها ، وإلى المجال الذى ينبغى أن يعمل فيه فأوضحته . .

وهنا — مرة ثانية — موضع الإعجاب والإعجاز .

فالجوارح التى رُكبت فى الإنسان من عين ، وفم ، ولسان ، ويد ، ورجل ، ونحوها لا يمكن أن يحبسها الإنسان ، ويعطل وظيفتها . . إذ كانت حياته اليومية المادية لا تتحقق إلا بها ، ولا تصدر إلا عنها . .

فكان من الحكمة أن تذكّر الآيات بهذه الجوارح ، وألا تحدّث عن وظائفها ، إذ لا حاجة لأن تقول للإنسان : إن لك عيناً لتبصر بها ، ولساناً لتنطق به ، وأذناً لتسمع بها . . وهكذا . . بل يكفى أن تقول له : إن لك عينين ، ولك لسانا ، ولك أذنين . . وذلك فى معرض الدعوة إلى توجيه هذه الجوارح إلى ما خلقت له .

وليس كذلك شأن العقل . . فإنه مندس فى كيان الإنسان وكثير من الناس لا يتعرف إليه ، ولا يتعامل معه . . وكثير من الناس أيضا يتعرف إليه ، ويتعامل معه ، ولكن بلا حكمة ، ولا تدبير، فيجريه فى غير مجاله ، ويستخدمه فى غير وظيفته ، وكثير من الناس أيضا يذهل عنه ، ويغفل عن وجوده فى كيانه ، فيعيش بلا عقل !!

ولهذا كان هذا الاتجاه الذى اتجهت إليه الآية الكريمة فى الكشف عن

وظيفة العقل ، والإبانة عن المنهج القويم لاستخدامه — كان هذا هو الذى تقتضيه حكمة الحكيم ، وتدبير اللطيف الخبير ، دون أن يُذكر « العقل » كما ذُكرت الجوارح الأخرى !

وليس هذا كل ما فى الآية . . وهو — كما ترى — رائع معجب ، معجز !

ولكن انظر . .

إنك لترى العقل هنا جارحة من الجوارح ، كالعينين ، واللسان ، والشفتين ، إذ عطف عليها ، وقرن بها . وهذا يقضى بأن يعيش الإنسان بعقله دائما كما يعيش بهذه الجوارح دائما ، وأن يستدعيه إليه فى كل لحظة ، كما يستدعى جوارحه تلك فى كل لحظة ، وأن يتصل بالحياة عن طريقه اتصالا لا ينقطع ، كما يتصل هذا الاتصال بعينيه ، ولسانه ، وشفتيه !

وندع هذا ، فقد أطلنا الوقوف عنده ، ولو أردنا أن نقضى للآية حقها من البيان لطال بنا الطريق إلى غايتنا التى نريد .

ندع هذا — لنقول : إن القرآن نبه الإنسان إلى هذا الذى فى كيانه من قوة خفية تضم فى كيانها نورا يكشف للإنسان معالم الطريق ، وما على الإنسان إلا أن يدعو هذه القوة إليه ، ويفسح لها مجالا تعمل له فيه . . إن العقل أشبه بمصباح كهربى . . يضئ عندما يتحرك المفتاح الذى يجمع بين التيارين — السالب والموجب — اللذين تنبثق منهما القوة المضيئة ، وإنه لن ينبعث من هذا المصباح ضوء أبدا لو لم تتم هذه الحركة . . وكذلك العقل ، وما فيه من أضواء المعرفة والهداية . . إنه لن تنقدح منه شرارة مضيئة أبدا إلا إذا حرك الإنسان إرادته إليه ، ودعاه إلى صحبته فى الحياة . .

وهذا نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه يبعث مُعاذ بن جبل إلى اليمن قاضياً . . فيسأله :

— بم تحكم ؟

فيقول معاذ : بكتاب الله .

فيقول النبيّ الكريم : فإن لم تجد ؟

فيقول : بسنّة رسول الله !

فيقول النبي — عليه الصلاة والسلام — فإن لم تجد ؟

فيقول : أجتهد رأيي ! ؟

فيُسَرُّ النبيّ الكريم لهذا سرورا عظيما ، ويقول: «الحمد لله الذى وفّق رسولَ رسولِ الله لما يرضى رسول الله » .

وهذا الحديث من الأحاديث الصحيحة الموثقة . . ولكنه لم يفهم الفهم الصحيح العميق الذى ينبغى له !

فهذا « معاذ بن جبل » يبعثه رسول الله قاضياً ، يحكم بكتاب الله وبسنة رسول الله . . والرسول الكريم قائم على المجتمع الإسلامى . يبعث أضواء الهدى والحق فى كل أفق من الآفاق . . !

ومع هذا ، فقد رضى لمعاذ أن يصحب عقله معه ، وأن يكون هذا العقل ثالث ثلاثة : كتاب الله ، وسنة رسول الله . . والعقل الذى أودعه الخالق ..

ولم يرض الرسول بمجرد الرضا، بل أظهر سروره لهذا . . فكان ذلك أكثر من دعوة إلى تكريم العقل ، واستصحابه فى كل حال ، وعند كل أمر . .

ولو كان لإنسان أن يتخلّى عن عقله ، وأن يزهد فيه كل الزهد ، وهو مطمئن القلب قرير العين لكان معاذ بن جبل هذا .. إذ كان يحيا فى ظل النبى ، ويتلقى منه كما يتلقى المسلمون — أنوارَ السماء الكاشفة لكل داجية ، والناطقة بكل حق وعدل . . !

ومع هذا، فإن معاذ بن جبل — بما فهم من طبيعة هذا الدين، وبما تَفقّه من تعاليمه ، وبما شهد من تربية الرسول للمجتمع الإسلامى — رأى أن لعقله مكانا

بارزا حى مع وجود الرسول ، وحتى مع مابين يديه من كتاب الله ، وسنة رسول الله !

ولو كان للمجتمع الإسلامى أن يتخلى عن عقله ، وأن يزهد فيه ، وهو راض كل الرضا، مطمئن كل الاطمئنان لكان مجتمع الرسول ، وصحابة الرسول .. إذ كان بينهم هذا النور الذى يَخْفَى في ضوئه كل ضوء . . !

ومع هذا ، فقد كان لصحابة رسول الله عقولهم ، وكان لهم تفكيرهم فيما يعرض فى مجتمع الرسول من أمور . ! وحسبنا أن نذكر هنا ، عمر بن الخطاب وموقفه فى أسرى بدر ، وفى صلح الحُدَيْبية !

وأكثر من هذا ، فإن الله سبحانه وتعالى — قد ساق إلى هذه الأمة من الفضل مالم يسقه إلى أمة قبلها . . وهو أن يكون لها مشاركة مع السماء فى تشريع هذه الشريعة ، وفى نسج تعاليمها . . وأن يلتقى العقل الإنسانى مع الهدى السماوى فتتشكل منهما هذه الشريعة السماوية الأرضية . . الروحية الجسدية . على ما أشرنا إليه فى أكثر من موضع فى هذا الكتاب !

يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم ليبين له الأسلوب الذى يربِّى به أمته وينشّئها عليه : « فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ، ولو كنتَ فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفرْ لهم ، وشاورهم فى الأمر »(١)

وكان الرسول فى غنى عن هذه المشاورة ، وكانت السماء قادرة على أن تسد هذا الباب على المسلمين ، وأن تجعل إلى الرسول وحده الكلمةَ فى شئون المجتمع الذى يربيه بيديه !

ولكن اقتضت حكمة الحكيم العليم أن يشرك الناس مع السماء ، ومع رسول السماء فى النظر فيما يعرض لمجتمعهم من أمور ! . . وفى هذا ما فيه من تكريم للإنسانية ، ومن تمجيد للعقل الذى أنعم الله به عليها . .

وقد يبدو لحامل علم أن يقول : إن المشاورة التى أمر الرسول بمشاورة المسلمين فيها إنما هى فى شئون الدنيا ، أما شئون الدين من عقيدة وشريعة فليس لإنسان نظر فيها . . !

---

(١) سورة آل عمران . ١٥٩

ونقول ، حسبنا هذا ، فهذا القدر يكفى العقلَ المسلمَ أن يتحرك فيه حركة تملأ فجاج الأرض كلها ، وتقطعها من مشرقها إلى مغربها !

وماذا يراد من العقل غير هذا ؟ إن مقامه معنا هنا فى هذه الأرض .و فى شئون الدنيا . . وفى كل ما يُلتمس أو يرى فى هذا الوجود . . أمّا ما وراء هذا فلا سبيل للعقل إليه ، ولا مجال له فيه !

حسبنا من عقولنا أن تصحبنا فى شئون الحياة ، وأن يكون لها مجال للنظر والتقدير !

وهل أعطت المدنية الحديثة والعلم الحديث مكاناً للعقل أكرم أو أفسح من هذا المكان ؟

يقول الدكتور طه حسين :

« فقد كان الإسلام ومازال ديناً — قبل كل شىء وبعد كل شىء — وجه الناس إلى مصالحهم فى الدنيا وفى الآخرة ، بما بين لهم من الحدود والأحكام التى تتصل بالتوحيد أولا ، وبتصديق النبى ثانياً ، وبتوخى الخير فى السيرة بعد ذلك . . ولكنه لم يسلبهم حريتهم ، ولم يُلغ إرادتهم ، ولم يملك عليهم أمرهم كله . وإنما ترك لهم حريتهم فى الحدود التى رسمها لهم ، ولم يحص عليهم كل ما ينبغى أن يفعلوا ، وكل ما ينبغى أن يتركوا ، وإنما ترك لهم عقولا تستبصر . وقلوباً تستذكر ، وأذِنَ لهم أن يتوخّوا الخير والصواب والمصلحة العامة ، والمصالح الخاصة ما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

« وقد أمر الله نبيه أن يشاور المسلمين فى الأمر . ولو قد كان الحكم متنزلا من السماء لأمضى النبى كل شىء بأمر ربه ، ولم يشاور فيه أحداً ، ولم يؤامر فيه ولياً من أوليائه »[1] .

وأكثر من هذا أيضاً . . استمع إلى قوله سبحانه وتعالى : « وأنزلنا

(١) الفتنة الكبرى ص ٢٣

إليكَ الذكْرَ لتبيّن للناس ما نزّل إليهم . . . » . . . يا لله ، ويالَفضله العظيم على هذه الأمة . . !

« وأنزلنا إليك الذّكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ! » إذن فالقرآن الكريم لم ينزل إلى النبي وحده . وإنما نزل إليه وإلى الناس معه . . « نزّل إليهم » . وإذن فهذا القرآن محمول على يد الرسول للناس جميعاً . . يأخذ كل نصيبه منه ، ولهذا يقول الرسول الكريم : « القرآن مأدُبَة الله » . . مأدبة منصوبة لكل إنسان له عقل يفكر ، وقلب يتذكر .

إن العقل الإسلامى الذى سمح له أن يتحرك وأن يعمل، حيث لم يكن هناك داعية للحركة أو العمل ، مع وجود صاحب الشريعة ، ومبعوث السماء — هذا العقل مطلوب منه ديناً وشريعة أن ينطلق إلى أبعد مدى ، وأن يتحرك إلى أقصى غاية يبلغها ، وأن ينظر لنفسه ، وبنفسه ، مستهدياً بكتاب الله ، وبسنة رسول الله — بعد أن أخلى الرسول مكانه من هذه الدنيا ، ولحق بالرفيق الأعلى .

العنصر الإنسانى وحدوده فى الشريعة :

الرأى دعامة من دعامات الشريعة الإسلامية . . هذه حقيقة مقررة ، نطق بها القرآن — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — وأكدتها سنة الرسول القولية والعملية ، كما أشرنا إلى ذلك أيضاً . .

ونقول الآن : إن الرأى الذى يدخل مدخلا كريماً محترماً فى الشريعة الإسلامية ليس الرأىَ القائم على الهوى ، وإنما هو الرأى الموثّق بالإيمان ، المستند إلى المبادىء العامة للإسلام ، المستنير بهدى الكتاب والسُّنة !

وقد تحدثنا فى كتابنا « النبي محمد » عن أن الدين الإسلامى جاء وقد بلغت الإنسانية رشدها ، وأصبحت أهلا لأن تعرف طريقها . وأن ترفع عنها وصاية السماء ، حيث لا يبقى بين يديها إلا هذا العقل المستقر فى كيانها ، وإلا هذه المعالم المضيئة من الكتاب والسُّنة . .(١)

---

(١) « نبي محمد » المؤلف .

فالكتاب ، والسنة فى صحبة العقل يظلان دائماً أبداً فى حياة متجددة ، وفى ألَقٍ وإشراق ، بل ويزدادان على الأيام ومع الأجيال ، ألقاً وإشراقاً .

والعقل فى صحبة الكتاب والسنة نعمة من نعم الله الجليلة ، تتجدد حالا بعد حال ، وتزداد على الأيام ، مع الأجيال عظمة ، وقوة ، وكمالا . .

وعلى هذا فإن العنصر الإنسانى الذى يدخل على الشريعة الإسلامية ، ويضاف إليها مما تتهدّى إليه مدارك الناس فى ظل التشريع السماوى ، وعلى ضوئه — هذا العنصر ليس غريباً على الشريعة ، بل هو نبع منها ، وفيض من فيضها .. إذ كانت الشريعة فى صميمها جارية مع العقل البشرى ، قائمة على منطق الحياة فى أعدل أحوالها ، وأتم أوضاعها .

فإذا كان العقل على الصحة والسلامة من آفات الهوى وعوارض الغىّ التقى مع الشريعة فى يسر ووفاق ، ووجد فى صحبتها الرَّوْح والأنس .. ولم تقع بينه وبين الشريعة هذه الجفوة التى تجدها العقول المريضة .. فإنه هيهات أن يجرى المريض مع السليم ، وأن يأتلف الهوى والرشاد !

* *

الحكومة فى عهد النبى :

هناك حقيقتان بارزتان ، ينبغى أن نشير إليهما قبل أن ننظر فى الحكومة التى كانت فى عهد النبى ، والصورة أو الصور التى ظهرت فيها . .

فأولا : كان هناك مجتمع قد استكمل كل مقومات المجتمعات البشرية الصالحة للحياة ، المهيأة للبقاء والنماء . . فقد أصبح العرب جميعاً أمة واحدة ، بعد أن كانوا قبائل وعشائر ، وبطونا وأفخاذاً .. ولم يكونوا قبل الإسلام ، فى صورتهم الممزقة — أهلا لأن يسمّوا أمة . . إذ كانت الوحدة الاجتماعية مفقودة فيهم ، وكانت حواجز العصبية للدم وللقبيلة تضع من الحدود الفاصلة ، والسدود العالية بين القبائل ، مالم تضعه الحدود الطبيعية بين أمة وأمة !

ولهذا تحدث القرآن الكريم عن العرب باعتبارهم أمة ، وخلع عليهم هذه الصفة بعد أن دخلوا فى الإسلام جميعاً ،وبعد أن وحّد الدين مشاعرهم ،وجمعهم على عقيدة واحدة . . فقال تعالى : « وأن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون »[١] . . وقال سبحانه : « كنتم خير أمة أن أخرجت للناس . . تأمرون بالمعروف ، وتنهوْن عن المنكر ، وتؤمنون بالله »[٢] . . فالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإيمان بالله .. هى شريعة هذا المجتمع ، وهى مجال سعيه فى هذه الحياة . .

فلقد أخلى الإسلام كل ما كان فى قلب العربى من منازع العصبية ، ودوافع البغى والعدوان ، وغرس مكانها الإيمان ، والإخاء ،والمودة ، والرحمة .. فاتسع قلبه للإنسانية كلها ، وللحياة كلها ، بعد أن كان لا يفتح أبواب عواطفه المغلقة إلا لنفسه وأهله وقبيله !

وقبل أن يدخل الإيمان هذه القلوب ، وقبل أن يتحول بها هذا التحول لم يكن العرب أهلا لأن يسمَّوْا أمةويُدْعَوْا شعباً ..ولهذا كان القرآن قبل الفتح يخاطبهم بكلمة « عشير » أو « قوم » ونحو هذا : « وأنذر عشيرتك الأقربين » « وإنه لذكر لك ولقومك » . . . « هو الذى بعث فى الأميِّين رسولا منهم » .

وثانياً : هذا المجتمع الذى أقامه الرسول قد قضى على سلطان كل ذى سلطان فى القبيلة أو العشيرة،فليس لأحد فى هذا المجتمع الجديد مكان يعلو به على أحد ، أو يفرض عليه رأيا . أو يقيم عليه حداً . . إذ كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه هو السلطة العليا لهذا المجتمع ، وإليه وحده يرجع الناس فيما يقع بينهم من أحداث ، وما يجرى فى حياتهم من شئون .

ونقولها مرة ثانية . . لم يكن فى المجتمع الإسلامى كله من له سلطان على على أحد من الناس غير الرسول ، والرسول وحده ، بحكم الولاية العامة التى له على المسلمين .

---

(١) سورة الأنبياء آية ٩٢ (٢) سورة آل عمران آية ١١٠

يقول الله تعالى :

« النبيّ أولىَ بالمؤمنين من أنفسهم » . . « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

ونسأل بعد هذا: أكان هذا المجتمع الكبير يرجع إلى الرسول فى كل شىء ؟

وكيف كان يُحكم الذين أسلموا فى الجهات النائية البعيدة عن يد الرسول . . كاليمن ونجدْ . . مثلا ؟

والذى سجله التاريخ عن هذا هو أن الرسول الكريم كان يتخير لهذه الجهات النائية من صحابته من يؤهله علمه ، وفقهه ، ودينه ليكون حكومة بين الجماعة التى يبعث به إليها . . يقيم لهم الصلاة ، ويأخذ منهم الزكاة ، ويقضى بينهم فى الخصومات ، فيرد المظالم ، ويقيم الحدود !

أهذا كل الحكومة إذن ؟

إنسان واحد يحكم اليمن كله ، أو الحجاز كله ؟

فأين المحاكم ؟ وأين المحامون ؟ وأين السجون ؟ وأين العسَس ورجال الأمن ؟

أليس هذا على الأقل ما ينبغى أن تقوم عليه الحكومة فى أبسط صورها ، وأنزل درجاتها ؟

فكيف لإنسان فرد أن يكون هو وحده حكومة ، يمثل رأسها وأعضاءها جميعاً ؟

ربما كان هذا القصور البادى فى الصورة الشكلية للحكومة هو الذى دعا بعض الباحثين إلى القول بأن الإسلام لم يكن يعنى بالشئون السياسية ، ولم يكن فى تشريعاته مكان للتنظيم السياسى ، على نحو ما عرف عند الأمم التى كان لها ملوك وقياصرة !

يقول الأستاذ على عبد الرازق فى كتابه (الإسلام وأصول الحكم) :

« إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسس دولة سياسية أو شرع فى تأسيسها — فلماذا خلت دولته إذن من كثير من أركان الدولة ودعائم الحكم؟ ولمـاذا لم يعرف نظام فى تعيين القضاة والولاة ؟ ولماذا لم يتحدث إلى رعيته فى نظام الملك وفى قواعد الشورى ؟ ولماذا ترك العلماء فى حيرة واضطراب من النظام الحكومى فى زمنه ؟ . . ولمـاذا ؟ ولماذا ؟

« نريد أن نعرف منشأ ذلك الذى يبدو للناظر كأنه إبهام أو اضطراب أو نقص أو ما شئت فسمّه فى بناء الحكومة أيام النبى . . وكيف كان ذلك ؟ وما سرّه ؟[1] » .

ولعل فى حديثنا السابق عن « المجتمع الإسلامى والحكومة الإسلامية » ، لعل فى حديثنا هذا جواباً على هذه الأسئلة التى يسألها الأستاذ « على عبد الرازق » ! ومع هذا نعود فنذكر بما قلناه آنفا . . فنقول :

إن أهم ركن من أركان الدولة هو الدستور الذى يرسم لهـا مناهج سلوكها فى الحياة ، وأوجه نشاطها المادى والروحى . . هو التشريع الذى تعيش الدولة فى ظله ، وتتحرك فى مجاله ، وتسير وفق أحكامه . . وهذا التشريع — كما قلنا — هو القرآن والسُّنة ، مع العقل الشارح لهما ، الفاقه لمراميهما ، المستصنع من مادتهما ما تدعو إليه أحوال المجتمع وظروف الحياة . .

أما ما عدا ذلك من صور التطبيق وأشكاله ، فذلك مما لا ينبغى للرسالة العامة الخالدة أن تقف عنده ، وأن تقطع على الناس السبيل إلى التعديل ، أو التبديل فى صوره وأشكاله حسبما تقضى دواعى الظروف وملابسات الأحوال ! . .

فمثلا . . دعا الإسلام إلى الجهاد فى سبيل الله ، وفرض على كل قادر على حمل السلاح أن يكون فى المجاهدين ، وأن يخفّ إلى ميدان المعركة متى دعت دواعى القتال . .

يقول الله سبحانه وتعالى :

---

(١) الإسلام وأصول الحكم ص ٥٧ .

« انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله . . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »(١) .

هذه هى دعوة الإسلام إلى النفير العام . . لم يتدخل فى الصورة التى يلتزمها المقاتلون فى تكوين الجيش ، وفى الوضع الذى يكون عليه كل من القادة والجند ، كما لم يتدخل فى أدوات الحرب ، وفى رسم خطط القتال ، وفى الكر والفر . . إلى كثير من هذه الأمور التى تخضع لما يسمى « سياسة الحرب » . . إذ أن للحرب سياسة لا تقل عن سياسة الحكم . . ومع هذا — مرة ثانية — لم يرسم الإسلام للحرب سياسة ، بهذا المعنى الذى يفهم من كلمة سياسة على إطلاقها ، والذى يفهم من « سياسة الحكم » بوجه خاص !

وانظر . . كيف يكون الحرج ، وكيف يكون المصير المشئوم الذى يلقاه المجتمع لو أن « سياسة الحرب » هذه — مثلا — جاءت فى شريعة الإسلام على هذا التفصيل والتحديد . . فى أسلحة القتال ، وأنواعها وأشكالها ، وفى كيفية الهجوم والدفاع ،وفى تنظيمات الجند ومواضعهم بين رجال وركبان . ؟ . ماذا يكون مصير هذا الجيش المجاهد فى سبيل الله وقد أثقلته هذه القيود الكثيرة الثقال ؟ إنه حينئذ لا يكون جيشا ، بل يكون دُمَى متحركة ، لا تملك التحول من حال إلى حال ، ولو كان — فى هذا التحول النجاة ، والغلب . . لأن ذلك يعَدّ خروجا على الدين ، ومروقاً من شريعته !

كذلك الشأن فى «سياسة الحكم» فلو ذهب الإسلام يرسم نظاما محددا للحكم على نحو ما . . كالحكم الجمهورى ، أو الملكى ، أو الديمقراطى ، أو الاستبدادى ، أو ما شاكل ذلك مما عرفت الحياة من تلك الأنظمة ، . ثم وضع لذلك الشروط والأوصاف التى تتم بها عملية إقامة الحكومة ، والسياسة التى تلتزمها تلك الحكومة فى إعداد الأجهزة التى تعينها على الحكم من محاكم وقضاة ، ومن جند ، ورجال أمن ، وجباة أموال . . ونحو هذا من تلك الأجهزة الكثيرة المعقدة ، التى لم تأخذ شكلا محددا إلى اليوم فى أية دولة ، وفى أى نظام — لو ذهب الإسلام هذا المذهب لما ترك للمجتمع الإسلامى مجالا يتحرك فيه ، ولحكم

---

(١) التوبة آية ٤١

عليه حكما مؤبدا على مدى الأجيال ألا يكون له مُنْصرَف عن هذا الوضع . ولو جرفه السيل ، أو التهمه الحريق !

ونحن نعرف أن « الأستاذ على عبد الرازق » لم يسأل هذه الأسئلة إلا ليقرر أن إغفال الشريعة لسياسة الحكم ولأنظمته لم يكن عن إهمال أو غفلة، وإنما كان لأن الشريعة الإسلامية أرادت، أن تخلىّ بين الناس وبين شئون الحياة، يوجهونها الوجهة التي يرونها أعدل وأنفع لهم ، لأنها لم تتدخل من قريب أو من بعيد فى هذا الشأن . .

ولكن مع هذا نقول : إن الشريعة لم تغفل هذا الأمر إغفالا مطلقا ، بل شرعت له من المبادئ ما يقيمه على أثبت القواعد وأرسخها وأدومها .

إن الحكمة تقضى بأن يكون التشريع العام الدائم — كما قلنا أكثر من مرة — أن يكون مجملا . يضع الأسس والمبادىء العامة ، ليترك للناس فراغا يملئونه بأنفسهم، حسبما تدعو إليه الحاجة ، وتقضى به الأحوال . .

وبعض هذه المبادئ وتلك الأصول التى جاءت بها الشريعة الإسلامية فيه الكفاية لإقامة الحكومة الصالحة الرشيدة ، التى من شأنها أن تضبط أمور المجتمع، وتصلح أحواله . .

فطلوب من الحاكم فى شريعة الإسلام أن يحكم بالعدل وأن يستقيم عليه فى جميع أحواله ، ومع جميع الناس . . يقول الله تعالى : « ولا يجرِمَنَّكم شَنَآن قومٍ على ألا تعدلوا ، اعْدلوا، هو أقرب للتقوى[1] » ويقول سبحانه: « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأماناتِ إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »[2]

العدل فى الحكومة هو أساس كل حكم يقام فى ظل الإسلام ، أما ما وراء ذلك من صور الحكم وأشكاله فلا وزن له ولا اعتبار . !

يقول ابن القيم فى كتابه « الطرق الحكمية » نقلا عن « ابن عقيل » الذى يعلق على قول الإمام الشافعى : « لا سياسة إلا ما وافق الشرع » يقول :

---

(١) سورة المائدة آية ٨ (٢) سورة النساء آية ٥٨

« السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح ، وأبعد من الفساد ، وإن لم يضعه الرسول ، ولا نزل به وحى .. فإن أردتَ — يخاطب الإمام الشافعى — بقولك « لا سياسة إلا ما وافق الشرع » أى لم يخالف ما نطق به الشرع .. فصحيح ، وإن أردت : لا سياسة إلا ما نطق به المشرع فغلط وتغليط للصحابة ، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والتمثيل مالا يجحده عالم بالسنن ، وإن لم يكن إلا تحريق عثمان المصاحف ، فإنه كان رأياً اعتمدوا فيه على مصلحة الأمة ، وتحريق علىّ رضى الله عنه الزنادقة فى الأخاديد ، ونفى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لنصر بن حجاج »[1] .

يريد ابن « عقيل » أن يقول : إن لسان الشرع له منطوق ، ومفهوم ، والوقوف عند منطوق الشرع يجمّد المجتمع الإسلامى ، ويعطل سيره فى الحياة ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يأخذون بمنطوق الشرع وبمفهومه معاً . . ولهذا لم يقفوا جامدين إزاء الأحداث التى جدّت . . فقد حرق « علىّ » كرم الله وجهه الزنادقة ، وليس فى منطوق الشرع حدٌ بالتحريق ، وكذلك نفى « عمر » رضى الله عنه نصر بن حجاج . . ولم يكن محارباً لله ولرسوله ، ولا ساعياً فى الأرض بالفساد ، حتى يعاقب عقاب المحاربين لله ولرسوله ، والساعين بالفساد فى الأرض ، وإنما رزقه الله وجهاً حسناً . . فُتن به النساء ، وتهافتن عليه ، وكان معظم رجالهن بعيداً عنهن ، فى الغزو فى سبيل الله ، فرأى عمر أن يخرجه من المدينة ، ولو وقف عند منطوق الشرع لما حكم عليه هذا الحكم . . وهكذا ما كان من حرق عثمان للمصاحف المخالفة للمصحف الذى أراد أن يجمع المسلمين عليه .

ويعلق ابن القيم على هذا بقوله :

وهذا موضع مزلة أقدام ، ومضلة أفهام ، ومقام ضنك ، ومعترك صعب . . فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود ، وضيعوا الحقوق ، وجرءوا أهل الفجور

---

(١) الطرق الحكمة ص ١٣

على الفساد ، وجعلوا الشريعه قاصرة لا تقوم بمصالح العباد ، محتاجة إلى غيرها ، وسدوا على نفوسهم طرقاً صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له ، وعطلوها . والذى أوجب ذلك لهم نوع تقصير فى معرفة الشريعة ، ونوع تقصير فى معرفة الواقع ، وتنزيل أحدهما على الآخر .. فلما رأى ولاة الأمور ذلك ، وأن الناس لا يستقيم لهم أمر إلا بأمر وراء مافهمه هؤلاء من الشريعة أحدثوا من أوضاع سياستهم شراً طويلا وفساداً عريضاً . فتفاقم الأمر ، وتعذر استدراكه ، وعز على العالمين بحقائق الشرع تخليص النفوس من ذلك واستنقاذها من المهالك .

« وأفرطت طائفة أخرى قابلت هذه الطائفة ، فسوغت من ذلك ما ينافى حكم الله ورسوله .

«وكلا الطائفتين أتيت من تقصيرها فى معرفة ما بعث الله به رسوله ،وأنزل به كتابه ، فإن الله سبحانه أرسل رسله ، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذى قامت به السموات والأرض .

« فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأى طريق كان فثمَّ شرع الله ودينه . . فأى طريق استُخرج بها العدل والقسط فهى من الدين ، ليست مخالفة له . »[1] .

فالعدل هو المبدأ العام الذى قام عليه الإسلام ، ووضعت الشريعة أعلامه . . وليس من المسلمين ، ولا على شريعة الإسلام من لا يستقيم على العدل ولا يحكم به ، أو ينزل على حكمه . .

* * *

ثم كان من المبادىء العامة التى وضعها الإسلام للحكم مبدأ « الشورى » . . هكذا على إطلاقها من غير أن يقيدها بشىء . . لا بعدد معين ، ولا بصفات خاصة فى المستشارين ، ولا فى صور الاستشارة وأشكالها . . وإنما ترك ذلك

---

(١) الطرق الحكمية ص ١٤ .

ليختار الحاكم الأسلوب الذى يؤدى إليه اجتهاده ، فيحقق المعنى المقصود من «الشورى» وهو التعرف الصحيح على الرأى العام فيما يعرض للمجتمع من أمور ..

* * *

هذا ، وللدكتور طه حسين رأى أشبه بهذا الرأى الذى ذهب إليه الأستاذ على عبد الرازق . . يقول الدكتور :

« وربما كان من أصدق الأدلة وأقطعها على ما نذهب إليه — أن القرآن لم ينظّم أمور السياسة تنظيما مجملا أو مفصلا ، وإنما أمر بالعدل ، والإحسان وإيتاء ذى القربى ، ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، ورسم لهم — أى المسلمين — حدوداً عامة ، ثم ترك لهم تدبير أمورهم كما يحبون، على ألا يتعدوا هذه الحدود !

ثم يقول :

« وإن النبي نفسه لم يرسم بسنته نظاماً معيناً للحكم ، ولا للسياسة ، ولم يستخلف على المسلمين أحداً من أصحابه بعهد مكتوب أو غير مكتوب حين ثَقُلَ عليه المرض ، وإنما أمر أبا بكر أن يصلى بالناس ، فقال المسلمون :

« رضيه رسول الله لأمور ديننا ، فما يمنعنا أن نرضاه لأمور دنيانا ؟ » . .

ثم يقول :

« ولو قد كان للمسلمين نظام سياسى منزّل من السماء لرسمه القرآن ، ولبيّن الرسول أصوله ، ولفرض على المسلمين الإيمان به ، والإذعان له[1]» .

وموقفنا من هذا الرأى هو موقفنا من رأى الأستاذ على عبد الرازق وهو أن الشريعة الإسلامية قد وضعت للحكم أصولا ، وأن هذه الأصول هى أساس كل حكم صالح ، مهما يكن الشكل الذى يظهر فيه .

والإسلام لم ينظر إلى الحياة على أنها وحدات منعزل بعضها عن بعض ، فيضع دستور شريعته مبوّبا على نحو ما يفعل فى الدساتير الوضعية .. فهذا

---

(١) الفتنة الكبرى ص ٢٥ .

باب للنظام السياسى ، وذاك للنظام الاقتصادى ، وذلك للنظام الاجتماعى ، ورابع للقضائى .. وهكذا ..

لم يلتفت الإسلام إلى شىء من هذا ، لأنه يرى الحياة وحدة واحدة ، وأن الميزان الذى يمسك بكل شىء فيها هو العدل ، فإذا استقام فى يد الناس استقامت جميع أمورهم ، وإذا انحرفت انحرفت أمورهم كلها .

ماذا إذن كان يمسك المجتمع فى عصر النبى ؟

ونسأل : ماذا كان شأن الأمة العربية فى عصر النبوّة ، وما الحكومة التى كانت تضبط أمورها ، وتمسك نظامها ؟

أهناك مجتمع ليس عليه سلطان يَزَعهُ ، ويحفظ أمْنَه وسلامته ؟

إن النظام القَبَلى الذى قضى عليه الإسلام كان له سلطان مبسوط فى حدود القبيلة ، وعلى أبنائها ..

وإنه لابد أن يكون لهذا المجتمع الجديد الذى تخلّق من هذه القبائل المختلفة المتعددة نظام يَحكم به ، ويضبط أمورَه .

كان الرسول الكريم هو وحدة « الحكومة » فى مجتمع الصحابة .. فى المدينة،وفيما يرد إليه من شئون الجهات القريبة ، أو البعيدة فى أنحاء الجزيرة العربية ..

وكان إلى عماله ، ومبعوثيه فى قبائل العرب وأحيائها الحكومة فيما يوَلّوْن عليه ..

وهذه الصورة من صور الحكم تناسب فى بساطتها الحياة التى كان عليها المجتمع الإسلامى إذ ذاك .. فلم يكن المجتمع فى حاجة إلى أكثر من هذا .. لم تكن حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية تدعو إلى أكثر من هذا اللون من الحكم .

إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يبذر بذور دولة ، وقد مَهّدَ لها الأرض ،

وأجرى إليها الماء ، ثم اقتضت حكمة الشارع الحكيم أن يدع للناس أن يستنبتوا هذا النبت ، وأن يتعهدوه بالسقى ، وأن يحموه من الآفات ، إذا أرادوا أن ينالوا منه جنًى طيباً ، وثمراً كريماً .

ولو كان من تدبير الشارع أن يرسم منهج الدولة ، وأن يضع لها جميع الخطط السياسية والاجتماعية والاقتصادية لأطال فى عمر النبي صلى الله عليه وسلم حتى تبزغ جميع الأحداث والمشكلات التى ستتعرض لها حياة هذا المجتمع على امتداد أوطانه وأزمانه .

أمّا أن يسبق المشرّع الأحداث حدثاً حدثا ، ويحدد أشكالها وأحجامها فذلك غير مستطاع أن يحصر ، وأن يسجّل ، ولو كان مستطاعا لكانت الحكمة تقتضى أن يترك للناس تقدير أمورهم بقدرها ، حسب دواعى الحاجة ، ومقتضيات المصلحة .

إن ذلك لم يكن فى نظر الشريعة ، ولا من تدبيرها ، لأنها — كما قلنا — قصدت قصداً أن يكون ليد الناس تنظيم مجتمعهم ، واستكمال أسباب حياته ، وإمداده بحاجاته كلما دعت دواعيها .. وفى هذا ما يضمن بقاء الطريق مفتوحا أمام الناس ليسعوا سعيهم فى الحياة ، وليكون لكل مجتهد نصيبه بقدر اجتهاده .

إن الإسلام يريد المجتمع الإسلامى أن ينمو نمواً طبيعياً ، وأن يبنى حياته من إفرازاته النفسية والروحية والعقلية كما يبنى النحل خليته .

وإذن فلا حاجة أن يغتذى هذا المجتمع تغذية صناعية ، بعد أن يعيش المجتمع الإسلامى الأول الحيوات الإنسانية كلها ، وأن يرتديها ثوباً ثوبا ، ثم يتركها ميراثاً للأجيال المتعاقبة يخلعها السلف ، ليلبسها الخلف ، وإن رثّت ، وبليت ، وصارت أشلاء ممزقة !

إن الذين ينكرون على المجتمع الإسلامى الأول خلوّه من فلسفات السياسة على نحو ما كان لليونان والرومان فى القديم ، والذين ينكرون عليه

أن تخلو أنظمته الاقتصادية من النظريات والفلسفات التى نراها فى العصر الحديث — الذين ينكرون على الإسلام أن يخلو من هذه الفلسفات كان عليهم — بهذا المنطق — أن ينكروا عليه أيضاً أنه لم يقم ناطحات السحاب كما فى أمريكا ، أو لم يحطم الذرة ، أو يرسل رجال الفضاء إلى السماء كما تفعل الآن أمريكا وروسيا .

إن هذا من ذاك سواء بسواء . . فإن لكل عصر أحوالا تحكمه ، ومظاهر تغلب عليه .

وإذن فالذين يريدون من الإسلام أن يتمثل فى أيامه الأولى جميع أطوار الحياة الإنسانية لا يضعون فى تقديرهم تطور الحياة ، ولا يحملون فى تقديرهم العنصر الإنسانى فى هذا التطور .

وماذا لو قام الإسلام لأول يومه آخذاً بأطراف الحياة كلها فى الجانب التشريعى منها مثلا . . دون أن يكون ذلك واقعاً ، ممثلا على مسرح الحياة التى يحياها الناس ؟

إنه يكون فى شبه عزلة عن أعين الناس ، لأنه يعيش على مجرد فروض لا يحفل الناس بها ، ولا يلتفتون إليها ، إذ هم فى شغل عنها بالواقع الذى يحيون فيه . بل ربما كانت هذه الفروض عاملا من عوامل الهزيمة فى معترك الحياة بما تدخل به على الناس من تصورات وتخيلات لا محصّل لها عندهم ؟

هذا ، وقد نظر بعض الغربيين هذه النظرة إلى الشريعة الإسلامية ، وربما كان لهم عذرهم فى هذا . إذ أن بين أيديهم التوراة — بعهديها القديم والجديد — وهى كما نعلم شريعة المسيحيين ، وقد جاءت التوراة فى تشريعاتها مبسوطة كل البسط ، تُعنى بالجزئيات عنايتها بالكليات . . وذلك لأنها كما قلنا شريعة موقوتة لجيل أو جيلين من أجيال الناس ، وليست للحياة كلها . . ولهذا فإن ما فيها من وصايا وتوجيهات قد بعد الآن عن الحياة بعداً شاسعاً ، وأصبح الذين يؤمنون بهذه الشريعة ينظرون إلى هذه الوصايا ، وتلك التوجيهات على أنها تاريخ عاش

فيه هذا الجيل الذى عاصر التوراة . . وليس على الناس بعد هذا أن يأخذوا بشىء منها .

نقول : كانت نظرة بعض الغربيين إلى الشريعة الإسلامية مقدرة بهذا التقدير ، ولهذا نراهم يأخذون على هذه الشريعة أنها لم تضع التشريع الكامل للمسلمين وخاصة فيما يتصل بنظام الحكم .

يقول « جرونيباوم » صاحب كتاب الحضارة الإسلامية :

« فالواقع أن المسألة الكبرى التى يحدق بها الخطر قد صاغت نفسها فى صورة هذا السؤال الذى طالما رددته الألسنة : « هل أوحى الله الدستور الكامل لدولة ربانية مثالية ؟ أو لم يفعل ؟ وهل فى الإمكان المضى قدماً فى فكرة الحكم الإلهى للإنسان والمجتمع إلى نهايتها المنطقية . . أولا ؟ أعنى هل فى الإمكان الوصول — بضرب من التسوية — إلى إضافة عنصر إنسانى إلى ذلك البناء ؟

ثم يقول :

« محمد النبى — فيما هو واضح — لم يبحث تلك المعضلة ! ! إذ لا يلوح أنه بحث فى كمال الوحى أو السنة . . ويروى أنه صلى الله عليه وسلم اختبر « معاذاً » حين بعثه إلى اليمن قاضياً ، وقال : بم تحكم قال : بكتاب الله . . قال : فإن لم تجد ؟ قال بسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى ، فقال رسول الله : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله[1] » .

وقد أخطأ « جرونيباوم » فى هذا الفهم للشريعة الإسلامية باعتبارها فى تقديره شريعة سماوية ليس للإنسان مجال للتحرك فيها .

وقد قلنا : إنها سماوية وإنسانية معاً ، وأنها تتلاقى فيها حكمة الله ، وعقل الإنسان !

---

(١) الحضارة الإسلامية ص ١٨٩

والنبيّ صلى الله عليه وسلم لم يبحث فعلا هذه المعضلة التى يقول بها « جرونيباوم » لأنه لم يكن هناك معضلة . . والحديث الذى أورده «جرونيباوم» هو حجة عليه لا له . . لأن الرسول عليه الصلاة والسلام جعل العقل رافدا من روافد التشريع إلى جانب الكتاب والسُّنة . .

فالشريعة الإسلامية إذا أخذت بمنطق الأرقام التى كانت هكذا :

القرآن الكريم + السنة + الرأى

مضافا إليها الإجماع الذى سنتحدث عنه بعد قليل .

وقد كرر « جرونيباوم » هذا الخطأ مرة أخرى ، إذ يقول :

« تهدف الشريعة الإسلامية بوصفها قواما لإرادة الله ، وغير معتمدة بأية حال على العقل الإنسانى ، ولا القيم الإنسانية — إلى الحدّ من حرية الإنسان الأصلية بقصد منفعته الخاصة ، ومنفعة جماعته ! !

وقد خلق الله الإنسان حراً ، ولكن ضرورات الحياة الاجتماعية هى التى اقتضت الحد من هذه الحرية . . ! [1] » .

ولا نجد مفهوما للإسلام ولشريعة الإسلام أبعد فى الخطأ وسوء الفهم من هذا القول الذى يقول به « جرونيباوم » من أن الشريعة الإسلامية « غير معتمدة بأية حال على العقل الإنسانى ، ولا القيم الإنسانية » ! ! ويكاد يحملنا هذا البهتان العظيم على أن نعيد ما قلناه من قبل عن هذا المكان الفسيح الذى تركته الشريعة للعقل الإنسانى فى كيانها ، وعن تقدير هذه الشريعة للقيم الإنسانية واعتدادها بها — ولولا أن نشق على القارىء ، لأعدنا هذا القول مرة ومرة ، لنزيح عن الصدر ما يجد من ضيق شديد لهذا الانحراف الحاد عن العدل والإنصاف !

ولا يقف « جرونيباوم » عند هذا ، بل يعيد هذا القول فى صورة أخرى ،

---

(١) الحضارة الإسلامية ص ١٨٦

حين يتحدث عن الشريعة فى دورها التطبيق ، وفى موقف فقهاء المسلمين من نصوصها . .

يقول « جرونيباوم » :

« ومن الجلىّ أن التقنين الواقعى لشئون الحياة الخيرية على الصورة التى يصورها الفقه — كان يعتمد بطبيعة الحال على المواد الأصلية التى كان المشرع يَعُدّها جديرة بالاعتماد .

ثم يقول :

« وكأنى بالناس كانوا يحسون بوضوح أن من الطبيعى أن يكون الله نفسه هو المصدر لدستور دولته . . ! ولكن يعدل هذا فى وضوحه شعورهم بأن الله لم يفعل ذلك !

« . لم يكن فى الإمكان الدفع بأن القرآن ، تذيله سنة النبىّ كان يحوى صراحة أو تضمنا الإجابة عن كل مسألة يظهرها تقلب الحوادث ، وتغير الأحوال ، إلا أن يكون ذلك على سبيل التمطيط الخطير للطاقة التأويلية . !

« على أن الاعتراف بأن للقانون أى مصدر آخر كان معناه التسليم باستحالة حياة الفرد وحياة الجماعة على أوامر الله وحدها ! !

« وكان معنى ذلك أيضاً التخلى عن المثل الأعلى الذى من أجل تحقيقه قام المجتمع الإسلامى !

« غير أن عدم الاعتراف بأى مصدر آخر للتشريع ، كان من جهة أخرى تهربا من الحقائق . . غير كريم ! ! »[1]

ولا ندع هذا القول يمضى دون أن نقف عند بعض فقراته ، ونعيد إليها الحق الذى عزب عنها ..

فإحساس المسلمين بأن الله هو المصدر لدستور الدولة هو إحساس واقع لا شك فيه . . أما أن يقابل هذا الإحساس إحساس بأن الله لم يفعل ذلك ،

(١) حضارة الإسلام ص ١٨٨

ولم يكن هو — سبحانه — المشرّع للدين الإسلامى ، فذلك هو الضلال البعيد والافتراء الغليظ على هذا الدين . .

وإذن فما شأن القرآن الذى نزل على النبىّ ؟ وما شأن أقوال النبىّ وأفعاله المستمدة من إلهامات السماء ؟

ما شأن القرآن ، وما شأن السنة إذن ؟ أليساهما دستور الإسلام وشريعة المسلمين ؟ ..

لاشك أن الله سبحانه هو مصـدر الشريعة ، ولا شك أنه — سبحانه — قد وضع هذه الشريعة بين أيدى المسلمين ، وأن عليهم وقد تلقوا هذا الخير أن ينظروا فيه بعقولهم ، وأن يتدبروه ، وأن يتعاملوا معه فى شأنهم وشأن الناس جميعاً . . فى أى حَدَث أو أى أمر يعرض لهم .

وأما ما يقول به « جرونيباوم » من أن الاعتراف بأن للقانون أى مصدر آخر — غير الله — معناه التسليم باستحالة حياة الفرد وحياة الجماعة على أوامر الله وحدها » فإن فى هذا القول مغالطة ، إذ كون الله هو مصدر الشريعة لا يمنع أن يتصرف الناس بعقولهم فى الانتفاع بهذه الشريعة ، وفى استخلاص حقائق جديدة منها ، واستخراج أحكام مخلّقة من عناصرها . .

فكما لايحرم على الإنسان أن يسخّر قوانين الكيمياء لما فيه نفعه ومصلحته . فيحلل عناصر الأشياء ويركبها ليولد منها أشياء جديدة نافعة ، كذلك لا يحرم عليـه أن يولد من أحكام الشريعة العامة صوراً من الأحكام مهما تختلف عن أصلها العام — ولا بد أن تختلف — فإن فيها مشابه منها وملامح ، لما تحمل فى كيانها من تلك العناصر المستولدة منها .

وإذن فيسقط بهذا التقدير وبهذا الحساب قول جرونيباوم : « وكان معنى ذلك أيضاً التخلى عن المثل الأعلى الذى من أجل تحقيقه قام المجتمع الإسلامى » وذلك لأن الإسلام لا يقيم المجتمع الإسلامى المثالى بمواد الكتاب والسنة إلا إذا اتصل بهما العقل ، وولد منهما الحقائق التى يلتقى بها مشكلات الحياة التى تواجه

المجتمع ! ولن ينقص هذا من مثالية المجتمع .. فهو مجتمع إنسانى ، ولا يقلل من شأنه ، أو ينزل من قدره أن يشترك فى بناء وجوده الذى يعيش فيه .

بين المثالى والواقعى:

هناك ظاهرة كان لها آثارها الخطيرة فى الاتجاه الذى اتجه إليه الفقه الإسلامى فى أول خطواته . ونقصد بهذه الظاهرة هذا الشعور الدينى الذى كان مستولياً على المسلمين فى عصر النبوة ..

فهذا الإحساس القوى العميق بالدين ، وبقداسته — هذا الإحساس كان يملك وجود المسلم فى عصر النبوة ، ويستولى على كيانه كله . .

كان المسلم يكاد يرى آيت القرآن وهى تنزل من السماء ، ويكاد يسمع همس « جبريل » بها فى صدر النبىّ . .

وقد كان لهذا أثره فى نظرة المسلمين يومئذ إلى آيات الكتاب ، وإلى سنة الرسول بعد ذلك . فلقد وقف المسلمون عند نصوص الكتاب والسنة موقف الخشوع والجلال . . لا يرفعون أبصارهم ، ولا يحولون وجوههم إلى أى شىء حولهما . . إنهما كل وجود عندهم ، فيهما الجمال والجلال كله ، والخير كله . . والعلم كله ..!

وهذا الموقف على سموّه ، وجلاله ، وروعته كان له أبعد الأثر فى ضمور العنصر الإنسانى فى الشريعة الإسلامية ، والوقوف بها وقوفاً يكاد يكون جمودا — عند نصوص الكتاب والسنة !

كان موقف المسلمين من الشريعة فى عهد النبوة وفى الفترة القصيرة التى تلته — موقفاً تغلب عليه السلبية عند الغالبية العظمى منهم . . يأخذون ولا يعطون .. يأخذون من الشريعة ما يملأ قلوبهم إيماناً ، ورضًى ، وسعادة ، ولا يعطون هذه الشريعة من عقولهم ما يثير ساكنها ، ويستخرج دفائنها ..

ولهذا تحرّج معظم صحابة رسول الله من عرض القرآن على عقولهم ، ومن

القول فيه بالرأى . فلم يؤثر عن أحد منهم تفسير لآية من آيات الله ، ولا لكلمة من كلماته إلا ما روى ، عن ابن عباس ، وتفسيره لبعض آيات منه . . وفى هذه الروايات كثير من المبالغة ، والتقوّل على ابن عباس . فقد روى أن أبا بكر رضى الله عنه سئل عن قوله تعالى : « وكان الله على كل شىء مقيتـًا » فقال : أى سماء تظلّنى ، وأى أرضٍ تقـلّنى إن قلت فى كتاب الله ما لم أعلم » .

وعن أنس رضى الله عنه أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قرأ على المنبر « وفاكهةً وأبـًا » فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأبّ ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال — والناس يسمعون — لعمرك .. إن هذا هو التكلّف يا عمر ! . »

وعن عبد الله بن عمر قال : لقد أدركت فقهاءَ المدينة وإنهم لَيَعظمون القول فى التفسير . . منهم سالم بن عبد الله ، والقاسم بن محمد ، وسعيد بن المسيّب ، ونافع »[1] .

فهذا التحرج فى تفسير القرآن ، وفى تخريج الأحكام منه ، فى هذه الفترة المشرقة فى تاريخ الإسلام ، قد أضاعت على الشريعة الإسلامية فرصتها فى اجتناء هذا الخير الكثير الذى كان يمكن أن يُجنى من فم الصحابة ، رضوان الله عليهم ، لو أنهم وقفوا من القرآن موقف المفسّرين ، والمخرّجين لما فيه من أحكام ؛ فقد كانوا أعرف الناس به ، وبالخير الكثير الغدَق الذى بين دفتيه . . ومن جهة أخرى ، أمسك كثير من الصحابة بآرائهم ، فلم يقولوا برأى فيما يعرض لهم ، أو للناس فى مجتمعهم ، إلا إذا وجدوا نصاً صريحاً من القرآن أو من سنة الرسول ..

ومع هذا ، فقد كان ضغط الأحداث — بعد هذه الفترة الوضيئة — يحمل الناس حملا على أن يلوذوا بالكتاب والسنة ليجدوا فيهما الحلّ للمشكلات الكثيرة التى كانت تعرض لهم ، ومن هنا بدأت تظهر فى المجتمع الإسلامى شخصيات واضحة لم تقف عند النص الحرفى للقرآن والحديث ، بل جعلت

---

(١) كتاب المبانى لنظم المعانى ص ١٨٣ .

تأخذ من المنطوق مفهوماً . وجعلت للمفهوم وجهين : مفهومَ موافقة ، ومفهومَ مخالفة ، ثم أخذت تتلمس علل الأحكام ، وتربط المعلولات بالعلل ، فتجعلها تدور معها طرداً وعكساً . . وهكذا بدأ الناس ينظرون فى الكتاب والسنة نظرة عملية أكثر منها روحية أو نفسية ، وبدأت تظهر فى الأفق الخطوط الأولى للفقه الإسلامى . .

ولكن إلى أى مدى بلغ هذا الجهد فى التوفيق بين أحكام الدين ومطالب الدنيا ؟ بين ما تدعو إليه الشريعة وما تقتضيه أحوال الحياة ؟ وهل استطاع الدين فى مفهوم الفقهاء أن يضع بين أيدى الناس جميع الحلول للمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تعرض . لهم دون تعسف . أو تزيد ، أو خروج على المبادئ التى قررتها الشريعة ؟

والحق أن الإجابة على هذا لا يمكن أن تكون قاطعة بحال أبداً . سواء أكانت بالإيجاب أم النفى !

ذلك أن الحدود الفاصلة بين ما هو حق وما هو باطل،وبين ماهو دين وماهو دنيا كثيراً ما تكون دقيقة أو متشابكة . . ينظر إليها من جانب فتبدو فى دائرة الحق ، وينظر إليها من جانب آخر فتبدو فى محيط الباطل . . ثم إن الأمور إذا كانت تمسّ حياة المجتمع ، أو تمسّ جانبا كبيرا منه اختلفت أنظار الناس إليها اختلافا شديداً ، ودار الناس حولها دورات متخالفة . . كل يريد أن يذهب بها المذهب الذى يستقيم مع تفسيرة وتفكيره، وتغليبه الجانب الدينى أو الدينوى من نفسه !

من هنا كان القول بأن هذه هى كلمة الدين ، ! وهذه هى سبيل الحق — ليس محلّ اتفاق أو تسليم من جميع الناس،وفى جميع الأحوال . . فما أكثر ماتتفرق بالناس السبل ، وتتشعب مذاهب الرأى فى الأمر الواحد . . كل يدعى دعواه لهذا الأمر وكل يأتى بما يملى عليه رأيه أو هواه من شواهد وأدلة . .

والخلاف فى الرأى ليس مما تأباه طبيعة الحياة ، أو تضيق به ساحة الحق

والعدل . . بل إن الخـــلاف إذا صدر عن نية خالصة ، وقلب سليم فى البحث عن الحقيقة ، كان جندا من جنود الحق ، وسلاحاً من أسلحة المعركة فى سبيله . . !

وإنما يكون الخلاف بلاء وفتنة حين يركب المختلفون مراكب الهوى ، ويستجيبون لدواعى النوازع الشخصية ، والدوافع الذاتية . .

وهيهات ألا يكون لهذه النوازع الشخصية ، وتلك الدوافع الذاتية دور فى أية مشكلة تعرض للناس .

والشريعة الإسلامية حين دخلت معركة الحياة مع الناس لتقيمهم على طريق الحق . وتأخذ بهم إلى سبل الخير ثار حولها كثير من غبار المعركة ودخانها فعميت على كثير من الناس سبيلها ، أو شوهت فى أنظارهم معالمها . وتخطى بعضهم رقاب بعض ، بل وقتل بعضهم بعضا باسمها ، تحت رايتها . .

لهذا كانت تلك النظرة الظالمة للشريعة الإسلامية من غير المسلمين، ومن بعض المسلمين حين يضيفون إليها هذه الخلافات والفتن والحروب التى قامت بين المسلمين باسم الدين . . تحت رايته !

ولهذا أيضا قامت دعاوى باطلة تدّعى على الإسلام أنه ليس شريعة الحياة ، وأن بينه وبين الحياة حواجز لا يمكن أن يتخطاها الناس إليه إلا إذا تخطفتهم مخالب الفتن ، وألقت بهم فى مكان سحيق ! أو إلا إذا تركوا دينهم وخلوا عقولهم وقلوبهم .

يقول « جرونيباوم » :

« أخفق القانون السماوى — يقصد الشريعة الإسلامية — لأنه أهمل عامل التغير الذى أخضع الله له مخلوقاته !

« وعندما كانت النظرية القانونية تضطر إلى أن تحسب لهذا العنصر حسابه. فإنها كانت تنجح فى الوصول إلى تسوية عملية قابلة للتنفيذ . ولكن كان ذلك يتم بتخليها — من غير تنبه منها ! — عن ذلك الحلم العظيم الذى يتخيل هيئة

اجتماعية تعمل على الدوام على وفق قانون ثابت أوحاه الله عند اكتمال الزمان!»[١]

وليس هذا الإخفاق الذى يرمى به « جرونيباوم » الشريعة الإسلامية — عن قصور فى هذه الشريعة ولا عن عجز فى تلبية مطالب الحياة المتجددة المتغيرة.

فالقانون السماوى الذى وضعه الله لعباده عند اكتمال الزمان — كما يقول الكاتب — ليس إلا خمائر، يستولد الناس من عناصرها الغذاء الروحى والمادى للجسد الاجتماعى والسياسى الذى يعيش فيه المسلمون.

فليس هذا الذى حدث فى المجتمع الإسلامى من صدام بين الدين والدنيا عن نقص فى التشريعة . إزاء مطالب الحياة حتى يتفلت الناس منها هذا التفلت، وحتى تتسع مسافة الخلف بينهما — وإنما ذلك لانحراف المنحرفين من طلاب الجاه والسلطان الذين يريدون الحياة كلها دنيا عاجلة، بينما يريد الإسلام حياة ممتدة للإنسان، تجمع له سلامة الدنيا، وسيادة الآخرة . . !

ثم ينظر « جرونيباوم » نظرة خاصة إلى هذا الصراع الحاد العنيف الذى وقع فى المجتمع الإسلامى بسبب « الخلافة » فيرى فى هذا الصراع شاهداً آخر يستدعيه ليشهد له على دعواه تلك، التى يدعيها على الإسلام، من أنه ليس دين حياة، أو بمعنى آخر . . ليس دينا يجمع لمجتمعه بين الحياة الروحية والحياة المادية جميعاً . .

يقول :

« لم يكن التناقض بين الأحلام المثالية للمشرعين وواقع الحياة أصرح، ولا أحرج لشعور المجتمع فى أى موضع — منه فى محيط التنظيم السياسى . . !

« فليس بين مظاهر الحياة الإسلامية مظهر أصرح دلالة على فشل المسلمين المستتر وراء الأبهة والجلال من إخفاقهم فى إقامة التوازن بين الآمال والأعمال . . إذ عجزوا عن القيام — فى قدر معقول من الكفاية — بوضع دستور بالمبادىء التى أنزلها الوحى فى شأن الدولة، والتى اشتد تلهف المشرعين إليها، وتعقبوها تعقبا لا يمت إلى الواقع بأدنى سبب.

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٨٥

« ولكن الأمر تناهى إلى أن صارت شقة الخلف بين الواقعى والمثالى شيئا مضحكا ، وغير مطاق ، ويوجب اطراح المثالى دون الاحتفاظ بشيء إلا بقية يسيرة يتعلل بها ضمير المجتمع، الذى ظل على رأيه بأنه مجتمع الله[١] ».

ولاشك أن لهذا القول مستندًا من ظاهر الحال الذى وقع فيه الخلاف بين المسلمين فى شأن « الخلافة » من أول يومها ، إلى أن سقط آخر سلاطين آل عثمان !

ولكن من الظلم ، وربما عن جهل بطبيعة هذا الدين — أن تحسب عليه كل هذه الخلافات ، وأن يسقط من هذا الحساب الدور الذى كان لملابسات الظروف وواقعات الأحوال فى هذا الأمر . .

والحلقة المفرغة التى يدور فيها « جرونيباوم » والتى دفعت به إلى أخذ هذا الموقف من التشريع الإسلامى هى انه — تحت تأثره بالديانة المسيحية — يرى الإسلام مجرد عقيدة روحية لا تعمل فى مجال الحياة المادية أبدا . فإذا أريد لها أن تعمل فى هذا المجال تعثرت ، وتعثر المتعلقون بها .

فها هو ذا يصرح بذلك فى غير لَبْس أو خفاء . . يقول :

« وقد حاول المسلمون فى حدود ماقضت به أحداث التاريخ أن يبنوا لأنفسهم حياة فى كنف الله أكثر مما تقوم فى الله نفسه »

يريد أن يأخذ على المسلمين انحرافهم بالشريعة إلى الحياة المادية وإجرائها معهم فى مجال السياسة ، والاجتماع — وكان من حق الشريعة عليهم — حسب تصوره — أن تظل بعيدة عن هذا المعترك ، وأن يتعاملوا بها فى مجال الروح ، وفى الاتجاه بهم إلى ملكوت السماء !

ثم يقول :

« وعلى الرغم من كثرة ما نقلوا — يريد المسلمين — من قوانين البلاد

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٩٨

التى فتحوها ، فقد ظل الفقه من حيث أسلوبه أصيلا أصالة عميقة . . وراح المسلم يجابه تقلبات الزمن — محتميا وراء شريعته — مجابهة كللت بالنجاح !

«ولكن من دواعى الأسف ! — أن الشىء الكثير من نجاحه الدنيوى ، ومن رسوخ قدمه فى هذا العالم إنما يرجع إلى استعداده للتوفيق ، والتراضى بادخاله الحقائق المتغيرة لهذه الحياة فى حقيقة الوحى الثابتة !(١) » .

وماذا نقول للردّ على هذا ؟ لقد قلنا كثيرا ، حتى لقد أصبح القول فى هذا ثقيلا مملولا !

إن حقائق الوحى الثابتة ليس معنى ثبوتها هذا أنها مغلقة صلدة ، لا تنضح بشىء . . وكلاّ ، فإنها مع ثبوتها ، ورسوخها تتفجر منها ينابيع عذبة صافية كما تتدفق عيون الماء من بطون الجبال الشامخة الراسخة !

ولا ندع « جرونيباوم » حتى نستمع إلى قوله :

« ولا ريب أن إرادة الله كانت متجلية فى تغير مجتمعه !

« ومع ذلك ، فإن النكوص عن المعايير التى استُنّت فى عصر النبى كان سطوى على التدهور ، والإخفاق !

« ولا يزال هذا الإخفاق قائماً إلى يومنا هذا !

« فالمسلم يعيش فى كنف قانونين : أحدهما أبدىّ يُطبق عليه بحكم اعتناقه الإسلام ، والآخر قابل للنقض عرضة للتعديل . . وهى وسيلة لجأ المسلمون إليها لمعالجة مشكلات ، والحدّ من آثام اقتضاها وجودٌ فيه نكوص ، وتراجع عن علاجه »(٢) .

ويظهر من هذا القول أن الإسلام فى أعلى منازله كان لفترة النبوة وحدها ، وأن المجتمع الذى قام فى هذه الفترة لن يخلفه مجتمع يلبس من الإسلام الثوب الذى لبسه فى عصر النبوة !

---

(١) حضارة الاسلام ص ١٩٧

(٢) حضارة الإسلام ص ١٨٥ .

وهذا صحيح ، ولكن ليس من معناه أن الإسلام الذى وسع المجتمع الإسلامى الأول ضاق بالمجتمعات التى خلفت هذا المجتمع ، وإنما كان الناس مع الإسلام فى ظل نبوة فى المجتمع الأول . . وكان من الطبيعى أن يتغير وضع الناس من الإسلام شيئاً بعد النبى . . ولم يكن هذا الوضع خروجاً على الإسلام ، وإنما كان هو الوضع الذى تتجه إليه الحياة فى صحبة الإسلام . . ولكن من غير النبى !

* * *

فى معركة الخلافة

يقول الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل :

«أعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة .. إذا ما سُلَّ سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلَّ على الإمامة فى كل زمان » (١) .

وطبيعى أن تكون الإمامة أو الخلافة مثاراً لهذا الخلاف الطويل العنيف الذى دار حولها .

وذلك لأن منصب الخلافة أو الإمامة منصب خطير . له جلاله ، وله إغراؤه أيضاً !

هو منصب استظل بالدين من أول يومه . فكان له فى الناس ، وعلى الناس — سلطانان : سلطان الدين ، وسلطان الدنيا . . سلطان الروح ، وسلطان المادة . .

والناس دائماً أبداً مفتونون بالسلطان . أى سلطان يسعون إليه ، ويقتتلون من أجله .

ولو لم تكن الخلافة خلافة على هذا النحو الذى ظهرت به متحككة بالدين ، وكانت سلطانا دنيوياً محضاً : لكان الخلاف فيها ، والإغراء بها ، والتهالك عليها ، والقتال من أجلها أشدّ وطأة ، وأقل حدّة . . ولكنها وقد

(١) الملل والنحل جزء أول ص ١٦ .

لبست ثوب الدين أصبحت أكثر من سلطان ، وأشهى من مجرد حكم . . إنها حينئذ سلطان لا حد له . . يخضع له كيان الإنسان جميعه . . ظاهره وباطنه . . روحه وجسده . .

فكان الطلب لها أشد ، والرغبة فيها أقوى ، والتقاتل عليها أعنف وأمرّ . .

فمن لم يطلبها للدين طلبها للدنيا ، ولم يردها للدنيا أرادها للدين . . أو للدين والدنيا معاً . .

ومن لم يقاتل عليها تحت راية الدين قاتل عليها بطلاّب الدنيا ، ومن لم يقاتل عليها بأهل الدنيا قاتل عليها بأصحاب الدين . . أو بأصحاب الدين وطلاب الدنيا معاً . .

من أجل هذا لم يكن من غير الطبيعي أن يدور هذا الصراع المرير الطويل حول « الخلافة » وأن يقع هذا الذى وقع من أحداث بين المسلمين من أجلها . . والذى يبدو غـــير طبيعى هنا أن تسلم الخلافة — وهذا مقامها — من هذا الخلاف ، وأن تصحب الناس على معافاة من الفرقة والاختلاف !

يقول « جرونيباوم » :

« وعلى الرغم من كل هذا — أى التصدع الذى أصاب المجتمع الإسلامى بسبب الخلافة — فلا يزال يبدو أن المسلمين لم يستميتوا فى التعلق بأية مسألة قدر ما تعلقوا بفكرتهم الجوهرية وانخداعهم فى أمر الخلافة !

« وكذلك لم يقدّر للمؤمنين أن يلقوْا من خيبة الأمل المريرة ، ولا اضطروا إلى الاعتراف بالهزيمة اعترافاً أصرح ، وأحط للكرامة ، مما لقوا فى ذلك الموضوع » (١)

ولا شك أن فى هذا القول مبالغة بالغة . . وإنه على الرغم من التصدعات

---

(١) حضارة الإسلام صـ ٢١٥

العنيفة التى وقعت فى المجتمع الإسلامى ، والدماء الغزيرة التى أريقت بسبب الخلافة — لا يعد شيئا إلى المآسى المفجعة التى حدثت فى أوربا بسبب الاضطهاد الدينى ،وما حدث بين الكنيستين الشرقية والغربية من صراع أدى إلى هذه المجازر التى لم يشهد التاريخ لها مثيلا فى القسوة والفظاعة . .

ما الحكم الذى يرضى الناس ؟

هذا سؤال من العسير أن يجد الجواب عليه فيما عرف الناس من صور الحكم وأشكاله ، عند جميع الأمم ، وفى مختلف الأزمان . . بل إننا لا نجد الجواب الذى نستريح إليه حتى فى تلك الحكومات الوهمية التى أقامها الفلاسفة فى المدن الفاضلة التى صوروا مجتمعاتها ، وأنظمتها حسبما رأوا أنه بالغ بهم الكمال فى الحكم الذى عز أن يجدوه فى واقع الحياة .

لقد جرب الناس الحكم فى جميع أشكاله وصوره ، فما استراحوا لنوع من الحكم ، ولا رضوا عنه الرضا الذى يمسك به بينهم ، ويطيل مقامه فيهم . . وغاية ما يُطمح فيه من رضا الناس عن أعدل حكم وأمثله هو أن ترجح كفة الرضا عنه عن كفة السخط عليه .

فالحكومة التى تجمع فى حصيلتها من دلائل الرضا أكثر من أمارات السخط هى خير الحكومات ، وأرشدها ، وأصلحها .

أما أن توجد فى الحياة حكومة يرضى الناس عنها رضى مطلقا مستمراً فذلك أمر أكبر من أن تلده الحياة !

ونسأل :

هذه قوانين السماء ، وشرائعها . . فأى قانون منها ، أو أى شريعة من شرائعها رضى الناس جميعا بها ؟ واستراحوا لها ؟ وخضعوا لسلطانها ؟

فكيف بالقوانين والشرائع الوضعية الممسوسة بنزعات الناس ، والمتلبسة بأهوائهم؟ كيف بهذه القوانين أن ترضى الناس جميعاً ، وتدخل إلى قلوبهم جميعاً؟

ثم إن فى الناس نزعة طبيعية إلى مجاذبة السلطان ومنازعته ، والتماس السقطات له ، وإقامة العثرات فى طريقه ، بدافع الحسد المركب فى طبيعة الناس لمن هو فوقهم ، ولكل ذى نعمة بينهم .. وليس كنعمة الجاه والسلطان نعمة فى عين من لم يكن فى أصحاب الجاه والسلطان !

إن صاحب السلطان هو بموضع أنظار الناس جميعاً ، تأخذه العيون من كل جانب ، وتقلبه الآراء فى كل حين ، فهو على يد النقد والفحص دائما .. وهيهات أن يسلم إنسان من عيب ، أو يخلو من ضعف !

فالحاكم — وشأنه كذلك — لا تخفى عيوبه ، ولا تستر أحواله .. بل إن صغير عيوبه ليبدو كبيرا ، ومالا يؤبه له عند الناس من زلل يرونه فى جانب الحاكم جرما شنيعا ، وإثماً مبينا .

ثم إن الحاكم — من جهة ثالثة — هو القائم على الناس ، والآخذ على أيدى العصاة والخارجين على القانون منهم ، وهو بهذا الوجه بغيض إلى طائفة كبيرة من الناس ، من شأنها العوج والانحراف ، ومن شأنها مع هذا العوج والانحراف ألا تدين نفسها ، وألا تنصف الحاكم فيما قضى به عليها .. هكذا الناس

ما يدخل السجنَ إنسانٌ فتسأله ما بال سجنك ؟ إلا قال مظلوم !

أما أهل الجد والاستقامة فأكثر أحوالهم أنه لا يعنيهم من السلطان إلا أنهم سلموا من يده ، وليس عليهم بعد ذلك من أمره شيء .. إن سلقته الألسنة أو أكله الناس .

إنْ نصف الناس أعداءٌ لمن وُلِّيَ الحكم .. هذا إن عدل

فكيف بالحاكم إذا كان باغياً ظالما ؟ وكيف بالحكومة إذا قامت على القهر والجور ؟

إن وجه الحاكم أياً كان من الاستقامة والجدّ والعدل — بغيض .. تكرهه الناس ، لأنهم يكرهون كل ذى سلطان !

وحسبك أن تذكر هنا أن الخليفة الراشد « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه يموت مقتولا بيد آثمة ، معتدية ظالمة .. وكذلك الخليفتين الراشدين من بعده — عثمان وعلى — رضى الله عنهما ! . يموتان مقتولين بيد البغى والعدوان ! ! .

وربما لو طال الزمن بخلافة الخليفة الأول أبى بكر ، رضى الله عنه ، لكان مصيره مصيرهم ، ولكان حسابه هذا الحساب الظالم فى الحياة ! ولكان الأربعة الراشدون جميعاً قَتْلَىَ .. فى نسق واحد .. وليس بالقليل أن يستشهد ثلاثة من أربعة !

يقول الدكتور طه حسين — بعد أن استعرض طرائق الحكم :

«سلكت الإنسانية فى سبيل الحكم الصالح كل هذه الطرق ، وجربت كل هذه النظم ، فلم تنتــــه إلى غاية .. وما زالت تشكو الظلم والجور ، وتضيق بالاستذلال والاستغلال ، وتبحث عن النظام القويم الذى يضمن للناس الحرية والعدل جميعاً .

« وهذا النظام القديم هو الذى حاولت الخلافة الإسلامية لعهد أبى بكر وعمر أن تنشئه .. فمات أبو بكر — رحمه الله — ولم يكد يبدأ التجربة ، ولو قد عمّر عمر . رحمه الله ، وقد خطا بالحربة خطوات واسعة ولكنه لم يرض عنها .. فقد روى أنه كان يقول فى آخر خلافته : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء » .

« فقد رأى عمر إذن أنه لم يبلغ من تحقيق العدل الاجتماعى ما كان يريد .

«فكيف ، ولم يعرف المسلمون ، ولا غير المسلمين أميراً حاول من العدل ما حاول عمر ، وحقق من العدل ما حقق عمر »[1] .

---

(١) الفتنة الكبرى ص ٧ .

ويقول محمد بن عليّ بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى فى كتابه : « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » :

« وما أكثر ما رأينا الرعية والجند قد وثبوا على ملوكهم ، فسلبوهم رداء المملكة ، بل رداء الحياة . فابتدئ بعمر بن الخطاب ، وقد وثب عليه «أبو لؤلؤة» عبد « المغيرة بن شعبة » فقتله . . وثنّ بعثمان ابن عفان رضى الله عنه ، وانظر كيف اجتمع عليه رعيته من كل جانب . فحاصروه فى داره أياماً ، ثم دخلوا عليه فقتلوه ، والمصحف فى حجره ، حتى قطرت قطرات من دمه على المصحف .. ثم ثلّث بعليّ بن أبى طالب عليه السلام ، وقد ضربه عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله ، بسيفه على أم رأسه بالكوفة ، فقتله ! »[1] .

إن « الحاكم » أيّاً كان من العدل ، والاستقامة ، وسلامة القصد لن يبلغ من المحكومين موضع الرضا المطلق . فذلك غاية لا تدرك . وخير الأحوال فيه — كما قلنا — أن تتعادل كفتا الرضا والسخط فى ميزان حكمه ، وأحسن من هذا أن ترجح كفة الرضا على كفة السخط .. إما أن يحوز رضى الناس كلهم فذلك مالا ينال أبداً ..

التجربة الأولى فى الإسلام :

كان لابد للمجتمع الإسلامى بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، من قائد يقوده ، ويمسك زمامه ، وإلا تبدد نظام هذا العقد الذى أحكم النبي الكريم نظمه ، ووثق عقده .

ولقد كان هذا الفراغ الكبير المخيف الذى أحس به المسلمون منذ اللحظة الأولى التى أخلى الرسول فيها مكانه من هذه الدنيا — كان هذا الفراغ الكبير المخيف داعياً ملحاحاً ، وصارخاً بليل يدعو المسلمين إلى عمل ما ، ويصرخ فيهم منذراً ليخرجوا من هذه الحال بأية حيلة أو وسيلة ، قبل أن يغرقهم هذا السكون الرهيب ، وقبل أن يخنقهم هذا الصمت المطبق !

(١) الفخرى — لابن طباطبا ص ١٤ .

أرأيت إلى ذلك الماء الكثير الغزير المتجمع خلف سد عظيم . . ثم أرأيت إلى ذلك السدّ وقد زايل موضعه على حين كان الناس منه فى أمن ، وفى عافية ؟

ماذا يكون إحساس الواقفين أمام ذلك الحدث ؟ وماذا يكون موقفهم إزاء هذا الهول العظيم ؟

بهذا الإحساس استقبل المسلمون الحياة منذ اللحظة التى نعى إليهم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان لنا أن نأخذ من هذا المثل شبهاً له من واقع الحياة ، فإن لنا أن نقول : إن عرب الجزيرة العربية كلها يمثلون المـاء الواقع وراء السد ، بينما أهل المدينة من صحابة رسول الله من المهاجرين والأنصار يمثلون الجماعة الواقفة أمام السد !

وقد أراد أهل المدينة من المهاجرين والأنصار أن يعملوا عملا ، وأن يقيموا حاجزا ما ، إن لم يقف فى وجه هذا التيار العنيف ، فلا أقل من أن يكسر من حدته ، ويخفف من ويلاته .

ولهذا بادر الأنصار إلى هذا الاجتماع التاريخى المعروف فى سقيفة بنى ساعدة ، وجسد الرسول الكريم ما يزال مسجّى لم يدفن بعد ! اجتمعوا فى هذه اللحظة ليختاروا الرجل الذى يقوم مقام الرسول فيهم ، وليدفع شيئاً من هذا الخطر الذى استشعروا دنوه منهم . . بعد موت النبى .

وهنا سؤال يقتضيه الحال :

لمـاذا كان الأنصار أسرع من المهاجرين فى الدعوة إلى هذا الأمر ؟ والجواب فيما يبدو لى — أن الأنصار — وقد رفع الله قدرهم بالإسلام ، وبهجرة الرسول إليهم ، وبجعل مدينتهم مركز الدعوة الإسلامية ، وحاضرة المجتمع الإسلامى — أحسوا إحساساً مضاعفاً بهذه الحالة التى وحدها المسلمون بعد وفاة النبى ، فهم قد فقدوا مصدر المدد الروحى الذى كانوا يجدونه فى حياة الرسول ، شأنهم فى هذا شأن المسلمين من المهاجرين وغيرهم ، وأوشكوا أن

يفقدوا أيضاً هذه المنزلة التى صاروا إليها بهجرة النبى إليهم واتخاذ مدينتهم مركزاً للدعوة الإسلامية !

لقدكان الأنصار بهذا الفضل الذى ساقه الله إليهم، حين آوى الإسلام إلى موطنهم، وهاجر النبى إلى مدينتهم — كانوا يعيشون فى ظل هذه النعم المضاعفة ، وهم لهذا كانوا أحرص الناس على أن تدوم هذه الحال ، أو تطول إلى أبعد مدى .. ولكن هيهات أن يدوم حال ، أو يجاوز أمر المدى الذى يبلغ فيه الكتاب أجله.

يحدّث صاحب « الإمامة السياسة » عن المشاعر التى كانت تجيش فى صدور الناس أثناء مرض الرسول . . فيقول :

« اجتمع الأنصار على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مرض موته .. وسمع رسول الله بكاءهم . . فقال : من هؤلاء ؟ فقيل له : الأنصار . رضى الله عنهم — يبكون . . ! فخرج صلى الله عليه وسلم متوكئاً على « علىّ » و « العباس » — رضى الله عنهما — فدخل المسجد ، واجتمع الناس إليه فقال صلى الله عليه وسلم : « إنه لم يمت نبى قط إلا خلّف وراءه تركة ، وإن تركتى فيكم الأنصار . . وهم كَرِشى التى آوى إليها .. أوصيكم بتقوى الله تعالى ، والإحسان إليهم .. فقد علمتم أنهم شاطروكم وواسوكم فى العسر واليسر ، وناصروكم فى النشاط والكسل .. فاعرفوا لهم حقهم ، واقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم »[١] .

إن المهاجرين — ومعظمهم من قريش — وهم أهل بيت النبى ، ولهمْ بهذا النسب فضل لا ينكره أحد ، ثم هم أبناء قريش ، ولقريش المكانة الأولى . عند العرب جميعاً .. وليس كذلك شأن الأنصار .. فالفضل الذى ساقه الله إليهم، والمنزلة التى رفعهم اليها إنما يحتاج إلى تنبيه الناس إليه، وأخذ اعترافهم به.

لهذا سبق الأنصار إلى هذا الاجتماع فى سقيفة بنى ساعدة ليثبتوا وضعهم الذى هم فيه ، قبل أن يزحزحوا عنه ، ويخرجوا منه .

---

(١) الإمامة والسياسة ص ٣ .

وعلى أى فقد تنبه المهاجرون إلى هذا الاجتماع ، ولم يروا أن يقوموا باجتماع مضاده أو مماثل ، لأن أمر المسلمين إلى تلك اللحظة واحد .. وبعيد عن تفكير الناس فى هذه اللحظة أن يكون المسلمون فريقين أو أكثر من فريقين !

في « بوتقة » التجربة :

يعتبر اجتماع السقيفة حدثاهاما من أحداث التاريخ . . سواء فى الناحية الدينية ، أو الناحية السياسية . .

فلأول مرة فى تاريخ الإسلام يواجه المسلمون حالا كهذه التى هم فيها . . مجتمعا إسلامياً من غير النبي !

ولأول مرة فى تاريخ الأمة العربية يطلب لها من يقوم عليها غير النبي !

فما أعطى مسلم فى هذا المجتمع الذى شهد هذه التجربة — ولاءه لغير النبي.

وما أعطت قبائل العرب مجتمعة ولاء ها لغير النبي !

ومطلوب فى هذه التجربة التى اجتمع لها صحابة رسول الله من المهاجرين والأنصار — مطلوب من المسلمين فى الجزيرة العربية كلها أن يعطوا ولاءهم الدينى والسياسى لرجل منهم . . ليس بنبي ، ولا رسول !

الولاء الدينى والولاء السياسى كانا معاً فى هذه اللحظة بالذات قائمين فى شعور المسلمين وتفكيرهم . . جنباً إلى جنب .. بل لقد كان هذا الولاء ولاءً عامّاً يشمل حياة الإنسان بجانبيها الروحى والمادى جميعاً . فالمسلم مسلم نفسه تسليما مطلقا للنبي . . « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم »[١] .

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرة من أمرهم »[٢] .

الولاء الدينى وأثره فى التجربة :

وإذا كان قد اتسع مجال النظر بعد مرور هـــذه اللحظة لمعاودة النظر فى الولاء الدينى ، وطبيعة هذا الولاء . . وإذا بدا للناس بعد هذا أن يسألوا :

---

(١) سورة الأحزاب آية ٦
(٢) سورة الأحزاب آية ٣٦

لمن يكون ولاءهم الدينى هذا بعد الرسول ؟ أم أن هذا الولاء يمسكه المسلم فى صدره ، ويضيفه إلى ماعنده من ولاء لله ؟

إذا كان هذا القول مقولا به أو بغيره وبعد فترة من الزمن فإنه لم يكن بهذا المفهوم الواضح بعد وفاة النبي ، أو للأيام الأولى — على الأقل — بعد وفاته .

إن المسلمين ، أو أكثر المسلمين — يومئذ — كانوا فى عجز تام عن أن يمسكوا هذا الولاء الذى كان منذ ساعات منطلقا من صدورهم إلى الرسول . . ولو استطاعوا أن يمسكوه لما وسعته صدورهم التى لم تتهيأ بعد لاستقباله ، والتى لم تفسح له مكانا فيها . . فكان لابد والأمر كذلك أن يتجه الناس بهذا الولاء إلى جهة ما . . إلى إنسان يضفون عليه مشاعر خاصة ترفعه فى أعينهم إلى حيث لايجدون حرجا فى أن يوجهوا إليه هذا الولاء !

وأنت ترى من هذا أن هذا العنصر — وأعنى الولاء الدينى — كان قلقاً مائجاً ، يضطرب فى بوتقة التجربة . . كان إحساس الناس به غامضاً ، وكان تفاعله فى هذه التجربة غامضاً كذلك ! فجاء اللون الذى اصطبغ به الثوب الذى لبسه « الخليفة » لونا مختلطا لاتكاد تعرف صفته .

الولاء السياسي ومكانه فى التجربة :

أما العنصر السياسى فكان أمره أوضح وشأنه أصرح من العنصر الدينى .

إذ كان لابد للناس — بعد النبي — من حاكم ، ولا بد لهم من حكومة ، تحفظ الأمن ، وتقيم موازين العدل بينهم . .

وإذا كان العنصر السياسى على شىء من الوضوح عند المجتمع الإسلامى يومئذ ، فإنه وضوح يشوبه كثير من الغموض . . ذلك أنه لم يكن للعرب سابقة فى تنظيم سياسى على نحو ماعرف عند الدولتين المجاورتين لهم من الفرس والروم . . ولم تكن لهم سابقة حياة اجتماعية موحدة فى مثل هذا المجتمع الكبير الذى يضم القبائل العربية كلها ، ويضم إليها أعدادا كثيرة ممن دخلوا فى الدين الإسلامى من غير العرب .

يقول صاحب « حضارة الإسلام » :

«كان الطراز الوحيد من الحاكم الذى عرفه العربى فى بلاده هو السيد — أى رئيس القبيلة — ، وقد يكون زعيم مجموعة من القبائل . . وكان السيد يحتفظ بهذه المكانة بفضل نفوذه الشخصى ، الذى يرجع إلى عراقة أصله ، ولكنه يرجع بوجه أخص إلى صفاته الأخرى من قيادة ، وكرم ، وقدرة على معاملة الناس .

« ولم يكن للسيد سلطان على حمل الناس على طاعة أوامره ، وقد يصبح فى بعض الأحايين صلفاً متكبرا ،ولكن على وجه العموم لم تكن امتيازاته لتخرجه عما بينه وبين سائر أفراد القبيلة من مساواة جوهرية . . كان بابه مفتوحا للجميع ، والوصول إليه سهلا ، ولم تكن تُضرب حوله أية مراسيم لتحميه أو تصون مكانته ، ولا يخلفه وريثه إلا إذا كانت كفايته تزكيه [1] » .

وهذا المفهوم للحاكم السياسى هو الذى دخل به المجتمعون فى سقيفة بنى ساعدهم ، هذا الاجتماع ،وهو الذى ارتفع لخيالهم وهم ينظرون إلى الحاكم الذين يقيمونه من بينهم ، ليخلف النبي عليهم ، فى هذا الجانب من جوانب الحيـاة .

وطبيعى أن نظر المجتمعين فى هذا « المؤتمر » لم يكن موزعا هذا التوزيع على تلك الصورة التى أشرنا « إليها » فلم يكن الذين شهدوا هذا الاجتماع ينظرون إلى الرجل الذى ستضعه الأقدار على رأس المجتمع الإسلامى هاتين النظرتين معاً . . نظرة الجانب الدينى منه ، ونظرة إلى جانبه السياسى . . وإنما هى نظرة واحدة يبدو فيها هذا الشخص فى صورة تجمع بين ملامح من النبىّ ، وبين شيخ القبيلة الذى سيكتسى من هذه الملامح النبوية عظمة وجلالاً . .

غليان فى « البوتقة » :

وهذا المشهدالعظيم الذىاجتمع لهالمسلمون فى سقيفة بنى ساعدة لم يكن الذين

(١) الحضارة الإسلام ١٩٩

شهدوه بمحضر من عقولهم وقلوبهم ، فقد شهده من شهده بعقل شتيب ، وقلب منصدع مضطرب ، لهذا الحدث الحلل الذى نزل بالمسلمين من وفاه الرسول . .

إن الكلمات التى جرت على الألسنة يومذاك كانت ، أشبه بالأصداء ، تتردد فى صدع جبل ، فى يوم عاصف . . !

لقد سعى الناس إلى هذا الاجتماع بغير وعى أو تدبير . . يسوقهم إليه سائق خفى . . يلوّح لهم بالخطر المطل عليهم،فلا يجدون من دافع له إلا أن يلوذ بعضهم ببعض، لينسوا فى هذا الزحام بعض ماهم فيه . وليأخذ بعضهم بيد بعض فيسلموا جميعاً أو يغرقوا جميعا . . فى هذا الاجتماع .

والصرخات العالية التى انطلقت من الأفواه إذ ذاك : ليست فى حقيقتها إلا استدعاء لهذه الطمأنينة التى ذهبت بها وحشة هذا السكون المطبق،الذى انعقد فى جو المدينة ، وأشاع فى النفوس هذا الهول الرهيب !

ولقد ضبط التاريخ بعضاً من هذه الكلمات التى انطلقت فى هذا اليوم : فى اجتماع السقيفة . . ولانشك فى أن كلاما كثيرا قد ذهب فى زمزمة هذا الاعصار العنيف ، وأن ما حفظه التاريخ ليس إلا الكلمات التى تمثل وجهات النظر التى تحددت ووضحت ، بعد أن خاض الناس فى تيارات متدافعة من الآراء التى تمثل وجهات نظر متباعدة أشد البعد . . بعضها للدين ، وبعضها للدنيا ، وجانب منها ذاتى شخصى ، وجانب آخر قبلى أو طائفى .

وعلى أى فإن فى القدر القليل الذى بقى ليد التاريخ من هذه الآراء ، يكفى إلى حد ما فى الاستدلال على المفاهيم التى قامت عليها الخلافة . . كما يدل إلى حد ما أيضا على تلك الاعتبارات التى رجحت بها كفة إحدى الطائفتين المتنازعين على الخلافة . .

حدّث ابن سحق قال :

« لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم انحاز هذا الحىّ من الأنصار إلى « سعد بن عبادة » فى سقيفة بنى ساعدة ، واعتزل على بن أبى طالب » والزبير

ابن العوام ، « وطلحة بن عبيد الله » في بيت فاطمة ، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر ، وانحاز معهم « أسيد بن حضير » في بني عبد الأشهل . .

« فأتى آتٍ إلى أبي بكر وعمر ، فقال : إن هذا الحي من الأنصار مع « سعد بن عبادة » في سقيفة بني ساعدة ، قد انحازوا إليه . . فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوا الناس قبل أن يتفاقم أمرهم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يُفرغ من أمره . . أغلق دونه الباب أهله .

قال عمر : فقلت لأبي بكر انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار ، حتى ننظر ماهم عليه . .

من حجج الأنصار :

وكان مما قاله من تكلم بلسان الأنصار يومئذ :

« أما بعد ، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يامعشر المهاجرين رهط ، وقد دفتّ دافة[1] منكم تريد أن تختزلونا[2] من أصلنا ، وتحضنونا[3] من الأمر » .

من حجج المهاجرين :

وكان لسانَ المهاجرين يومئذ أبو بكر رضي الله عنه . . وإنه حين سمع ما سمع من كلام الأنصار أراد عمر أن يرد عليهم ، فقال له أبو بكر على رِسْلِك ياعمر . . ثم خطب في الناس ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« بعث الله نبيه بالهدى ودين الحق ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام . فأخذ الله بقلوبنا ونواصينا إلى مادعا إليه ، فكنا — معشر المهاجرين — أول الناس إسلاماً ، ونحن عشيرته ، وأقاربه ، وذوو رحمه . . ونحن أهل الخلافة ،

---

(١) دفت داف : أي دب في حماه .
(٢) يختزلونا : تقطعونا :
(٣) أي تضموننا إليكم وتسكونون مكان الأوصياء علينا .

وأوسط الناس أنسابا فى العرب ، ولدتنا العرب كلها ، فليس فى العرب قبيلة إلا لقريش فيها ولادة ، ولن تصلح — الخلافة — إلا لرجل من قريش .. هم أصبح الناس وجوها ، وأسلطهم ألسنة ، وأفضلهم قولا ، فالناس لقريش تبع .. أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى الكتاب عليكم فقال تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين الأنصار »[1] فنحن الأمراء وأنتم الوزراء .. وانتم يامعشر الأنصار إخواننا فى كتاب الله ، وشركاؤنا فى دين الله تعالى ، وأحب الناس إلينا ، وأنتم الذين آووا ونصروا ، وأنتم أحق الناس بالرضا بقضاء الله تعالى ، والتسليم لفضيلة إخوانكم من المهاجرين ، وأحق الناس ألا تحسدوهم على خير أتاهم الله إياه .. وقد رضيتُ لكم أحدَ هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم ، ثم أخذ بيد عمر ، وأبى عبيدة بن الجراح .. »

مراجعة واعتراض من الأنصار :

فقال قائل الأنصار : « والله ما نحسدكم على خير ساقه الله إليكم ، وما أحد من خلق الله أحبّ إلينا ، ولا أعزّ علينا ، ولا أرضى عندنا منكم .. ونحن نشفق مما بعد اليوم .. فلو جعلتم اليوم رجلا منكم ، فإذا هلك اخترنا رجلا من الأنصار فجعلناه مكانه أبداً ، كان ذلك أجدر أن يشفق القرشى إن زاغ أن ينقض عليه الأنصارى ، وأن يشفق الأنصارى إن زاغ أن ينقض عليه القرشى »!

عمر يرد :

فقام عمر فقال : « لا ينبغى هذا الأمر ولا يصلح إلا لرجل من قريش ! ولن ترضى العرب إلا به . ولن تُعرف الإمارة إلا له .. والله ما يخالفنا أحد إلا قتلناه » !

الأنصار ترد :

فقام الحباب بن المنذر السُّلَمىّ فقال : منا أمير ومنكم أمير ..

(١) سورة توبه آيه ١٠٠

فقال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — : هيهات .. لا يجتمع سيفان فى غمدٍ !

فقال الحباب : والله لأعيدنّها جذَعة ! !

فقال عمر : إذن يقتلك الله !

فقال الحباب : إياك يقتل !

الأنصار يلتقون بالمهاجرين :

وحين بلغ الأمر إلى هذا الحدّ من الخلاف والفرقة فى الرأى قام « بشير بن سعد الأنصارى » فقال : يا معشر الأنصار .. أما والله لئن كنا أولى الفضيلة فى جهاد المشركين ، والسابقة فى الدين ، ما أردنا — إن شاء الله — غير رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والكرامة لأنفسنا ، وما ينبغى أن نستطيل بذلك على الناس ولا نبتغى به عَرَضاً من الدنيا ، فإن الله تعالى ولىّ النعمة والمنة علينا بذلك .

ثم إن « محمدا » رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من قريش ، وقومه أحق بميراثه ، وتولى سلطانه ! » .

انحسار الفتنة :

قال ابن إسحق : « فكثر القول حتى كاد يكون بينهم فى السقيفة حرب .. وتوعّد بعضهم بعضاً ! ثم ترادّ المسلمون ، وعصم الله لهم دينهم ، فرجعوا بأمر حسن ، فسلموا الأمر وأغضبوا الشيطان !

مولد الخلافة :

قال : فوثب عمر فأخذ بيد أبى بكر ، وقام أسيد بن الحضير ، أخو بنى عبد الأشهل ، وبشير بن سعد — الأنصاريان — يسبقان ليبايعا فسبقهما عمر ، فبايعوا معاً .. وسعد بن عبادة مضطجع متوعّك ، فازدحم الناس على بيعة

أبى بكر ، فقال قائل من الأنصار : اتقوا سعد بن عبادة ، ولا تطئوه ، فقال عمر : اقتلوه ؛ قتله الله ! »[1] .

لقد أذن فى تلك اللحظة مؤذن الإسلام أن قد ولدت « الخلافة » وأن قد أصبح للمسلمين بعد النبى « خليفة » يقوم فيهم مقام الوكيل عن الأصيل !

وقفة .. ونظرة !

هذا الوليد الجديد الذى ولده هذا الحدث العظيم ، ما دوره فى هذه الحياة ؟ وماذا عُـلِّقَ عليه من آمال ؟ ..

بل لنا أن نلقاه بأسئلة أخرى غير هذه : إلى من ينتسب ؟ أوَلده العرب والمسلمون جميعاً ، أم وُلد لجماعة منهم ، ثم ما الدم الذى يجرى فى عروق هذا الوليد ؟ أهو من الدين أم من الدنيا ؟ أم هو من هذا وتلك معاً ! سنرى !

* * *

(١) انظر السيرة لابن هشام جزء ٣ ص ٤١٨ . و « الصفوة فى مناقب العشرة » جزء ١ ص ٢١٠ وما بعدها ، والإمامة والسياسة ص ٦ وما بعدها

الباب الثالث

الخلافة والدين

ما وجه الحكومة التي أقامها أبو بكر ؟

حين تم لأبى بكر رضى الله عنه الأمر ، وبويع خليفة على المسلمين ، تعلقت به أنظار المجتمع الإسلامى كله ، سواء من كان منهم من أهل المدينة ومكة أو من كان فى بادية الحجاز ، ونجد ، واليمن ..

وطبيعى أن يرى الناس فى أبى بكر ما كانوا يرون فى مبعوثى النبىّ صلى الله عليه وسلم إليهم . وولاته فيهم .. من قضاة ، وجُباة زكاة ، وحملة علم ، وقراء قرآن .. إلا أن أبا بكر قد اجتمعت إليه هذه الأمور كلها ، وصار فى المقام الذى كان يقومه الرسول فى المجتمع الإسلامى كله .

لقب خليفة رسول الله :

وقد سمى أبو بكر نفسه أو سماه المسلمين خليفة رسول الله .

ومنشأ هذه التسمية — كما يقول ابن خلدون — : « إنه يخلف النبىّ — صلى الله عليه وسلم — فيقال خليفة بإطلاق ، وخليفة رسول الله .

واختلف فى تسميته خليفة الله ، فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة للآدميين ، فى قوله تعالى: «إنى جاعل فى الأرض خليفة»[2] ومنع الجمهور منه ، لأن معنى الآية ليس عليه .. وقد نهى أبو بكر لمّا دُعى به ، وقال : لست خليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .» ولأن الاستخلاف إنما هو فى الغائب ، وأما الحاضر فلا »[1] .

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٨١

ومما استدلوا به على جواز لقب « خليفة » هذا الحديث الذى يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو كما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء .. كلما هلك نبىّ خلفه نبىّ .. وإنه لا نبىّ بعدى ، وسيكون خلفاء يكثرون » . قالوا فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « أوْفوا بيعةَ الأول فالأول ، ثم أعطوهم حقهم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم » .

وإذا كان أبو بكر قد سمّى نفسه أو سماه المسلمون « خليفة رسول الله » .. فهل معنى هذا أنه خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل شىء كان للرسول على الناس فى شئون دينهم ودنياهم ؟ أم أنه خلفه فى بعض هذه الشئون دون بعض ؟

وبديهى أن أبا بكر لم يدَّع أو لم يُدَّعَ له أنه خَلَفَ عن النبىّ فيما كان من شأن النبوّة ، وفيما يتصل بأمر السماء ، وما كان يتنزل منها من شريعة ... فقد انقطع الوحى بموت النبى ، وانقطع كذلك المدد الذى كان يرفد ما ينزل به الوحى من سنة رسول الله قولا وعملا .

فليس لأبى بكر ولا غيره أن يقول بعد الرسول قولا أو يعمل عملا يقوم مقام قول الرسول وعمله ، ويصبح شريعة ، يجب على المسلم اتباعها من غير أن يكون له رأى فيها .

وليس لأبى بكر ، ولا لغير أبى بكر أن يقول بعد الرسول : إنه متصل بالسماء أو متلقٍّ عنها أمراً أو نهياً ، يأخذ به الناس ، ويقيمهم على حدوده .

إذن فقيم خلف أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال يحسن أن نجيب على السؤال التالى .. وهو : هل كان للنبىّ صفة أخرى غير النبوّة ؟ .. أو بمعنى آخر : هل كان النبىّ مشرِّعاً ومنفذاً فى حال معاً ؟ . . أو بمعنى ثالث : هل كانت رسالة النبىّ مشتملة على التبليغ والتنفيذ . . أم أنها كانت للتبليغ دون التنفيذ ؟

والإجابة على هذا السؤال أو هذه الأسئلة تجد لها فى القرآن الكريم أكثر من جواب !

فهناك آيات كثيرة يفهم منها أن الرسول مبلغ للرسالة وحسب ، وليس التنفيذ مما يناط برسالته تلك . .

فمن هذه الآيات قول الله تعالى : إنما أنتَ مُنْـذِرٌ ، ولـكلِّ قوم هادٍ »[١]

وقوله سبحانه : « لَسْتَ عليهم بمُصَيْـطِـرٍ » [٢]

وقوله : « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » [٣]

وقوله : « ادْعُ إلى سبيل ربّك بالحِكْمَةِ والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » [٤]

وقوله : « أفأنتَ تُكْرِه الناسَ حتى يكونوا مؤمنين » [٥]

وقوله :«وما أنت عليهم بجبّار .. فذَكِّرْ بالقرآن من يخاف وَعِيدِ »[٦]

فالذى يقف عند هذه الآيات وأمثالها يرى أن دعوة الرسول منحصرة فى مجرد التبليغ ، وأن النبى غير مطالب بأكثر من تبليغ الرسالة وإسماع الناس إياها.

ولـكن فى القرآن آيات أخرى مثل قوله تعالى :

« يأيها النبيُّ جاهِـد الـكفار والمنافقين واغلظْ عليهم [٧] » ..

وقوله سبحانه : « يأيها النبيّ حرِّض المؤمنين على القتال [٨] »

---

(١) سورة الرعد آية ٧
(٢) سوره الغاشية آية ٢٢
(٣) سورة الرعد آية ٤
(٤) سورة النحل آية ١٢٥
(٥) سورة يونس آيه ٩٩
(٦) سوره ق آية ٤٤ ، ٤٥
(٧) سورة التحريم آية ٩
(٨) سورة الأنفال آية ٦٥

وقوله جل شأنه : « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دينَ الحق من الذين أوتوا الكتابَ حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون » (١)

« فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرْصد » (٢)

فني هذه الآيات وأمثالها يجد المرء دعوة صريحة من الله سبحانه وتعالى إلى نبيّه الكريم تدعوه إلى الدفاع عن الدعوة التي يدعو إليها ، بل لايقف عند حدّ الدفاع ، وتأمين الدعوة من المتربصين بها ، ولكن عليه مع هذا أن يفتح الطريق لها ، ويزيل العقبات من وجهها بالسيف إن لم تنفع المجادلة الحسنة فى هذا المجال .

والرسول الكريم يقول : « أمِرْت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم »

وسيرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه لاتقف عند مجرد التبليغ ، بل فيها صراع مادى عنيف إلى جانب الصراع العقلى .. فيها غزوات ، وحروب! وفيها إقامة حدود على من خالفوا أمر الشريعة ، وقارفوا من الذنوب ما يوجب الرجم ، أو الجلد ، أو القطع ، أو الصلب .

وإذن فالمجتمع الذى أقامه الرسول لم يقم على مجرد الدعوة وحدها ، بل كانت القوة المادية قائمة إلى جانب الدعوة . . تحميها ، وتدفع المعتدين والباغين ، ثم تحولت بعد ذلك إلى قوة منطلقة ، تشق طريقها فى الحياة وتزيل من وجهها الذين يعترضون طريقها ، وتضعهم بين أمرين : الدخول فى الإسلام ، أو أداء الجزية.

والذى يؤخذ من هذا أن التبليغ المجرد من القوة التى تسنده كان مرحلة من مراحل الدعوة ، وأنه كان المرحلةَ الأولى لها .

---

(١) سورة التوبة آية ٢٩
(٢) سورة التوبة آية ٥

وهذا طبيعي ، لأنه :

أولا : لم يكن للدعوة فى أول أمرها قوة مادية تعتمد عليها فى مجال الصراع المادى بين أوليائها وأعدائها . . فقد كان الذين دخلوا فى الإسلام ، فى هذه المرحلة ، قلة مستضعفين ، ولهذا وقع لهم ما وقع من تعذيب ، وتنكيل . ومهاجرة عن الأهل والوطن !

وثانيا: لم يكن من طبيعة الدعوة التى جاءت لتحمل إلى الناس الهداية والرحمة أن تأخذهم من أول أمرها معهم بالشدة والقوة — حتى لو كان بين يديها هذه القوة — من قبل أن يسمعوا كلمة الحق الذى تحمله إليهم ، والهدى الذى تدعوهم إليه ، والخير الذى تمد إليهم يدها به . . ولو أن القوة جاءت مصاحبة للدعوة من أول أمرها لما وسع الناس أن ينظروا إلى معالم الحق فيها ، ومناهل الخير منها . . نظرة تأمل وتدبر وتفهم ، ولذهب كثير من رُوَاء الحق وجمال الخير الذى فى كيان هذه الدعوة — لذهب فى دخان هذا الصراع المادى ، ولغطى عليه غبار المعارك بين المتصارعين .

ثم إنه بعد أن قطعت الدعوة هذه المرحلة ، وخرجت من هذه التجربة مثخنة بجراح المعتدين عليها . . الظالمين لها ، كان عليها أن تدفع عنها هذه الأيدى الظالمة ما وجدت إلى ذلك سبيلا . . حتى تحمى وجودها ، وتحفظ كيانها ، وتبلغ فى الناس وفى الحياة غايتها . .

ثم كان لها بعد ذلك ، وقد صار إليها القوة المتمكنة فى الحياة أن تتجه بهذه القوة إلى إزالة معالم الباطل حيث تكون ، وإلى إذابة قوى الضلال حيث تقوم . . « ليكون الدين كله لله » . . ولقد حدث هذا ، فقابلت القوة بالقوة ، والعدوان بالعدوان ، وانتصر الحقّ وغلب هنالك المبطلون .

وإذن فلنا أن نقرر بعد هذا أن الدين الإسلامى ليس مجرد مواعظ تطرق الآذان ، وليس مجرد وصايا تلقى على الأسماع ، فيعيها من يعيها ، ويزورّ عنها من

يزور" .. وإنما الإسلام شريعة لمجتمع إنسانى ، يجتمع على أحكامها ، ويحيا فيها ، ويتعامل معها .

ولعلنا نذكر هنا ماقررناه من قبل من أن دستور الإسلام وأحكامه وتشريعاته ليست لجيل من أجيال الناس ، أو لأمّة من أممه ، وإنما هو للأجيال كلها ، وللأمم جميعها .

وإذ كان ذلك كذلك كان من شأن تعاليمه أن تربط بين الناس ، وأن تنظم وجودهم ، وتمسك بزمام أمورهم .

فهل يساغ بعد هذا أن يقال إن الإسلام دين . . مجرد دين ؟

إن هذه القولة تعنى ألا يكون لهذا الدين أى مظهر من مظاهر الحياة فى المجتمع الإنسانى، وألا يلتقى الناس على حكم من أحكامه ، أو مبدءاً من مبادئه . بل إن تعاليمه لتتحول فى كيان الإنسان إلى غيوم أشبه بتعاليم « الماسونية » ليست إلا ألغازا تدور فى ضمائر أصحابها ، دون أن تعرف الحياة، أو يعرف الناس لها وجهاً يستدلون عليها به .

إن أى مذهب أورأى لا يمكن أن يعتد به إلا إذا ظهر أثره فى الحياة ، المادية للناس ، وإلا إذا احتك بالحياة احتكاكا تصنع منه الحياة الواقع الذى يعيش فيه المجتمع الذى يدين بهذا المذهب أو ذلك الرأى .

وليس من شك فى ان الدين — أى دين — أكبر مجالا ، وأوسع دائرة ، وأبعد أثراً من أى مذهب ، ومن أى رأى يدور فى حياة الناس .

وإنه إذا لم يكن للدين سلطان على الناس فى الحياة ، وإذا لم يكن له مظهر فى وحدة يلتقى الناس عندها ، ويجتمعون عليها ، ويتحركون فى اتجاهها ، فهو ليس بدين أبدا ! وليس بعقيدة تسكن إليها النفوس ، وتطمئن إليها القلوب .

الإسلام دين . . والمسلمون دولة :

فالإسلام دين له شريعة ترسم للناس مناهج العمل فى الحياة ، وتصع قيودا

على تصرفات الأفراد، وترسم لهم حدودا لايخرجون عليها .. فى البيع والشراء .. فى الطلاق والزواج . . فى الحرب والسلم . . فى احترام حقوق الآخرين ، وفى أداء مالهم من حقوق . . فى رعاية شعور المجتمع ، وفى التزام السلوك الذى لايخدش هذا الشعور ولا يجرحه . . إلى كثير من أصول التشريع وفروعه التى تنظم وجود الإنسان فى داخله وخارجه جميعاً ، فى ذات نفسه . وفى اتصال هذه الذات بالحياة وبالناس !

والمسلمون مجتمع قام فى ظل الإسلام ، وتحت رايته، وجعل من « الإسلام » الكلمة التى تعلو على أية رابطة من الروابط التى تصل الناس بالناس .. من وطن أو لغة أو دين . فالمجتمع الإسلامى — بهذا الاسم وبهذه الصفة — مجتمع يعيش باسم الإسلام ، ويتعامل مع المجتمعات الأخرى بهذه « الجنسية » ، التى لايذكر معها وطن ، أو لغة ، أو لون !

ونسأل : إذا قام هذا المجتمع — بهذا الاسم، وبتلك الصفة — فعلى أى أساس يقيم وجوده ؟ وبأية شريعة يتعامل ، وعلى أى دستور يستقيم ؟

لاشك أن تكون التشريعات السماوية هى أقرب شىء إلى تفكيره ، وأولى شىء وألزمه أن يأخذ نفسه به ! وإلا فلا معنى لأن يقال : « المسلمون » « والمجتمع الإسلامى » ، و « والأمة الإسلامية » . ونحو هذا من الأسماء التى يظهر بها هذا المجتمع فى الحياة باسم الإسلام !

وبأى حق ، أو لأى معنى يقوم مجتمع باسم « الإسلام » ثم لا يتعامل بشريعته وأحكامه ؟

إن أى مذهب يتمذهب به الناس أو أى عقيدة يعتقدونها — كما قلنا — لابد أن تظهر آثارها فيهم، وأن تتلون بها حياتهم الفردية والاجتماعية . وأن تتأثر بها أوضاعهم ونظمهم السياسية والاجتماعية ، والاقتصادية . وكل نشاط إنسانى دور بينهم . ويقع فى حياتهم .

أفلا يكون للإسلام فى أفراده وجماعاته شأن كهذا الشأن الذى للمذاهب والآراء التى قامت عليها المجتمعات الديمقراطية ، أو الشيوعية ، أو الفاشية والنازيّة . أو الوجودية مثلا ؟

إن هذه المذاهب لم تعش حبيسة فى كيان أصحابها، منطوية فى عقولهم أو قلوبهم ، بل انطلقت عاملة فى الحياة ، سالكة بالناس المسالك التى تدعوهم إليها ، وتنادى فيهم بها .

ولو ظلّ « ماركس » وتلاميذه يطوون صدورهم على مذهبهم الاقتصادى المعروف ، ولو قنع أتباعهم أن يحبسوا هذا المذهب فى ضمائرهم لما كان للحياة أن تشهد هذه الثورة الروسية . ولا أن تعرف هذا النظام الشيوعى . .

وكذلك الشأن فى حركة « هتلر » و « موسولينى » وفى فلسفة « سارتر » الوجودية . . وفى كل فلسفة أو مذهب . . الجانب العمليّ منها هو الذى يكشف عن مضمونها . . واحتكاكها بالحياة هو الذى يظهر للناس ما فيها من خير أو شر !

أفيراد من الإسلام أو للإسلام أن يكون مجرد تصورات . وأحلام ، وأن يكون حقائق ميتة لا يلد شيئاً ينتفع به الناس فى هذه الحياة ؟

إن المجتمع هو المجال الحقيقى الذى ينبغى للإسلام أن يتحرك فيه ، لتظهر آثاره ، وتنكشف تعاليمه ، وتثمر حقائقه الثمر الذى تضمره هذه الحقائق . . وأنه كلما كبر هذا المجتمع، واتسعت دائرته كلما كان ذلك أنجح للتجربة التى تكشف عن معدن الإسلام ، وتبين عن الطيب الكريم من عناصره .

ولو أننا تصورنا مسلماً يعيش وحده فى غير مجتمع . . فماذا يظهر من مبادىء الإسلام فى حياته ؟

إنه قد يصلى . ! وقد يصوم !

ولكن هل يخرج الزكاة مثلا ؟ إلى من؟ وإلى أين ؟ وما داعيته إلى إخراجها؟

هذا ركن من أركان الدين لا يقوم إلا فى مجتمع إسلامى ! أو مجتمع إنسانى على الأقل ! يتعامل أفراده بما يأمرهم به دينهم ، وتدعوهم إليه شريعتهم .

لقد جعل الإسلام المجتمع الإسلامى جسدا واحدا .. « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .. » .

هذا الجسد الكبير ألا يحتاج إلى سياسة تنظيم وجوده ، وتحتفظ به كيانا متماسكا ؟ وما المشاعر التى تمسك هذا الجسد ، وتشد بعضه إلى بعض ؟ أليست هى أثر من آثار الدين ، وثمرة من ثمراته ؟ وإذن فقد كان من دعوة الإسلام قيام المجتمع الإسلامى .. وكان من ضرورة حفظ هذا المجتمع أن تكون له سياسة مدنية تنظمه ، وتدبر أموره ، وتحفظ وجوده ، وإلا كان هذا الجسد فى معرض الفساد والانحلال ، إذ كان خلوا من هذا الجهاز الذى يغذى أصوله وفروعه ، ويحفظ عليه الصحة والعافيه والحياة !

وإذا كان قيام المجتمع من دعوة الإسلام ، وكان حفظ هذا المجتمع لا يقوم إلا بسياسة مدنية تنظمه — كان مما تقضى به الحكمة أن يكون الذى دعا إلى قيام هذا المجتمع أن يضع له السياسة المدنية التى تكفل قيامه سليما معافى من دواعى التفكك والانحلال .

فهل فعل الإسلام هذا ؟ أو بمعنى آخر هل وضع الإسلام لمجتمعه الذى دعا إلى إقامته دستوراً مدنياً لهذا المجتمع ؟

ذلك ما نحاول بيانه الآن .

الدين والدنيا فى يد الرسول :

لقد اجتمع للرسول أن يكون هو سيد المجتمع الإسلامى .. يقيم له دينه، ودنياه جميعاً . وإن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل من سياسته للمجتمع الإسلامى أن يكون هناك حجاز بين الدين الذى جاء به ، والدنيا التى يتقلب فيها الناس !

بل إن هذا الدين منذ اليوم الأول الذى جاء فيه لم يقف بمعزل عن الناس وعن الحياة ، بل دخل إلى الناس فى دنياهم . والتقى بهم فى زحمة الحياة . . يأخذ منهم ، ويعطى ، ويحلّ ، ويحرّم .. يحلّ لهم الطيبات ، ويحرّم عليهم الخبائث ..

فرض عليهم الزكاة فى أموالهم . . وأمر النبيّ بأخذها منهم .

حرم عليهم الرّبا . .

وحرّم الخمر . .

وحرّم الزنا . .

وحرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

وفرض عقوبات على مرتكبي هذه المحرّمات ، وأمر بأن يؤخذ مقترفوها بما وجب فيها من عقاب .

هذا هو سلطان النبيّ ،أو بعض سلطانه . . مادى وروحى معاً . . دينىّ ودنيوى !

يقول الأستاذ على عبد الرازق فى كتابه « الإسلام وأصول الحكم » :

« وأما أن المملكة النبوية جزء من عمل الرسالة متمم لها، فذلك هو الرأى الذى تتلقاه نفوس المسلمين — فيما يظهر — بالرضا ، وهو الذى تشير إليه أساليبهم وتؤيده مبادئهم ومذاهبهم ، ومن البين أن ذلك لا يمكن تعقله إلا إذا ثبت أن من عمل الرسالة أن يقوم الرسول بعد تبليغ الدعوة الإلـهية بتنفيذها على وجه عملىّ ، أى أن الرسول يكون مبلغاً ، ومنفذا معاً . .

ثم يقول : غير أن الذين بحثوا معنى الرسالة ، ووقفنا على مباحثهم أغفلوا دائماً أن يعتبروا التنفيذ جزءاً من حقيقة الرسالة إلا ابن خلدون ، فقد جاء فى كلامه ما يشير إلى أن الإسلام دون غيره من الملل الأخرى قد اختص بالجمع بين الدعوة الدينية وتنفيذها بالعمل »[1]

---

(١) الاسلام وأصول الحكم . الأستاذ على عبد الرازق ص ٥٣

والذى يشير إليه الأستاذ من كلام ابن خلدون هو قوله :

« والملة الإسلامية لما كان الجهاد فيها مشروعا لعموم الدعوة ، وحمل الكافة على دين الإسلام طوعا أو كرها اتحدت فيها الخلافة والملك لتوجه الشوكة من القائمين بها إليهما معاً ، وأما ما سوى ملة الإسلام فلم تكن دعوتهم ، ولا الجهاد عندهم مشروعاً إلا فى المدافعة فقط . . فصار القائم بأمر الدين — غير الإسلامى — لا يعنيه شىء من سياسة الملك ، لأنهم غير مكلفين بالتغلب على الأمم الأخرى ، وإنما هم مطلوبون بإقامة دينهم فى خاصة أنفسهم » .

ولا يأخذ الأستاذ على عبد الرازق بهذا الرأى الذى يذهب إليه ابن خلدون هنا . . ويستدل الأستاذ على رأيه الذى يراه هو بآيات من الكتاب ، يقيم بها حجته على أن الرسول مبلغ غير منفذ . .مثل قوله تعالى : « إنما أنت منذر »[١] وقوله : « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب . »[٢]... ثم يقول بعد هذا تعليقاً على تلك الآيات وأمثالها : تلك مبادىء صريحة فى أن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم كرسالة إخوانه من قبل ، إنما تعتمد على الإقناع والوعظ ، وما كان لها أن تعتمد على القوة والبطش .

ثم يقول : « وإذا كان صلى الله عليه وسلم قد لجأ إلى القوة والرهبة فذلك لا يكون فى سبيل الدعوة إلى الدين . وإبلاغ رسالته إلى العالمين ، وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان فى سبيل الملك ، ولتكوين الحكومة الإسلامية . ولا تقوم حكومة إلا على السيف وبحكم القهر والغلب . فذلك عندهم هو سر الجهاد النبوى »[٣]

ثم يزيد هذا المعنى وضوحاً فيقول: « ولاية الرسول على قومه ولاية روحية. منشؤها إيمان القلب ، وخضوعه خضوعا صادقا تاما ، يتبعه خضوع الجسم . وولاية الحاكم ولاية مادية تعتمد على إخضاع الجسم . من غير أن يكون لها بالقلوب اتصال . . .

---

(١) الاسلام وأصول الحكم .. ص٥٣

(٢) سورة الرعد آية ٧

(٣) سورة الرعد آية ٤٠ .

«تلك — أى ولاية النبي — ولاية هداية

«وهذه — ولاية الحاكم — ولاية تدبير لمصالح الحياة،وعمارة الأرض.

«تلك للدين.

«وهذه للدنيا.

«تلك لله . وهذه للناس.

«تلك زعامة دينية. .

«وتلك زعامة سياسية.

«ويابعْدَ مابين السياسة والدين» [1]

ويُستشف من رأى أستاذنا على عبد الرازق فى الفصل بين الرسالة الإسلامية وبين الجانب العملى منها الذى جاء على يد الرسول، وخاصة مايتصل بالغزوات. وبالصراع المادى الذى كان بين المسلمين والجبهة المعادية للإسلام — يستشف من هذا الرأى أن تلك الأعمال لم تكن من صميم الرسالة، وإنما هى وليدة ضرورة طارئة اقتضتها ظروف الدعوة..

إن أستاذنا يريد أن يطلق الدين من هذه الماديات التى تصطدم به.. يريد أن يراه دعوة أخلاقية، تدعو الناس إلى الكمال الإنسانى ... دعوة تنطلق بطبيعتها إلى العقول والقلوب، دون أن تمسك بها يد إنسان!

يقول الأستاذ:

«الإسلام دعوة دينية إلى الله تعالى، ومذهب من مذاهب الإصلاح للنوع البشرى وهدايته إلى مايدنيه من الله جل شأنه ويفتح له سبل السعادة التى أعدها الله لعباده الصالحين.

«هو وحدة دينية، وأراد الله جلّ شأنه أن يربط بها البشر أجمعين، وأن يحيط بها أقطار الأرض كلها

« تلك دعوة قدسية طاهرة لهذا العالم .. أحمره ، وأسوده .. أن يعتصموا بحبل الله الواحد ، وأن يكونوا أمة واحدة ، يعبدون إلـهاً واحدا ، ويكونون فى عبادته إخوانا . .

« تلك دعوة إلى المثل الأعلى لسلامة هذا العالم ، وأخذه إلى ما يليق به من الكمال ، وإلى ما أعده الله له من السعادة . . تلك رحمة السماء بالأرض ، وفضل الله على العالمين . .

« دعوة العالم كله إلى التآخى فى الدين دعوة معقولة ، وفى طبيعة البشر استعداد لتحقيقها » . . !

ثم يقول الأستاذ بعد هذا :

« معقول أن يؤخذ العالم كله بدين واحد ، وأن تنتظم البشرية كلها وحدة دينية . . فأما أخذ العالم كله بحكومة واحدة ، وجمعه تحت وحدة سياسية مشتركة فذلك يوشك أن يكون خارجا عن طبيعة البشر ، ولا تتعلق به إرادة الله ! »[1]

فالأستاذ على عبد الرازق — كما ترى — حريص أشدّ الحرص على أن يجنب الإسلام مزالق السياسة ، وأن يباعد بينه وبين معارك الحياة وأهواء الحاكمين . .

إنه يريد للإسلام — كما قلنا — أن ينطلق انطلاق أشعة الشمس فى الآفاق ، لا يخضع لسلطان أحد ، ولا يضاف إلى حساب أحد .

إن الأستاذ يخشى على الإسلام أن يستولد الناس منه نظاماً سياسياً ، وأن يسعى هذا النظام سعيه فى الحياة ، منظورا إليه على أنه وليد الإسلام . فإذا اضطرب هذا النظام أو تعثّر ، أو انحرف — وما أكثر ما يحدث هنا — كان على الإسلام أن يحمل نصيبه الأوفر من أوزار هذا الوليد الذى ولده .. شأن الآباء فيما يجنى الأبناء من جنايات ، وما يقارفون من آثام !

---

(١) الإسلام وأصول الحكم ص ٧٧ — ٧٨

والأستاذ إذ ينظر إلى الإسلام هذه النظرة ، كان — فيما يبدو — متأثرا بتلك الأحداث القاسية التى مرت بالإسلام فى ظل الخلافة العثمانية ، التى ارتكب سلاطينها باسم الإسلام ، وفى زى الخلافة الإسلامية أشنع الجرائم وأبشعها ، من رشوة ، وتجسس ، وتلصص ، وغدر ، ودس ، وغير ذلك مما كان يجرى فى بلاط الخلافة العثمانية . . مما شوه معالم الدين ، وأوقع فى نفوس المتدينين به كثيرا من الريب والشكوك من جهة هذا الدين، الذى صار إلى يد هؤلاء الخلفاء ، فمكن لهم أن يستعبدوا العباد ، وأن يستذلوا الناس ، ويبطشوا بهم بطش الجبارين الظالمين .

والحق إن الخلافة العثمانية — ومن قبلها أكثر من خلافة قامت فى المجتمع الإسلامى — قد شوهت معالم هذا الدين ، وأفسدت كثيراً مما بينه وبين أهله من مشاعر الولاء ، ولكن ليس معنى هذا أن ينعزل الدين عن الحياة ، أو أن يخلى المجتمع الإسلامى أنظمته من تعاليم الإسلام ، ويقطع العلائق التى بينه وبين شريعته ، فلا يكون لهذا المجتمع تعامل مع شريعة الإسلام . أو باسم الإسلام .

وماذا يكون الأمر إذا زاغ بعض المسلمين أو انحرفوا عن سواء السبيل ، وما أكثر الزائغين والمنحرفين ؟ أيكون معنى هذا أن يسحب الإسلام من الحياة ، لأن المسلمين أو بعض المسلمين لم يحسنوا صحبة هذا الدين ، ولم يَرْعَوْا حرمته ؟ . .

إننا نرى — والواقع يشهد — أن الذين استقاموا على الدين وأحسنوا صحبة هم قلة قليلة بين هذا العدد ممن يحملون اسم الإسلام ، ويدخلون به فى جماعة المسلمين . . أفيعنى هذا أن تقوم دعوة تدعو إلى سحب هذه « الجنسية » من هذا العدد العديد المنحرف عن الطريق السوىّ ؟ وأن يكون الدين عقيدة تعيش فى كيانهم لا يظهر للناس منها شىء . . إن أحسنوا فلأنفسهم ، وإن أساءوا فلها ، دون أن ينضح على الإسلام والمسلمين شىء من إحسانهم أو إساءتهم ؟

إن ذلك سواء بسواء هو شأن « الخلافة » . . .

إنها وإن قامت وجودها باسم الإسلام .. وحملت « خاتمه » الذى تختم به على تصرفاتها . . فإن هذا لا يعدو أن يكون مجرد « دعوى » لا أكثر ولا أقل ، وأن التجربة وحدها هى التى ستكشف عن صدق هذه « الدعوى » أو كذبها . . كما أن المسلم لا يعد مسلما حين يتسمى بهذا الاسم ، وإنما بما يظهر من تعاليم الإسلام فى سلوكه وفى سيرته فى الحياة . . وأنه بمقدار ما يكون فى هذا السلوك وفى هذه السيرة من تجاوب مع تعاليم الإسلام يكون حظه من هذا الاسم الذى تسمى به !

على أن الأستاذ على عبد الرازق يعزّ عليه أن ينسحب الإسلام إلى مواقعه وقواعده من صدور الناس وقلوبهم ، فلا يخرج إلى واقع الحياة ، ولا يملأ الناس أيديهم من هذا الخير الكثير الذى يحمله فى كيانه — يعزّ هذا على الأستاذ فتراه يبعث من صدور المسلمين وقلوبهم لمسات كهربية ، أو قل شعاعات روحية تسرى بين المسلمين فتصل بين أفرادهم فرداً فرداً ، وتنتظم وجودهم فى وحدة نفسية وروحية فإذا هم مجتمع واحد . . مجتمع روحى . . لا صلة له بهذا المجتمع الجسدى . .

يقـــول :

« نحن لا نشك فى أن الإسلام وحدة دينية ، والمسلمين من حيث هم جماعة واحدة ، والنبي صلى الله عليه وسلم دعا إلى تلك الوحدة ، وأتمها بالفعل قبل وفاته ، وأنه صلى الله عليه وسلم كان على رأس هذه الوحدة ، إمامها الأوحد ، ومدبرها الفذ ، وسيدها الذى لا يراجع له أمر ، ولا يخالف له قول !

« وفى سبيل الوحدة الإسلامية ناضل عليه السلام بلسانه وسنانه ، وجاءه نصر الله ، وأيدته ملائكته وقوته ؛ حتى بلّغ رسالته ، وأدى أمانته .

« وكان له صلى الله عليه وسلم من السلطان مع أمته مالم يكن لملك قبله ولا بعده . . « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم »[١] . .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٦

« وماكان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا » (١) .

ثم يقول :

« من كان يريد أن يسمى تلك الوحدة دولة ، ويدعو سلطان النبي ذلك السلطان النبوى ملكا أو خلافة ، والنبي صلى الله عليه وسلم ملكا أو سلطانا ، فإنه فى حلّ من أن يفعل . . فإن هى إلا أسماء لاينبغي الوقوف عندها ، وإنما المهم — كما قلنا — هو المعنى ، وقد حددناه تحديدا » (٢) .

ونحن نخالف أستاذنا فى مفهوم الوحدة الروحية عنده . . إن الوحدة الروحية لا يمكن أن يكون السيف أداة من أدواتها أبدا .. وهل للسيوف والرماح سبيل إلى النفوس والأرواح ؟

والوحدة الروحية كذلك لايظهر لها مفهوم عند الناس إلا إذا تشكلت فى صور مادية ، وإلا إذا تجسدت حقائقها وصارت إلى أيدى الناس.. يأخذون بها ويعطون ، كأنها نَقْد يتعاملون به . فإذا أقام النبى صلى الله عليه وسلم وحدة روحية بين المسلمين — وقد فعل — فإن هذه الوحدة كان لها دستور ، ولها شريعة وأحكام . . ثم لها بعد هذا — مظهر مادىّ فى سلوك الأفراد والجماعات. ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قائم على هذه الوحدة ، ينفذ شريعتها ويطبق أحكامها ولو بالقوة والسيف إذا احتاج الأمر إلى القوة والسيف .

ونقف عند هذا لنعود إلى سؤالنا الذى سألناه آنفاً :

فيم خَلَفَ أبو بكر رسول الله ؟

ومعروف — مقدما — أن إجابتنا على هذا السؤال — كما هو مدلول علية بما تحدثنا فيه عن سلطة الرسول الروحية والماديه — أن أبا بكر لايمكن أن يخلف الرسول إلا فى الجانب غير الروحى . . وهو السلطان المادى . .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٦

(٢) الاسلام وأصول الحكم ص ٧٠ .

ذلك أن أبا بكر أوغيره لم يكن له أن يخلف الرسول فيما كان يتصل بالرسالة والوحى . .

وإنما يخلفه فى تدبير المجتمع الإسلامى ، هذا المجتمع الذى يحكمه الرسول بحكم أنه رسول الله ، وبحكم أنه ولى أمر المسلمين ، والقائم على مجتمعهم الذى لا بد له من سياسة مدنية يقوم عليها حاكم سياسى !

ومعروف أيضا أن سلطان أبى بكر هو سلطان مادىّ بحت ، سلطان إنسان من الناس على الناس ، لا يستمد سلطانه إلا منهم .

أما الرسول فإن سلطانه المادىّ القائم إلى جانب سلطانه الروحى فهو مستمد من السماء أيضا ، إذ كان المسلمون مأمورين بأمر السماء أن يكونوا ليد الرسول ، وتحت سلطانه : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا »[1] . . « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه »[2] .

وأحسب أن من الواضح أن زعامة الرسول المادية على المسلمين كانت قائمة فى ظل الشريعة التى جاء بها .. يجتهد هو وصحابته فى تطبيقها على المجتمع ، وإلباسهم لباسها .

وأحسب أن من الواضح أيضا أن الفاصل بين السلطان الروحى والسلطان المادى الذى كان للنبىّ على المجتمع الإسلامى لم يكن من الوضوح بحيث يميز أحدهما عن الآخر . . فى سهولة ويسر . . فهما كيان واحد يخضع له المسلم ، ويسلم له ولاءه كله ، فى وجوده الروحى والمادى جميعاً . .

يقول « جرونيباوم »

« لقد أقام « محمد » بمعونة أتباعه حكومة دينية « ثيقراطية » أى دولة يأخذ الله فيها بزمام السلطة السياسية . يَكِلُ إداراتها إلى نبيّـه ، ووكيله ، النبىّ « محمد »

---

(١) سورة الحشر آية ٧ .

(٢) سورة النور آية ٦٢ .

« ذلك أن تكليفه بأداء الرسالة ناط به السلطة السياسية .. ولم تكن الجماعة الإسلامية تعرف أى فارق بين ما هو زمنى — مادى — وما هو روحى ، إذا ما أريد تعريف تلك السلطة وتحديدها .

« وكان ما حدث من المسيحية من شقاق بين الكنيسة والدولة أمراً لا محل له فى الإسلام .. إذ كانت السلطة الزمنية فى الإسلام مندمجة فى السلطة الروحية.

« وما أن تُوفِّى النبىّ ، ولم تعد العناية الربانية تبعث بوحيها على لسان رسول الله ، وصفيه ، حتى اقتصر أمر الدولة على الأعمال التنفيذية .

« وبذلك أصبح الدين والسياسة والإدارة مرتبطين ارتباطاً لا تنفصم عراه فى واجبات موظفى الدولة القديمة [١] » .

والذى يريد أن يقرره « جرونيباوم » هنا هو أن امتزاج السلطة الدينية بالسلطة المادية فى عهد الرسول ، قد جعل مقررات الشريعة هى الدستور الذى يقوم عليه المجتمع الإسلامى فى أنظمته السياسية والاجتماعية وغيرها . .

وأن هذا الدستور الذى تم وضعه فى عهد النبىّ ، قد أصبح «مجمّداً» فى هذا الوضع بانقطاع الوحى بعد وفاة النبىّ . . وأن الحكومة التى تخلف النبىّ على المجتمع الإسلامى ليست إلا سلطة تنفيذية ، تنفذ أحكام هذا الدستور ! !

ويتسم هذا القول فى ظاهره ببعض سمات الحق . . إذ ليس للحكومة الإسلامية أن تخرج على الدستور الذى تركه الرسول فى المسلمين من الكتاب والسنة . وأن ليس وراء هذا الدستور مجال لإضافة تشريع جديد ، أو حذف ، أو تعديل فيه !

ولكن هذا لا يعنى أن يكون أولياء الأمر فى المسلمين أدوات منفذة لدستور الإسلام الذى تركه الرسول دون أن يكون لهم فهم فيه ، وتأويل له ، واجتهاد فيما يجدّ من أمور ، لا يجدون لها جوابا فى هذا الدستور : بل إن

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٩٨

للسلمين أن يصحبوا دائماً عقلهم معهم ، وأن يجعلوه إلى جانب هذا الدستور !

إن من تدبير الشريعة الإسلامية — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — أن يكون للعقل الإنسانى مشاركة فى بناء هذه الشريعة ، لتكون أقرب إلى الناس ، وليكون لهم أنس بها ، ودليل من عقلهم عليها . .

فالرسول عليه الصلاة والسلام كان له إلى جانب الدعوة الدينية معالجة لشئون المجتمع الإسلامى . . يحلّ المشكلات اليوميه العارضة للأفراد ، ويدبر شئون الحرب والسلم للجماعة ، ويتخير أحسن الأوضاع للمجتمع .

فهل كانت كل هذه الأمور وأمثالها من الشريعة ؟ . إنها لو كانت من الشريعة لما كان للرسول أن يشاور فيها أحداً من المسلمين ، ولما اقتضى الأمر أن يشرك أحداً معه فى رأى أبداً ، ولـمّـا كان هناك متجه لقوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر »[1] .

إن هذا الجانب من حياة الرسول كان متصلا بالناس فى وجودهم المادى ، وكان من طبيعة هذا الجانب أن تكون صلة النبىّ فيه بالمجتمع صلة حاكم بالمحكومين ، يتشاور معهم فيما فيه مصلحتهم ، وخيرهم .

ولعلّ فى هذه السياسة التى رسمتها السماء للرسول ما يوحى بأن شئون الناس ومُتَقلَّبهم فى الحياة ينبغى أن يوكل إليهم حتى ولو كان النبى بينهم . . فما بالك حين يُخْلِى النبى مكانه هذا ويلتق بربه ؟

أيجوز لأحد بعد هذا — مهما يكن شأنه فى المجتمع الإسلامى — أن يقول : إنه يعالج شئون الحكم مع الناس بقوة روحية ، أو بمدد غيبى ؟

إن الله — سبحانه وتعالى — قد جعل نبيه فى مستوى إنسانى صرف حين أراد له يدير شئون الحكم ، وأن يتولى حكومة المجتمع الإسلامى . . فهو هنا صلوات الله وسلامه عليه واحد من المسلمين ، وإن كان له ماله من مكانه فى القلوب ، وسلطان على النفوس .

---

(١) سورة الأعراف آية

واذكرْ دائماً فى هذا المجال قوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر » ![سورة الأعراف] .

فإذا قام أبو بكر أو غيره حاكما على الجماعة الإسلامية كانت زعامته لهم زعامة مادية محتكمة إلى الدين ، مستندة إلى الشريعة .

يقول الأستاذ على عبد الرازق : « زعامة النبي عليه السلام ، كانت — كما قلنا — زعامة دينية ، جاءت عن طريق الرسالة لاغير ، وقد انتهت الرسالة بموته صلى الله عليه وسلم ، فانتهت الزعامة أيضاً ، وما كان لأحد أن يخلفه فى زعامته ، كما أنه لم يكن لأحد أن يخلفه فى رسالته .

« فإذا كان ولا بد من زعامة بين أتباع النبي عليه السلام بعد وفاته — فإنما تلك زعامة جديدة غير التى عرفناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم »[1] .

ونحن نوافق الأستاذ فى هذا ، ونرى رأيه فى أن زعامة الرسول الكريم للسلمين كانت زعامة دينية . . ولكن نضيف إلى هذا أنه قد كان للرسول إلى جانب زعامته الدينية زعامة دنيوية مستندة إلى الدين ، قائمة فى ظله ، آخذة بمبادئه . . وبهذه الزعامة حكم المجتمع ونظم شئونه !

إن المسلمين دولة ووحدة أساسها الدين . . ولابد لهذه الدولة أو الوحدة من حاكم ، فإذا حكمهم حاكم فعلى أى أسلوب يقوم حكمه ؟ وعلى أى منهج ينهج ؟ ألا يكون التشريع الدينى الذى ينزل من هذه الجماعة منزلة الاحترام والتقدير أولى من أى تشريع آخر يحكمون به ؟ ولماذا نخاف الدين أن يدخل معنا معترك الحياة ؟ إن فيه عناصر كثيرة من حياتنا المادية ، ولا عليه أن يدور معنا فى تلك الحياة، وأن يَعْلَقَ به ما يعلق بنا من غبارها ودخانها ؟

إن الماء ينزل من السماء عذبا طهوراً ، فيقع من الأرض مواقع شتى ، ثم يدور فيها دورات كثيرة مختلفة ، ويعلق به ما يعلق من أدرانها ، وترابها ، فيتخلق منه الوحل والطين ، على حين تكون منه ينابيع رقراقة متدفقة ، وأنهار

---

(١) الاسلام وأصول الحكم ص ٩٠

صافية جارية ، تمد الحياة والرىّ لكل حىّ . . فهل يكون من ذلك أن تمسك السماء بمائها حتى لايختلط بتراب الأرض وأقذارها ؟ وهل يكون من ذلك أن يختفى كل خير فى الوجود ، لأن الشر يلتق به ، ويشوّه من معالمه ؟

والشريعة الإسلامية إذ تنزل إلى الأرض ، وإذ تعيش فى الناس لا ضير عليها من أن يثار فى وجهها هذا الغبار ، وأن تنعقد فى سمائها الصافية سحب الدخان المتخلق من تلك الشرارات المنقدحة من احتكاكها بالحياة ، وبالناس !

يقول جروينباوم » .

« الهدف المقصود من الشريعة الإسلامية أن تكون مكملة للإيمان ، وأن تنظم أعمال الإنسان على النحو الذى ينظم به الدين معتقداته » (١) .

وإنه ليس للشريعة من معنى ، وليس لها من حكمة إذا نزلت إلى الناس ثم احتبست فى الصدور كما لو احتبس ماء الغيث فى باطن الأرض . . لاتجرى به أنهار ، ولا تتفجر منه عيون !

ونعود إلى سؤالنا مرةً أخرى :

فيم خلف أبو بكر رسول الله ؟

نستطيع أن نقول إذن إن أبا بكر خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا السلطان المادىّ الذى كان للرسول على المسلمين . . وهو سلطان — كما قلنا — قائم إلى جانب الدين ، وركيزة من ركائزه .. فهو سلطان مادىّ يخضع لسلطان الدين ، ويجرى على أحكامه .

والواقع ان الاجتماع الذى انعقد فى سقيفة بنى ساعدة ، وانتهى بخلافة أبى بكر — هذا الاجتماع كان ينظر إلى الخلافة نظرة يختلط فيها الدين بالدنيا ، ويجمع فيها الخليفة بين الأمرين معاً . . فهو حاكم يقوم على المجتمع كما يقوم الملوك والسلاطين ، ولكنه فى الوقت نفسه مقيد بشريعة ودستور سماويين ،

---

(١) حضارة الاسلام ص ١٨٦

ليس له أن يخرج عنهما ، أو أن يمد عينه إلى غيرهما من الدساتير والشرائع السماوية ، أو الوضعية .

إنه يخضع لهذا الدستور كما يخضع له المسلمون جميعاً . وهو ينزل عند حكم الشريعة كما ينزل عندها المسلمون جميعاً .. ليس له مكان امتياز فى هذه الشريعة ، وليس له إلا ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم .

ليس له أن يُحلّ حراما ، أو يحرّم حلالا مما جاءت الشريعة بحله أو حرمته.. كما أنه ليس للخليفة أن يضع للمجتمع الذى يقوم عليه تشريعا لحياته الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية يخرج على المبادىء العامة التى جاءت بها شريعة الإسلام.

هل الخلافة خطة دينية ؟

قلنا إن الخلافة قد ظهرت لأول مولدها متلبسة بالدين مستظلة به ، لأنها أول وجه جديد رآه المسلمون بعد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه .

ولهذا ظهرت وعليها مِسْحة من جلال النبوة ، ولمحة من لمحاتها ـ ! إذ كانت نفوس المسلمين وقلوبهم ، بل أيديهم وآذانهم وأبصارهم لا تزال ممسكة بآثار حية قوية من آثار النبى ، ومازال صوت النبى يملأ أسماعهم ، ومازال شخصه الكريم مجلى عيونهم ، ومازالت نفحات يده الطيبة تتفاوح فى أيديهم ريحاناً ورَوْحا . . ومازالت مشاعرهم مأنوسة بهديه ، رطبة ندية بتأديبه وأدبه !

فإذا غربت شمس النبوة من أفق الحياة فإن شعاعاتها لا تزال تلوح على الأفق ، ولا يزال ضوؤها قائماً من ورائها . يشير إليها ، ويدل على اتجاهها !

لهذا كان أبو بكر فى مرأى العين ، وفى طوايا النفس — حين لبس ثوب الخلافة — كان شيئاً من رسول الله . وأثراً من آثاره ، وشعاعة من شعاعاته !

وهكذا انعكس على أبى بكر — فى أبصار الناس وقلوبهم — بعض جلال النبوة ، وبعض سماتها . . !

والذى وقع فى مشاعر الناس ، وفى مرأى عيونهم من أبى بكر ، كان يمكن أن يقع كثير منه لأىٍّ من صحابة الرسول لو لبس ثوب الخلافة ، وقام فى الناس مقام الخليفة لرسول الله — وذلك — لما قلنا — من قرب عهد النبى بالناس

وعهد الناس به — ذلك القرب الذى لم يباعد الزمن — بعد — أيامه ولياليه ..

ولكن أبا بكر فى مكانة من الرسول ، ومن الإسلام ، وعند المسلمين . جعل هذه المشاعر التى كان يمكن أن يجدها المسلمون فى أنفسهم ، لأول خليفة يقوم فيهم مقام النبي — جعل هذه المشاعر أوضح وأقوى منها فى أى صحابى آخر كان يقوم مقامه إذ ذاك .

إنه أول من دخل الإسلام من الرجال .. فى أصح الأقوال

وإنه رفيق النبي فى الغار .

وإنه صاحب هجرته .

وإنه الذى ذكر فى القرآن أكثر من مرة :

فى صحبته للرسول الكريم فى الهجرة يقول الله تعالى : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذا أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين . . إذ هما فى الغار . . إذ يقول لصاحبه لا تحزن . . إن الله معنا »(١)

وفى هذه الآية تبرز مكانة أبى بكر ومقامه فى هذا الدين .. فقد جعل الله الناس جميعاً فى كفة وجعل أبابكر فى الكفة الأخرى . . وذلك فى موقفهم من رسالة الرسول ، ومن الاستجابة له ، والمدافعة عنه.. :«إلا تنصروه» أيها الناس «فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين » هو الأول ، وثانيه أبو بكر. فكان أبو بكر فى هذا فى جانب .. والإنسانية كلها فى جانب . أبو بكر مع الرسول . والناس مع وجودهم أو مع أنفسهم ، أو مع الشيطان !

وذُكر أبو بكر فى القرآن ذكرا آخر ..فى الآيات التى نزلت فى حديث الإفك وكان أبو بكر قد حلف ألا يمد يده بخير إلى « مسطح » الذى تولى قيادة هذا الحديث الآثم ، وكان قريبا لأبى بكر ، وكان أبو بكر ينفق عليه — فى هذه الآيات ذُكر أبو بكر فى قوله تعالى : « ولا يأتلِ أولو الفضل منكم والسَّعَة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين ، والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم »(١)

---

(١) سورة التوبة آية ٤٠ .

(٢) سورة النور آية ٢٢ .

« فأبو بكر هو المراد بالضمير الفاعل فى الأفعال الواردة فى هذه الآية وهو المشار إليه به !

ومن جهة أخرى فإن الرسول صلوات الله وسلامه عليه حين اشتد به المرض ولم يستطع أن يقيم للسلمين صلاتهم ، ندب أبا بكر ليصلى بالناس ، فصلّى بهم أوقاتا — اختلف فى عددها — إلى أن توفى رسول الله . .

وكانت هذه الإشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقوى الأسباب المباشرة التى استند إليها الذين بادروا إلى بيعة أبى بكر ، وقالوا : « قد رضيه الرسول لديننا أفلا نرضاه لدنيانا ؟ »

بهذا الإحساس استقبل المسلمون « الخلافة » ومن خلال هذا الإحساس نظروا إلى « الخليفة » فرأوا فيه — كما قلنا — سمات واضحة من النبوّة ، ولمحات قوية من جلالها وسناها .

وكانت سيرة أبى بكر ، تلك السيرة الكريمة الطيبة التى سار بها فى سياسة المسلمين وفى تدبير أمورهم — كانت هذه السيرة تزكّى هذا الإحساس الذى وقع للمسلمين من « الخلافة » و « الخليفة » ، بل وتسمّيه وتقوّيه .. على الأيام .

لقد كان أبو بكر يتأسّى برسول الله صلى الله عليه وسلم ميتاً كما تأسى به حياً ، وكان يحرص أشد الحرص على أن يظل فى هذه المنزلة التى تركه الرسول عليها ، وألا تنقص الحياة شيئا منها ، أو تزحزحه الخلافة عن هذه المنزلة حتى يلحق بالرسول ، فيلقاه راضياً ، ويفوز بصحبته فى الآخرة كما فاز بصحبته فى الدنيا ..

ولهذا كان المسلمون فى ظل أبى بكر فى خلافة نبوّة . . هكذا كانت خلافة أبى بكر وخلافة الخلفاء الثلاثة الراشدين من بعده . . ولولا تلك الأحداث السود التى وقعت فى أخريات خلافة « عثمان » وفى خلافة « على » لكانت فترة الخلفاء الراشدين — رضوان الله عليهم — هى فترة الربيع فى عمر هذه الدنيا !

وإلى هذا يشير النبي الكريم فى قوله : « إن هذا الأمر بدأ نبوةً ورحمة ، ثم يكون رحمة وخلافة ، ثم يكون ملكا عضوضاً ، ثم يكون عتوا وجبروتاً فى الأئمة . » (١)

وانظر فى هذا الكشف الدقيق الحكيم الذى كشف به النبى فضل مابين النبوة والخلافة ، والملك ، والإمرة المتسلطة المتجبرة ..

فالنبوة . . نبوة ورحمة معاً !

فإذا ذهبت النبوّة خلّفت وراءها الرحمة التى تقوم عليها الخلافة الراشدة .. فهى : خلافة ورحمة !

فإذا ذهبت الخلافة الراشدة. ذهبت معها الرحمة.. لأنها عارية فيجيء بعدها الملك.

فهو : مُلكٌ . . وفيه من الخلافة بعض الخير الذى كان فيها ..

فإذا اقتسم الناس الملك . . ذهب هذا القليل من الخير الذى كان معه وتبدّد فأصبح جبروتا وطغيانا !

ولكن مع هذا . . لابد من أن نعيد هذا السؤال :

هل الخلافة فى حقيقتها خطة دينية ؟

ولا نريد أن ندلى بالجواب هنا قبل أن نسوق بين يديه وجهات النظر المختلفة ، والآراء المتباينة التى دارت حول هذا الجانب من الخلافة . . وطبيعى أنه لو كان هناك دليل صريح من الكتاب أو السنة فى شأن الخلافة، أو الحكومة التى يقيمها المسلمون بعد النبىّ لما كان هناك وجه لهذا الخلاف فى الصفة التى تقوم عليها الحكومة أو الخلافة . أو فى اللون الذى تبدو فيه !

ولكن لمّا لم يكن هناك هذا النصّ الصريح الذى يعطى الدليل القاطع على صفة « الخلافة » ولونها ، فقد ذهب الناس يلتمسون من شواهد الأحوال ، ومن ملابسات الظروف ، ما يذهبون بها أو تذهب هى بهم إلى هذا الرأى أو ذاك .. من تلك الآراء التى ظهرت فى هذا المجال . .

(١) نهاية الأرب جزء ١٨ ص ٢٤٠

وطبيعى أيضا أنه كان كلما مضت الأيام بالخلافة بعد عصر الراشدين — ضمر ذلك العنصر الدينى الذى كان يراه فيها أولئك الذين ألبسوها رداء الدين ، وخلعوا عليها خلعته !

الخلافة خطة دينية :

والذين ذهبوا إلى أن الخلافة خطة دينية — شأنهم فى هذا شأن الذاهبين فيها خلافَ هذا المذهب — ليس بين أيديهم دليل قاطع من الكتاب أو السنة — كما قلنا — وإنما هى تخريجات لبعض نصوص الكتاب والسنة.. مستحلبة فى آنيةٍ من شواهد الحال ، ومستوحاة من دوافع الظروف ، التى أملت على الناس أن يعزلوا دينهم عن دنياهم ، وأن يأخذوا وضعاً فى الحياة على غير هذا الوضع الذى كانوا عليه مع النبىّ . .

وها نحن أولاء نعرض بعض « مستندات » هذه الدعوى التى يدعيها القائلون بأن الخلافة أمر من أمور الدين .

أولا :

رأى ابن تيمية :

يرى الإمام ابن تيمية أن الخلافة أو الإمامة من الأمور الواجب على المسلمين إقامتها ديانةً .. فلا تبرأ ذمتهم إلا إذا قام على مجتمعهم خليفة أو حاكم ، ينظم شئون الناس ، ويقيم الحدود . .

يقول :

« يجب أن يعرف أن ولاية الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا يقام الدين إلا بها . . فإن بنى آدم لا تتم مصلحتهم إلا باجتماع ، لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولا بد عند الاجتماع من رأس . . حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم[1] » . . وروى الإمام أحمد فى المسند

(١) رواه أبو داود من حديث أبى سعيد وأبى هريرة .

عن عبد الله بن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحلُّ لثلاثة أن يكونوا بفلاة من الأرض إلا أمّروا عليهم أحدهم » .

ثم يقول :

« فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر .. تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع .

« ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوّة وإمارة ، وكذلك سائر ما أوجبه الله .. من الجهاد ، والعدل ، وإقامة الحج ، والجمع ، والأعياد ، ونصرة المظلوم ، وإقامة الحدود . . لا تتم إلا بالقوة والإمارة .

« ولهذا روى « أن السلطان ظل الله فى الأرض » . . ويقال : « ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان » .

« والتجربة تبين ذلك . . فقد كان السلف كالفضل بن عياض ، وأحمد ابن حنبل وغيرهما يقولون : لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان » .

ثم يقول :

« فالواجب اتخاذ الإمارة دينا وقربة يُتقرّب بها إلى الله ، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات[1] » .

وابن تيمية — كما ترى — واضح فى رأيه حين يقطع بأن الخلافة واجبة شرعاً ، وأن المسلمين مأمورون بألا يعيشوا إلا فى ظل إمارة وحكومة ، وإلا فقد خالفوا أمر دينهم ، وتعرضوا للذم ، واستوجبوا العقاب . .

ويقول مرة أخرى :

« فالمقصود بالولايات إصلاح دين الخلق - الذى متى فاتهم خسروا خسراناً

---

(١) السياسة شرعية لابن تيمية ص ٧٧ .

مبينا ، ولم ينفعهم ما نعموا به فى الدنيا — وإصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر الدنيا[١] » .

ومستند ابن تيمية فى هذا — كما ترى — هو أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شريعة الإسلام الواجب على المسلمين التزامها ، وتنفيذها .. ولا يمكن أن يوكل ذلك إلى الأفراد حتى لا تعمّ الفوضى ، وحتى لا يجعل كل واحد من نفسه سلطانا على غيره . . فاقتضت الحكمة أن يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقامة الحدود وغير ذلك — إلى يدٍ قوية يقيمها الناس عليهم ، فيرضوْن حكمها ، وينزلون عليه . . وذلك هو الخليفة أو الحاكم .

يقول ابن تيمية :

« روى الإمام أحمد فى مسنده عن ديلم الحميرى رضى الله عنه قال : «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت يارسول الله : إنا بأرض نعالج بها عملا شديداً ، وإنا نتخذ شرابا من القمح نتقوّى به على أعمالنا ، وعلى برد بلادنا . . فقال : « هل يسكر ؟ » قلت : نعم ، قال : « فاجتنبوه » . . قلت : إن الناس غيرُ تاركيه ! قال : فإن لم يتركوه فاقتلوهم» .. ويعلق ابن تيمية على هذا الحديث فيقول : « هذا ، لأن المفسد كالصائل[٢] ، فإن لم يندفع الصائل إلا بالقتل قتل ! »

فمن لهذا الأمر يتولاه فى مثل هذه الحال لو أن هؤلاء القوم الذين أشار إليهم ديلم الحميرى قد أصروا على أن يشربوا هذا الشراب المسكر ؟ إنه لا يمكن أن يقوم له الأفراد ، ولا الجماعة فى مجموعها إلا أن يكون على رأسها حاكم ينفذ أمر رسول الله فيهم .

وقد أشرنا من قبل إلى مارضيه « ابن تيمية » من القول بأن « السلطان

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ١١ .

(٢) أى الذى يهيج الناس ، ويتهددهم بالسيف أو نحوه مما يعرض حياة الناس للهلاك .

ظل الله فى الأرض » . . وهذا معناه أن الحاكم يستمد سلطانه من الله ، وأنه إنما يحكم الناس بهذا السلطان . .

دخل أبو مسلم الخولانى على « معاوية بن أبى سفيان » فقال : السلام عليك أيها الأجير ! فقالوا : قل : السلام عليك أيها الأمير ! فقال : السلام عليك أيها الأجير ! فقالوا : قل : أيها الأمير ، فقال : السلام عليك أيها الأجير ! فقالوا : قل الأمير . . فقال معاوية : دعوا أبا مسلم ، فإنه أعلم بما يقول ! !

فقال — أبو مسلم — إنما أنت أجير . . استأجرك رب هذه الغنم لرعايتها ، فإن أنت هَنَأْتَ[1] جرباها ، وداويت مرضاها ، وحبست أولاها على أخراها ، وفّاك سيدك أجرك ، وإن أنت لم تهنأ جرباها ، ولم تداو مرضاها ، ولم تحبس أولاها على أخرها عاقبك سيدك » .

ويقول ابن تيمية تعليقا على هذا : وهذا ظاهر فى الاعتبار ، فإن الخلق عباد الله ، والولاة نواب الله على عباده ، وهم وكلاء العباد على نفوسهم ، بمنزلة أحد الشريكين من الآخر . . ففيهم معنى الولاية والوكالة » [2]

الولاة نواب الله على عباده . . والولاة هم الحكام ، سواء أكانوا خلفاء ، أم غير خلفاء . . فالحاكم — فى رأى ابن تيمية — قائم على المحكومين نائباً عن الله . . وليس معنى هذه النيابة أن يستبد بالناس . . كلا . . إنه وكيل عن المحكومين . . يتولى سلطته بهذه الصفة . . فهم الذين وكلوه ، ووكلوا إليه تدبير أمرهم ، والقيام على شؤنهم .

ولكن يدوهنا لسائل أن يقول : مامعنى النيابة عن الله إذن ؟ وما أثرها فى سلطة الحاكم ، وفى صفته إذا كان فى الوقت نفسه وكيلا عن المحكومين ؟

والجواب على هذا أن نيابة الحاكم عن الله ليست نيابة حقيقية ، وإنما هى على سبيل التمثيل ، إذ كان الحاكم — أيا كان من الحكمة أو النزق — يمثل السلطة

---

(١) هنأ جرباها : أى دهنها بالقطران ليداوى ما بها من جرب .

(٢) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٦ .

العليا القائمة على الناس ، وليس فوقه إلا الله . . وعلى يديه تجرى أمور العباد على أية صورة يريدها ، فهو — والحال كذلك — فى مقام المتصرف فيما لله سبحانه وتعالى التصرفُ فيه على الحقيقة . . وهذا التصور لمقام الحاكم فى الناس ، ونيابته عن الله إنما هو بالنسبة للمجتمع المؤمن بالله — أما المجتمع الذى لا يؤمن بالله ، فلا مفهوم لهذا التصوير عنده !

أما أثر هذه النيابة فليس واحداً على الدوام ، وفى كل حال . .

فقد يقع منها فى نفس الحاكم أحاسيس طيبة كريمة ، يستشعر بها المسئولية التى حمّله الله إياها ، والأمانة التى وضعها بين يديه وأقامه على حراستها . . فهو فى حذر وحرص من أن يسقط أو ينحرف . . يذكر الله ، ويستحضر جلاله وعظمته ، فلا يرى نفسه شيئاً إلى جانب جلال الله وعظمته !

وقد يقع من هذه « النيابة » عن الله فى نفوس بعض الحكام نوازع الغرور والاستعلاء ؛ فيركبه الطيش ؛ ويستبد به النزق ؛ ويحمله ذلك على أن يكون الإلـٰه المتسلطة على العباد ؛ ولكنه إلـٰه بلا عقل ، ولا حكمة . . !

أما المحكومون فإن الإحساس الذى يجدونه من هذا التصور للحاكم فهو إحساس الولاء والتسليم للحاكم ، وتقبل ما يأتى به من خير أو شر . . فى حمد ورضى . . لأن تلك مشيئة الله ، وذلك نائبه الذى يبرم مشيئته ، وينفذ قضاءه !

ولا شك أن فى هذا عدواناً على إنسانية الإنسان ، وجوراً على وجوده ، وتضييعاً لذاتيته بإخضاعه لتلك السلطة المطلقة ، المسلطة عليه من السماء . . ولا شك أن الإسلام لم يجعل لإنسان — غير الأنبياء — سلطاناً على الناس ، مستمداً من جهة غير جهتهم هم . . حيث يستمد الحاكم سلطانه منهم ، لا من السماء !

ثانيا :

رأى ابن خلدون :

ولا بن خلدون رأى فى « الخلافة » يقارب رأى ابن تيمية فى كونها واجبة

شرعاً ، وأنها حين تقوم إنما تقوم باسم الدين وتعمل بمقررات شريعته . .

ولكن ابن خلدون - شأنه فى معالجة مثل هذه المسائل — يتخذ أسلوب المنطق ، ومنهج الفلسفة فى تقرير نظرياته ، فيقيم المقدمات التى يبنى عليها النتائج التى يصل إليها عن طريق هذه المقدمات . يقول هنا :

« لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضرورى للبشر ، ومقتضاه التغلب والقهر ، اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية — كانت أحكام صاحبه - الملك - جائرة عن الحق ، مجحفة بمن تحت يده من الخلق فى أحوال دنياهم ، لحمله أياهم — فى الغالب — على ماليس فى طوقهم من أغراضه ، وشهواته ، فتعسر طاعته لذلك ، وتجىء العصبية المفضية إلى الهرج ، والقتل !

« فوجب أن يرجع فى ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة ، يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها ، كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم » .

يريد ابن خلدون أن يقرر هنا وجوب قيام قانون محدد المعالم ، واضح الحدود ، ليعرف الناس منه ما يأخذون ومايدعون من الأمور ، حتى لا تكون أمورهم جارية على هوى الحاكم ، يبرم وينقض منها مايشاء .. متى يشاء. فالقانون هو الذى يقوم على الحاكم والمحكومين جميعاً . . يسوون حسابهم على حسب ماتقضى به أحكامه . . حتى ولو كانت هذه الأحكام جائرة . . فإنها على ما بها من ظلم وانحراف خير من أن يحكم الناس بلا قانون .

يقول ابن خلدون : « وإذا خلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب أمرها ، ولا يتم استيلاؤها .. «سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا»[1]

القانون الوضعى والقانون السماوى :

ثم يقول : « فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة ، وبصرائها كانت سياسة عقلية .

وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ، ويشرعها ، كانت سياسة دينية ، نافعة فى الدنيا وفى الآخرة .

(١) سورة الأحزاب آية ٦٢

وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط ، وإنما هو دينهم المفضى بهم إلى السعادة فى آخرتهم . .

« فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك فى جميع أحوالهم : من عبادة، ومعاملة . حتى فى الملك الذى هو طبيعى للاجتماع الإنسانى ، فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطا بنظر الشارع . .

ثم يقول بعد هذا :

« فما كان منه — أى من الملك — بمقتضى القهر والتغلب ، وإهمال القوة الغضبية فى مرعاها — فجور ، وعدوان ومذموم عنده - أى عند الله - كما هو مقتضى الحكم والسياسة .

وما كان منه — أى الملك — بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضا ، لأنه نظر بغير نور الله . . « ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور » .

ما المطلوب إذن ؟

يقول : « فوجب بمقتضى الشرع حمل الكافة على مقتضى الأحكام الشرعية فى أحوال دنياهم . وآخرتهم » .

ومن يتولى ذلك ؟

يجيب :

« وكان هذا الحكم لأهل الشريعة ، وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم ، وهم الخلفاء » .

مجمل الرأى فى هذا :

ثم يلخص هذه المقررات : — على عادته — فيقول :

« فقد تبين لك من ذلك معنى الخلافة . .

« وأن الملك الطبيعى : هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة .

« والسياسى : هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية ، ودفع المضار .

والخلافة : هى حمل الكافه على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية ، والدنيوية الراجعة إليها : إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى — أى الخلافة — فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به »[1] .

هذا هو رأى ابن خلدون فى « الخلافة » حين تحمل هذا الاسم ، وتحكم الناس به . . إنها خلافة عن صاحب الشرع ، فى حراسة الدين . . وفى سياسة الدنيا بالدين .. لأن أحوال الدنيا — كما يرى ابن خلدون — ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة . وإنها تبع لهذه المصالح .

وواضح من رأى ابن خلدون هنا أنه لم يجعل « الخلافة » هى الحكم الذى لا يقوم على الناس غيره ، بل إنه يقرر ماينطق به الواقع ، من أن هناك صوراً للحكم ، بعضها مطلق . فهو ظالم جائر ، يقوم على القهر والجبروت ، وبعضها يقوم على العقل والحكمة . . ولكن الحكم المثالى — فى نظر ابن خلدون — هو الذى يقوم على الشريعة السماوية ، ويخضع لقانونها .

ومن هذا فإنه إذا قامت فى المسلمين «خلافة» فمعناها أنها « خلافة » عن الرسول ، وأنها تستظل بشريعة الإسلام ، وتجرى على أحكامه . . وإلا كان لها أن تتحول عن هذا المقام ، وأن تتخذ لها من الأسماء ما يناسبها ، فتكون ملكا ، أو سلطانا ، أو نحو هذا .

وابن خلدون — مع هذا — لا يرى الخلافة ضربة لازب على المسلمين فى كل حال . . إنها لا تقوم فى الناس إلا حين تتهيأ لها النفوس التى تتسع لها ، والعزمات التى تطيق حملها . .

ولهذا ، فإنه يرى انقلاب الخلافة إلى « الملك » أمراً طبيعياً . . حيث يلبس الناس لكل حال لباسها . . فإذا كانوا على بصيرة من دينهم ، وعلى قرب

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٩

منه كانت «الخلافة» وكانت سياستها هى الخطة الراشدة، التى يساس الناس بها .. أما إذا دخلت الدنيا على دينهم، وأجلته من نفوسهم — كانت سياسة الملك بجميع صوره أولى بهم وأجدى عليهم . . ولعلنا نذكر هنا الحديث الشريف : «كما تكونوا يولىّ عليكم» كما نذكر قوله صلى الله عليه وسلم : «الأئمة من قريش . . أبرارها أمراء أبرارها ، وفجارها أمراء فجارها» .

يقول ابن خلدون : «فقد رأيتَ كيف صار الأمر — أمر الخلافة — إلى الملك ، وبقيت معانى الخلافة . من تحرّى الدين ومذاهبه ، والجرى على منهاج الحق ، ولم يظهر التغير إلا فى الوازع الذى كان ديناً ثم انقلب عصبية وسيفاً !

«وهكذا كان الأمر لعهد معاوية، ومروان وابنه عبد الملك ، والصدر الأول من خلفاء بنى العباس إلى الرشيد وبعض ولده . . ثم ذهبت معانى الخلافة ، ولم يبق إلا اسمها ، وصار الأمر ملكا بحتاً ، وجرت طبيعة التغلب إلى غايتها ، واستعملت فى أغراضها من القهر ، والتقلب فى الشهوات والملاذ . . . ثم ذهبت الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب ، وفناء جيلهم ، وتلاشى أحوالهم ، وبقى الأمر ملكا بحتاً كما كان الشأن فى ملوك العجم بالمشرق ، يدينون بطاعة «الخليفة» تبركا . والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم ، وليس للخليفة منه شىء»[1] .

فابن خلدون لا يرى «الخلافة» خلافة إلا إذا كانت قائمة على الشريعة ، وكان الخليفة منفذا لأحكام تلك الشريعة — ولكن الحدود التى تفصل بين الحكم الشرعى ، والحكم غير الشرعى كثيراً ما تكون غير واضحة ، وكثيراً ما يختلف الناس عليها . . وكنا نود لو أن ابن «خلدون» عرض لهذا الأمر . فربما كان له عنده حل تستريح إليه النفوس .

(١) مقدمه ابن خلدون ص ١٠٧

ثالثـــاً :

رأى المـاوردى :

يرى « المـاوردى »[1] أن « الخلافة » الإسلامية خلافة عن النبىّ . . كما يرى وجوب قيامها فى الجماعة الإسلامية . .

يقول « المـاوردى » : « الإمامة موضوعة لخلافة النبوة . . موضوعة لحراسة الدين والدنيا . . وهى نظام واجب بالإجماع .

« يقيمه — أى هذا النظام — بعضهم على العقل ، وذلك لأنه لولاه لكان الناس فوضى مهملين ، وهمجاً ضائعين .

« ويقيمه البعض الآخر على الشرع دون العقل ، وذلك لأن أول اختصاص للخليفة حفظ الشرع . . فتعيين الإمام واجب حتم على الجماعة الإسلامية . . والقرآن يوصى بطاعة ولىّ الأمر ، وإذن فمصدر سلطة الإمام هو الله تبارك وتعالى »[2]

تلك هى بعض وجهات النظر عند القائلين بأن الخلافة أمر من أمور الدين ، وسنرى فى البحث الذى سنعرض له عن : « الخلافة والحياة » جوانب أخرى من وجهات النظر التى تتجه هذا الاتجاه .

والآن نلتقى بالجبهة الأخرى التى تعارض هذا الرأى ، وترى أن « الخلافة » ليست من أمور الدين ، وإنما هى شأن من شئون الناس ، يصرفونه كما يصرفون أى أمر من أمورهم على الوجه الذى يرونه محققاً لمصلحتهم .

الخلافة ليست من الدين

رأى الأشعرى :

يرى الإمام الأشعرى أن الإمامة تثبت بالاتفاق والاختيار ، دون النص

(١) توفى سنة ١٠٥٨ م .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٩١

والتعيين ، ومعنى هذا أن الخليفة قد تسلّم الخلافة من يد الناس، لا من النبوة .. بوصاية ، أو ولاية ، ومعنى هذا أيضاً أن سلطانه فيما يملكه الناس ، ويفوضونه فيه ، والناس لا يملكون إلا ما كان من أمر الدنيا . . أما ما كان من الدين فليس لهم سلطان قائم عليه ، يتصرفون فيه تصرف المالك فيما ملك .

يقول الأشعرى :

« إن ثبوتها — أى الإمامة — بالاختيار من الأمة ، باجتهاد أهل الاجتهاد منهم ، واختيارهم من يصلح لها . . وكان جائزاً ثبوتها بالنص ، غير أن النص لم يرد فيها ،على واحد بعينه ، فصارت الأمة فيها إلى الاختيار » .

• ويردّ الأشعرى على القائلين بالنص على الإمام ، وهم الشيعة : فيقول :

« القائلون بالنص اختلفوا فى علة وجوب النص ، فمنهم من بناه على أصله فى إبطال الاجتهاد ، ومنهم من بناه على أصله فى وجوب عصمة الإمام ،وزعم أن العصمة لا تعرف بالاجتهاد ، وإنما يعرف المعصوم بالنص »

وسنعرض لآراء الشيعة فى الإمامة فى فصل خاص إن شاء الله .

ثم يقول الأشعرى :

« ودليل الجمهور : أن النص على الإمام لو كان واجباً على الرسول صلى الله عليه وسلم لبينه على وجه تعلمه الأمة ، علماً ظاهراً، لا يختلفون فيه ، لأن فرض الإمامة يعم الكافة معرفته كمعرفة القِبلة وأعداد الركعات .

«ولو وجد النص منه — أى من النبي — هكذا ، لنقلته الأمة بالتواتر ، ولعلموا صحته بالضرورة ،كما اضطروا إلى علم ما تواتر الخبر فيه . .

«فلما كنا مع كثرة عددنا وزيادتنا على جميع فرق المدعين للنص غير مضطرين إلى العلم بذلك ، علمنا أن النص على واحد بعينه للإمامة لم يتواتر النقل فيه ، وإنما روى فيه أخبار آحاد من جهة الروافض ، وليست لهم معرفة بشروط الأخبار ، ولا رواتهم ثقاة .. وبإزائها أخبار أشهر منها ، فى الىص على غير من يدعون النص عليه . . وكل منها غير موجب للعلم .

« و ذا لم يكن فيه — أى النص — ما يوجب العلم ، صارت المسألة اجتهادية. وصح فيها الاختيار والاجتهاد »[1]

٢ — رأى شيعى :

ومن الغريب أن نجد من رجال الشيعة ، وهم القائلون بالنص على الإمام . نجد منهم من يقول : بأن الإمامة شورى بين المسلمين يختارون من يرونه من بينهم . .

فهذا « سليمان بن جرير » رئيس جماعة السليمانية من الشيعة . . يقول : « إن الإمامة شورى فيما بين الخلق ، وأنها تصح فى المفضول مع وجود الأفضل . ويقول : « الإمامة من مصالح الدين ، ليس يحتاج إليها لمعرفة الله وتوحيده ، لكنها يحتاج إليها لإقامة الحدود ، والقضاء بين المتحاكين ، وولاية اليتامى والأيامى ، وحفظ البيضة، وإعلاء الكلمة ، ونصب القتال مع أعداء الدين حتى يكون للمسلمين جماعة ، ولا يكون الأمر فوضى بين العامة »[2]

ونحن نرى « سليمان بن جرير » ينوط بالإمام هذه الأعباء والتكاليف الدينية الكثيرة ، وليس هذا إلا أنه حاكم اختاره المسلمون . . وأن على رئيس الجماعة أن يتجه بها الاتجاه الذى ترتضيه ، وقد ارتضت هذه الجماعة الدين الإسلامى شريعة لها ، وما يكون للحاكم — — على هذا التقدير — أن يأخذ بهم اتجاها غير هذا الاتجاه !

وإذن فالخطة الدينية التى وضعها « سليمان » بين يدى الخليفة أو على عاتقه ليست متلقاة من السماء ، وإنما هى تفويض من الناس ! بحكم أنهم مسلمون ، ولا شريعة لهم إلا ما شرعه الدين من تعاليم وأحكام .

٣ — اتجاهات وآراء فى يوم السقيفة :

وقد رأينا فى الكلمات والخطب التى ألقيت يوم السقيفة حججاً تقام من

---

(١) الملل و لنحل هامش جـ ١/ ص ١٤٤
(٢) الملل والنحل جـ ١/ ص ٢٦

المهاجرين والأنصار لاستحقاق الخلافة لهذا الفريق أوذاك . . وفى هذه الحجج تبدو الخلافة فى صورة « مُـلْك » يُنال بالعصبية أو بالوراثة . . أو فى صورة « وكالة » أو «خلافة» عن النبيّ .. أو فى صورة سلطان مستمد من الله .. وغير هذا من الصور التى كانت تبدو فيها نظرات الناظرين إلى من يحمل أمر المسلمين بعد النبيّ . .

١ — فهذا « سعد بن عبادة » الأنصارى ، يرى أن سابقة الأنصار فى الإسلام وإعزازهم للنبي وأصحابه ، وإيواءهم لهم ، وجهادهم فى سبيل الله — هذا كله لله ، وفى سبيل دين الله . . فهم لهذا أحق الناس بأن يخلفوا رسول الله على المجتمع الذى أقامه بهذا الدين .

٢ — وأبو بكر رضى الله عنه يجعل سابقة المهاجرين إلى الإسلام ، واحتمالهم الصدمات الأولى فى سبيله، وإخراجهم من وطنهم وأهلهم وأموالهم من أجل هذا الدين — فى هذا كله ما يقابل فضل الأنصار على الإسلام أو يربو عليه ، ثم لا يقف أبو بكر عند هذا بل يعزّز ذلك بالعصبية التى للمهاجرين من قريش ، وما لقريش من مكانة فى العرب .. وأنه بهذه العصبية تخضع العرب للقرشى الذى يختاره المسلمون أميراً عليهم ، وليس للدين وحده يستجيب الناس ويخضعون . . إذ لابد للدّين أن تسانده قوة مادية تحمل الناس على الولاء والخضوع !

٣ — والحباب بن المنذر الأنصارى — وهو من خطباء ، هذا اليوم — يقول لقومه : أمْـلِـكوا عليكم أمركم ، فإنه بأسيافـكم قام الدين » !

٤ — « وبشير بن سعد » الأنصارى الخزرجى يدعو الأنصار إلى غير ما عقدوا العزم ، ويصرفهم عن هذا الأمر ، فقريش أحق به وأولى ..

يقول : « يامعشر الأنصار . . إنا والله لئن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين ، وسابقة فى هذا الدين — ما أردنا به إلا رضا ربنا ، وطاعة نبينا ، والـكدح لأنفسنا » !

ومعنى هذا أن الخلافة التى يطلبونها ليست فى شىء إلى ماقدموا للإسلام من تضحية وجهاد . . ذلك فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته . . والخلافة ملك وسلطان . . حظ الدنيا فيها أكثر من حظ الدين !

ثم يقول : «فما ينبغى أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغى به من الدنيا عرَضاً . . فإن الله ولىّ النعمة علينا بذلك . . »

وإذن فهذا الذى يجتمع له القوم اليوم هو شأن من شئون الدنيا.وعرض من أعراضها . . ثم يقول :

« ألا إن محمدًا صلى الله عليه وسلم من قريش ، وقومه أحق به وأولى » ! وإذن — أيضا — فالأمر المتنازع فيه ليس شأنا من شئون الدين الذى حمل النبي رسالته، والذى حظ المسلمين فيه سواء ، ومكانتهم فيه من النبي ومنزلتهم عنده على قدر ماقدّموا لهذا الدين ، وما جاهدوا فى سبيله . . وإنما هذا الذى يتنازعونه هو من أمور الدنيا التى يتقدم فيها قوم على قوم بالقرابة والعصبية .. «محمد من قريش .. وقومه أحق به وأولى . . !

٥ — والعباس — عم النبي — وكان ممن تخلف عن بيعة أبى بكر — فجاء أبو بكر وعمر يدعوانه إلى البيعة لأبى بكر والدخول فيما دخل فيه المسلمون .. وقال له أبو بكر فيما قال : « ولقد جئناك ، ونحن نريد أن نجعل لك فى هذا الأمر نصيبا يكون لك ، ويكون لمن بعدك من عقبك . . إذ كنتَ عمّ رسول الله وإذ كان الناس قد رأوا مكانك، ومكان صاحبك — أى علىّ بن أبى طالب — فعدلوا الأمر عنكم . . على رسْلكم بنى هاشم . . فإن رسول الله منا ومنكم ! »

وكان مما أجاب به « العباس » « أبا بكر » . . . : « إن الله بعث محمدا كما وصفت نبيا ، وللمؤمنين وليا ، فمنّ على أمته به حتى قبضه الله إليه ، واختار له ماعنده . . فخلّى على المسلمين أمورهم ليختاروا لأنفسهم ، مصيبين الحق ، لا مائلين بزيغ الهوى . .

« فإن كنتَ برسول الله طَلَبْتَ ؛ فحقّنا أخذت .. وإن كنت بالمؤمنين

أخذت فنحن منهم ، فما تقدمنا فى أمرك فرطا ، ولا حللنا وسطا ، ولا برحنا سخطا . . وإن كان الأمر وجب لك بالمؤمنين ، فما وجب إذ كنا كارهين ! ! ما أبعد قولك إنهم طعنوا عليك من قولك إنهم اختاروك ، ومالوا إليك . . وما أبعد تسميتك خليفة رسول الله من قولك خلى — أى الرسول — على الناس أمورهم ، ليختاروا . . فاختاروك ! ! »[1]

فالعباس إذ يحاجّ « أبا بكر » يجعل من ميراثه لرسول الله حجة يدفع بها «أبا بكر» عن الخلافة ، إذ كان مما حاج أبو بكر به الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش ، ولا ترضى العرب أن تكونَ الإمرة فى الأنصار ، ونبيهم من غير الأنصار !

٦ — أما « علىّ ابن أبى طالب » رضى الله عنه ، فإنه كان يرى أن بنى هاشم — رهط النبى — هم أولى الناس بالخلافة لهذه القرابة التى يمتّون بها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن «عليا» أحق بنى هاشم وأولاهم بميراثهم من النبىّ ، إذ هو زوج . « فاطمة » بنت النبى ، وأبو سبطى رسول الله : الحسن والحسين ، رضى الله عنهما . .

لمـا بايع الناس أبا بكر البيعة العامة فى مسجد رسول الله ، بعث مولاه «قُنفذا» إلى « على » وقال له : اذهب وادع لى علياً . . فذهب إلى « على » ، فقال له : « على » : ما حاجتك ؟ قال : يدعوك خليفة رسول الله ! فقال علىّ : « لسَرِيع ما كذبتم على رسول الله ! » . . فلما ذهب إليه «قنفذ» مرة ثانية . . رفع « على » صوته وقال : سبحان الله ! لقد ادعى ما ليس له ! » .

وجاء عمر بن الخطاب إلى « على » — رضى الله عنهما — ومعه جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ منه البيعة لأبى بكر ، فأبى عليهم ذلك ، فأخذوه إلى أبى بكر ، وهو يقول : أنا عبد الله ، وأخو رسول الله ، حتى انتهوا به إلى أبى بكر . .

---

(١) انظر الإمامة والسياسة ، وشرح أبى الحديد على نهج البلاغة ، والجزء الرابع من كتاب السيرة لابن هشام .

فقيل له بايع ! فقال : أنا أحق بهذا الأمر منكم . . لا أبايعكم ! وأنتم أولى بالبيعة لى ! أخذتم هذا الامر من الأنصار ، واحتججتم عليـــه بالقرابة من رسول الله ، فأعطوكم المَـقَـادَة ، وسلّموا إليكم الإمارة ، وأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار . . فأنصفونا — إن كنتم تخافون الله — من أنفسكم ، واعرفوا لنا من الأمر مثل ما عرفت الأنصار لكم ، وإلا فبوءوا بالظلم ، وأنتم تعلمون » . .

ثم قال :

« يا معشر المهاجرين .. الله . . الله . . لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته ، إلى بيوتكم ودوركم ، ولا تدفعوا أهله عن مقامه فى الناس وحقّه . . فوالله يا معشر المهاجرين لنحن — أهلَ البيت — أحقُّ بهذا الأمر منكم ، ما كان منا القارىء لكتاب الله ، الفقيه لدين الله ، العالم بالسّنة ، المضطلع بأمر الرعية .. والله إنه لفينا ، فلا تتبعوا الهوى ، فتزدادوا من الحق بعدا ! » .

ولقد ظل هذا الإحساس الذى ملأ صدر علىّ مرارة بالظلم من سلب هذا الحق الذى يراه له — ظل هذا الإحساس قائما فى كيانه إلى أن وَلِىَ الخلافة ، واختلف عليه المختلفون ، فغصّ حلقه بهذه المرارء التى حركتها هذه الأحداث من مكامنها . . فقال فى خطبته المشهورة بالشّقشقيّة :

« أما والله ، لقد تقمّصها — أى الخلافة — ابن أبى قحافة ، وهو يعلم أن محلّى منها محلُّ القطب من الرّحى . . ينحدر عنّى السّيل ، ولا يَرْقَى إلىّ الطير . فسَدَلْت دونها ثوباً ، وطويت عنها كَشْحا . وطفقت أرتَئِى بين أن أصول بيد جَذّاء[1] — أو أصبر على طخْية[2] عمياء يهرم فيها الكبير ، ويشيب فيها الصغير ، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربّه . . فرأيت الصبرَ على

---

(١) اليد الجذاء : أى المقطوعة ، كناية عن أنه لم يكن معه ناصر يقف إلى جواره .

(٢) الطخية العمياء : أى الظلام الدامس . . (مثلثة الطاء)

هاتا أحجَى . فصبرت وفى العين قَـذَى ، وفى الحلق شجًى ، أرى تراثِى نهبا ! حتى مضى الأول لسبيله ، فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده . . ثم تمثل بقول أعشى همدان :

شَتّان ما يومى على كورها[1]   ويوم حيّـــانَ أخى جابِرِ

فيَا عَجَبا . . بينا يستقيلها[2] فى حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته ، لشدّ ما تشَطّرا ضرعيها[3] » .

٧ — ولما لقى أبو بكر رضى الله عنه فاطمة رضى الله عنها، بعد أن تمت له البيعة، ولم يجح « علىّ » فى حلّ هذا العقد الذى عقده الناس لأبى بكر — قالت له « فاطمة » : « والله لأدعوَنّ عليك فى كل صلاة أصليها .. فخرج أبو بكر باكياً .. فاجتمع إليه الناس ، فقال لهم : « يبيت كل رجل منكم معَانِقاً حليلته ، مسرورا بأهله ، وتركتمونى وما أنا فيه ؟ . . لا حاجة لى فى بيعتكم ! ! أقيلونى بيعتى !.. قالوا : يا خليفة رسول الله : إن هذا الأمر لا يستقيم ، وأنت أعلمنا بذلك !.. إنه إن كان هذا لم يقم لله دين ! فقال : والله لولا ذلك ، وما أخافه من رَخَاوة العروة ما بتّ ليلةً ، ولى فى عنق مسلم بيعة ! » .

٨ — ولمـا حضرت الوفاة أبا بكر رضى الله عنه دعا الناس إليه ثم قال : أيها الناس . . لقد حضَرَنى من قضاء الله ما ترون ، وإنه لا بد لكم من رجل يلى أمركم ، ويصَلى بكم ، ويقاتل عدوكم » .

٩ — وحين تألّب المتألّبون على عثمان رضى الله عنه ، وقالوا له اختلعْ من الخلافة قال : « ما كنت لأنزَعَ قيصًا قمّصَنيه الله ! » .

---

(١) كور الناقة : رحلها .

(٢) يستقيلها : أى يطلب إقالة نفسه من الخلافة بعد أن ضاق صدره بالخلاف الذى كان بينه وبين فاطمة رضى الله عنها والضمير راجع لأبى بكر .

(٣) تشطرا ضرعيها : يريد أن أبا بكر وعمر اقتسما الأمر بينهما . هذا أخذ شطرا ، وجاء بعده . عمر فأخذ الشطر الآخر .

وحين أحاط الناس به .. قالوا له : إنك ضربتَ رجالا (١) من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فأَقِدْ (٢) من نفسك مَن ضربتَه وأنت له ظالم ! فقال : الإمام يخطىء ويصيب ، فلا أقيد من نفسي ، لأنى لو أقَدْتُ كل من أصبته بخطأ أتى على نفسى (٣) » .. فقالوا له : تبرَّأ من الإمارة . . فقال أما أن أتبرأ من الإمارة فإن تصلبونى أحبَ إلىّ من أن أتبرأ من أمر الله عزّ وجل وخلافته (٤) » .

١٠ — لما ولى أبو بكر الخلافة ارتدّ كثير من قبائل العرب ، وقد حسب فى المرتدين أقوام كثيرون لم يكن ذلك عن ارتداد منهم عن الدين ، وإنما كان خروجاً على طاعة أبى بكر ، وتأبّياً عن الدخول تحت سلطانه ، إذ حسبوا أن المسلمين لا سلطان لأحد عليهم بعد الرسول ، وأنه بوفاة الرسول قد انحلّ هذا السلطان ، الذى كانوا يخضعون له بحكم الدين ، ولهذا قبضوا أيديهم عن الزكاة ، وقال قائلهم : إنما كنا نؤديها للرسول ليطهرنا ويزكينا بها ، ويصلى علينا من أجلها ،حيث يقول الله تعالى : « خذْ من أموالهم صدقةً تطهرهم ، وتزكيهم بها ، وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم » (٥) .. فمن لهذا بعد الرسول ؟ ومن تكون له تلك المنزلة التى يملك بها تطهير النفوس وتزكيتها ؟

ولهذا لم يكن كلُّ من حسِبوا فى المرتدين مرتدين عن الإسلام بهذا المعنى الذى فهم من كلمة مرتدين ، وإنما هم أو كثير منهم متأولون . . يؤمنون بالله ، ويقيمون الصلاة !

يقول ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » . وجعلت وفود العرب تقدم المدينة — بعد بيعة أبى بكر — يقرّون بالصلاة ، ويمتنعون من أداء الزكاة ، ومنهم من امتنع من أداء الزكاة إلى الصديق » ، يعنى أنهم لا يمنعون الزكاة فيما

(١) يشيرون إلى عمار بن ياسر ، وكان عثمان قد ضربه ضربا موجعا أثناء هذه الفتنة .

(٢) أى أعطه القود) وهو القصاص منه .

(٣) أى أتلف ذلك نفسى .

(٤) من كتاب أحاديث أم المؤمنين عائشة ص ١٠٠ وما بعدها .

(٥) سورة التوبة آية ١٠٤

بينهم ، بل يمتنعون من أدائها إلى أبى بكر رضى الله عنه ، لأنهم غير معترفين بأى سلطان أو سلطة له أو لغيره بعد النبى !

وقد عبر بعض شعرائهم[١] عن هذا الإحساس بقوله :

أطعنا رسولَ الله ما كان بيننا   فواعجباً ما بال ملكِ أبى بكر ! ؟
أيورِثنا بكراً إذا مات بعده   وتلك لعمر الله قاصِمة الظهر !

وقفة مع ما تقدم :

والذى ينظر فى هذه الأقوال ، وفى تلك الآراء التى دارت حول الخلافة وصلتها بالدين أو عدم صلتها يجد أن ما بين يديه من هذه الأقوال وتلك الآراء ، لا يعين على الأخذ بوجهة نظر فريق دون فريق . . ذلك إذا وقف من الخلافة ومن المختلفين فيها موقفاً محايداً ، وإذا نظر إليها نظرة بعيدة عن ميدان المعركة ! . .

إن « الخلافة » لم تبد للناس فى صورة واحدة ، ولم تأخذ مظهراً واحداً ، بل كانت تختلف صورها ، وتتبدل مظاهرها من خليفة إلى خليفة . . فإنها قد ظهرت من خلال سيرة عمر وسياسته مدة خلافته .. كما ظهرت من خلال سيرة يزيد بن معاوية وسياسته مدة خلافته . . وكثير من الناس رأى صورة الخلافة ومظهرها بعينيه فى الحالين . . فهل يمكن أن يكون مفهوم الخلافة عنده واحداً فى كلٍّ من خلافة « عمر » وخلافة « يزيد » ؟ .

وقد قلنا من قبل إن قيام « أبى بكر » بعد الرسول قد ألقى على الخلافة لوناً زاهياً واضحاً من الدِّين ، إذ كانت مشاعر الناس لا تزال وحدة واحدة ، تجمع بين الدين والدنيا ، وكانت السياسة التى أقام عليها النبى صلى الله عليه وسلم المجتمعَ الإسلامى سياسة دينية ودنيوية معاً ! .

---

(١) ينسب هذا الشعر إلى الحطيل بن أوس ، وفى هامش الأحكام السلطانية هو « حارثه ابن سراقة » وفى منتهى الآمال للقمى أن قائل هذا الشعر هو مالك بن نويرة صاحب القصة المشهوره مع خالد ابن الوليد .

فإذا رأينا فى أول مجتمع إسلامى قام لينظر فى شأن الحكومة التى تقوم عليه — إذا رأينا فى هذا المجتمع من يلبس الخلافة هذا الثوب الفضفاض من الدين حتى لا يبدو للدنيا شىء منها ، وإذا رأينا من يخلع عليها خِلع الملك والسلطان فلا يكاد يدع للدين فيها مكانا — إذا رأينا هذا وذاك فينبغى ألا نعجب له ، وألا نرى فى أسباب هذا الخلاف شيئاً يعود إلى الهوى لالتماس الحجة والغلب . . وإنما هو خلاف فى أمر يعطى الناظرَ إليه أكثر من رأى ، إذا هو نظر إليه بعينيه معاً ، فالخلافة الإسلامية دينية ودنيوية معاً . . ينظر إليها الانسان من جهة فيراها « دينا » يجب على الخليفة أن يقوم فى ظله ، وأن يعمل بوحيه ، وأن يقوّم على المجتمع الإسلامى بكتاب الإسلام ، وسنة نبى الإسلام ! ثم لا يكون للدنيا إلا أن تجىء تبعاً لما يأخذ الخليفة أو يدع ، على حسب مايحمله عليه دستور الإسلام ، وشريعة الإسلام ! .

وينظر إليها ناظر من جهة أخرى فيراها « سياسة » وسلطانا . . يحكم فى الناس أو يتحكم ، وليس بين يديه من الدين ومن سلطان الدين إلا ما بين أيديهم ، ولا يملك من الدين وسلطان الدين إلا ما يملكون .. فإذا قام الخليفة ، أو أقامه الناس ، فإنما يسوسهم بسياسته هو : سواء استقام على الدين أو لم يستقم . . فإذا كان للدين مكان هنا فهو بقدر ما يسمح له به الخليفة ، وقد لا يسمح بشىء أبداً منه .

ونكتفى بهذا الآن .. وسوف نرى فى المبحث التالى : « الخلافة والحياة » ، صوراً ومظاهر للخلافة فى سيرها مع الزمن ، ربما تكشف لنا عن طبيعة « الخلافة » وتبين لنا عن وجهها .

الباب الرابع

الخلافة والحياة

سنة الله :

هل كان للخلافة أن تبقى على صورة واحدة فى أجيال الناس لايصيبها ما يصيب مواليد الحياة من وهن ، وضعف ، وشيخوخة ، وفناء ؟

إن هذا مما لا يمكن أن تقبله الحياة .. إن سنة الحياة التحول والتنقل من حال إلى حال . من خير إلى شر،ومن شر إلى خير ، ومن امتزاج بين الخير والشر !

ولو أن الخلافة كانت أمراً من أمر الله وحقيقة من الحقائق التى نزلت من السماء على رسول الله لكان لها أن تفرض على الحياة وجودها ، وأن تحتفظ بهذا الوجود على الصورة التى نزلت بها .. كان لها أن تكون خالدة خلود الحقائق العليا .. تحكم ولا تحكم،وتفرض وجودها ولايفرض عليها وجود من أحد . . يتغير الناس ولاتتغير . . ويتحولون من حال إلى حال وهى على الصورة التى نزلت بها من السماء !

أما و «الخلافة» صنعة من صنع الناس ، ومولود من مواليد حياتهم ، فإنها لن تعيش إلا فى تلك الظروف التى يعيش فيها الناس والأحياء .. تتغير حالا بعد حال ، وتنتقل من طور إلى طور !

إن الخلافة وهذا شأنها أشبه بالماء ، يأخذ لون الإناء الذى يحل فيه .. وقد يكون فى الإناء خرق فلا يمسك من الماء بشىء . . ويظل مع هذا يحمل اسم «إناء ماء» . وقد يتحطم الإناء،ويهراق الماء،فيبتلعه الأرض . . فلا إناء ولا ماء . . !

خلافة راشدة :

وأمر الخلافة فى الإسلام أمر يبدو مثيرا للعجب والدهش .. من جانب سيرها مع الزمن ، وخطوها مع الحياة ..

فقد اعتادت الحياة ن تلد مواليدها نبتاً صغيرا لايكاد يقوم على سوقه ، حتى إذا مضى به الزمن أخذ يكبر ويشتد شيئاً فشيئاً ، حتى يستوى على سوقه ويبلغ أشده .. ثم يأخذ فى الانحدار شيئاً فشيئاً حتى يعود إلى الأرض ليصيرا ترابافى ترابها .. ولكن الخلافة الإسلامية جاءت على غير هذا ، فولدت فى شباب كامل ، وفناء مشرق .. ! فكانت أيامها الأولى ربيع حياتها ، وجمال شبابها . . ثم أخذت تنحدر نحو التشيخوخة والفناء .. ! إن أى نظام من أنظمة الحكم . وأى تجربة من تجارب الحياة تبدأ دائما ملففة فى ضباب الخوف والإشفاق من التوقعات المرتقبة.التى سيكشف عنها الزمن،وما سيلد هذا الكائن الجديد من خير أو شر .. ! فما أكثر المزالق والعثرات التى تصادفها أنظمة السياسة والحكم فى أيامها الأولى،وما أكثر مايصيب هذه الأنظمة من احتلال لأول خطوة تخطوها، فتسقط قبل أن تعرف الحياة لها وجها ..

أما الخلافة الإسلامية فقد ظهرت فى الحياة كاملة رشيدة ، رأى الناس منها أروع مافى الحكم من سمو ونبل وخير ..! وذلك لأنها مخلفات نبوّة ، وحسبك جلالا ، وعظمة ، وكمالا لأى شىء يستظل بالنبوّة ، أو يتمسح بالنبىّ !

يقول « ابن طباطبا » :

« فأما خلافة الأربعة الأول ، وهم أبو بكر الصديق . وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفّان رضى الله عنهم ، وعلىّ بن أبى طالب عليه السلام فإنها كانت أشبه بالرتب الدينية من الرتب الدنيوية فى جميع الأشياء !

« كان أحدهم يلبس الثوب من الكرباس[1] الغليظ ، وفى رجليه نعلان من

---

(١) الكرباس . ثوب من القطن الأبيض (معرب عن الفارسية)

ليف ، وحمائل سيف من ليف ، ويمشى فى الأسواق كبعض الرعية ، وإذا كلم أدنى الرعية أسمعه أغلظ من كلامه ، وكانوا يعدّون هذا من الدين الذى بعث به النبى صلوات الله وسلامه عليه »[1]

ثم يقول فى موضع آخر عن خلافة الخلفاء الراشدين :

« واعلم أنها دولة لم تكن من طرز دول الدنيا ، وهى بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه . .

« والحق فى هذا أن زيها قد كان زىّ الأنبياء ، وهديها هَدْىَ الأولياء ، وفتوحها فتوح الملوك الكبار » !

شمس تميل للغروب :

يشهد التاريخ أن « الخلافة الراشدة » التى لبس ثوبَها الخلفاء الراشدون الأربعة قد تحولت إلى ملك عضوض . . وأن عمرها لم يتجاوز ثلاثين عاماً فى هذه الحياة ، وأنها فى هذا العمر القصير قد ابتليت بالناس ابتلاءاً عظيما ، وأنها قد رميت برميات كثيرة أثخنتها بالجراح ، ثم أصيبت مقاتلها أخيراً بمقتل آخر الخلفاء الراشدين : على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

هذا ، إلى تلك الحروب الطاحنة التى قد وقعت بين المسلمين من أجلها ، والتى ذهبت بألوف كثيرة من أبناء الإسلام ، وبينهم عدد غير قليل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضوان الله على صحابته .

ولا يستطيع المرء أن يمسك نفسه عن أن يقف موقف المتسائل إزاء هذه الأحداث والفتن التى تجمعت حول الخلافة الراشدة ، وتآمرت على أن تغتالها ، وتخلى مكانها من الحياة :

لم هذا ؟

وهل كانت « الخلافة الراشدة » كائناً غير طبيعى فى الحياة ؟ وهل كانت مولوداً على غير السنن الطبيعية التى تولد بها الكائنات ؟

(١) الفخرى لابن طباطبا ص ١٤

والحق أن الخلافة التى عرفها المسلمون لأول عهدهم بعد النبىّ قد استوفت حظها من الحياة ، وأنها ماتت ميتة طبيعية . . وما كان لها أن تصحب الناس أكثر من هذه المرحلة القصيرة التى صحبتهم فيها ، ثم تُسلمهم بعدها إلى الحياة.. الحياة كما يحياها الناس .. الحياة التى يختلط فيها الخير بالشر ، ويتصارع فيها الحق والباطل ، ويتغالب فيها الدين والدنيا .

إن فترة الخلافة الراشدة كانت — كما قلنا من قبل — أشبه بالضوء الذى تخلّفه الشمس وراءها لحظة غروبها ، ثم ينسحب هذا الضوء وينحسر شيئاً فشيئا ، حتى ينعقد على الأفق الغربى شفقاً مصبغاً بالدم، مجللا بالسواد ! ثم يسود الظلام الذى يتشح به الوجود !! فحين غربت شمس النبوة ، ظل سناها يغمر الوجود لحظات ، ثم لم يلبث هذا السنا أن لحق بها فى خطوات سريعة .. ليعيش الناس فى دنياهم بما فى عقولهم من هدى ، وما فى قلوبهم من دين . وليطلقوا من كيانهم شرارات تضىء لهم الحياة ، وتكشف لهم معالم الطريق ، بعد أن غربت شمس النبوّة ، وتوارت شعاعاتها ، وراء الأفق الغربى البعيد !

ففترة الخلافة الراشدة ليست محسوبة من حياة الناس ، على الوجه الذى قدّر لهم أن يصحبوها عليه ، وإنما هى فترة استثنائية أشبه بفترة النبوة .. فكما أن فترة النبىّ لن تعيش فى الناس ، ولن يعيش فيها الناس إلا مرة واحدة ، وإلا زمنا محدودا ينتهى بوفاة النبى ، كذلك الفترة التى تعقب النبى . . لا تعيش فى الناس، ولا يعيش فيها الناس إلا مرة واحدة ، وإلا زمنا محدودا، لا يتجاوز بحال أبدا ما كان لفترة النبى من عمر !! وربما كان لك أن تضع هنا معادلة زمنية بين رحلة الشمس من مشرقها إلى مغربها ، وبين هذه الفترة التى تعقب غروب الشمس وانسدال الظلام !

فترة « الخلافة الراشدة » إذن كانت فترة « استثنائية » لا ينبغى أن نخضعها لمفهوم الحياة الممتدة فى أجيال الناس، كما لا ينبغى أن ننتظر قيامها مرة أخرى على الوضع الذى قامت عليه من أول أمرها ، إلا إذا قامت فى الحياة نبوّة كنبوّة محمد ، وذلك أمر قدّر له ألا يقع !

وإنا إذا نظرنا إلى « الخلافة الراشدة » هذه النظرة ، وعلى هذا التقدير أرحنا أنفسنا من هذه البلبلة ، وهذا الاضطراب فى أمر « الخلافة » ، وأزحنا من صدورنا هذا القلق ، وهـذا الهم الثقيل الذى نعالجه ونحن نطالع هذه الأحداث ، ونستقبل وجه تلك الفتن التى نبتت فى مغارس الخلافة . . فإننا نجد لـكل هذا منصرفا ينصرف إليه ، إذا نحن لم نجعل للخلافة هـذا المقام الذى كانت عليه بعد النبوة ، وإذا نحن لم نتشبث بوضعها فيه . . وإذا نحن سلمنا بأنها فى تلك الفترة لم تـكن إلا عارية مؤداة ، ولن تـكون من أشياء الحياة التى نضم عليها أيدينا ، ويتوارثها الأبناء عن الآباء . . جيلا بعد جيل !

يسأل الدكتور طه حسين هذا السؤال فيقول :

« فهل كانت هذه السيرة التى سارها النبىّ ، واجتهد صاحباه — أبو بكر وعمر — فى أن يسيراها ما استطاعا إلى ذلك سبيلا — ملائمة لما فطر عليه الناس من الأثرة ، والطمع ، والحرص على المنافع العاجلة ؟

« وهل كانت هذه السيرة قادرة على أن تبقى حتى تغير من طباع الناس فترقى بهم إلى المثل العليا التى دعا إليها النبىّ وصاحباه ؟ » [1]

ويجيب « الدكتور » على هذا . . فيقول : « كان الإسلام ومازال ديناً قبل كل شىء ، وبعد كل شىء . . وجّه الناس إلى مصالحهم فى الدنيا ، وفى الآخرة ، بما بيَّن لهم من الحدود والأحكام التى تتصل بالتوحيد أولا ، وبتصديق النبى ثانيا ، وبتوخى الخير فى السيرة بعد ذلك . .

« ولـكنه — الدين — لم يسلب الناس حريتهم ، ولم يلغ إرادتهم ، ولم يملك عليهم أمرهم . . وإنما ترك لهم حريتهم فى الحدود التى رسمها لهم ، ولم يحص عليهم كل ما ينبغى أن يفعلوا ، وكل ما ينبغى أن يتركوا ، وإنما ترك لهم عقولا تستبصر ، وقلوبا تستذكر ، وأذِن لهم فى أن يتوخوا الخير والصواب ، والمصلحة

---

(١) الفتنة الـكبرى ص ٢١

العامة ، والمصلحة الخاصة ما وجدوا إلى ذلك سبيلا » (١)

يريد الدكتور أن يصل من هذا إلى أن العنصر الإنسانى الذى دخل مع الخلافة بعد فترتها الراشده، هو الذى كان القوة العاملة فى تحويل الخلافة عن وضعها الذى كانت عليه أيام أبى بكر وعمر ، وأنها قد استجابت لهذا العنصر الإنسانى ، واستسلمت له بعد فترة توقف وتردد .

ويقول الدكتور طه حسين أيضاً :

« وأكاد أعتقد أن الخلافة كما فهمها أبو بكر وعمر كانت تجربة جريئة توشك أن تكون مغامرة ، ولكنها لم تنته إلى غايتها ، لأنها أجريت فى غير العصر الذى كان يمكن أن تجرى فيه ، والذى سبق بها هذا العصر سبقاً عظيما (٢) »

ونحن نخالف الدكتور فى هذا .. فلم تكن الخلافة تجربة جريئة أومغامرة.. إنها مولود طبيعى لهذا الحال،ولتلك الظروف ، التى أعقبت وفاة النبىّ مباشرة ..

وهل كان فى وسع أحد من الناس أن يغير من اتجاه الحياة لهذا المجتمع الذى تركه الرسول لوقته ؟ إن ذلك يكون أشبه بمن يريد أن يتصدى للشمس عند غروبها فيضم كل شعاعاتها إلى يده ، دون أن تتخلل أصابعه شعاعة واحدة إلى ماوراء الشمس . وذلك أمر بعيد !

إن الناس — كما قلنا ، ونقول دائما — كانوا يومئذ فى نشوة عامرة مع هذه الروحانية التى أفاضها الرسول عليهم . . وبعيد أن يصحوَ الناس من هذه النشوة بين يوم وليلة ، وأن تذهب من كيانهم هذه الأحاسيس التى اختلطت بوجدانهم وشعورهم من آيات الحق ، والخير .

فليست « الخلافة » فى ثوبها الذى لبسه لها أبو بكر وعمر تجربة أو مغامرة، كما أنها لم تجر فى غير عصرها . . وإنما كان هذا الوقت بالذات هو وقتها الذى

---

(١) الفتنة الكبرى ص ٢٢

(٢) فتنه الكبرى ص ٥

يمكن أن تعيش فيه،وهيهات أن يسعها زمان أو مكان بعد زمانها ومكانها هذين: اللذين ولدت وعاشت فيهما . « إنها خلافة نبوة » ! .

وحق ما يقول الدكتور طه حسين . . حين يقول :

« وما رأيك فى أن الإنسانية لم تستطع على ما جربت من تجارب ، وبلغت من رقى، وعلى ما بلغت من فنون الحكم،وصور الحكومات — أن تنشىء نظاما سياسياً يتحقق فيه العدل السياسى ، والاجتماعى بين الناس على النحو الذى كان أبو بكر وعمر يريدان أن يحققاه » (١)

ولماذا عجزت الإنسانية — كما يقول الدكتور — على ما بلغت من فنون الحكم وصور الحكومات أن تنشىء نظاما سياسياً يتحقق فيه العدل السياسى والاجتماعى بين الناس على النحو الذى كاد أبو بكر وعمر أن يحققاه ؟

لماذا ؟

لا يمكن أن يكون لهذا السؤال جواب نستريح له ، ونطمئن إليه غير ما أشرنا إليه من قبل ، وهو أن « الخلافة الراشدة » التى قام عليها أبو بكر وعمر لم تكن إلا الشعاعات التى تركتها وراءها شمس النبوة الغاربة .. وأن هذه الشعاعات كانت تنسحب رويدا رويدا من أول يوم غربت فيه شمسها ، حتى أخلت مكانها ، ونسخها الظلام !

وليس لأحد أن يقول هنا : إنه أبو بكر ، وإنه عمر ! وإن الخلافة إنما كانت هكذا خلافة راشدة ، لأن الخليفة هو أبو بكر ، ولأن الخليفة هو عمر !

وكلا . . فإن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما مهما كانا عليه من مثالية عالية — وهو ما كان فعلا — فلن يستطيعا أن يقوما فى الناس هذا المقام ، وأن يجدا لسياستهما المثالية العالية هذا التجاوب . وهذا النفوذ إلى أقطار الأرض التى كانت تظلها راية الإسلام مالم يكن ذلك من طبيعة الحياة التى أعقبت وفاة النبى !

---

(١) الفتنة الكبرى ص ٦

إن أبا بكر ، وإن عمر — رضى الله عنهما — إنسانان من الناس ، وما كان لهما أن يجيئا بمعجزة تتحدى الناس ، وتتحدى الحياة . . !

إن أبا بكر وإن عمر كانا يحكمان مجتمعاً قد استظل بظل النبوّة ، واستروح شذاها الكريم العطر . . وما كان على أبي بكر وعمر إلا أن يستقيما — وقد استقاما — فيستقيم معهما الناس ، أو بمعنى أدق وأصدق : أن يظل أبو بكر وعمر على استقامتهما فيظل الناس على استقامتهم . . ! وهذا ما كان فعلا ، فلما تغير الناس تغيرت الخلافة والخليفة جميعاً . ولعلنا نذكر هنا كلمة الإمام علىّ رضى الله عنه — وقد نقلناها آنفاً — التي يقول فيها ، وقد سأله سائل : ما بال الناس قد اختلفوا عليك ، ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر ؟ فقال كرّم الله وجهه: إن أبا بكر وعمر كانا أميرين على مثلى . . أما أنا فأمير على مثلك !

مثالية الخلافة وواقع الناس :

يقول « روسو » فى كتابه العقد الاجتماعى :

« كان لمحمد آراء صائبة جدا — يقصد التشريع الإسلامى — فقد أحسن ربط نظامه السياسى [أى ربطه بالدين]

« وطالما كانت صورة الحكم التي وضعها باقية فى عهد الخلفاء .

« وقد ظلت الحكومة واحدة تماماً — أى تجمع السلطة الدينية والمدنية معاً ، وكانت حكومة جيدة

« ولكن العرب صاروا موسرين ، ومتعلمين ، ومترفين أو متراخين ،

فأخضعهم . « البرابرة » — أى غير العرب — ومن ثم بدأ الانقسام بين السلطتين »[1] .

(١) لم يكن لهذا الانقسام أثر واضح فى الحياة . وإنما الذى كان ظاهرا هو ضمور المظهر الدينى إلى جانب المظهر المدنى الذى كان فى يد الخلفاء وأشباه الخلفاء . أو قل إنه مظهر واحد هو المظهر المدنى ولا أثر للدين فيه . . إذ ليس فى المجتمع الإسلامى سلطة دينية تفرض على الناس سلطانها أو تجد من الناس قبولا وولاء لهذا السلطان .

« ورغم أن هذا الانقسام أقل ظهورا لدى المسلمين منه لدى المسيحيين ، فإنه موجود فى كل مكان ، وخاصة فى شيعة علىّ ، وهناك دول مثل فارس لاينقطع الإحساس به فيها »[1] .

إن ربط الدين والدنيا معاً فى الإسلام هو واقع الإسلام فعلا ، فكل من يدين بالإسلام يجد فى كيانه من هذا الدين مشاعر تزاوج بين الدين والدنيا ، وتجمع بين مطالب الروح وحاجات الجسد . . فليس فى شريعة الإسلام — حتى فى العبادات — شيئا خالصاً .. للدين أو للدنيا..فكل مافى الدين مشوب بالدنيا ، وكل مافى الدنيا مختلط بالدين .

انظر إلى العبادات :

الصلاة مثلا . . تحسبها لحساب الروح ، ولكنّ للجسد نصيباً فيها ، وحظاً منها . . لقد فرضت الطهارة ، وفرض الوضوء قبل الصلاة..فلحساب من هذا ؟ إنه لحساب الجسد ولاشك ؟ هذا إلى مافى الصلاه من قيام ، وركوع وسجود !

ولو كانت الصلاة للروح وحسب لكانت مجرد تفكر ، وتأمل ، فى سكون خاشع ، وصمت عميق ، وكذلك الحج ، والزكاة ، والصوم ! إنها جميعها متلبسة بالمادة . . من حركة ، وسعى ، وأخذ وعطاء ، وتجاذب بين الروح والجسد !

وانظر إلى الماديات :

لقمة العيش . . مثلا . . تحسبها لحساب الدنيا ، وليس للدين شىء فيها . .

ولكن انظر :

إن الدين يجىء اليها من كل جهة . .

ويجب أن تكون من كسب حلال . . ويجب أن تكون طيبة . . وليست ميتة ، اودَما ، أو لحم خنزير . !

---

(١) العقد الاجتماعى ص ٢٣٢

وينبغى ألا تكون فى معرض السّرف .. «وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا .. إنه لا يحب المسرفين» .

ثم قبل هذا كله يجب أن تتطهر بالزكاة، وأن يخرج منها ما كان للفقير والمسكين من حق فيها !

وهكذا كل شىء — صغير أو كبير — مما يدخل على الإنسان فى دنياه ، ومما يعيش فيه أو به . محسوب بحساب الدين ، ومصبوب فى قوالب ، الدنيا ، ومقدر بقدرها .

دين المسلمين ودنياهم أمر واحد ، فليس فى الإسلام ، ولا من الإسلام دين وحده ، أو دنيا وحدها . . وإنما هما كيان واحد . . ومطلب واحد ، يجب على المسلم أن يسعى له ، ويعمل على تحصيله فى هذه الصورة التى تجمع بين الدين والدنيا . . وقد دعانا الله سبحانه أن ندعوه فيما ندعوه به أن يعيننا على تحصيل حظنا من الدين والدنيا معاً : «ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار» . . حسنة فى الدنيا ، وحسنة فى الآخرة . . فلا ترجح كفة إحداهما على الأخرى . .

هذه أحسن أحوال المسلم ، وأعدلها ، وأقربها إلى متناول يده . .

وقد ترجح كفة الدين ، وتغلب على طبيعة الحياة فى الناس ، كما رأينا ذلك فى عصر النبوة ، وفى السنوات القليلة التى جاءت فى أعقاب هذا العصر .

ولكن هذا المستوى العالى من الحياة الإنسانية لن يقع مرة ثانية، بعد أن وقع فى عصر الخلافة الراشدة . . إنه لابد أن تتعادل كفتا الميزان ! فإن يكن تراجح فيهما بعد هذا — ولابد أن يكون — فليكن لجانب الدنيا ، ولن يكون للآخرة أبداً .. «سنة الله فى الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا»[1].

انظر إلى إحساس الناس يوم البيعة لخلافة أبى بكر وإلى توقعاتهم لاتجاه الحياة ، بعد أن تخطو الأيام خطوات بالخلافة !

انظر . .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٦٢

لمـا بايع الأنصار أبا بكر بالخلافة قال الحباب بن المنذر يلوم قومه وينذرهم لمـا بعد هذا اليوم ! قال :

« فعلمتوها يامعشر الأنصار ، أما والله لـكأنى بأبنائـكم على أبواب أبنائهم — يعنى المهاجرين — قد وقفوا يسألونهم بأكفهم ، ولا يسقونهم الماء !

قال أبو بكر : أمِنـّـا تخاف ياحباب ؟

قال : ليس منك أخاف . . ولـكن من يجىء بعدك !

قال أبو بكر : فإذا كان ذلك كذلك ، فالأمر إليك ، وإلى أصحابك ! ليس لنا عليكم طاعة !

قال الحباب : هيهات يا أبا بكر . . إذا ذهبت أنا وأنت جاءنا بعدك من يسومنا الضيم ! ! »[1]

من الطبيعى أن يتوقع الحباب بن المنذر هذا المصير الذى سيصير الناس إليه ، بعد أن تبرد جذوة هذه الشعلة من الإيمان التى امتلأت بها الصدور فى عصر النبوّة ، وبعد أن أخلى النبيّ مكانه من هذا المجتمع .. إن الناس لن يظلوا طويلا فى هذا المستوى العالى من الحياة الروحية . . وإنهم لا بد صائرون إلى تلك الحياة التى يعرفها الناس ، ويتقلبون فيها على الخير والشر .. يعيشون فى الأرض أكثر مما يحيون فى السماء ، ويَرَوْنَ لأنفسهم أكثر مما يَرَوْنَ للناس ، ويعملون للدنيا أكثر مما يعملون للآخره . !

يقول النبي الـكريم :

« خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم . . . »

لقد كانت فترة الخلافة الراشدة المثل الأعلى الذى حققه الإسلام على هذه الأرض ، للحـكم الصالح ، الذى يجد الناس فى ظله الأمن ، والعدل ، والخير ، والسلام . .

---

(١) الإمامة والسياسة ص ٩ .

ولم يكن من المقدر لهذا المثل أن يعمر طويلا ، أو أن يظل قائماً أبد الدهر في المجتمع الإسلامي . . إذ أن طبيعة المثل العليا أن تلمع لمعات خاطفة أشبه بلمعان البرق تكشف الظلام . . ثم تختفي . . لتدع الناس وشأنهم في الحياة ، يعملون بوحي عقولهم ، واتجاه منازعهم !

وها نحن أولاء . . لازلنا ننظر إلى الخلافة الراشدة نظرة إعجاب ، وإجلال ، ونقف منها موقف المطالع لآية من آيات الله ، تتمثل فيها الحكمة البالغة ، والعظة النافعة والقدوة الصالحة . . من تاريخ الإسلام .

ولازالت هذه الفترة من تاريخ الإسلام موضع الدرس ، والتأمل ، عند غير المسلمين ، للوقوف على أسرار تلك العظمة الإنسانية التي عاش فيها الناس من حكام ومحكومين أيام الخلافة الراشدة . وكيف استطاع رجل فرد أن يمسك بيديه هذا المجتمع الإسلامي المترامي الأطراف ، المختلف الأجناس والأوطان ، وأن يجعل ميزان العدل والقسطاس قائماً لا ينحرف عن سواء السبيل أبداً ؟

فإذا ذهبت الخلافة الراشدة فقد خلفت وراءها ذكراً مذكوراً ، لا تبلى الأيام جدّته ، ولا تطفيء مشاعل المدنية وضاءته !

من أجل هذا الذي يراه الناس في وجه الخلافة الراشدة من وضاءة وإشراق ، وروعة وجلال — شاه في أعينهم وجه « الخلافة » التي جاءت بعد الراشدين ، ثم كانت الأيام عاملاً على تقوية هذا الشعور المستخف بالخلافة ، المبغض لها . . إذ كان كلما تقدم الزمن بالخلافة ترك على وجهها جُرحاً دامياً ، أو خدشاً ظاهراً حتى ، لم يدع في أديم وجهها شيئاً سليما . .

وقد بدا للناس أن « الخلافة » الجديدة هي الوارث للخلافة الراشدة ، وأنها هي التي أزاحتها عن موضعها ، وعجلت بأيامها ، لتأخذ مكانها ، فكان لها عند الناس هذا الإحساس المنطوي على البغضة لها ، والزراية عليها .

وهذا الخلط بين الخلافة الراشدة ، والخلافة التي جاءت بعدها هو الذي

أوقع كثيراً من الباحثين فى حيرة واضطراب من أمر الخلافة . . ! وهذا الخلط أيضاً هو الذى أوجد هذا الاختلاف الشديد بين المسلمين فيها .

فكثير من الباحثين آمن بالخلافة ، وجعلها عقيدة فى الإسلام ، أو شريعة من شريعته . . وذلك حين نظر إليها فى مثلها الأعلى ، وحين تمثلها فى أبى بكر وعمر . . إنه لا يريد أن يصحو من هذا الحلم الرائع المسعد . . يريد أن يعيش فيه ، ويعيش فيه المجتمع الإسلامىّ كله . .

وكثير من المسلمين كفر « بالخلافة » وأنكر مقامها فى المجتمع الإسلامى ، حين نظر إليها فى أيام ضعفها ، وهزالها ، وفسادها ، وحين تمثلها فى أولئك الخلفاء من الحلماء ، والسفهاء ، والمتسلطين ، والمستضعفين .. إنه يراها بلاءً على الإسلام ، ونقمة على المسلمين . . ! . . وإنها لتجنى على الإسلام أشنع جناية وأسوأها،حين تتخذ الدين مسرحاً تقيم عليه مفاسدها ، وتمثل فيه تلك الأدوار الساقطة التى تشيع فى الناس صدوداً عن الدين ، ونفرة منه .

ولو أننا نظرنا إلى الخلافة ، على أنها حكم إنسانى تقتضيه طبيعة العمران البشرى ، قبل كل شىء ، وأن الدين الذى تستظل به ، وتحكم الناس باسمه ليس فيه قوة مادية تحول بين « الخليفة » وبين أن ينحرف ويتبع هواه . . لو أننا نظرنا إلى «الخلافة» هذه النظرة ، وحردنا « الخليفة » من كل سلطان روحى ، وجعلناه واحدا من آحاد الناس ، وفرداً من أفراد المسلمين . . يحسن ويسىء ، ويعتدل ويعوج ، ويستقيم وينحرف . . شأنه شأن كل إنسان . . لو أننا نظرنا إلى «الخلافة» وإلى الخليفة هذه النظرة — لما كان لنا أن ننتظر من حاكم المسلمين أن يكون « إلهيا » وأن يسمو على كل ضعف بشرى ، بل لو ضعناه بموضعه من الحكام الصالحين أو المفسدين .. فهو « حاكم » إنسانى خالص الإنسانيه ، لا يكسبه لقب « الخلافة » شيئا يسمو به على الناس . . والشريعة التى بين يديه هى شريعة المسلمين جميعاً يستقيم عليها أو ينحرف كما يستقيم أى إنسان منهم أو ينحرف !

فما كانت تعاليم الدين،ولا أحكام الشريعة حائلة بين الناس وبعد أن يواقعوا الشر ، ويقترفوا الإثم . . فالتشريع شىء،والاستقامة على مبادىء التشريع شىء . . والعلم شىء ، والعمل بالعلم شىء !

* * *

الباب الخامس

البيعة

ما طبيعة هذا النظام الذى اختاره المسلمون لقيام حكومة فيهم بعد النبىّ ؟ وعلى أى أسس قام هذا النظام ؟ وماصفة هذه البيعة التى تلقاها أبو بكر ؟ وما حظها فى إظهار إرادة المجتمع الذى قام حا كما عليه ؟

وما وجه الشبه بين هذا النظام وبين الأنظمة السياسية التى عرفتها الحياة ؟ هذه بعض الأسئلة التى تطلع فى نفس المرء حين يلتق بالخلافة الإسلامية ليوم مولدها فى الحياة ، وحين يبدو له أن يعرف ملامحها ، ويتعرف على طبيعتها ! وها نحن أولاء ننظر فى هذه « الخلافة » الوليدة . . ونجيب على تلك الأسئلة التى سألناها آنفاً . .

ما طبيعة هذا النظام الذى اختاره المسلمون ؟

الوجه الظاهر لهذا اللون من الحكم الذى يمثله الخليفة هو الحكم « الفردى » لأنه يعتمد على الفرد !

فالخليفة هو الحاكم الأول للمجتمع الإسلامى . . ليس لأحد عليه سلطان ، إلا سلطان ضميره ودينه .

وهو — من أجل هذا — كأى حاكم فردى ، قد يكون صالحاً محسناً ، وقد يكون شريراً مفسداً . . قد يكون عادلا حكيما ، وقد يكون جائراً غشوما . .

وليس للخلافة التى يلبسها الخليفة أى ضمان يضمن قيامه على الحق العدل . . ولقد جرت الخلافة الإسلامية فى جميع المستويات . بين السماء والأرض . . وبين العدل المطلق ، والظلم الصراح . . على حسب ما فى الخليفة ، من استعداد ، وما لديه من نزعات خير أو شر . .

وقبل أن نمضى فى الكشف عن طبيعة هذا النظام ، وما يحمل فى كيانه من عناصر الصلاح أو الفساد ، ينبغى أن نقف أولا على الأسس التى قام عليها ، والأيدى التى دفعت به إلى هذه الحياة . .

البيعة لغةً واصطلاحا :

يقول ابن خلدون :

« البيعة : هى العهد على الطاعة .

« لأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له أمر النظر فى أمر نفسه ، وأمور المسلمين . . لاينازعه فى ذلك . . ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المَنْشَط والمكْره » . .

ثم يقول .

« وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم فى يده تأكيدا للعهد ، فأشبه ذلك كلاً من البائع والمشترى . . فسمى بيعة . .

« مصدر باع . .

« وصارت البيعة مصافحة بالأيدى . .

« وهذا مدلولها فى عرف اللغة ، ومعهود الشرع . .

« وهو المراد فى الحديث فى بيعة النبى صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، وعنده الشجرة . . وحيثما ورد هذا اللفظ .

ومنه بيعة الخلفاء

ثم يستطرد ابن خلدون من هذا إلى ماتولد عن البيعة بما يعرف بأيمان البيعة فيقول :

« ومنه أيمان البيعة ، لأن الخلفاء كانوا يستحلفون على العهد ، ويستوعبون الأيمان كلها لذلك ، فسمى هذا الاستيعاب أيمان البيعة . . وكان الإكراه فيها أكثر

وأغلب . . ولهذا لما أفتى « مالك » رضى الله عنه بسقوط يمين الإكراه أنكرها الولاة عليه ، ورأوها قادحة فى أيمان البيعة . . وقد وقع ما وقع من محنة الإمام رضى الله عنه » (٧)

ما معنى هذه البيعة ؟

وواضح من كلام ابن خلدون عن البيعة، ووصفه لها أنها عملية وقولية . . وأن اليد هى الترجمان العملى لانتخاب الخليفة، بعد أن يقول المبايع : رضيت بك خليفة ، أو ما أشبه هذا مما يدل على الرضا . .

فهى — البيعة — إذن عقد بين طرفين . . أشبه بما بين البائع والمشترى ..!

فالخليفة ط ف ، والجماعة الإسلامية الطرف الآخر . . والخلافة هى موضوع البيع !

وإذا مضينا بصورة البيع هذه إلى غايتها كان لنا أن نشبه العهد الذى يقطعه الخليفة على نفسه بالثمن الذى يبذله المشترى للسلعة . . وأن ما فى يد المسلم من حق فى احتيار الحاكم هو السلعة التى يسلمها للمشترى عند قبض الثمن .

فالخلافة فى هذا التصور هى حق مشاع بين المسلمين جميعاً . . لكل فرد منهم نصيبه على قدم المساواة مع أى فرد آخر . . ! ، فكل مسلم حرّ عاقل بالغ من حقه أن يشهد البيعة وأن يشارك فيها — قبولا أو رفضاً — وأن يؤدى هذا الحق إلى أهله ، ويضعه موضعه .

كيف كانت تقع البيعة ؟

ولكن الذى يحفظه التاريخ ، وتشهد به الحال هو أن البيعة لم تكن تجرى على هذا الوجه ، بمعنى أنه لم يكن يشارك فيها إلا أعداد قليلة جداً بالنسبة إلى مجموع الأمة الإسلامية فى أقطارها المختلفة . .

---

(٧) مقدمة ابن خلدان ص ١٩٧

وقد عرفنا أن الذين بايعوا أول خليفة للمسلمين — أبى بكر رضى الله عنه — لم يتجاوزوا أهل المدينة ، وربما كان بعض أهل مكة . . أما المسلمون جميعاً فى الجزيرة العربية كلها فلم يشاركوا فى هذه البيعة ، ولم يشهدوها ، ولم يروا رأيهم فيها . . وإنما ورد عليهم الخبر بموت النبى مع الخبر باستخلاف أبى بكر !

فهل هذه « البيعة » أو هذا الأسلوب فى اختيار الحاكم يعتبر معبّرا عن إرادة الأمة حقاً ؟ وهل يرتفع هذا الأسلوب إلى أنظمة الأساليب الديمقراطية فى اختيار الحكام !

لقد فتح هذا الأسلوب الفريد الذى عرف فى المجتمع الإسلامى لاختيار الحاكم — فتح أبوابا للجدل فيه ، والخلاف عليه .

ينظر إليه بعضهم على أنه نواة صالحة لأول تجربة . . وأن الأيام كفيلة بأن تنميها ، وتستكمل ما يبدو فيها من نقص . . فلم تكن الأحوال التى تمت فيها هذه التجربة تسمح بأكثر مما حدث ، إذ لم يكن من المستطاع حينذاك الوقوف على رأى الأمة كلها فرداً فرداً فيمن يخلف النبىّ !

وينظر بعض آخر إلى هذا الأسلوب بأنه أسلوب بدائى ، عالج أهم مشكلة فى الحياة كما يعالج بيع شاة أو شراءها ! . . وقد كان لهذا الأسلوب أثره فى تعطيل القوى المفكرة للبحث عن أسلوب آخر من أساليب الحكم التى جربتها الأمم . . إذ أصبحت البيعة التى ظهرت صورتها فى سقيفة بنى ساعدة هى الصورة المرتسمة فى ذهن المسلمين ، وهى عندهم الصورة المثلى لاختيار الخليفة .. لأنها البيعة التى جاءت بأعظم حاكم ، وأعدله ، وأقربه كمالاً بعد الحكم النبوى !

ما للبيعة وما عليها :

والذين حاولوا أن يجرّحوا البيعة أو يعدّلوها كان بين أيديهم من الشواهد ما يشهد للتعديل أو التجريح على حد سواء . .

فالبيعة عهد وميثاق . . بل إنها آكد العهود ، وأوثق المواثيق عند العربى ، الذى يرى فى كلمته شخصية مجسمة لذاته ، تحمل ما فيه من معانى الرجولة ، والمروءة ، والشجاعة . . لأنه إذا أعطى كلمة لإنسان ، كانت هذه الكلمة حكماً جازماً عليه ، لا ينقضها بحال أبداً ، ولو كان فى ذلك تلف نفسه ، أوذهاب ماله ..

ومن هنا كانت الكلمة عند العربىّ قوة عاملة فى الحياة ، بها يأخذ ، وبها يعطى ، من غير أن تسجل فى قرطاس أو تؤيد بشهود !

فإذا أريد لهذه الكلمة أن تزداد وثاقة وقوة لم يكن ذلك الأمن نفس صاحبها ومن عمله هو ، وذلك بأن يعطى صفقة يده لمن أعطاه كلمته فى بيع أو شراء ، أو عهد ، أو جوار ، أو نحو هذا .

إن الكلمة — على ما يبدو اليوم من هوانها وضعفها — كانت فى الجاهلية وفى صدر الإسلام تقيم الناس وتقعدهم ، تثير حرباً ، أو تطفئها . وتجمع شملا أو تشتته !

لهذا نستطيع أن نقول إن الأسلوب الذى قامت عليه (البيعة) للخلافة كان أنجح أسلوب فى حسم هذا الأمر ، ووضع حدّ واضح له . . لا يملك الناس بعده أن يراجعوا أنفسهم فيه ، أو يثيروا خلافاً عليه . .

فالذين بايعوا الخليفة أصبحوا بعد هذا وفى أعناقهم قيد وثيق بينهم وبينه ، لا يستطيعون أن يتفلتوا منه أبداً . . إنه خليفتهم الذى لا تنازعهم أنفسهم بالخروج عليه ، أو التحلل من بيعته .

والخليفة الذى قبل هذه البيعة أصبح بعد هذا وفى عنقه قيد وثيق بينه وبين الذين بايعوا . . لا يستطيع أن يفك رقبته من هذا القيد بحال أبداً .

وقد رأينا أبا بكر رضى الله عنه وقد ساءه الخلاف الذى كان بينه وبين « فاطمة » رضى الله عنها — رأيناه يطوف بالناس يطلب إليهم أن يقيلوه من البيعة التى فى عنقه لهم ، وأن يقيلهم هو من بيعته التى فى أعناقهم له ، فأبوا ذلك عليه . . كذلك كان الموقف حين طاف الإمام « علىّ » كرّم الله وجهه ، ومعه

« فاطمة » رضى الله عنها على الأنصار يدعوهم إلى بيعته بعد ، أن بايعوا أبابكر ، فكانوا يقولون : لولا ما سبق منا لأبي بكر لبايعناك !

وقفة مع البيعة :

وإذا كانت البيعة التى قامت عليها الخلافة هى الأسلوب الذى اعتبر نظاما إسلامياً لاختيار حاكم المسلمين ، أو أمير المؤمنين ، فإنه يحسن أن نقف عندها قليلا لننظر فى وجه الشبه أو الخلاف بينها وبين النظم السياسية المعروفة لاختيار الحكام . . أهى عقد ؟ أم وكالة ؟ أم أمانة ؟ أم ماذا تكون بين صور النشأة التى تنشأ فيها الحكومات :

البيعة عقد :

وليس ثمة شك فى أن عملية « البيعة » عقد موثق كما قلنا ، وأن طرفى التعاقد فيها هما : الجماعة الإسلامية من جهة ، والمرشح للخلافة من جهة أخرى . .

ولكن أى عقد هذا ؟

أهو عقد بيع ؟ أم عقد وكالة ؟

إن عقد البيع حين يتم ويلزم ، يصبح بعده كل طرف من الطرفين المتبايعين بمعزل عن الآخر ، يتصرف فيما صار إلى يده تصرفا مطلقاً ، لاسلطان للطرف الآخر عليه ، ولا شأن له معه !

فهل يجرى الأمر على هذا النحو فى « البيعة » ؟ وهل ينتهى الأمر بين المتبايعين فيها على ماينتهى به عقد البيع؟ وهل يصبح الذين بايعوا الخليفة لا صلة لهم به ، ولا شأن لهم معه ؟ وهل يصبح الخليفة بعد البيعة مالكا للخلافة لا حساب لأحد معه فيها ؟

إن الأمر لمختلف جداً بين عقد البيع ، وعقد البيعة !

فإنه بمجرد أن يتم عقد البيعة ويلزم تترتب عليه حقوق وواجبات متبادلة بين الطرفين .. قائمة فى كل حين ، لا تنتهى إلا بفقد أحد الطرفين .. كأن يموت

الخليفة أو تضييع شخصية الجماعة ومعالمها فى حرب أو وباء أو نحو هذا .

يقول أبو بكر رضى الله عنه فى أول خطبة له بعد أن ولى الخلافة :

« اعلموا أيها الناس أنى لم أجعل لهذا المكان أن أكون خيركم ! ! ولوددت أن بعضكم كفانيه !

« ولئن أخذتمونى بما كان الله يقيم به رسوله من الوحى ما كان ذلك عندى ، وما أنا إلا كأحدكم ، فإذا رأيتمونى قد استقمت فاتبعونى ، وإن زُغت فقوّمونى . . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيت فلا طاعة لى عليكم »

فاستقامة الخليفة وعدله ، بين الجماعة .. وطاعة الجماعة للخليفة ونصحها له ، هو موضوع العقد بين الخليفة وجماعة المسلمين . .

فما الصفة البارزة لهذا العقد ؟

أهو عقد وكالة ؟:

يقول المرحوم محمود فياض : « وإذن فالبيعة هى عقد وكالة بين الأمة وحاكمها المنتخب من أفرادها المسئولة عنها ! »[1]

فليست الأمة كلها إذن هى التى تبايع أو تتعاقد مع الحاكم الذى تقيمه عليها.. إنهم أفراد من الأمة . . وهؤلاء الأفراد يقال عنهم إنهم المسئولون عن الأمة.. وهم أهل الحل والعقد فيها .

فمن هم هؤلاء الأفراد المسئولون .؟ ومن أهل الحل والعقد هؤلاء ؟ هل لهم صفات وملامح خاصة يعرفون بها فى الأمة ؟ ومن ألقى عليهم هذه المسئولية أو منحهم إياها ؟

والحق أن هذا الركن من أركان « البيعة » لا يقوم على صفة واضحة محددة ، يمكن أن يرجع إليها فى معرفة من لهم حق « الانتخاب » أو « البيعة » ! . .

---

(١) الإمامة والسياسة ص ١٦ .

إنهم الأفراد المسئولون عن الأمة ؟ وليس فى الأمة — فيما نعرف — من هو مسئول منها غير الحاكم الذى اختارته الأمة !

وليس فى القول بأن أفراد الأمة المسئولون عنها هم أهل الحل والعقد فيها — ليس فى هذا القول ما يفسر هذا الغموض أو يكشفه .. فمن هم أهل الحل والعقد؟ وحل ماذا وعقد ماذا ؟ أهم أصحاب الفقه والرأى الذين يرجع إليهم الناس فيما ينوبهم من أمور ؟ وهل هناك درجة معينة من الفقه والعلم إذا بلغها الإنسان صار من أهل الحل والعقد ؟ ما هى تلك الدرجة ؟ وبأى ميزان توزن؟ ومن إليه يرجع الأمر فى تقديرها ؟ إن كلمة « أهل الحل والعقد » لأغمض غموضا من كلمة الأفراد المسئولون فى الأمة .

وندع هذا الآن ، فلنا وقفة عنده بعد هذا . .

ونعود إلى حديث المرحوم « فياض » عن عقد الوكالة الذى يندرج تحت عقد البيعة . .

يقول :

« وظاهر جدا أن عقد الوكالة ليس عقد تمليك للوكيل ، ولا يقتضى تمليكا وإنما هو عقدُ إذنٍ بالتصرف باسم الموكِّل فى حدود ما رَسم للوكيل وأذنه بالتصرف فيه . » (١)

ونسأل : ما الضمان الذى يحفظ على عقد « الوكالة » هذا صفته تلك ، فلا يتحول إلى عقد تمليك ؟ وإذا بايع الناس الخليفة ، ووضعوا الخلافة بين يديه أو على رأسه، فما هو الضمان الذى يحمل الخليفة على أن يكون من الخلافة بمكان الوكيل فيها عن الأمة؟ ومن الذى يحمى الخلافة من استبداد الخليفة بها ، والتصرف فيها تصرف المالك فيما يملك بأية صورة من صور التملك .. من ميراث ، أو هبة، أو شراء ، أو نحو هذا ؟

---

(١) سلسلة الثقافة الإسلامية « الفقه السياسى عند المسلمين » ص ٢٦

إنه لم يقم إلى جانب « البيعة » نظام سياسى آخر يحميها من عدوان الخليفة عليها ، والاستبداد بها وبأصحابها ، الذين يقال إنهم جعلوا له الوكالة عنهم فيها !

إن التسوية فى النظر بين عقد الوكالة الذى هو بين فرد وفرد ، وبين هذا التفويض العام الذى تنزل به الأمة عن سلطانها للخليفة أو نحوه — هذه التسوية قائمة على النظرة السطحية التى لا تتجاوز القشرة إلى اللباب . . !

ولكن إذا تعمقنا النظر قليلا وجدنا بين الحالين بُعْداً شاسعاً ، واختلافا كبيرا . .

انظر . .

إن عقد الوكالة الذى يقوم بين الأفراد يسمح للأصيل فى أية لحظة أن يعزل الوكيل ، وأن يمسك يده عن التصرف فيما أباح له عقد الوكالة أن يتصرف فيه ، سواء أكان ذلك عن إساءة الوكيل فى التصرف أم لم يكن !

فهل يمكن أن يحدث ذلك فى عقد البيعة ؟ وهل يملك الذين بايعوا الخليفة أن يعزلوه بقولهم : قد سحبنا وكالتك عنا ، فردّ الينا أمرنا ؟ . . لقد قالها الناس لعثمان رضى الله عنه ، فماذا كان جوابه ؟ قال: «لا أنزع قميصاً قَمَّصَنِيه الله » !

إن الخليفة يرى بعد أن صارت الخلافة إليه أن ذلك كان وكأنه أمر من الله ، وأن الذين بايعوه لم يكونوا إلا مجرد وسيلة تم بها هذا الأمر . .

والناس يرون أنهم أصحاب الأمر . . وأن الخليفة لم يكن خليفة إلا بهم ، وأنهم هم الذين وضعوه بهذا الوضع ، وأنهم هم الذين لهم حق إنزاله عنه ، وأنهم هم الذين ألبسوه هذا القميص ، ومن حقهم أن ينزعوه عنه .

ثم كان من هذا ماهو معروف من تلك الأحداث الدامية المفجعة ، التى أريق فيها دم الخليفة ، ودم كثير من المسلمين .

فرق بعيد شاسع البعد هذا الذى بين عقد الوكالة ، وعقد البيعة . . .

إن عقد البيعة يضع بين يدى « الحاكم » سلطة مطلقة ، وسلطانا متمكناً ،

إذ يجمع بين يديه كل ما للدولة من مال وجند . . وهو بقوة المال وقوة الجند يحكم ويتسلط ، ولا وازع له إلا ما فى ضميره من دين ، وما فى قلبه من إيمان .! قلّ ذلك أو كثر .. ودع عنك ما يبذل الحاكم من عهود ، وما يعطى من مواثيق . ! إنها كلمات تحيا ، أو تموت ، وتعمل أو تبطل ، حسب استعداد الحاكم ، وحسب رأيه أو هواه . .

يقول الأستاذ على عبد الرازق :

« كل شىء يؤخذ بحد السيف ، ويُحمى بحدّه يكون عزيزا على الناس . . لايهون التسامح فيه ، ولا التنازل عن شىء منه . . وناهيك بمقام السيادة والسلطان . . فهو عزيز على النفس حتى ولو جاء من غير عمل السيف . .

« فإذا جاء عن طريق القوة والغلب كانت النفس به أشد تعلقا ، وفى الدفاع عن أشد تفانيا . . وكانت غيْرتها عليه أكثر من الغيرة على المال والحرم ، وولعها به فوق الولع بكل ما فى الدنيا من خيرات ونِعم !

ثم يقول : « وإذا كان فى هذه الحياة شىء يدفع المرء إلى الاستبداد والظلم ، ويسهل عليه العدوان والبغى ، فذلك هو مقام « الخلافة » . . وقد رأيتَ أنه أشهى ما تتعلق به النفوس ، وأهم ما تغار عليه . . . وإذا اجتمع الحب البالغ والغيرة الشديدة ، وأمدتهما القوة البالغة ؛ فلا شىء إلا السعف ، ولاحكم إلا السيف (١) . »

ولو كانت « الخلافة » مجرد وكالة لما كانت للخليفة منها هذا السلطان الذى يُلغى شخصية الأصيل حتى لا يُحسب له حساب ، والذى يجعل إلى يده الأمر كله ، حتى لا يدع للأمة صاحبة الأمر شيئا منه . .

يقول « جرونيباوم » فى كتابه « حضارة الإسلام » :

« ولما كانت إقامة الشرع لاتجد وقاية من عدوان السلطة التنفيذيّة « الحاكم » أو « الخليفة » فما أكثر ما كانت العدالة تنهار انهياراً تاما .. ومرة أخرى يعود

---

(١) الإسلام وأصول الحكم ص ٢٨

الحكم الإسلامى الرفيع الذى يحلم بحياة تدبر نظمَها يد لله.. فيروغ من المؤمن تحت صدمة الحقائق الواقعية القاسية » . .

ثم يقول :

« وقد أخفق الحكم الاستبدادى الدينى « الثيوقراطى » أن يستثير ذلك الشعور بالمسئولية المدنية التى هى على طول المدى الحارس الوحيد للقانون . . إنسانيا كان أم سماويا [1] ! !

وليس الأمر كما ذهب إليه «جرونيباوم» من أن عنصر الدين فى «الخلافة» هو الذى خلق ذلك الاستبداد الذى أضعف الإحساس بالمسئولية المدنية . . إنه السلطان — أى سلطان عن طريق الدين أو غيره — هو الذى أضعف هذا الشعور فى نفس « الحاكم » وجنح به إلى التسلط والاستبداد . .

ثم يقول « جرونيباوم » متسائلا :

« ولكن أين ذلك الحاكم الكامل ؟

« إن نفس سموّ المثل الأعلى — الذى رسمته الخلافة — من شأنه أن يخلق هوّة مؤيسة بين السلطان الواقعى ، والملك الحق المثالى !

« ولكن شيئا من العجز عن رؤية الحقائق التاريخية فى صورتها الطبيعية — أو لعله لم يكن إلا إحجاما وتهربا — كان يوحى للقوم بأن يسوّوا تسوية فاسدة جدا بين أى عاهل يحكم ، وبين الأمير المثالى !

« فمن تقلد الحكم ينظر إليه بأنه الذى تتجسد فيه الفكرة الشرعية عن الحاكم التى تنطوى فى ذهن الجمهور ، على الهيئة شبه الإلـهية ، لذلك الفانى الذى اختير ليكون السيد المطلق لحياة رعاياه وممتلكاتهم » !

ثم يقول :

« وقد أَلِفَ المسلم العيش على مستويين اثنين : أحدهما المعيارى — المثالى —

---

(١) حضارة الإسلام ص ٢١٥

وثانيهما الحقيق ، فيخال الواقعى هو المعيارى ، ويستخف بشهادة الواقعى فى التماسه المعيارى ، مع أن هذا الواقعى ليس جديرا بأن يحل محل المعيارى»[١]

ومرة ثانية يخطىء « جرونيباوم » فى هذا التقدير لموقف المجتمع الإسلامى من « الخلافة » ! فلم يكن هذا المجتمع أبدا يسوّى بين أى عاهل يحكم ، وبين الأمير المثالى . . إنه يعرف بل ويرى رأى العين هذا الفرق الشاسع بين خليفة وخليفة . . ولكن — كما قلنا — ليست هناك قوة فى يد المجتمع يستطيع بها أن يقيم « الحاكم » عند الحدود التى أقامه عليها ، ورضيه لحسابها . .

وكان على المجتمع إما أن يثور على « الحاكم » وأن يدخل معه فى هذا الصراع الذى يمزّق وحدة الأمة ، ويفتح أبواب الفتن على مصاريعها .. وإما أن يصبر ، ويحتمل . .

وفى الشر خيار !

فقد اتجه أولو الرأى فى الجماعة الإسلامية إلى مسالمة « الحاكم » اجتنابا للفوضى والفتن ، ووجدوا لهذا الاتجاه مستندا يستندون إليه . . كما أن طائفة أخرى من أصحاب الرأى قد اتجهت إلى الجانب الآخر ، وهو الخروج على طاعة الحاكم إذا أمر بمعصية !

إلا أن الجانب المسالم كان أرجح كفة ، وأقوى أثرا . . فقد كان لسلطان « الحاكم » وما بين يديه من نفع وضر أثر ظاهر فى تقوية هذا الجانب وترجيح كفّته ، وبناء الحجج القوية له ، من نصوص الكتاب والسُّنة ، أو مما يضاف إلى السنة ويحسب عليها . .

« عن أم الحصين قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ملتحفاً بثوبه ، قد جعله تحت إبطه ، وهو يقول : « أيها الناس .. اسمعوا وأطيعوا ، وإن أمّر عليكم عبدٌ حبشىٌ أجدع ، فاسمعوا له وأطيعوا » [٢]

---

(١) حضارة الإسلام ص ٢١٧

(٢) الخراج لأبى يوسف ص ٩

« وروى عن الحسن البصرى قال . . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا لا تسبُّوا الولاة ، فإنهم إن أحسنوا فلهم الأجر ، وعليكم الشكر ، وإن أساءوا فعليهم الوِزر ، وعليكم الصبر . . وإنما هم — أى ولاة السوء — نقمة ينتقم الله بهم ممن يشاء ، فلا تستقبلوا نقمة الله بالحميَّة والغضب ، واستقبلوها بالاستكانة والتضرع !! »(١)

فبمثل هذه الأسانيد يستند الداعون إلى المسالمة والاستسلام لجور الحكام وبغيهم .

وكما وجد الداعون إلى الاستكانة والاستسلام بين أيديهم مايستندون إليه فى هذا الاتجاه ، وجد مخالفوهم مستندا لهم أيضا .. من الكتاب ومن السنة .. كذلك .

يقول الله سبحانه وتعالى: « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شئ فردّوه إلى الله والرسول .. إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا » (٢)

وردّ الأمر إلى الله والرسول فيما يختلف فيه المسلمون هو دعوة الإسلام لفض كل نزاع يقع بينهم .. أفراداً وجماعات .. حكاماً ومحكومين !

ولكن من يصدر منطوق الحكم فى هذا الخلاف ؟ ومن يقيم حيثياته ؟ ثم من يتولى تنفيذه إن لم يمتثل أحد الطرفين للحكم ، ويخضع له ؟

هنا العقدة التى لا تحل فى أغلب الأحيان إلا بالسيف !

وثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « على المرء المسلم السمع والطاعة فى عُسْره ويسره ومَنْشطه ومَكْرَهه ، وأثَرَةٍ عليه ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمعَ ولا طاعة »

وفى الصحيحين أيضاً عن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ، ومَنْشَطنا ومَكْرِهنا ،

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١٠ وقد روى هذا الحديث ابن طباطبا فى كتابه « الفخرى »
(٢) سورة النساء آية ٥٩

وأثرة علينا ، وألا تنازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق حيثما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » !

وفى الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الطاعة فى المعروف . . من أمركم بمعصية فلا تطيعوه » [١]

فهذه النصوص وأمثالها من الكتاب والسنة كانت حجة فى يد القائلين بالخروج على « الإمام » أو الخليفة إذا بدّل وغيّر فى أحكام الشريعة ، أو إذا هو انحرف عن الطريق القويم ، ومال مع هواه بعض الميل أو كل الميل .

وكما قلنا من قبل — نقول الآن إنه لا ضابط لميزان الحق والباطل فيما يختلف فيه الحاكم والمحكومون . . فإن كلاً سيذهب المذهب الذى يراه ، وسيجد لهذا المذهب مستنداً ، قويا كان أو ضعيفاً ، صريحا أم مؤولا . . ومن ثمّ فإن هذا الخلاف يبدأ جدلاً ، ومصاولة بالرأى ، ثم ينتهى إلى أن يكون حربا وقتالا ، ثم تكون الغلبة آخر الأمر للقوة ، التى يملك منها الحاكم مالا يملكه المحكومون !

يقول الدكتور طه حسين :

« ولو قد كان للمسلمين هذا النظام المكتوب[٢] لعرف المسلمون فى أيام عثمان ما يأتون من ذلك وما يدعون ، دون أن تكون بينهم فرقة أو خلاف »

يقول الدكتور هذا القول تعليقاً على خبر يروى عن عثمان رضى الله عنه ، رمى به فى وجه خصومه حين اشتد عليه الحصار . . فقال لهم : « إن رأيتم فى كتاب الله أن تضعوا رجلى فى القيد ، فافعلوا » !

ويقول الدكتور : . . وإذن فأين هذا الحكم الذى يبيح للمسلمين وضع رجلىْ إمامهم فى القيد حين يخطىء أو حين ينحرف عن الجادة ؟ لأن القرآن لم يعرض لشئ من هذا » [٣] .

(١) معارضة العقل لابن تيمية ص ١٧
(٢) يريد به نظاما سياسيا مدونا ، ومدرجا تحت مواد تحدد الحقوق والواجبات التى للحاكم ، والمحكومين .
(٣) الفتنة الكبرى ص ٤٢

وكنا نود — هنا — لو أن الدكتور أشار إلى نظام سياسى قام بين الناس فحجزهم عن الخلاف وأقامهم على وفاق، ووحد وجهة الحكام والمحكومين عن رضىً وإخلاص؟

ولا نحسب الدكتور مستطيعاً أن يعثر على هذا النظام فى دنيا الناس هذه، وإلا لكان الدواء الشافى لكل هذه الثورات والفتن التى تعيش فيها المجتمعات فى صراع دائم على الحكم، والتى يتغير بها وجه الأنظمة والدساتير حالا بعد حال.. إن داء الإنسانية لا يكمن فى سوء الأنظمة السياسية أو حسنها، ولو كان مردّ ذلك إلى القوانين والأنظمة لما عجزت أى دولة أن تصوغ أروع الآيات فى بناء دستورها، وتصوير نظامها.. ولكن الداء كامن فى المجتمع الإنسانى ذاته.. فى أهوائه ومنازعه.. فى حرصه ومطامعه.. فى أثرته وحبه لذاته.. ومن هنا تتحرك الفتنة، وتتدافع تياراتها، ويموج الناس فى بحارها.

وسنرى أن الإسلام لم يجعل التشريع الذى ألبسه ثوب الحكمة، والعدل، والخير — لم يجعله كل شىء تعيش فيه الجماعة الإسلامية وتستند إليه فى تنظيم حياتها، وإنما هيأ لهذا التشريع قلوبا مؤمنة بالإخاء، والمودة، والحب، والإيثار، بما حملت تعاليمه إلى الناس من دعوات إلى تصفية النفوس من دخائل الشر، والعدوان، وإلى ترطيب القلوب بالرحمة والمودة بين الإنسان والناس.. وأنه حين تمكنت دعوة الإسلام هذه من قلوب المسلمين لم يكونوا فى حاجة واضحة إلى حاكم يقيمهم على الشريعة.. فلقد استقاموا عليها..

ونعود بعد هذا إلى استكمال النظر فى «البيعة» وما بينها وبين عقد الوكالة من اتفاق أو اختلاف.

يقول المرحوم محمود فياض:

«وهو — أى عقد البيعة — عقد مؤقت مشروط، فهو خاضع لرقابة الأصيل، فإن رأى الوكيل ملتزما للشروط المحددة ورأى استمرار العقد فى صالحه أبقى الوكيل إن شاء!.. فإن رأى الوكيل قد جانب الشرط، وخرج من العهدة عزله، إن شاء.. إذا لم ينعزل هو من نفسه!»

ونقولها مرة أخرى : ما السبيل إلى عزل هذا الوكيل؛ وأين القوة التى تدفعه عن موضعه وقد صار إلى يده القوة كلها ؟

ثم يقول :

« لهذا اتفق فقهاء الإسلام على أن الحاكم وكيل عن الأمة خاضع لرقابتها ، ولها عليه سلطان التولية والعزل والتوجيه !

« ولكل فرد من أفرادها حق أمره بالمعروف ! ونهيه عن المنكر ، وهى — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر — السلطة الكبرى التى جعلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم كما يقول الأستاذ « محمد عبده » فى كتابه «الإسلام والنصرانية » (١)

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على كل مسلم !

ولكن ألا يحتاج الأمر إلى وضع حدود واضحة صريحة يتفق الناس فيها جميعاً على أن هذا معروف ، وهذا منكر ؟

ومن للناس بهذا ؟ ومن يستطيع أن يجمعهم عليه ؟

إن تفسير المنكر وبيان المعروف لو ترك لكل إنسان أن يقول فيهما بقوله ، ويراهما برأيه لتمزق الناس شر ممزق . ولصار المعروف بينهم معروفاً ومنكراً معاً ، ولتحول المنكر فى أعينهم منكراً ومعروفاً جميعاً !

إذن فلا أمر بمعروف ، ولا نهى عن منكر ؟

لا . . إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شريعة الإسلام . وسبيل المسلمين .. ولكن أمر لا يقع موقع الإلزام .. بل هو نصح وتوجيه ، وإلفات.. وكذلك النهى !

ولو كان الأمر والنهى على صورة الإلزام لكان فيهما إعنات وحرج

---

(١) الفقه الإسلامى عند المسلمين ص ٢٦

للمجتمع الإسلامى ، ولكان فيهما دعوة صارخة إلى التسلط والحكم بالحق حيناً ، وبغير الحق فى أكثر الأحيان . .

ولهذا كانت دعوة النبي الكريم إلى تغيير المنكر آخذة هذا المأخذ الحكيم العادل ، الذى ليس وراء حكمته حكمة ، ولا بعد عدله عدل : يقول النبي الكريم : « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

وليس ضعف الإيمان فى تغيير المنكرَ بالقلب إلا فى حق من يقدر أن يغيّر المنكر بيده أو لسانه . . ثم لا يفعل ، ويقف عند أدنى درجات الإنكار .. ومما يؤيد ماذهبنا إليه من أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الجماعة الإسلامية ليس على سبيل الإلزام . وإنما هو للنصح والإلفات — مما يؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « الدّين النصيحة .. قالوا لمن يارسول الله ؟ قال : لله ، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم » . . فواجب على المسلمين أن يتناصحوا فيما بينهم ، وهذا التناصح هو ما يتحقق فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ويقول المرحوم محمود فياض، أيضاً :

« ومما يقطع بصحة فكرة وكالة الحاكم عن الأمة وخضوعه لرقابتها وسلطانها، أن جميع الفقهاء اعتبروه واحداً من أفراد الأمة فى كل تصرفاته ، وألزموه بمتالفه وجناياته ، فهو يؤخذ بالقصاص إذا قتل عامداً أو ظالما ، ويُلزم بالأموال التى يتلفها ، وتُقطع يده إذا سرق ، ويحد أو يرجم إذا زنى . . يقول الإمام «القفال» من الشافعية — إذا زنى — الخليفة — يقيم عليه الحدّ من وُلّىَ الحكمَ عنه ، وهو الأمة ! »[1] .

وهذه الاعتبارات التى يراها الفقهاء فى الحاكم لامحصّل لها فى واقع الحياة .. فمن يلزم الخليفة أو الحاكم بمتالفه وجناياته ؟ ومن يأخذه بالقصاص إذا قتل عامداً أو ظالما ؟ وإذن فمن الذى اقتصّ من الخلفاء لألوف القتلى من المسلمين

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧

الذين ذهبوا ضحية الخلافات المذهبية أو السياسية أيام الأمويين والعباسيين ؟ وهل أخذ الحجاج بمن قتل ظلماً وعمداً من المسلمين ، وهم كثير ، وأين ذهب دم سعيد بن جبير . . ذلك العالم التقى الورع الذى ذبحه الحجاج كما تذبح الشاة ؟ ! إن مقولات الفقهاء هنا لا تجد لها فى منطق الواقع شاهداً واحداً يشهد لما تقول!! ليست الخلافة الإسلامية إذن « وكالة » يقوم فيها الخليفة من الأمة مقام الوكيل من الأصيل . . ليست الخلافة على هذه الصورة كما رأينا . . فماذا تكون ؟

البيعة والتعاقد السياسى :

تحدثنا فى كتابنا الأول — من هذا البحث — عن نظرية « العقد السياسى » الذى بمقتضاه يتلقى الحاكم سلطته من يد أفراد الشعب الذين يتنازلون له بمقتضى هذا العقد عن بعض سلطانهم ، وحرياتهم ، ليكون له من هذا سلطان ما يحكم الشعب به !

وقد عرضنا لوجهات النظر فى هذا « التعاقد » وفى الصلة التى تكون بين الحاكم والمحكومين بمقتضى هذا التعاقد[1] .

وفى البحث السابق تعرضنا « للبيعة » ومقارنتها بعقد الوكالة . .

وهنا نريد أن ننظر فى « البيعة » لنرى أوجه الشبه أو الخلاف بينها وبين « التعاقد السياسى »

وأول مايلقانا من أوجه الشبه بين « البيعة » فى الخلافة وبين التعاقد السياسى ، هو هذا المظهر الذى يبدوان فيه لأول نظرة . .

« فالبيعة » تعاقد قولى وعملى ، قائم بين طرفين لهما أهلية التعاقد : المرشح للخلافة ، وجماعة المبايعين له .. يعطى كل منهما من نفسه شيئاً ، ويأخذ لها شيئا..

فالمرشح يعطى العهد على نفسه بأن يحكم بكتاب الله ، وسنة رسوله ، وأن

---

(١) انظر ص ٣٢ وما بعدها من هذا الكتاب

يقيم العدل بين الناس ، وينتصف للمظلوم من ظالمه ، ويقيم الحدود ، ويحمى بيضة الإسلام . . . ويأخذ لنفسه السمع والطاعة من أعاظم هذه العهود .

والجماعة المبايعة تعطى الخليفة السمع والطاعة ، وتأخذ لنفسها منه العدل فى الحكومة ، والقيام على أمور الدين ، وغير ذلك مما يبذل من عهود ! .

ولا يخرج « التعاقد السياسى » الذى عُرف عند الإغريق قديماً ، وعند الأوربيين حديثا — لا يخرج عن مضمون « البيعة » الإسلامية على تلك الصفة التى أشرنا إليها . .

ولكن هناك خلاف فى بعض التفصيلات . .

فمثلا . . « التعاقد السياسى » لا يأخذ مفهومه الصحيح إلا إذا اشترك فيه جميع أفراد الشعب وطوائفه . . كما نرى ذلك فى عمليات الانتخاب التى تجرى فى الدول الديمقراطية ، حيث يشترك فيها الراشدون من الرجال والنساء جميعاً .. وليس على تلك الصورة تقع « البيعة » . . إن الذين بايعوا الخليفة الأول من المسلمين كانوا رءوس المجتمع الإسلامى من المهاجرين والأنصار الذين لم يجاوز موطنهم المدينة ومكة . . أما سائر المسلمين فى الجزيرة العربية وفى اليمن فلم يكن لهم رأى ولا مدخل فى هذه البيعة . .

وقد قلنا إن « البيعة » على صورة شاملة شمول الانتخابات العامة المعروفة لم تتجه إليها أنظار الجماعة الإسلامية يومذاك ، لأن الأمر كان أعجل من أن ينتظر تجميع هذه الآراء المشتتة فى طول الجزيرة العربية وعرضها . . فكيف يكون الأمر حين بلغت مواطن الإسلام ما بلغت من السعة والامتداد فى القارات الثلاث : آسيا ، وأفريقية ، وأوربا ؟ .

ولا بأس من أن نمضى قليلا مع مراحل البيعة فى عصر الراشدين . . فماذا نرى ؟ .

فهذا أبو بكر رضى الله عنه ، يخشى على المسلمين الفرقة بعده ، وأن يكون لهم

يوم كيوم السقيفة ، ثم لا تكون لهم نهايته التى انتهى إليها ، وحسم بها الشر الذى كاد يقع وتزداد ناره اشتعالا . .

يخشى أبو بكر على المسلمين يوما كهذا اليوم ، ثم لا تحضرهم فيه قلوب كهذه القلوب التى حضرته ، ولا تلقاه منهم نفوس كالنفوس التى لقيته ، ثم يكون من وراء ذلك فتنة فى الأرض وفساد كبير ! .

لهذا كله رأى أبو بكر — رضى الله عنه — أن يختار للمسلمين الخليفة الذى يراه أهلا للقيام مقامه فيهم ، فداول الأمر بينه وبين نفسه أولا ، ثم بينه وبين مستشاريه من صحابة الرسول ثانياً . . وانتهى من هذا وذاك إلى اختيار « عمر » رضى الله خليفته على المسلمين ، .

وحين صحا الناس على خبر استخلاف عمر كثر بينهم اللغط ، وفزعوا إلى أبى بكر يظهرون الوَلَهَ والجزع من أن يولى أمرهم عمر ، وقد عرفوا فى عمر الصرامة ، والشدة . وقال قائلهم لأبى بكر : كيف تلقى الله وقد وليت علينا هذا الفظ الغليظ ؟ وكان أبو بكر فى مرض موته . . فدعا الناس إليه ، وقال : أجلسونى . . فأجلسوه . . ثم واجه الناس فقال : أبالله تخوّفوننى ؟ تعس من تزود من دنيا كم بزاد . . أما والله لأقولن : وليت عليهم خَـيْرَ أهلى ! .

ثم كان عهد أبى بكر — ذلك العهد المكتوب — إلى عمر . . وفيه ما يكشف عن تلك النية الطيبة الخالصة لله ، وللحق ، وللخير فى اختياره عمر ابن الخطاب للخلافة من بعده .

يقول أبو بكر رضى الله عنه فى عهده هذا : « هذا كتاب أبى بكر فى آخر عهده بالدنيا ، وأول عهده بالآخرة ، فى الساعة التى يؤمن فيها الكافر ، ويتوب العاصى .. «قد وليت أموركم خيركم فى نفسى ، فإن برّ وعدل فذاك عهدى به ، وإن نكث وقصّر فالخيرَ أردت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » ! .

ولقد شهد الواقع ، وشهدت الدنيا كلها صدق فراسة أبى بكر ، وحسن رأيه ، وسداد تدبيره فى اختيار « عمر » ! .

والواقع أن اختيار أبي بكر لعمر لم يكن حكما قاطعاً ، يلتزم المسلمون به ، ولا يخرجون عليه ، وإنما كان أشبه بالتزكية منه بالحكم القاطع ، وهى تزكية كان لها بلا شك وزنها وتقديرها عند المسلمين جميعاً . . ولهذا فإنه ما كاد أبو بكر يكشف للناس عن وجه اختياره لعمر حتى بادر وجوه الصحابة بمبايعته ، وتبعهم جمهور المسلمين بالمدينة ، ثم بقية الوجوه فى المواطن الإسلامية الأخرى !

أما « عمر » رضى الله عنه ، فإنه حين حضرته الوفاة بعد أن أصيبت مقاتله بيد « أبى لؤلؤة المجوسى » — غلام المغيرة بن شعبة — تمثل له مقعد الصحابة فى مجلسه ، وتشاوره معهم فى أمور المسلمين ، أفرادا وجماعات ، وبدا له أن هذا المجلس هو مجمع الصفوة المختارة من هذا الغرس الطيب الذى غرسه النبى الكريم ، وأخرج شطأه ، وغذاه من وحى السماء ، ونفخ فيه من روح النبوّة — بدا لعمر أن هؤلاء الصفوة المختارة هم عقل المجتمع الإسلامى ، وهم قلبه ، وهم أطيب ثماره وأكرمها . . وأنه إذا كان للمسلمين أن يختاروا « خليفة » بعد عمر ، — ولا بد لهم من ذلك — فلا يخرج الأمر عن واحد منهم . . فجعل الأمر شورى فيهم ، يختارون من يرتضون من بينهم . . وكانوا ستة . . هم :

عثمان بن عفان ، وعلى بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف . . ثم عبدالله بن عمر ، على أن يكون له رأى ، ولا يكون له نصيب فى الخلافة !

وبعد مشاورات بين أصحاب الشورى الستة تم اختيار عثمان رضى الله عنه ، وبايعه أصحابه هؤلاء ، ثم بايعه الناس بعد هذا .

إن هذا المؤتمر الصغير بأعداده العظيم برجالاته — يمثل مشهدا من مشاهد يوم السقيفة ، وما جرى فيه بين المهاجرين والأنصار — ولعل عمر رضى الله عنه لمح شيئا من هذا فأدركه الخوف على الجماعة الإسلامية أن يصيبها التصدع إذا لم ينكشف أمر هذا المؤتمر عن اختيار « الخليفة » بعد وقت معلوم !

لهذا اشترط عمر على جماعة « الشورى » الذين رشحهم للخلافة ، وجعل

إليهم أن يختاروا واحداً من بينهم ليس فيهم ابنه « عبد الله » — اشترط عليهم أن يتشاوروا ثلاثة أيام ، وألا يتفرقوا من اليوم الثالث حتى يستخلفوا أحدهم، كما اشترط أن يصلي بهم «صُهيب» هذه الأيام الثلاثة فإنه — كما قال — رجل من الموالى ، لا ينازعهم أمرهم [1] »

وقد كثر خلال الثلاثة الأيام الآخذ والرد ، وتحركت فيها دوافع العصبية ، حتى كادت تقع الفتنة.. كفتنة التحكيم التى حدثت بعد هذا بين على ومعاوية .. !

هذا ما كاد يقع فى محيط ستة من خيار الصحابة ، بل من خيار خيرهم . . . فكيف إذا دار الأمر فى الأمة الإسلامية كلها ، وكيف إذا دخلت الأمة الإسلامية كلها فى هذا المعترك ؟

أما عثمان رضى الله عنه فإنه كان مما أحاط به من فتن — كان فى شغل بما هو فيه عما يعقب يومه . . إنه كان فى وضع لا يسمح له أن يقول فى الخليفة أو الخلافة من بعده شيئا . . إنه فى وجه ثورة عاصفة عليه ، فكيف يختار للناس وهم منه على هذا الخلاف ؟

ولما قتل عثمان رضى الله عنه بادر كثير من الصحابة ، إلى بيعة علىّ كرم الله وجهه ، ولم يكن غير « علىّ » من ترتفع إليه الأنظار يومئذ ليقود السفينة المشرفة على الغرق !

وأدار « علىّ » السفينة لتأخذ وجهتها إلى الطريق الذى سلكه عمر وأبو بكر . ولكن الريح لم تكن مواتية ، فاضطربت السفينة وماجت وغرق كثير من ركابها ، ثم ارتطمت آخر الأمر — بصخرة عاتية . ذهب الخليفة ضحيتها . وأصبح الناس بلا « خلافة » وبلا خليفة !

وتناول معاوية الخلافة بأطراف الرماح ، وظباة السيوف . . فبايعه من

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ١ ص ٢٤

بايعه ، وأبى عليه من أبى . . ولكنه ظل ممسكا بها ، وتكاد تسقط فيجمعها إليه في مهارة وحذق ، حتى خلصت له ، وقصرت الأيدى عن أن تنازعه إياها . .

ومن هنا بدأت الخلافة تنحو نحواً خاصاً . . بدأت تصبح ملكا قائما على العصبية والغلب . . ولعلنا نذكر قولة القائل في مجلس من مجالس معاوية عند البيعة « ليزيد » . . إذ يقول هذا القائل : « أمير المؤمنين هذا،ويشير إلى معاوية، فإن هلك فهذا ، ويشير إلى يزيد ، فمن أبى فهذا ، ويخرج سيفه من غمده مُلَوِّحاً به في وجوه الناس ! »

هذا استطراد رأيناه لازماً لنكشف به عن وجه البيعة أو وجوهها المختلفة التى ظهرت بها في الحياة .

ونقول بعد هذا إنها لم تجر على الصورة التى يجرى عليها «التعاقد السياسى» حيث أنه لايدخل في البيعة إلا أعداد قليلة من جمهور المسلمين ، على حين أن « التعاقد السياسى » يدخل فيه جميع المواطنين الراشدين ، فيما يعرف بعملية الانتخاب !

ولنا أن نسأل : أهذا الخلاف في صورة اختيار الحاكم عن طريق البيعة أوالتعاقد السياسى . . أهذا الخلاف في الصورة يؤدى إلى خلاف في النتيجة النهائية للاختيار هنا أو هناك ؟ بمعنى أن سلطان الحاكم الذى جاء عن طريق البيعة ، يختلف عنه إذا جاء عن طريق التعاقد السياسى أو الانتخاب العام ؟

لاشك أن التعاقد العام « الانتخاب » يتيح للجسد السياسى للأمة مجالا تتحرك فيه جميع أعضائه ، وهذا يحمل « الحاكم » إزاء الشعب كله بجميع أفراده وطوائفه ، أما « البيعة » فإنها تحجز عامة الناس عن النظر في « الحاكم » الذى يقوم عليها . وبهذا تفقد ذلك الشعور الذى يصلها به ، والذى يشير إلى أن لها شأناً معه ، كما أن « الحاكم » هنا لايحسب للأمة في مجموعها حسابا ، وإنما ينظر إلى هؤلاء النفر الذين لهم حق البيعة من أولى « الحل . العقد » وحدهم .

ولا يعترض على هذا بأن « البيعة » مفتوحة لكل فرد فى الأمة ، وأن يد المرشح للحكم ممدودة إلى كل إنسان !

وهذا صحيح ، ولكن « البيعة » تنعقد بمجرد أن يبايع أولو الحل والعقد ، ويصبح الأمر واقعاً متى أمضاه هذا النفر القليل ،ولا يتوقف على مبايعة العامّة، بل لا ينظر إليهم بعد هذا . . ثم إنه لا حرج على أىّ من عامة الناس أن يمدّ يده إلى الخليفة مبايعاً حين يكون الأمر قد لزم وانعقد !

من هذا نرى أن « البيعة » تنطوى على قصور كبير فى مجال التعرف على الرأى العام ، كما أنها تنطوى على غبن واضح لحق الأفراد السياسى ، ذلك الحق الذى تقتضيه المساواة التى أقامها الإسلام مبدأً واضحا صريحاً بين المسلمين جميعاً .

ونقف هنا وقفة ننظر فيها إلى أمرين :

الأمر الأول : الإجماع وكيف ينعقد .

والأمر الثانى : الشروط التى رسمها الفقهاء لاستئهال الخلافة .

الإجماع وكيف ينعقد ؟

ونظرتنا إلى الإجماع هنا هى نظرة جانبية ، نريد أن نرى منها « البيعة » فى مواجهته ، إذ كانت البيعة محسوبة على أنها إجماع المسلمين .. حين تنعقد بيد أولى « الحل والعقد » فى الجماعة الإسلامية .

والإجماع كما يعرّفه فقهاء المسلمين هو : « اتفاق المجتهدين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى عصر على حكم شرعى » [(١)]

والمجتهدون الذين يعنيهم هذا التعريف هم الفقهاء الذين لهم حق الاجتهاد والنظر فى أمور الشريعة .

وحق الاجتهاد هذا مختلف فيه ، إذ أن المجتهدين الذين عرفوا فى الإسلام واعترف لهم بهذا الحق لم يكن لهم أفق واحدٌ يطلعون منه ، وإنما هم فى آفاق

---

(١) الإجماع فى الشريعة الإسلامية للأستاذ على عبد الرازق

الإسلام كلها ، كما أنه لم يكن للمجتهدين « مؤهلات » على مستوى معروف ، يتلقونها من الهيئات العلمية ، وإنما كانت الحياة هي التي تعلن عن هذا المجتهد ، وتفرضه على المجتمع ، بعد أن يكون قد ذاع علمه ، وتناقل الناس آراءه ، ومؤلفاته !

وكما اختُلف في حق الاجتهاد بالنسبة للأشخاص اختُلف فيه بالنسبة للأزمان، فقد كاد إجماع الفقهاء ، ينعقد على إغلاق باب « الإجماع » بعد الأئمة الأربعة ، ولكن نزعات كثيرة متحررة ظلت تدق هذا الباب في كل عصر ، وتنادي بحق الاجتهاد للجماعة الإسلامية في كل أدوار حياتها !

وأيا كان الأمر ، فإن الاجتهاد قد أثمر ثمرات كثيرة من الأحكام الشرعية اعترف بها المسلمون ، وجروْا على حكمها .

فهل نرى « للإجماع » على تلك الصورة التي ينعقد بها وجها شبيها « بالبيعة » للخلافة ؟

وأول ما يبدو من شبه بين الإجماع والبيعة: أن كلا منهما يلد شيئا — الإجماع يلد حكما شرعيا ، والبيعة تلد خليفة . . وأن على المسلمين السمع والطاعة لكل من الحكم الشرعي والخليفة !

ومن جهة أخرى ، فإن الإجماع لا تشترك فيه الأمة كلها ، كما قد يفهم خطأ من اسمه ، وإنما يصدر عن جماعة لها قدمها الراسخة في الفقه ، ثم يدخل المسلمون جميعاً بعد هذا فيما أجمعت عليه تلك الجماعة . . وكذلك « البيعة » فإن البيعة تنعقد بجماعة قليلة من المجتمع الإسلامي ، ثم يدخل المسلمون جميعاً بعد هذا فيما انعقدت عليه البيعة !

إن ما بين الإجماع والبيعة من تشابه يكاد يجعل « البيعة » للخلافة حكما من أحكام الإجماع . . إذ كان أهلّ الحل والعقد — وخاصة في الصدر الأول — هم أئمة المسلمين وأصحاب الرأي والفُتيا فيهم !

فالخلافة من هذا الوجه ـ إذ تصدر عن الإجماع المنعقد بالبيعة ـ تعتبر حكما

شرعيا ، لا يجوز للمسلمين الخروج عليه . .

وقد رأينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يدخل على على كرّم الله وجهه بيته فى قوة من المسلمين ، يريده على أن يدخل فى البيعة لأبى بكر بعد أن بايعه وجوه الصحابة ، وانعقد أمر الخلافة له .

إذا صح هـــذا المذهب الذى ذهبنا إليه فى إضافة « البيعة » إلى الإجماع وتخريجها عليه كان لنا أن نقرر :

أولا : أن نعطل البيعة ، وأن نقف بها عند ماوقف علماء المسلمين بالاجتهاد عند الأئمة الأربعة . وكما انفرط عقد المجتهدين لسبب أو لآخر على ما يذكر الفقهاء — كذلك انفرط عقد البيعة لهذا السبب ذاته .

ثانيا : إذا أخذنا بالرأى القائل بأن الإجماع ممكن أن يقع فى أى زمن من أزمان المجتمع الإسلامى — كان لنا — أن نقول بأن البيعة يمكن أن تصح وتنعقد فى كل وقت أيضا .

هذا ، وينظر كثير من المستشرقين إلى الإجماع على أنه من مخلفات العادات والتقاليد التى تستقر فى ضمير الأمة ، وتنشب فى ضميرها ، . ومعنى هـذا أن الإجماع يتَبَنّى العادات — وحتى الخرافات — منها ، ومعنى هذا أيضا أن الإجماع لا يلابس الأمور المستقبلة ، ولا يعمل فيها . وإنما وظيفته أن يسجل العادات المستقرة فى المجتمع ، والشائعة فى أفراده ، ثم يضيفها إلى حساب « الإجماع »

يقول « جرونيباوم »

« وكانت الوسيلة الوحيدة التى نجحت بهـا الشريعة الإسلامية من فورها فى حفظ أساسيها : القرآن والسنة ، وفى المواءمه بين نصوصهما ، وبين الحاجات التى لا تبرح تتغير بحسب الأمكنة ، والأزمنة — هـذه الوسيلة هى التسليم بالإجماع ، بوصفه مصدراً آخر من مصادر القانون .

« فالإجماع هو الذى يستطيع أن يتقبل بدعة من البدع كانت تعتبر فى البداية زندقة ، فإذا هى جزء لا يتجزأ من السنة ، فقد تغلبت على ما يعترض طريقها من الآراء التقليدية !

ثم يقول : « وكان الإجماع ، وهو المستقل عن كل قانون مكتوب ، أو تقليدى أو مستنبط — يقوم على تطبيق المبدأ « الرومانى » المسمّى « بالعادة » ، وهو الذى يقول بأن الأحكام المتشابهة المتكررة الحدوث لها قوة القانون »[1]

وهذا لاشك فهم خاطئ للإجماع فى الشريعة الإسلامية ، فليس «الإجماع» فى الإسلام مجرّد رصد للعادات المستقرة فى الحياة ، ثم تسجيلها لتأخذ حكم القانون .. ! وإنما هو شيء بعيد عن هذا كل البعد ، لأنه يقوم أساساً على نظر ، ودراسة ، ومقابلة بين الآراء المختلفة فى أمر ما ، بين ذوى الرأى والفقه والدين ، ثم الأخذ بالجانب الأرجح ، الذى تميل إليه ، وترتضيه الأغلبية من هؤلاء العلماء الفقهاء . .

إن الإجماع فى حقيقته لاينظر فى أعقاب الأمور كما قد فهم ذلك خطأ ، وإنما هو يواجه الأحداث ويلتق بها ، ويدعو إليها ذوى الرأى والنظر ، وقد لايقطع بالرأى فى الحدث العارض فى مجلس أو فى جماعة ، بل قد يتنقل هذا الحدث فى المجالس وفى الجماعات الإسلامية ، ثم تنتهى دورته آخر الأمر بهذا المحصول الوفير من الآراء التى واجهه بها أصحاب الرأي ، وحين ترجح كفة رأى من الآراء فى هذا الحَدَث ويغلب ، ويجتمع عليه كثرة العلماء والفقهاء ، يمضى هذا الرأى ، ويصبح إجماعاً . .

هكذا كان يقع الإجماع فى الصدر الأول . . تعرض مسألة كمسألة توريث الجدّ فلا يجد الخليفة فى كتاب الله أو فى سنة رسوله نصيباً له ثم تدور هذه المسألة بين الصحابة ، ويلقاها كل برأيه ، ثم يستقر الرأى على أن يرث الجدّ ما كان يرثه الأب . . لأن الجدّ أب !

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٩٤

وعلى هذا يكون للإجماع مجال للنظر فى المشكلات العارضة ، والوقوع على حكم لها يرتضيه أئمة المسلمين وأولى الفقه والدين فيهم . .

وإذن فلا نقف عند قول « جرونيناوم » : إنه لا يستطاع الأخذ بمبدأ الإجماع فى أى حل من الحلول يتعلق بتسوية مسألة فى مستقبل الأيام ، بل الأحرى أن يطبق على الماضى وأن يكون العامل الفاصل فيه استرجاع الأحداث الماضية ! » (١)

ومن جهة أخرى . . تشيع بين الناس سنة حسنة ، فتصبح مع الزمن عادة طيبة ، يعيشون فيها كما يُعاش فى وصايا الشرائع السماوية . . تزداد مع الزمن حسناً ، وبالاحتكاك بالحياة طيباً وخيراً.. مثل هذه السنة تصبح إجماعا . زكاها رضا أهل الرأى عنها ، وسكوتهم عليها زمنا بعد زمن . . !

وفرق كبير بين السُّنة الحسنة وبين العادات التى تركب الناس عن جهل أو انحلال . . لأن السنة الحسنة دعوة من دعوات الخير ، وسلوك صالح من سلوك المجتمع ، تسفر عن وجهها أمارات الحسن والإحسان ، وهى التى يشير إليها النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله: مَنْ سَنَّ سُنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .. ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

وهذا يعنى أن الإنسانية قد تشرع لنفسها شرائع حسنة إلى جانب الشريعة السماوية ، وأنها قد لا تظهر فى صورة مكتوبة تصدرها هيئة من الهيئات ، بل ربما لا يعرف أحد من أين جاءت ، وإذا هى تتحرك فى كل اتجاه حتى تملأ أقطار المجتمع ، وإذا هى شريعة له ، وسنة متبعة !..

وكما تشيع السنة الحسنة فى الناس فتصبح إجماعاً ، كذلك قد تشيع السنة السيئة فتصير فى قالب إجماع من الناس كلهم . .

وقد حمى الله المجتمع الإسلامى أن يجتمع على ضلالة . . فإنه مهما كثرت

---

(١) حضارة الإسلام ص ١٩٤

الانحرافات فيه ، وظهر الفساد فى أرجائه ، فإن روح الحق والخير تظل حية نابضة فى هذا الجسد — وإن دبّ فيه دبيب الفساد .. ومن ثم فإن هذه الضلالة لاتلبث أن تصطدم بالضمير العام لهذا المجتمع ، وسرعان ما ينكمش ظلها ، وتُنتقص من أطرافها !

وأكثر من هذا ، فإن هذه السنن — الحسنة والسيئة — الآخذة صورة الإجماع ليست شريعة دائمة للناس ، وليس الإجماع عليها فى عصر حجة ملزمة للعصر الذى بعده ، وبهذا يتحرك المجتمع ، وينمو ، ويلبس لكل زمن لبوسه ، بما يستن من سنن ، تستقيم مع روح الشريعة فتكون حسنة ، أو تنحرف عن هذه الروح فتكون سيئة !

نقول: إن الإجماع الذى عدّ فى شريعة الإسلام مصدراً من مصادر الشريعة إلى جانب الكتاب والسنة — هذا الإجماع هو دعوة صريحة إلى الاعتراف بالرأى العام . والالتفات إليه ، والتعرف على اتجاهاته وميوله الأصيلة الثابتة ، ورعايتها عند التشريع !

إن الإجماع فى الشريعة الإسلامية تكريم للإنسان — أيا كان — واعتراف برشده وقوامته على نفسه ، وإن أمدته السماء بأمداد النصح والتوجيه .

وتنفرد الشريعة الإسلامية من بين الشرائع . السماوية فى الاعتراف بحق الجماعة الإنسانية فى التشريع ، وعد شريعتها جارية مع شريعة السماء . . وهذا يؤيد مادهبنا إليه فى كتابنا « النبي محمد » من أن الرسالة الإسلامية ورسولها قد جاءا إلى الإنسانية وقد كملت ورشدت ، فجاءت وجاء رسولها بالتشريع الخالد الذى يصحب الإنسانية فى جميع أزمانها المستقبلة [1] .

يتحدث «روسو» فى كتابه «العقد الاجتماعى» عن الرأى العام « الإجماع » بعد أن عد صوراً من القوانين — فيقول :

« ويضاف إلى هذه الأنواع الثلاثة من القوانين نوع رابع ، وهو أهمها جميعاً . .

(١) انظر كتابنا — النبي محمد صلى الله عليه وسلم

وهو قانون لا ينقش على لوح من الرخام أو البرونز . ولكن فى قلوب المواطنين . .

وهو الذى يجدد النظام الحقيقى للدولة . . قانون يزداد قوة يوماً بعد يوم !

فإذا هرمت القوانين الأخرى ، أو انطفأت أعادها إلى الحياة ، أو سد ثغراتها، ويصون للشعب روح نظامه ، ويجعل قوة العادة تحل بالتدريج محل السلطة ، وأعنى به العرف والعادة ، وفوق كل شىء الرأى العام .

ثم يذكر « روسو » أن هذا القانون التى جاءت الشريعة الإسلامية به قد حُرِمَته الغرب ، وحُرِم العوائد الطيبة التى تعود عليه منه . . يقول :

« وهو — أى الإجماع — قانون لا يعرف عنه ساستنا شيئاً ، ولكن يتوقف عليه نجاح كل القوانين الأخرى .

« وهو — الإجماع — ذلك الجزء من القوانين الذى يشغل بال المشرّع العظيم فى الخفاء ، بينما يبدو أنه يهتم بتنظيمات خاصة ، وهو فى الواقع مجرد بناء لا قيام له إلا اعتماداً على العرف . . الذى ينمو ببطء »[(١)] .

وتقديراً لهذا العرف العام ، المندس فى ضمير الجماعة الإنسانية ، والنابع من وجدانها أبقى الإسلام على كثير من مألوف الحياة فى الجاهلية ، وسمح لكثير من تلك العادات أن تصحب الجاهليين فتدخل معهم الإسلام حينما دخلوا فى دين الله !

* * *

ولا نريد أن نقف أكثر من هذا فى نظرتنا إلى الخلافة ومقايستها للتعاقد السياسى المعروف فى نظام الحكم الحديث . . لا نريد أن نقف أكثر من هذا ، بعد أن وضح لنا أن ما بين البيعة والعقد السياسى من تشابه لم يكن إلا فى المبدأ العام الذى يتمثل فى عملية تعاقدية ، يقوم بها طرفان فى كل من البيعة ، والعقد السياسى « الانتخاب » . . ثم يفترقان بعد هذا . .

---

(١) العقد الاجتماعى ص ١٤٠ .

البيعة تنعقد بأولى الحلّ والعقد وحدهم دون أن يشاركهم العامة فيها ، بينما يكون العقد السياسى فى يد جميع أفراد الشعب ، لا ينعقد الأمر فيه إلا برضا الأغلبية المطلقة !

ندع هذا . .

لنستقبل رأياً آخر فى الأسلوب الذى تقوم به « الخلافة » .

الخلافة القهرية وهل تنعقد ؟

يرى بعض الفقهاء أن الخلافة قد تنعقد بالقهر والقوة ، وأن الغالب عليها ، والآخذ لها بحدّ السيف هو « خليفة » ينبغى الاعتراف به ، والولاء له باعتباره ولىّ الأمر . .

ومن عجب أن يكون الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه من أصحاب هذا الرأى ، على ماوجد فى خلافة القهر من عَنَت واضطهاد ، وما لقى من تعذيب وتنكيل ، حين لم يتابع الخليفة على رأيه فى القول بخلق القرآن ! تلك الفتنة التى ثارت عواصفها فى المجتمع الإسلامى أيام خلافة المعتصم العباسى ، وامتحن فيها كثير من العلماء ، وأوذوا فى سبيل الوقوف عند رأيهم فى أمر لم يكن يمس شئون الخلافة ، أو يعمل على سلب الخليفة شيئاً من سلطانه ، ولكن التسلط والقهر خرجا بهذه المسألة عن أن تكون رأيا ، إلى أن تكون حرباً ..!

يقول الإمام ابن حنبل :

« ومن غلبهم — أى المسلمين — بالسيف صار خليفة ، وسمّى أمير المؤمنين ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً عليه . . بَرّاً كان أو فاجراً . فهو أمير المؤمنين . . . »

« وكان ابن حنبل — رضى الله عنه — يدعو المعتصم بأمير المؤمنين فى غير موضع ، وقد دعاه المعتصم إلى القول بخلق القرآن ، وضربه عليه حتى كاد يتلف .

« وكذلك كان يدعو « المتوكل » بأمير المؤمنين ، ولم يكن — المتوكل — من أهل العلم ، ولا كان أفضل وقته وزمانه . .

« واجتمع إلى ابن حنبل فقهاء بغداد فى خلافة « الواثق » وقالوا هذا أمر قد تفاقم وفشا — يريدون القول بخلق القرآن — وقالوا له : نشاورك فى أننا لسنا نرضى بإمرته ، ولا سلطانه . . فقال : عليكم بالنكرة بقلوبكم ، ولا تخلعوا يداً من طاعة ، ولا تشقوا عصا المسلمين[1].

وابن حنبل رضى الله عنه لم ينظر فى هذا الأمر إلى نفسه ، وإنما نظر إلى دينه ! ولم يجعل لهذه السياط التى أثرت فى جسده وكادت تزهق روحه ، ولا لهذا القيد الثقيل الذى أودع فى جسده عللاً وأسقاماً — لم يجعل لهذا كله سبيلا إلى نفسه وهو ينظر إلى الخليفة وإلى مكانه من المسلمين ، كحاكم مَلَكَ أمرهم ، وقام على دنياهم . . بل لقد ذهب هذا الإمام الجليل مذهب الاتهام لنفسه والحذر منها أن تجنح به إلى غير الحق والعدل ، فاتجه هو إلى هذا الرأى ، وقطع على نفسه كل سبيل للانتقام ممن آذوه فى تهييج العامة عليهم ، وإثارة النفوس ضدهم !

ومعاذ الله أن يظن بابن حنبل أنه ظَلَم ليقال إنه عدل ، وأنه مالأ الخلافة ليقال إن نفسه فوقها وفوق دنياها التى تعيش فيها — فإن هذا الرأى الذى ذهب إليه فى طاعة « الحاكم » أيا كان من الجهل أو الحق ، أو الظلم — إن هذا الرأى مستند إلى مرويات من السنة وإلى مأثورات من أقوال الصحابة رضى الله عنهم .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الإمام جُنّة ، يُقاتَل من ورائه ، ويُتّقى به . . فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجراً ، وإن أتى بغيره فعليه إثمه[2] » . . وقد نقلنا من قبل أحاديث تحض على طاعة ولى الأمر — أيا كان — والولاء له فى جميع أحواله .

وروى ابن تيمية فى كتابه « السياسة الشرعية » أن « علياً » رضى الله عنه كان يقول : لا بد للناس من إمارة . . بَرّةٍ أو فاجرة » . . فقيل له : يا أمير

---

(١) انظر الملل والنحل ص ٢٦١ « هامش » نقلا عن الأحكام السلطانية لابن أبى يعلى ص ٤

(٢) الخراج لأبى يوسف ص ٩

المؤمنين . . هذه السَّرة قد عرفناها . . فما بال الفاجرة ؟ فقال : يقام بها الحدود ، وتأمن بها السبل ، ويجاهد بها العدوّ ، ويقسم بها الفيء » .

من هذا الجانب نظر الإمام ابن حنبل إلى الخلافة ، ورأى قيامها على أية صورة ضمان لحفظ كيان المجتمع وسلامته من التحلل فى الداخل ، ومن تسلط العدو عليه من الخارج . .

فأيّا ما كان فى الحاكم من سوء ، وأياً ما انطوت عليه سياسة من بغى وظلم ، فإنه — فى مجال هذه النظرة — راية يجتمع إليها الناس ، ولو كانت ممزقة بالية . . إنها شرٌّ . . ولكن يدفع بها شر أكبر وأفدح . . وفى الشر خيار .

لقد سوّى الإمام ابن حنبل حسابه مع الخلافة والخلفاء الظالمين المعتدين — سوّى حسابه على هذا الوجه . . وقد كان يمكن أن يذهب به الرأى مذهباً آخر فيُعمل فيهم الحديث الشريف : « إنما الطاعة فى المعروف .. من أمركم بمعصيته فلا تطيعوه » أو الحديث الآخر : « على المرء المسلم السمع والطاعة فى عسره ويسره ، ومَنْشَطه ومكرهه وأثرةٍ عليه ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أُمِرَ بمعصيةٍ فلا سمع ولا طاعة » . . وكلا الحديثين وارد فى الصحيحين . .

كان من الممكن أن يتخذ ابن حنبل وجهة أخرى غير التى اتجه إليها فى الدعوة إلى السكون والاستسلام « للخليفة » ولو جار فظلم وسفه ! وكان له من سنة رسول الله مستند يستند إليه .. ولكنه — كما قلنا ، وكما بدا لنا — أراد أن يحتسب فى الله هذا الأذى الذى وقع عليه من « الخليفة » وألا يُدخل على هذا البلاء الذى أصابه ما قد يشفى من نفسه ألماً ، أو ينفس عن صدره غيظاً .. إذا هو قال قولا فأصاب الخليفةَ منه أذى أو مسه ضرٌّ !

على أنه يجب أن نذكر أن ابن حنبل قد جعل الإنكار بالقلب — وهو أحد المواقف التى يجب المسلم أن يقفها إزاء المنكر — جعل هذا الإنكار القلبى هو الغاية التى يقف عندها المسلم لا يتجاوزها ، وبهذا يكون ممتثلا أمر الرسول الكريم فيما أمر به المسلمين من إنكار المنكر بينهم .

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٢٩

ولا نحسب أن الوقوف عند هذه الصورة السلبية فى وجه الظلم والطغيان من الخليفة ، كان الصورة الوحيدة التى وقف عندها العلماء والفقهاء وأصحاب الرأى من المسلمين . . بل لقد سجل التاريخ وقفات رائعة من مواقف البطولة فى هذا المعترك ، لكثير من علماء المسلمين وفقهائهم ، واستقبل كثير منهم الموت فى ثبات ، وإيمان ، ورضى .. وحسبنا أن نذكر موقف الحسين بن علىّ رضى الله عنه ، وموقف آل بيته من الخليفة « يزيد بن معاوية » وكيف لقى هو وآل بيته الموت فى استبسال ، وإصرار لم يعرف التاريخ صوراً كثيرة له من قبل .. ثم ما وقع لآل البيت وشيعتهم بعد هذا من تقتيل ، وتعذيب ، احتملوه فى صبر وشجاعة وإيمان ! بل إن موقف الإمام بن حنبل فى محنة خلق القرآن هو موقف الأبطال الذين يأبون الضيم ، ويستعذبون لقاء الموت ، ويَهشُّون له ! فى سبيل الحق ، وإعلاء كلمته .

وممن ذهب مذهب ابن حنبل فى إقرار الخلافة القائمة على الغلب والقهر — ابن خلدون ، الذى يرى أن البيعة تنعقد لمن غلب بالشوكة والعصبية . . ولهذا يرى انتقالَ الخلافة إلى الملك أمراً طبيعياً ، إذ كان الملك يستند دائماً إلى العصبية التى هى القوة العاملة فى الحياة ، بعد أن تذهب قوة الوازع الدينى ، ويضعف سلطانه على النفوس . . فخلافة الخلفاء الأمويين والعباسيين ، وكل خلافة جاءت بعدهم أو معهم — خلافة منعقدة ، والخليفة هو أمير المؤمنين[1] .

وما كان لابن خلدون أن يرى غير هذا الرأى ، أو يقول غير هذا القول ، وهو يشهد العالم الإسلامى قد توزعته القوة ، واستبد كل صاحب سلطان بما اقتطع من هذا الجسد ، وادعى لنفسه « الخلافة » ! .. ما كان لابن خلدون أن يقول غير هذا ، وإلاّ كان داعية فتنة وثورة على الحكومات الإسلامية القائمة ، وكان فى معرض البلاء والمطاردة فى مواطن الإسلام كلها . .

---

(١) مقدمة ابن خلدون (فصل فى انقلاب الخلافة إلى الملك ص ١٩١

ومن ذهب هذا المذهب أيضاً القاضى « ابن جماعة الدمشقى » المتوفى (١٣٣٣ م) . . يقول ابن جماعة : « وأما الطريق الثالث الذى تنعقد به البيعة القهرية فهو قهر صاحب الشوكة ، فإذا خلا الوقت من إمام فتصدى لها من هو من أهلها ، وقهر الناس بشوكته وجنوده بغير بيعة أو استخلاف انعقدت بيعته ، ولزمت طاعته .. لينتظم شمل المسلمين ، وتجتمع كلمتهم ، ولا يقدح فى ذلك كونه جاهلاً أو فاسقاً .

ثم يقول :

« وإذا انعقدت الإمامة بالشوكة والغلبة لواحد ، ثم قام آخر فقهر الأول بشوكته وجنوده ، انعزل الأول وصار الثانى إماما ، لما قدمناه من مصلحة المسلمين ، وجمع كلمتهم ، ولذلك قال ابن عمر فى أيام الحرة « نحن مع من غلب[1] » !

ويسأل المرء نفسه هنا فى هذا الموقف : أين الدين ؟ وأين سلطان الدين ؟ وأين مقرراته ؟ وإذا كانت الخلافة لا تجد من الدين معتصما تعتصم به فما الفرق بينها وبين أية حكومة مدنية ؟ وكيف يراد من خليفة أخذ الخلافة بسيفه وقوته وعصبيته كيف يراد منه أن ينزل على حكم غير حكم السيف والقوة والعصبية ؟

ولماذا إذن تتحكك الخلافة بالدين ، وهى لم تجىء عن طريقة ؟

هذه الأسئلة وكثير غيرها ترد هنا ليكون فى الجواب عليها كشف لهذا اللون « الحربائى » الذى تتزيا به « الخلافة » حالا بعد حال !

وقد حاول كثير من الباحثين أن يجيبوا على مثل هذا الأسئلة ، فجاءت أجوبتهم مختلفة باختلاف وجهات نظرهم وما يؤدى إليه اجتهادهم .

فالأستاذ « على عبد الرازق » أراد أن يريح نفسه ، وأن يريح الناس من

---

(١) حضارة الإسلام ، ص ٢١٧

هذا الصداع المزمن الذى رهق الناس من التفكير فى «الخلافة» الإسلامية طوال الأجيال الماضية المتعاقبة — فتراه لذلك عزل الخلافة عن الدين ، وباعد بينها وبينه ، وجعلها خطة مدنية خالصة ، يقيمها الناس على الوجه الذى يرونه صالحا لهم ، أو يقيمها عليهم من يستبد بهم ويغلبهم على أمرهم !

وهذا الرأى لايعطى « الخلافة » سلطة وراء السلطة المدنية التى يعطيها الناس للحاكم ، أو يأخذها هو لنفسه ، ويفرضها عليهم . وبهذا تبدو الخلافة» مولودا طبيعياً من مواليد الحياة . أياً كان الوجه الذى تولد به . . وجهاً ملائكياً ، أو إنسانيا ، أو شيطانيا . . فإن الحياة تتسع لكل هذه الوجوه . . أما الخلافة فى مفهومها الذى قامت عليه فليس لها إلا وجه واحد هو هذا الوجه الإنسانى المشرق بأنوار النبوّة وهديها ، فإذا قضت ظروف الحياة وأحوال الناس أن يتغير هذا الوجه كان من الحق الذى توضع به الأمور فى مواضعها أن تخرج الخلافة عن هذا المفهوم ، وأن تتخذ لها من الأسماء مايناسب الوجه الذى تكون عليه .. من إمارة ، أوملك ، أو سلطان .

وأستاذنا على عبد الرازق — كما قلنا من قبل — يريد أن يناى بالدين عن هذه المزالق التى ينزلق إليها الناس — حكاما ومحكومين — فى صراعهم الدائب مع الحياة !

ولكن الذى نقول به هو أن الإسلام جاء ليعيش فى الحياة ، وأن يحيا مع الناس حيواتهم كلها ، وأن يصحبهم فى جميع أحوالهم .. ولهذا جاءت شريعة الإسلام وفيها — عن قصد — فراغ كبير ، ترك الناس أن يملؤه بقدر ماتتسع لهم طاقة كل جيل ، وتقتضيه الأحوال والظروف المتلبسة بهم .

ونعود بعد هذا كله لنسأل : ما الخلافة إذن ؟ وما الأساس الذى قامت عليه ؟ وهذا سؤال نريد أن نقف عنده بعض الشيء . . لعلنا نجد فى الجواب عليه ما يكشف لنا عن وجه الخلافة ، ويضعها فى المكان المناسب لها بين صور الحكم وأشكاله .

الخلافة الإسلامية .. ماهى ؟

تحدثنا فيما سبق عن ثلاثة وجوه من أوجه « الحكم » التى يمكن أن تظهر الخلافة الإسلامية فيها . .

أهى عقد وكالة ؟

أم هى عقد سياسى « انتخاب » ؟

أم هى لاهذا ، ولا ذاك ، بل تكون لمن غلب . ؟

أم هى هذه الوجوه كلها ، تلبسها فى حال ، أو تبدلها حالا بعد حال ؟

أم أن الخلافة الإسلامية شىء غير هذا كله . . نظام نبت فى الإسلام وتزيا بزى الإسلام فجاء على صورة فريدة من صور الحكم ، لم تعهده الحياة من قبل ! شأنها شأن الدّين الإسلامى الذى نبعت منه ! ؟

يقول الدكتور طه حسين :

إن الخلافة نظام عربى إسلامى خالص ، لم تُسْبَق إليه العرب ، ثم لم يُقَلَّدُوا بعد ذلك فيه »

ويرى الدكتور أن الخلافة الإسلامية قامت على عنصرين :

أولهما: العنصر الدينى..فالحكم الإسلامى، وإن لم يكن دنيوياً أو دينيا إلا أنه كان عنصرا إنسانياً تأثر بالدين إلى حد بعيد جداً .

وثانيهما : عنصر الأرستقراطية القرشية . .

وواضح جدا أن هذين العنصرين لم يكن من شأنهما أن يطاولا مرّ الدهر وتقلب الخطوب وتتابع الأحداث . . . » (١)

والحق أن مايذهب إليه الدكتور طه حسين من أن الخلافة نظام إنسانى تأثر

---

(١) الفتنة الكبرى ص ٣٢

بالدين إلى حدٍّ بعيد جدا — هو فى الواقع أقرب ما يكون إلى مفهوم الخلافة الإسلامية — فى جميع الوجوه التى ظهرت بها . . ذلك أن عنصر الدين كان دائماً محتفظاً بمكان له فى كيان الخلافة، حتى فى أسوأ أيام الخلافة وأشدها ظلاما.. إذ كان الدين دائماً فى صحبة المجتمع الإسلام . . فى عقله ، وفى ضميره ، وفى وجدانه .. وفى باطن أمره وظاهره جميعاً.. ولا يمكن لحاكم أبدا - خليفة أو غير خليفة - أن يستقيم له أمر إذا هو لم ينهج نهجاً سياسيا يوائم طبيعة المجتمع الذى يحكمه ، ويجرى مع تقاليده وعاداته ، ومنازعه . . وإذا صح أن يقال إن الناس على دين ملوكهم فإنه يصح أيضا أن يقال إن الملوك على دين رعاياهم — خاصة إذا كان هذا الدين قسمة سواء بين الحاكم والمحكوم .

ولقد تحدثنا فى أكثر من موضع عن الإسلام كدين يجمع بين المادة والروح ، ويحمل مجتمعه على سفينة تضرب فى عباب الحياة ، بشراع نَسَجه الدين والدنيا معاً .

فهل « الخلافة » خطة أخرى غير هذه الخطة التى دان بها الإسلام أتباعه ، وحملهم عليها ؟

إنها إن تك ديناً ، فليس فى شريعة الإسلام دين لا يلابس الدنيا ، ولا يختلط بها ، ويتلون بلون النفوس التى يدخل إليها .

الصلاة — مثلا تبدو وكأنها خطة دينية خالصة .. ليس للإنسان أن يدخل عليها شيئا ، أو ينقص منها شيئا . . فقد حدد الاسلام أقوالها ، وأفعالها ، تحديدا لا يدع لأحد يغير أو يبدل منها قليلا أو كثيرا .

وأنت ترى صفوف المصلين فى الصلاة على سمت واحد فى قيامهم وقعودهم ، وركوعهم وسجودهم . . لا يبين لك منهم فاضل أو مفضول .

ولكن مهلا !

إنه لو كان لك ما تستطيع أن تدخل به على مشاعر الناس ، وتختبر ما فيها من درجات الخشوع والولاء لله — لرأيت هذا الظاهر السوىّ الذى يبدو فى

نظرك على صورة واحدة — ولون واحد قد استحال صوراً وألواناً تعدُّ بعدد المصلين فرداً فرداً . . فكل مصل له صلاته ، وله خشوعه وخضوعه ، وله وجهته التى يتجه إليها . . بعد أن يقضى الصلاة مع المصلين !

وأكثر من هذا . .

العقيدة ذاتها ..، الإيمان بالله .

أتحسب أن درجات الإيمان بالله واحدة عند جميع المؤمنين ؟

وهل تظن أن مشاعر المؤمنين على حدٍّ سواء فى الإيمان بالله،وفى تصورهم لجلاله ، وعظمته ، وقدرته وعلمه وحكمته ؟

كلا ، فإن الإيمان قول وعمل . . والناس درجات فى هذا المجال . . يُحسن أحدهم القول ، وقد يحسن العمل وقد لا يحسنه .. ولهذا أنكر القول على الذين يقولون ما لا يفعلون ، فقال تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون »[1].. وقد ورد فى الأثر : «الإيمان يزيد وينقص».. وهذا ماتشير إليه الآية الكريمة « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم »[2] والآية الكريمة : « ويزداد الذين آمنوا إيمانا »[3] . . فليست درجات الإيمان على حد سواء بين جميع المؤمنين . . !

فهل تبلغ الخلافة ، — بالغة مابلغت — أن تكون من صميم الدين كالتوحيد أو كالصلاة ؟ هيهات . . هيهات . !

وهبها كذلك . . عقيدةً أو شريعةً !

ألاَ تخالط حياة الناس وتتلون بها ، كما تتلون مقررات العقيدة والشريعة بالنفوس التى تدين بها ، وبالقلوب التى تتفتح لها ؟

لا بد أن يقع ذلك ، فتخالط « الخلافة » الحياة ، وتصطبغ بألوانها حتى ولو أنها حملت إلى الناس مع ما حمل الدين إليهم من عقيدة أو شريعة !

---

(١) سورة الصف آية ٣ (٢) سورة محمد آيه ٧١ (٣) سورة المدثر آية ٣١

وكما أن الخلافة — كما بينا هنا — ليست ديناً خالصاً ، كذلك ليست هى دنيا خالصة ..

فالمجتمع الإسلامى يعيش فى صحبة الدين ، ظاهراً ، وباطناً .. وكل شىء فى هذا الدين إنما هو لحساب الإنسان ، ينفق منه كيف يشاء .. محسناً أو مسيئاً .. مقتصداً ، أو مسرفاً ، أو مقتراً !

فالخلافة دين ودنيا معاً .. كما أن حياة المسلمين دين ودنيا جميعاً ،

يقول ابن خلدون : الخلافة نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا .. فصاحب الشرع — يقصد النبى — متصرف فى الأمرين : أما الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية ، الذى هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها .. وأما سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم فى العمران البشرى ، وقد قدمنا أن هذا العمران ضرورى للبشر ، وأن رعاية مصالحه كذلك ، لئلا يفسد إن أهملت ! وقدمنا أن الملك وسطوته كاف فى حصول هذه المصالح .. نعم إنما تكون أكمل إذا كانت بالأحكام الشرعية ، لأنه — الشارع — أعلم بهذه المصالح ، فقد صار الملك يندرج تحت الخلافة إذا كان إسلامياً ، ويكون من توابعها .. وقد ينفرد إذا كان فى غير الملة »(١)

ومعنى هذا أن الملك جزء من الخلافة ، أو بمعنى آخر أن الخلافة لابد لها من الملك الذى يساندها ويُمضى أحكامها ، وينفذ شريعتها .. وبغير الملك تكون مجرد رمز ، لا محصل له ، ولا ثمرة وراءه .

ويقول ابن خلدون أيضاً :

« واعلم أن الملك غاية طبيعية للعصبية ، ليس وقوعه عنها باختيار ، وإنما هو بضرورة الوجود وترتيبه ..

« وأن الشرائع والديانات ، وكل أمر يُحمل عليه الجمهور فلابد فيه من العصبية ، إذ المطالبة لا تتم إلا بها .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧

« فالعصبية ضرورية للملّة ، وبوجودها يتمّ أمر الله منها .. وفى الصحيح : « ما بعث الله نبيًّا إلا فى مَنَعةٍ من قومه[١] » .

وهذا القول صريح كل الصراحة فى أن الدين لا يقوم فى مجتمع إلا إذا استند إلى قوة مادية إنسانية ، تقوم من ورائه ، وتدفع به إلى مجالات الحياة ، وترفع العوائق والسدود التى تقف فى طريقه !

فإذا لبست الخلافة الإسلامية ثوب الدين ، وإذا استظلت برايته ، وتحدثت بلسانه ، فإنها مع هذا لا تستطيع أن تستغنى عن القوة المادية التى لها دورها القوى الفعّال فى حمل الناس على الطاعة ، والنظام ، واحترام الحقوق ، وأداء الواجبات .

ما طبيعة العنصر الدينى فى الخلافة ؟

ولكن الذى نريد أن نسأل عنه هنا هو : ما طبيعة العنصر الدينى المتصل بالخلافة ؟ أهو أمر سماوى مستقل جاء يحدّث عن الخلافة ويقيم بناءها ؟ أم هو شىء نبع من مشاعر الناس بحكم التعاليم الدينية التى دُعوا إليها وآمنوا بها ؟

وواضح مما قدمنا فى الفصول السابقة أن العنصر الدينى فى الخلافة هو عنصر عارض ، دخل فى جهاز الحكم بعد أن دخل الدين إلى عقول الناس وفى قلوبهم .. وأن الخلافة ليست إلا نظاماً من أنظمة الحكم التى لا غنى للناس عنها ، وأن هذا العنصر الدينى الذى لوّن به هذا النظام هو أثر من آثار الدين فى قلوب الناس وعقولهم ، وأن هذا الأثر يقوى ويضعف حسب ما فى قلوب الناس وعقولهم من إحساس بالدين ، واستقامة عليه .

وإذن فلا ننظر إلى الخلافة فى الشريعة الإسلامية ، ولا نبحث عنها بين أحكام هذه الشريعة ، ولا ننتظر من تلك الشريعة أن تحدثنا عن الخلافة ، وعن النظام الذى ينبغى أن تقوم عليه .. كما لا ينبغى أن نحسب لها حساباً فى تعاليم

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٩١ .

الإسلام وأحكامه.. وأنه إذا كان لا بد من شيء من هذا فهو من تلك المبادئ العامة التي جاء بها الإسلام وأمر أتباعه باتباعها ، أو نهاهم عن مواقعتها ، سواء أكانوا حاكمين أم محكومين ، كما نجد هذا في مثل قوله تعالى : « إنّ اللهَ يأمر بالعَدْل والإحسان ، وإيتاء ذي القرْبى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي »[١] .

وعلى هذا فلتكن نظرتنا إلى الخلافة على أنها نظام إنساني ، لمجتمع من الناس ، له دين ، وفي تعاليم هذا الدين مبادئ ومقررات تنظم حياة هذا المجتمع ، وترسم معالم الطريق له .. وأن الحكم الذي يقوم في هذه الجماعة أو تقيمه هي هو خطة من خطط حياتهم ، يظهر فيها من الدين ومن تعاليمه بالقدر الذي يكون في قلوبهم وعقولهم من تعاليم الدين وأحكامه ..

التجربة الإسلامية الأولى .. ومدى كفايتها :

وقد بدا لكثير من الباحثين أن « الخلافة » — وهي أول نظام للحكم ظهر في الإسلام — لم تكن قائمة على أسس واضحة محددة ، ترسم خطة الحكم ، وطريقه ، وتجمع الناس على رأي واحد لا يختلفون عليه !

فمثلا يقول الدكتور طه حسين في التعليق على خلوّ الحكم الإسلامي الأول من نظام مرسوم محدد لاختيار الخليفة — يقول :

« ولو قد وُضع هذا النظام لما تفرّق أمر المسلمين بعد مقتل عثمان على النحو الذي عرفه التاريخ ، ولما ذهب فريق من المسلمين مذهب المحافظة الهوجاء على سنة النبي والشيخين ، وهم الخوارج ، وفريق آخر مذهب المحافظة على أن تكون الإمامة في آل البيت ، وفريق ثالث على أن تستحيل الخلافة ملكا قيصريا أو كسرويا ، وفريق رابع إلى أن يكون الأمر شورى بين المسلمين .. دون أن يعرفوا لهذه الشورى نظاما ، ولا حدودا[٢] ! » .

---

(١) سورة النحل آية ٩٠

(٢) الفتنة الكبرى ص ٤٥ .

وكنا نودّ أن يرسم الدكتور صورة لهذا النظام الذى كان ينبغى أن يكون بين أيدى المسلمين وهم يختارون أول حاكم لهم ! وليس ذلك مما يعجز الدكتور ، فبين يديه كثير من النظم والدساتير التى عرفتها الحياة ، وعاش فيها الناس فى القديم والحديث .. فى الشرق وفى الغرب . . وليس على « الدكتور » إلا أن يضع يده على أعدلها ، وأتقنها ، وأقربها إلى الكمال فيقول : هذا هو النظام الذى كان ينبغى أن يقوم عليه اختيار الخليفة الأول أو من جاء بعده من الخلفاء .. بل إن فى وسع الدكتور أن يأخذ من كل نظام أحسن ما فيه . ثم يؤلف مما يجمع من هنا وهناك نظاماً لا يشك فى أنه خير ما يمكن أن يخرج للناس من أنظمة الحكم !

ثم إن لنا أن نسأل الدكتور بعد هذا : أترى هذا النظام المقترح — وهو ما هو من الإحكام والدقة — يمكن أن يعصم الناس من الخروج عليه ، والخلاف فيه ؟ وهل يمكن أن ينطوى هذا النظام المرسوم من حروف وكلمات على قوة — مادية أو روحية — تحمل الناس على التزامه ، ورعايته ، والاستقامة عليه ، أَبد الدهر ؟ أو حتى فترة من الدهر لا تتجاوز جيلا من الأجيال ؟ إن واقع الحياة ينطق بغير هذا . . وأن أى نظام ، وأى تعاليم بل وأى شريعة سماوية لا يمكن أن تعصم الناس من الانحراف إلا إذا كانوا هم على استعداد للاستقامة على هذا النظام . وهذه التعاليم ، وتلك الشريعة !

وانظر ..

إنه لم يكن هناك أية خطة مرسومة أو مقررة فى اختيار الخليفة الأول للسلمين .. فإن الصورة التى تم بها « انتخاب » أبى بكر صورة ساذجة إذا قيست بالأنظمة المعروفة لاختيار ساسة الأمم وحكامها ..

ومع هذا فقد جاء هذا « الانتخاب » بأعظم حاكم عرفه التاريخ الإنسانى .. فى عدله ، وفى حكمته ، واستقامة سياسته ! وكذلك الشأن فى « عمر » و« عثمان » و« على » !

ليست المسألة إذن مسألة نظام يوضع ، وخطط ترسم ، وإنما الأمر أمر نفوس مهيأة لهذا الاتجاه فى الحياة أو ذاك ، وإنما الأمر أمر استعداد للاستقامة على طريق الحق ، أو التنكب عنه !

ومما أخذ على نظام الحكم الإسلامى المصور فى صورة الخلافة أنه حكم « فردىّ » .. يضع الفرد فيه كل مقدرات الأمة فى يديه . وهذا مما يجعل أمر الناس فى معرض الضياع والفساد ، فإنه ليس وراء هذا الحاكم من يمسك بيده إذا هى أشرفت بالناس على موارد الهلاك ، وألقت بهم من حالق !

يقول « جان جاك روسو » فى صدد التنديد بحكم الفرد . وما ينجم عنه من مخاطر :

« ومن العسير على باعث الدولة نفسها ألا يبيعها بدوره ، وألا يستعيد من الضعفاء ما استولى عليه من الأقوياء . .

« وعندما يصل المرء إلى مركز يصدر فيه الأوامر للآخرين تتآمر كل الظروف لحرمانه من روح العدالة ، والإدراك السليم ! » .

وهذا صحيح إلى حد بعيد ، فإن للسلطان سلطاناً على النفوس ، وإغراء قوياً مستبداً بصاحبه ، قد يبلغ به مبلغ الجنون فيرمى بكل شىء ، ويحطم كل شىء ، كما يفعل الصبى بما يقع فى يده .. وقديما حرق نيرون « روما » وظل يتلهّى بمنظر النار وهى تلتهم الناس والدور ، والمعابد ، والحضارة التى أقامتها الأجيال ، وما أودعت فيها من آيات ، وروائع !

ومعروف أن أول حكم إسلامى قد جاء فى صورة الحكم الفردى ممثلا فى الخليفة ! وقد رفض عمر الرأى الذى عرضه الأنصار بأن يكون هناك أميران على المسلمين . . واحد من الأنصار وآخر من المهاجرين . .

قال الحباب بن المنذر — يوم السقيفة — يخاطب قومه الأنصار :

« إن أبى هؤلاء — يشير إلى المهاجرين — فمنا أمير ومنهم أمير .

فقال عمر : « هيهات . . لا يجتمع سيفان فى غمد واحد ![1]

وقد ارتضى المجتمعون رأى عمر ، واختاروا أميراً واحداً لا أميرين . .

---

(١) الامامة والسياسة ص ٣ .

وعمر — رضى الله عنه — فى موقفه هذا ينظر إلى الأمر نظرة واعية مدركة بطبيعة الحياة . . فإنه ليس مما تستقيم به شئون الناس أن يكون لجسدهم السياسى أكثر من رأس .. ذلك أن حكم الفرد واقع بين احتمالين : خير أو شر ، استقامة أو انحراف . . أما حكم أكثر من فرد وقيام أكثر من رأس فى جسد ، فإنه لن يكون إلا تحت احتمال واحد ، وهو الخلاف الذى يلد الشر والفساد ! ولا يلد صالحا أبدا .

وحكم الفرد الذى يدافع عنه عمر رضى الله عنه ليس هو حكم الفرد المستبد المتسلط ، وإنما هو الحكم الذى يكون فيه الفرد بمنزلة الرأس من الجسد، يستمد من أعضائه القوة والحياة ، كما تستمد الأعضاء منه التوجيه والتسديد ! .. هو الحكم الذى يتوخى فيه الحاكم الحق والعدل ، ويلتمس سبيل الحق والعدل بما يجد فى كتاب الله ، وفى سنة رسوله ، وفى رأى الجماعة التى معه . . « وأمرهم شورى بينهم » . . « وشاورهم فى الأمر » .

هذا ، ويأخذ بعض الباحثين على الحكومة الإسلامية أيضاً أنها لم تكن ترتكز على أصول مقررة ، ونظريات واضحة ، كما أن المسلمين لم يكن لهم نظر فى العلوم السياسية حتى بعد أن ضموا إلى دينهم أمماً ذات نظم سياسية ، وفلسفات فى السياسة والحكم . . ويتخذون من هذا دلالة على أن العرب قد تأصلت البداوة فى نفوسهم ، وأن الحكم الذى أقاموه لا يعدو أن يكون صورة مكبرة للحكم القبلى .

وردنا على هذا هو أن المقاصد والغايات ، لا الصور والأشكال، هى التى عُنى الإسلام بتربية أتباعه عليها . . وقد جاء فى الحديث الشريف : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم . . » ومن ثم فإن المسلمين حين أقاموا حكمهم لم يلتفتوا إلى النظم السائدة من حولهم ليأخذوا منها نظاماً ، لأنه لم يكن غايتهم من الحكم مجرد صوره وأشكاله ، وإنما كانوا يقصدون الحكم لإقامة موازين العدل بين الناس ، وسياستهم سياسة رحيمة ،

عادلة ، حكيمة . . فأى صورة من صور الحكم تحقق هذه السياسة هى الحكم الصالح الذى يطلبه المسلمون ، ويعضّون بالنواخذ عليه .

وينظر المرحوم محمود فياض إلى هذه التهمة من جهة خاصة ، فيرد عليها بقوله : « فعلماء الإسلام وجدوا أنفسهم فى أمة حية . تعيش فى دولة قائمة ، لها دستورها ، وأحكامها ، وتعاليمها .. فى شتى نواحى الحياة .. فى الدين والأخلاق ، والاقتصاد ، والاجتماع ، وأمور الحكم والقيادة . . فى كل شىء . . فلم يشغلوا أنفسهم ببحوث فرضية سياسية عن أصل الدولة ، وكيفية قيامها ، ومدى الارتباط بين سيادة الحاكم وحقوق المحكومين . . لأنهم وجدوا دولتهم قائمة بالفعل على أساس من القرآن . . والدعوة معترف بها .

« ومع هذا لم يتحدث علماء الإسلام الأولون عن أصل الدولة . . هل هو زعامة العائلة ؟ اعتمادا على طبيعة الإنسان الاجتماعية ، أو هو الزعامة الدينية التى قام عليها ملك إسرائيل القديم . . لأن ملوكهم فى نظرهم خلفاء لأنبيائهم ؟ . أو هو حق ملكى مقدس ؟ بمعنى أن الله اختار شخصا وملكه على بقعة من أرضه ، وسلمه السلطة مباشرة ، . فهو مسئول أمام الله وحده مباشرة ، لا أمام الشعب . . أو هو حق الفتح والغلبة ، يرتفع عن طريق شخصى أو عائلة إلى السيادة فى بقعة ما على الأرض ؟ . أو هو نتيجة لخطيئة آدم الكبرى . أوجدها الله لتكبح جماح الأفراد ، وتحد من حرياتهم ، عقابا لهم على هذه الخطيئة ، كما يرى ذلك آباء المسيحية الأول ؟ . أم أن الأصل فيها هو قيام تعاقد بين الأفراد وحكامهم ، نتيجة لتصادم حريات الأفراد المتساويين من كل وجه ؟.[1] »

والحق أن علماء الإسلام الأولين وإن لم يكن لهم دراسات نظرية . ونظريات فلسفية فى الحكم وفى أصوله وفروعه — فإن فى وجدانهم صورة واضحة للحكم الصالح والأسس التى يقوم عليها ، وواجبات الحاكم وحقوقه ، وواجبات المحكومين وحقوقهم . .

و « البيعة » على صورتها المحدودة الضيقة تشير إشارة واضحة إلى هذا التعاقد

---

(١) الفقه الإسلامى عند المسلمين ص ١٨

المتكافىء بين الحاكمين والمحكومين . . فهى قائمة على حقوق وواجبات متبادلة ، وهذا يعنى أن الخليفة مسئول أمام الجماعة التى اختارته ، وارتبطت معه بهذا العقد .

يقول الدكتور طه حسين : وهو يتحدث عن الخلافة وأنها خطة مدنية لا دينية . . يقول : « وليس أقل من هذا خطرا أن أمر الخلافة قام على البيعة ، فأصبحت « الخلافة » عقدا بين الحاكمين والمحكومين .. يعطى الخلفاء من أنفسهم أن يسوسوا المسلمين بالحق والعدل ، وأن يرعوا مصالحهم ، وأن يسيروا فيهم سيرة النبي ما وسعهم ذلك . . ويعطى المسلمون من أنفسهم العهد أن يسمعوا ويطيعوا ، وأن ينصحوا ويعينوا .. »[1]

وإذا كان « للخلافة » هذا الإحساس الذى وجده لها الناس حين بايعوا أبا بكر ، أول خليفة لهم ، وأول حاكم قام عليهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم — إذا كان للخلافة فى نفوس الذين بايعوا أبا بكر مثل هذا الإحساس بأنها منهم واليهم ، فإن هناك إحساسا آخر كان يناظر هذا الإحساس وينتظم مشاعر المسلمين فى شأن الخلافة ، ذلك هو أنها حين تصبح أمراً واقعاً ، وحاكما قائما تكون أمراً من أمر الله ، وسلطانا من سلطانه ، ويكون الخليفة حينئذ ممسكا بأمر الله ، ومستظلا بسلطانه !

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقسم مالا بين المسلمين ذات يوم ، وقد ازدحم الناس عليه ، فأقبل سعد بن أبى وقاص رحمه الله — ومكانه من النبي مكانه ، وبلاؤه فى فتح فارس بلاؤه — فزاحم الناس حتى زحمهم ، وخلّص إلى عمر ، فلم يكن من عمر إلا أن علاه بالدِّرة .. وقال : « إ تهب سلطان الله فى الأرض ، فأردت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك[2] » .

فعمر يرى أن الخليفة ظل الله فى الأرض !

ولم يكن هذا الشرف الذى تخلعه الخلافة على الخليفة متجهاً إلى التعالى على الناس ، واستعبادهم لهذا الإنسان « الإلـهى » كما عرف ذلك عند أولئك الملوك

(١) الفتنة الكبرى ص ٢٦

(٢) الفتنة الكبرى ص ١٦ .

والأباطرة الذين ادّعوا لأنفسهم الحق المقدّس الذى وضعوا به تاج الملك على رءوسهم ، فركبوا رءوسهم ، وبغوا فى الأرض ، وعتوا عتوًّا كبيرا .

لم يكن هذا الخليفة المستظل بظلّ الله متجبرا ، ولا حاكماً باغياً مستبدًّا ، وإنما كان يرى — وهو فى هذا الظل — أنه شىء لا حول له ولا قوة .. إلى جانب حول الله وقوته . . إنه يستحضر دائماً ، وهو فى هـذا الظل ، جلال الله وعظمته ، فتذوب فى كيانه كل عظمة ، ويذهب من نفسه كل نزعة إلى التّعالى والترفع على الناس ..

هذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينظر إلى ضآلة شأنه ، وصغار وجوده ، فيتمنى أن لم يخلق ، ويتمنى لو خلق أن كان تِبْنَـة[1] ! يقول : ليت أم عمر لم تلد عمر ! ليتنى كنت تبنة ! .. ليتنى لم أولد !

ولا تنظر بعد هذا إلى أولئك المتطفلين من الملوك والسلاطين الذين ادعوا أنهم ظل الله فى الأرض ، فلم يكن ذلك منهم عن إيمان صادق ، ويقين ثابت .. بل سرعان ما جرهم الكذب إلى الخروج من هذا الظل الكاذب .. فخرجوا على الناس باسم آلهة فى صورة مردة وشياطين . « وقال فرعون . . يأيها الملأ . . ما علمت لكم من إلهٍ غيرى »[2] !

الخليفة والشروط التى تشترط فيه :

وإذا لم ير المسلمون الذين ضمهم مجتمع السقيفة أن ينتظروا حتى يضعوا الدستور الذى يقيمون عليه الحكم ، ويختارون بمقتضاه الخليفة — وإذا كانت الأحداث هى التى أعجلتهم عن هذا القصد ، أو أنهم لم يقصدوا إليه أصلا ، ولم يفكروا فيه — إذا كان هذا أو ذاك ، فإن ملامح الأمير الذى نظروا إليه يومئذ ليكون على رأس المجتمع الإسلامى كانت واضحة الإشارة إلى تلك الخصائص والصفات ، التى ينبغى أن تتوافر فى الشخص الذى يلى هذا الأمر ، ويقوم عليه .

---

(١) التبنة : واحدة التبن ، وهى التبنلة من حصيد البر ونحوه .
(٢) سورة القصص آية ٢٩

ففى مجتمع السقيفة جرت على الألسنة كلمات انطوت على دلالات تدل على المؤهلات التى تجيز لصاحبها الإمرة أو الخلافة على المسلمين .

كما أنه قد ظهر فى يوم السقيفة مرشحان للإمرة أو الخلافة ، وفى شخصية كل منهما ملامح ودلالات تضاف إلى تلك الملامح والدلالات التى انطوت عليها الخطب والكلمات التى جرت فى هذا اليوم .

لقد أقام الأنصار دعواهم على أحقية الخلافة بما كان لهم فى الدعوة الإسلامية من بلاء ، وما بذلوا فى سبيل تلك الدعوة من أموالهم وأنفسهم ، وأن الإسلام قد آوى إليهم ، وانتصر بسيوفهم .. فهم لهذا أولى الناس بالإسلام وبالمسلمين ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وردّ المهاجرون على هذه الدعوى بأنهم السابقون إلى الإسلام ، وأنهم هم الذين احتملوا الصدمات الأولى فى سبيله ، وأوذوا فى أموالهم وأنفسهم ، وأخرجوا من ديارهم .. وهم لهذا يشاركون الأنصار فى الانتصار للإسلام ، ويَفْضُلونهم بالسبق إليه ، وبأنهم أول من عَبَد الله على هذا الدين .. ولهذا قُدّموا على الأنصار حيثما ذكرا معاً فى كتاب الله .. قال تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار .. »(١)

فالدين والتفاضل فيه هو أول مطلب كان يلتمسه الناس فى الجهة التى يسند إليها أمر الخلافة على المسلمين . .

وواضح أن ميزان الدين هنا لم يكن بين شخص وشخص ، وإنما كانت الموازنة فيه قائمة بين جماعة تربطها عصبية الدم والدين معاً ، وبين جماعة أخرى ترتبط بعصبية الدم والدين أيضا . . الأنصار من الأوس والخزرج ، والمهاجرون من قريش وموالى قريش .

فإذا نحن نظرنا بعد هذا فى الشخصية التى اختارتها كل جماعة ، وقدمتها للخلافة أو الإمرة نجد :

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٠

أولا : اختار الأنصار الرّجل الذى كانوا يعدونه للإمارة عليهم قبل مقدم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وهو « سعد بن عبادة » الذى لو تأخر الإسلام قليلا لجاء الإسلام وهو الأمير القائم على الأوس والخزرج ! وسعد بن عبادة — رضى الله عنه — وإن كان من صحابة رسول الله، ومن أولى البلاء والجهاد فى الإسلام ، إلا أن أصحابه لم يقدموه لهذا وحده ، وإنما قدموه عليهم — وفيهم من يساويه أو ربما من يفضله فى الصحبة والجهاد — للعصبية التى كانت له بين قومه !

أما الرجل الذى قدمه المهاجرون وهو أبو بكر رضى الله عنه، فقد رجحت كفته فيهم لا لعصبيته ، وإنما لصحبته لرسول الله ، ومكانته من الإسلام ، ولتقديم رسول الله صلى الله عليه وسلم له فى أن يقوم مقامه فى الصلاة بالمسلمين حين اشتد عليه المرض قبيل وفاته ، على ما هو معروف ، وكما تحدثنا عنه فى موضع سابق .

وثانيا حين كادت تتساوى كفة المهاجرين والأنصار فى مجال التفاضل فى الدين عمد المهاجرون إلى العصبية لترجح بها كفتهم على الأنصار ، فجاءوا « بقريش » التى هم منها ، لتكون حجة لهم فى الإمارة على الناس ، إلى جانب ما لهم من سابقة وبلاء فى الإسلام . . فقالوا فيما قالوا : « لا تدين العرب إلا لهذا الحىّ من قريش » ثم جاءوا بعصبية أخرى هى قرابتهم للنبىّ صلى الله عليه وسلم فقالوا للأنصار : « إنه والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ، ونبيها من غيركم . . ولكن العرب لا ينبغى أن تولى هذا الأمر إلا من كانت النبوة فيهم . وأولوا الأمر منهم . . من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ، ونحن أولياؤه وعشيرته ، إلا مُدلّ بباطل ، أو متجانف لإثم ، أو متورط فى هلكة ! ! » .

وأنت ترى من هذا أن الدين والعصبية كانا معا فى كفتى الميزان ، عند الطرفين المتنازعين على الإمرة أو الخلافة كما سميت بعد ذلك ! .

الأنصار أقاموا حجتهم أولا على أساس الدين، ثم أخرجوها مخرج العصبية حين اختاروا رجلهم المرشح للإمارة « سعد بن عبادة » .

والمهاجرون استعدَوْا على الأنصار بالعصبية القرشية حتى إذا غلبوهم على أمرهم ، أخرجوا أمرهم مخـــرج الدين ، فاختاروا « أبا بكر » لدينه فيهم لا لعصبية بينهم . .

العصبية والدين . . أو الدين والعصبية . . هما الصفتان اللتان عرفتا فى هذا اليوم فى وحه الأمير الذى وقع اختيار المسلمين عليه . .

فأفضل المسلمين ديناً ، وأقواهم عصبية ونسباً هو خليفة المسلمين أو أمير المؤمنين . . وبغير هاتين الصفتين لا يطالب بالخلافة مطالب . ولا يطمع فيها طامع ! .

هذا ، وقد بدا لعلماء المسلمين أن يجعلوا « الخلافة » مجالا للنظر والدرس ، وأن يجعلوها مبحثاً من مباحث الدين أو ممـا يتصل بالدين . . فكان لهم مقررات فى شأن الخليفة وفى الشروط اللازم توفرها فيه ، والواجبات التى تلقى عليه والحقوق التى تجب قِبل الرعيّة له . . إلى غير ذلك ممـا يعرف بسياسة الحكم ، ونظام الدولة .

الخلافة . . وشروطها :

يرى ابن خلدون ، ويشاركه فى هذا الرأى جمهور العلماء من المسلمين أنه لا بد أن تتحقق فيمن يرشح ، للخلافة على المسلمين أربع صفات . . هى :

١ — العلم .

٢ — العدالة .

٣ — الكفاية .

٤ — سلامة الحواس والأعضاء ممـا يؤثر فى الرأى والعمل .

وهناك شرط خامس اختلف فيه ، وهو :

٥ — النسب القرشى . .

يقول ابن خلدون : « ويحتج للنسب القرشي بإجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك ، واحتجت قريش على الأنصار لما همّوا ببيعة سعد بن عبادة ، وقالوا : منّا أمير ومنكم أمير — احتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم : « الأئمة من قريش » و « بأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا أن نحسن إلى محسنكم ، ونتجاوز عن مسيئكم ، ولو كانت الإمارة فيكم لم تكن الوصية بكم » !

ويقول ابن خلدون : إن هذا الرأى هو المعوّل عليه ، وأن ما ظهر من مخالفته إنما ظهر بعد أن ضعف أمر قريش ، وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف والنعيم . وبما أقطعتهم الدولة فى سائر أقطار الأرض ، فعجزوا بذلك عن حمل الخلافة ، وتغلبت عليهم الأعاجم ، وصار الحلّ والعقد لهم ، فاشتبه ذلك على كثير من المحققين ، وعوّلوا على ظواهر فى ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم : «اسمعوا وأطيعوا وإن ولّىَ عليكم عبدحبشي ذو زبيبة[1]» وهذا لا تقوم به حجة لأنه من قبيل التمثيل ، والفرض .. للمبالغة فى إيجاب السمع والطاعة . . . »[2]

ثم يتحدث ابن خلدون عن الحكمة فى اشتراط النسب القرشي . . فيقول :

« ونحن إذا بحثنا عن الحكمة فى اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه لم يقتصر فيه على التبرك بها بوصلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت تلك الوصلة موجودة والتبرك بها حاصلا — أى عند اختيار الخليفة من قريش — لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية . . فلابد إذن من المصلحة فى اشتراطها ، وهى المقصود من مشروعيتها . .

« وإذا سبرنا ، وقسنا . لم نجدها إلا اعتبار العصبية التى تكون بها الحماية ، والمطالب ، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب ، فتسكن إليه الملّة وأهلها ، وينتظم حبل الألفة فيها . . »[3]

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٣

(٢) ذو زبيبة : أى قرن ، ويراد به الشعر المتجمع على مقدم رأس العبد .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٨٤ .

فالعصبية التى كانت لقريش فى الجاهلية ، وظلت بل قويت فى الإسلام هى التى جعلت النسب القرشى عاملا مرجحاً من عوامل اختيار الإمام . . فإذا ضعفت هذه العصبية أو انحلت مع الزمن ، وقامت بيوتات أخرى لها عصبية فى الناس لم يكن إلى النسب القرشى حاجة ، ولم يصبح هذا النسب شرطاً من شروط الخلافة . .

ولهذا يرى ابن خلدون أن العصبية حيث تكون — لقريش أو لغير قريش — هى التى يستند إليها الخليفة إلى جانب مايستند إليه من علم وفقه وسياسة .

هذا ، ويرى المحكِّمة من الخوارج أنه يجوز أن تكون الإمامة فى غير قريش . . وكلُّ من ينصبونه برأيهم ، وعاشر الناس على ما مثَّلوا له من العدل واجتناب الجور كان إماما ، ومن خرج عليه يجب نصب القتال معه ، وإن غيَّر السيرة وعدَل عن الحق وجب عزله أو قتله .

وجوَّزوا ألا يكون فى العالم إمام أصلاً ، وإن احتيج إليه ، فيجوز أن يكون عبداً أو حرا ، نبطياً أو قرشياً ، (١)

أما درجة علم الخليفة أو المرشح لأن يكون خليفة فقد قدروه بقدر من يصلح أن يكون قاضيا من قضاة المسلمين لإجماع الأمة على ذلك . . ولأنه هو الذى يولِّى القضاة والحكام ، وينظر فى أحكامهم ، وما يوجب صرفَهُم وجَرْحَهم ونقض أحكامهم . ولن يمكنه ذلك إلا بأن يكون مثلهم فى العلم أو فوقهم ، بلْهَ إجماع الأمة على أن للإمام أن يباشر القضاء والأحكام بنفسه ، ولا يستخلف قاضياً ما استغنى بنفسه ونظره ، ولن يصلح للحكم إلا من صلح أن يكون قاضيا من قضاة المسلمين .

« ولا يجوز تقديم المفضول مع وجود الأفضل ، لأن الأخبار المتظاهرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فى وجوب تقدمة الأفضل . . قال النبي صلى الله

---

(١) الملل والنحل حـ / ١ ص ١٧٤

عليه وسلم : « يؤمُّ القوم أفضلُهم » وقال : « أئمتكم شفعاؤكم .. فانظروا بمن تستشفعون » وفى خبر آخر « أئمتكم شفعاؤكم إلى الله فقدّموا خيركم » .

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « ومن قلّد رجلاً عملاً على عصابة ، وهو يجد فى العصابة من هو أرضى منه ، فقد خان الله ، وخان رسوله ، وخان المؤمنين »[1]

وإذا كان هذا الحديث يتوجه إلى ولىّ الأمر الذى يختار الحكام العاملين تحت إمرته ، فإنه يوجب على كل فرد فى جماعة المسلمين التى تجتمع لاختيار حاكمها أن تتحرى فيه الكفاية والعدل ، وأن تتخير من بينها أخيرَ خيارها ليكون الحاكم عليها ، وإن أى تفريط فى هذا من أى فرد يكون خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين .

هذا إلى إجماع الأمة فى الصدر الأول على طلب الأفضل . . وإنما جاز العقد للمفضول مع ترك الأفضل خوف الفتنة والتهارج »[1] .

وعلى هذا نستطيع أن نقول إن الصفة الغالبة التى توخاها المسلمون فى اختيار الإمام — فى الأحوال الطبيعية — هى أن يكون أمثل الجماعة ، وأقربها إلى الكمال لسياسة الدولة وتصريف شئونها فى الحرب والسّلم .

وإذا كان الفقه والدين ، وعفة النفس وطهارة القلب مما يطلب فى الحاكم الذى يسوس الناس ، فإن القوة والحنكة والسياسة وحسن التدبير هى الركيزة التى تستند إليها هذه الفضائل ، فإذا كانت هذه الفضائل فى إنسان ، ولم تكن له تلك المقدرة السياسية لم يكن أهلا لأن يلى هذا الأمر العظيم ، وإن وَلِيَه ضعف عن حمله ، وعجز عن تدبيره ، ووقع الناس فى محنة وبلاء !

عن الحارث بن زياد الحِميرى « أن أبا ذر سأل النبى صلى الله عليه وسلم الإمرة فقال : أنت ضعيف ، وهى أمانة ، وهى يوم القيامة خزى وندامة ، إلاّ من أخذها بحقها ، وأدى ما عليه فيها »[2] .

---

(١) الملل والنحل جزء ١ ص ١٧٤ (هامش)

(٢) الخراج لأبى يوسف ص ٩ — ورواه مسلم فى صحيحه .

وأبو ذر هذا الذى يصرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يقول الرسول الكريم فيه : « ما أقلت الغبراء ، ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر » ! ولكنه مع هذا الفضل البائن به على الناس ، ليس هو ذلك الرجل الذى يحمل أعباء الحكم ، ويروض الناس ، ويمسك زمام الحياة بهم . .

الأعباء المنوطة بالخليفة :

تدبير شئون المجتمع الإسلامى ، وحفظ نظامه ، وحراسته من آفات الانحلال والفساد هو مهمة الخليفة فى صورة مجملة . .

فهو الحارس الأمين على هـــذه الجماعة ، يرعاها ويتفقدها كما يتفقد الأب صغاره .

ذلك هو المعنى الذى كان يعيش فيه الخلفاء الراشدون رضوان الله ورحمته عليهم . . ولهذا كان شعورهم بالمسئولية شعورا قاسياً ، لا يدع لهم لحظة يفيئون فيها إلى ظل من الدعة والراحة . . بل إنهم أبدا فى قلق وفى همّ من أن تكون هناك مظالم تقع بعيدا عن أعينهم فلا يرونها ، أو لا تبلغ أسماعهم لنأى الأوطان وتباعدها . . وهم مع هذا لا يعفون أنفسهم من المسئولية ، ولا يخلونها من اللوم والتقصير . . إنهم مسئولون عن كل شئ يعلمونه أو لا يعلمونه ! وعن هذا الإحساس نطق عمر بن الخطاب رضى الله عنه بهذه الكلمات المأثورات عنه : « لو أن جَدْياً مات بطفّ العراق لخشيت أن يسألنى الله عنه » !

ولم يكن هذا الإحساس بمسئولية الحاكم إزاء المحكومين شيئا انفرد به الحكام فى الصدر الأول للإسلام . بل إن أفراد المجتمع الإسلامى كله كانوا لا يرون الخليفة إلا فى هذه الصورة التى تمثله أباً قائما على أبنائه ، لا يغفل عنهم بحال أبدا .

ولعلك تذكر موقف هذه الأعرابية التى مر بها عمر ليلاً فى بعض أطراف المدينة وهى تعلل صغارها بهذا الموقد الذى وضعت عليه قدراً يغلى بماء لا شئ فيه . . فلما دنا منها عمر وسألها ماذا تصنع ؟ ومابال الصبية يتضاغون ؟ وأجابته

بما كشف له عن سوء الحال وجوع العيال — قال لها : لم لاتذهبين إلى عمر فيعينك على طعام الصغار ؟ قالت : الله بيننا وبين عمر ! فجزع عمر جزعاً شديداً وقال فى لهفة وأسى : وما يدرى عمر بكم ؟ قالت : يتولّى أمرنا ويغفل عنا ؟

لعلك تذكر هذا ، وتذكر ماكان من أمير المؤمنين ، وغدوّه ورواحه إليها بالطعام يحمله على كتفيه ، وقد نام الناس ، وسكنوا إلى أهلهم . . إلا عمر فإنه لم ينم . . وهيهات أن ينام .

لم يكن هناك دستور يفصل فى أبوابه وفصوله واجبات الحاكم والحقوق التى يجب أن يؤديها للمحكومين . . ومع هذا فأنت ترى هذا الدستور الذى كان مكتوباً فى ضمير الخليفة مرسوماً فى وجدانه ، وترى كيف كان يعمل هذا الدستور فى سياسة الناس ، وكيف كان يثمر أطيب ما عرفت الحياة الإنسانية من ثمرات الخير ، والعدل ، والإحسان !

ليست المسألة إذن مسألة قوانين وشرائع وأحكام ، وإنما هى قبل كل شىء ضمائر تحيا فى هذه القوانين والشرائع والأحكام ، وتستقيم عليها ، وتعمل بها . .

ويوم بدأت الخلافة الإسلامية تنزل عن مقامها فى عهد الراشدين ، وتتجه إلى التخفف من هذه المشاعر الثقيلة التى كان يجدها الراشدون فى حمل ما حملوا من أعباء الخلافة — يوم بدأ هذا ، اتجه العلماء والباحثون إلى تلك الدراسات النظرية العقيمة التى لا تلد إلا ألفاظاً ميتة لا تغنى فى واقع الحيـــاة شيئاً . . فوضعوا الدساتير والأنظمة فى سياسة الدولة ، وفى الوظائف المختلفة التى يتولاها من يستعين بهم الخليفة من وزراء وولاة أمصار ، وقضاة ، وقواد ، ومحتسبين ، وجباة أموال وغير ذلك مما تقوم عليه أنظمة الحكم . .

ولم يكن كل هذا ليمسك « الخلافة » أو يحفظ بنيانها الذى تصدع ثم تساقط حجراً حجرا . .

ونقف عند المقررات التى رأوا أن يأخذوا الخليفة بها أو يدعوه إليها . . فنجدها كلام فى كلام . . ليس فيها ما يحمل الخليفة عليها ، أو على شىء منها . .

ويحصر « الماوردى » فى كتابه الأحكام السلطانية واجبات الخليفة فى عشرة بنود هى :

أولا : حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما أجمع عليه سلف الأمة ، فإن نَجَمَ مبتدع ، أو زاغ ذو شبهة عنه أوضح له الحجة ، وبيّن له الصواب ، وأخذه بما يلزم من الحقوق والحدود .

وثانياً : تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين ، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعمّ النصفة فلا يتعدّى ظالم ، ولا يضعف مظلوم .

ثالثاً : حماية البيضة ، والذبّ عن الحريم ، ليتصرّف الناس فى المعايش ، وينتشروا فى الأسفار آمنين .

رابعاً : إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى ، وتحفظ حقوق عباده .

خامساً : تحصين الثغور بالعدة المانعة ، والقوة الواثقة .

سادساً : جهاد من عاند الإسلام .

سابعاً : جباية الفيء .

ثامناً : تقدير العطايا وما يستحق فى بيت المال .

تاسعاً : استكفاء الأمناء ، وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال .

عاشراً : أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال[1] » .

وهذا التفصيل يمكن أن يضاف إليه كثير من الجزئيات ، كما يمكن أن يختصر فى كلمتين هما : أداء الأمانة .

والمسألة — كما قلنا — ليست مسألة تقنين ، وإنما هى أولا وقبل كل شيء شعور بالمسئولية ، وتقدير لأمانة الحكم ، وواجب الحاكم . كما سنرى ذلك فى تدبير الإسلام لإعداد الحاكم ورسم طريق الحكم .

(١) نقلا عن حضارة الاسلام ص ٢٠٤ .

الباب السادس

الحكم والحكومة في الإسلام

نظرة الإسلام إلى الحكومة :

لم يلتفت الإسلام التفاتاً خاصاً إلى الحكم الذى ينبغى أن يقوم فى المجتمع الإسلامى ، وهذا أمر جدير بأن يكون بموضع النظر والتأمل ، وأن يلتمس له الوجه أو الوجوه التى من أجلها لم يكن له لفتة خاصة من لفتات الإسلام فيما التفت إليه من كليات الأمور وجزئياتها .

والحكم والحكومة من ألزم ما يحتاج إليه الناس فى الحياة ، ومن أولى الدعائم التى يقوم عليها المجتمع الإنسانى .. وهيهات أن يغفل الإسلام أمراً هذا شأنه فى الحياة ، ومكانه من الناس . إلا أن يكون ذلك لحكمة بالغة ، وتدبير حكيم . .

وننظر فى صنيع الإسلام ، وفى موقفه من هذا الأمر . فنجد أن ما يبدو أنه تهوين من الإسلام للحكم وللحكومة ، أو أنه استخفاف بهما . لأنهما من شئون الدنيا ، ومن مظاهر الجاه والسلطان فيها ، بل هما غاية الغايات من الجاه والسلطان ، على ما يفهم بعض الناس ، بل وكثير من الناس — من أن الإسلام لا يحفل كثيراً بكل ما هو من الدنيا ، وما يتعلق بها — نقول إن هذا الذى يبدو أنه تهوين من الإسلام للحكم والحكومة هو فى الواقع اعتراف ضمنى من الإسلام بأنهما سنة قائمة من سنن الحياة ، وطبيعة لازمة من طبائع المجتمع الإنسانى . والأمر حين يكون على تلك الصفة من الأصالة والتمكن فى الحياة

لا يحتاج إلى خطط ترسم له ، ولا إلى مقررات تحدّث عنه . . إنه يقيم وجوده في الحياة على الوجه الذى يؤدى به وظيفته من غير طلب أو تنبيه !

فالحكم وظيفة اجتماعية ، والحاكم هو العضو الذى تؤدّى به هذه الوظيفة ، كما تؤدى أعضاء "الكائن الحىّ" وجوارحه وظائفها . .

هكذا ينظر الإسلام إلى الحكم والحاكم .. لا يتحدث عنهما حديث من يدل عليهما ، ويقيم وجودهما ، ويكشف ملامحهما ، ويحدد صفاتهما ، وإنما يتحدث عنهما باعتبارهما كائنين موجودين فعلا ، تلدهما المجتمعات كما تلد الكائنات الحية مواليدها .

وحديث الإسلام عن الحكم والحاكم هو حديثه عن الغرائز الإنسانية ودوافعها . . يريدها أن تستقيم على الوضع الذى يتيح لها أداء وظيفتها على خير الوجوه التى تحفظ سلامة الجسد الذى تعيش فيه . . وهو فى هذا الحديث لا يدخل فى الجزئيات ولا يلتفت إليها ، وإنما يضع ميزانا عاما ، يرجع إليه فى ضبط كل جزئية من هذه الجزئيات . .

فالمبدأ العام لغريزة الانتقام يضعه الإسلام فى هذا الميزان الذى تنطق به الآية الكريمة :

« وجزاءُ ، سيئة سيئةٌ مثلها . . فمن عفا وأصلح فأجره على الله »[1]

ففى هذا المستوى يعيش الناس ، وبهذا الميزان يأخذون ويعطون . .

فإذا كان فى الناس من تضعه نفسه فوق هذا المستوى فهناك ميزان آخر يمكن أن يتعامل به فى ظل الآية الكريمة : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة . . ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىٌّ حميم .. وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم[2] .

وغريزة الطعام والشراب أو شهوتهما يضعها الإسلام فى هذا الميزان المستقيم العادل . . « وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا . . إنه لا يحب المسرفين »

(١) سورة الشورى آية ٤٠ (٢) سورة فصلت آية ٢٥

أما كيف يأكل الناس؟ ومتى يأكلون؟ فذلك من شأن الناس أنفسهم يأكلون كيف يشاءون ومتى يشاءون!! وحتى حين يسأل سائلهم: ماذا أحل لهم؟ يجيبهم الإسلام الإجابة العامة المطلقة: «قل أحل لكم الطيبات.!»

وهكذا يضع الإسلام الموازين المستقيمة العادلة لكل قوة عاملة موجهة فى الحياة.. ثم يدعها تمضى فى طريقها بعد أن يضع أقدامها على أول الطريق!

الإسلام والحكم والحاكم:

فإذا جاء الإسلام إلى الحكم والحاكم كان موقفه منهما، وحديثه عنهما، وميزانه لهما، هو موقفه وحديثه وميزانه لأية غريزة أو قوة عاملة فى الحياة..

ومن تدبير الإسلام فى هذا، أنه لم يتجاوز هذه الحدود فى نظرته إلى الحكم والحاكم وفى حديثه عنهما.. كما سنرى ذلك فيما يلى:

أولا: الحكم أمانة، والحاكم أمين:

فالحكم فى يد الحاكم هو أمانة عنده، سواء أكان ذلك عن رضى الناس به واختيارهم له، وتسليمهم إياه النظر لهم فى شئونهم وتدبير أمورهم، أم كان ذلك بما مكن الله له فى الأرض، وما أفاء عليه من ملك وسلطان.. فهو فى كلا الحالين أمين على ما اجتمع له من سلطان وقوة.. وهو فى هذا السلطان وفى تلك القوة مطالب أن يتصرف فيها كما يتصرف فى أية قوة مادية، أو معنوية، يتملكها لخاصة نفسه، كالمال، والذكاء، وقوة البدن، مثلا.. فإن الإنسان مطالب — فى شريعة الإسلام — أن يرعى هذه الأمانات التى أودعها الله إياه. وأن يضعها موضعها من الحق والعدل، فإذا جار أو انحرف فقد خان الأمانة، وتعرض لغضب الله وسخطه..

يقول الله سبحانه وتعالى: «يأيها الذين آمنوا. لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون»[1].. ويقول جل شأنه: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»[2].. وقد جمعت هذه الآية بين الأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وبين الأمر بالحكم بين الناس بالعدل.

(١) سورة الأنفال آية ٢٧ (٢) سورة النساء آية ٥٨

وهذا الترابط يشعرنا بما بين الأمانة والحكم بالعدل من صلة ، وأن الحكم أمانة ، أو بعض الأمانة . . وقد نزلت هذه الآية فى فتح مكة ، حين أخذ النبي صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة ، وكان فى يد آل شيبة ، وقد فهم من هذا أن المفتاح كان أمانة فى يد الرسول ، وأن رده إلى أهله كان حكماً عادلا !

ولم يقف القرآن عند هذه الأوامر والنواهى المرسلة المجردة ، بل جاء بصورة من واقع الحياة ، وفى مجلس الحكم والسلطان ، لنبي كريم هو «داود» عليه السلام . . !

وفى هذه الواقعة يذكر القرآن أن «داود» عليه السلام — وكان نبياً ، وملكا معاً — قد نزع به سلطان الملك إلى أن يهتز ميزان العدل فى يده ، وسرعان ما تلقى من رحمات الرحمن نفحة ردت عليه ما كان قد انفلت من بين يديه من عزمات النبوة . . وسرعان ما فتح قلبه للإنابة والاستغفار . .

يقول الله سبحانه وتعالى فى هذه الواقعة : «وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب . . إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا : لا تخفْ . . خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تُشطط . واهدنا إلى سواء الصراط . . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نَعجةٌ واحدة . . فقال اكفلنيها وعزّنى فى الخطاب ! . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم ! وظن داود أنما فتناه . . فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب . فغفرنا له ذلك ، وإن له عندنا لزلفى ، وحسن مآب[1] . . » ثم يختم القرآن الكريم هذه الواقعة بهذا الأمر الملزم لكل ذى سلطة بأن يحكم بالعدل ، ولا يتبع الهوى . . «يا داود . . إنا جعلناك خليفةً فى الأرض فاحكمْ بين الناس بالحق ، ولا تتبعِ الهوى فيضلّكَ عن سبيل الله . . إن الذين يَضلون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نسوا يومَ الحساب»[2] !

إلى هنا تنتهى خاتمة القصة !

(١) سورة ص آية ٢٥

(٢) سورة ص آية ٣٦

والقصص القرآنى لا يجىء إلا للعبرة والعظة . فلا تنتهى القصة حتى تترك فى النفس صدًى قوياً للمبدأ الكريم الذى تدعو إليه . ثم إن من إعجاز القرآن ، ومن كمال تربيته ،ألا يدَعَ هذا الصدى يدور فى النفس على غير هدى ، أو يضيع فى أغوارها من غير أن يعقب أثراً . بل إنه ليمسك بهذا الصّدى فى إطار محكم من التوجيه والتسديد . .

انظر !

بعد هذا الأمر الموجِّه الملزِم الذى ختمت به القصة يجىء قوله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرضَ وما بينهما باطلا . . ذلك ظن الذين كفروا فويل للكافرين من النار »[١] .

إن الحق ، والحق وحده ، هو الذى قام عليه هذا الوجود كله : « وما خلقنا السموات والأرضَ وما بينهما إلا باطلا ! » .

ثم تتبع هذه الآية بالآية التالية : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ؟ »[٢] .

انظر كيف تتسرب الحكمة إلى النفوس فى لطف ورفق كما يتسرب الماء فى أصول الشجر وفروعه ، فيحفظ حياته ويقيم وجوده ، ويطلع زهره وثمره .

ذلك هو أسلوب القرآن ، وتلك هى تربية الإسلام وسياسته ، فى تغذية النفوس بمبادىء الخير ، وإقامتها على موازين الحق والعدل . .

وليس للحاكم عند الإسلام أسلوب خاص يأخذه به ، فى تربية خاصة ينشئه عليها . . إنه بعض هذه الشجرة الإنسانية التى يغذيها الإسلام ، ويمدها بالزاد الطيب . . إنه الساق الذى تستند إليه الجماعة ، وتغتذى منه ومعه جميع الفروع والأغصان والأوراق والأزهار والثمار . .

إن دعوة الإسلام ليست غايتها إقامة حكم على صورة ما ، وإنما غايتها إقامة مجتمع إنسانى سليم ، معافى من أدواء الظلم والبغى . . غايتها خلق جسد إنسانى

---

(١) سورة ص آية ٢٧ (٢) سورة ص آية ٤٨

مرتبط بمشاعر الأخوة ، والمودة والرحمة . . أما الحكومة فهى جزء من هذا الجسد ، تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده : « كما تكونوا يولى عليكم » . .

والنبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه لم يتولّ شرح هذه المبادىء العامة التى جاء بها القرآن فى التزام المسلمين العدل ، وأداء الأمانات إلى أهلها سواء أكانوا حاكمين أو محكومين — لم يتولّ الرسول الكريم هذه المبادىء بشرح أو تفصيل ، بل جعلها حكماً عاماً شاملا فى كل شىء ، وعند كلّ إنسان ، كما فعل القرآن . .

يقول النبيّ الكريم : « كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته . . فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ، وهى مسئولة عن رعيتها ، والولد راعٍ فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، والعبد راع فى مال سيده ، وهو مسئول عن رعيته . . ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »(١) .

انظر تكريم الإسلام للإنسان ، هذا التكريم الذى يجعل له ذاتية وشخصية لا تذوب أبداً . حتى ولو كان فى قيد الرق والعبودية . . إنه إنسان ، وما دام فى ثوب الإنسانية فهو أهل لحمل الأعباء ، واحتمال المسئوليات ..!

وأنت ترى من هذا أن الإسلام لم يفرد الحاكم أو الخليفة بوضع خاص فى الحياة . . إنه راع ومسئول عن رعيته . . كما أن العبد راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته . .

فالناس — فى نظر الإسلام — عباد الله ، أو « مال الله » فى هذه الأرض ، والحاكم أو الخليفة هو الراعى لهؤلاء « العباد » والقيم على هذا « المال » ، وهو مسئول عن أى تقصير أو إهمال يقع منه ، كما يسأل العبد عما يقع منه من إهمال أو تقصير فى مال سيده .

---

(١) أخرجاه فى الصحيحين .

يقول ابن تيمية : « وهذا ظاهر الاعتبار ، فإن الخلق عباد الله ، والولاة نواب الله على عباده ، وهم وكلاء العباد على نفوسهم بمنزلة أحد الشريكين مع الآخر ففيهم — الولاة — معنى الولاية والوكالة »[١]

وتلمح من هذا أن الإسلام لم ير الخلافة أو الحكومة أمراً غير واقع فى الحياة ، حتى يدعو المسلمين إليها ، وإنما يرى ذلك أمراً واقعاً ، لا فكاك للمجتمعات الإنسانية منه ، وإنما الذى يراه الإسلام فى حاجة إلى الإلفات والتوجيه ، هو ما ينبغى أن يكون عليه الحاكم أو الخليفة من حسن الرعاية لما استرعاه الله .

ولعلك تذكر ما أشرنا إليه من قبل من قول الرسول الكريم لأبى ذرّ حين سأله الإمارة . . . فقال صلى الله عليه وسلم له : أنت ضعيف ، وهى أمانة ، وهى يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذى عليه فيها » .

لعلك تذكر هذا ، وتذكر معه الآيات القرآنية الكريمة التى تدعو المسلمين إلى أداء الأمانات إلى أهلها ، وإلى ألا يخونوا الله والرسول ويخونوا أماناتهم .

وفى هذا ما فيه من تقرير وتوكيد أن الحكم أمانة فى يد الحاكم ، وهو مسئول أمام الله سبحانه عن هذه الأمانة ، وعن مدى الإحسان أو التقصير فى أدائها إلى أهلها .

هذا هو الدستور ، وتلك هى كل مقرراته ، التى أراد الإسلام أن يجعلها عهداً وميثاقاً يعاهد به الحاكم ويواثقه عليه ، ثم يحاسبه محاسبة المقصرين إن قصّر ، ويجزيه جزاء المحسنين إن أحسن . .

وليس هذا العهد وذلك الميثاق بمجرد «مواد» فقهية أحكمت صياغتها ونُخلت معانيها ، وإنما هى أولا وقبل كل شىء رسالة من ربّ العالمين حملها إلى النَاس رسول كريم ، ترقبها عين لا تغفل ، وتحاسب عليها قدرة لا يعجزها شىء فى الأرض ولا فى السماء .. !

---

(١) السياسة الشرعية ص ٦

ومن هنا كان لهذه الكلمات سلطانها الروحي على من تعنيهم وتتجه إليهم ، وكان لها فاعليتها فى ضمائر المؤمنين ووجدانهم ، إذا هم قاموا فى الناس مقام الحكام أو جلسوا مجالس القضاة .

ثانياً — الفرد ومسئوليته فى المجتمع الإسلامى :

هذا تدبير الإسلام فى شأن الحكام ..

أما مع المحكومين فشأنه هو هذا الشأن .. إنهم مسئولون ومحاسبون عن كل انحراف يخرج بهم عن جادة الطريق ، وهذا مما يخفف كثيراً من أعباء الحاكم ويسر مهمته ، إذ يضعه على رأس مجتمع يعرف طريق الحق ، ويتجه إليه .. فكل فرد فى المجتمع الإسلامى مطالب بأن يكون على الجادّة ، يدين نفسه قبل أن يدينه الدّيان ..

وأنت تذكر المجتمع الإسلامى الأول ، وما أثمرت تعاليم الإسلام فيه من فضائل ، كان يمكن أن يعيش الناس فيها بلا حكومة وبلا حاكم !

فكم من مقارف إثم لم تطلع العيون عليه ، كان يستبدّ به الندم والألم ، ويركبه الضيق والقلق من شناعة هذا الجرم ، فيسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معلناً عن جريمته ، طالباً أن يقام عليه حدُّها ، ولو كان الموتَ رجماً بالحجارة !! ولنا هنا مثلان بارزان هما : المرأة الغامدية[1] ، والرجل الأسلمى[2] ، وقد جاء كل منهما إلى النبي يريد أن يتطهر من الإثم الذى اقترفه !

---

(١) وهى امرأة من الأزد ، جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد زنت ، فقالت : يارسول الله طهرنى ، فقال صلى الله عليه وسلم : ويحك ، ارجعى فاستغفرى الله وتوبى إليه » .. فما زالت فى موقفها هذا ، والرسول الكريم يلقاها بهذه الرحمة الراجحة حتى أقرت على نفسها أربع مرات — وكانت حاملا ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجمها بعد أن وضعت حملها وفطمته .. فلما رجمت صلى عليها صحيح مسلم ٥ ص ١١٩ .

(٢) هو ماعز بن مالك الأسلمى .. وكان قد أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : إنى أصبت فاحشة ، فأقمه على ، فرده النبى مرارا .. ثم سأل قومه فقالوا ما نعلم به بأساً إلا أنه أصاب شيئاً يرى أنه لا يخرجه منه إلا أن يقام فيه الحد .. فلما أقر على نفسه أربع مرات والنبي الكريم يراجعه أمر به فرجم » صحيح مسلم جزء ٥ ص ١١٨ .

هذا ، ولم ينظر الإسلام إلى الحياة نظرة جامدة فيقيمها فى هذا المستوى المثالىّ ، ويقيم تعاليمه على هذا المستوى الرفيع — بل لقد امتد نظر الإسلام إلى الحياة الإنسانية كلها ، فى أعلى مستوياتها وأدناها جميعاً ..

فقد ينحرف الحاكم المسلم ، ولا يستقيم على تعاليم الإسلام .. فماذا يكون شأن الناس معه ؟

لقد رسم الإسلام للمسلمين منهج العمل حين ينحرف بهم الحاكم ، ويخرج عن سواء السبيل .. وذلك :

أولا : هذا الانحراف هو فى نظر الإسلام منكر ، وقد أوجب الإسلام على المسلمين تغيير كل منكر ينجم فيهم .. فإن لم ينكروا هذا المنكر أو يغيّروه أثِموا جميعاً ، واستوجبوا غضب الله ونقمته .

رُوى أن أبا بكر خطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أيها الناس .. إنكم تقرءون هذه الآية ، وتضعونها على غير موضعها .. « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم » .. وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه (١) » .

والإسلام إذ يوجب على أتباعه إنكار المنكر لم يحملهم على مركب وعر ، ولم يكلفهم بما لا طاقة لهم به .. وإنما أمرْ الإسلام كله يسر .. لا عسر فيه ..

وقد وضع الرسول الكريم منهج العمل لتغيير المنكر ، وجعله بحيث يسع جميع الاحتمالات ، ويأخذ الوضع الذى يلائم ظروف الناس وأحوالهم ..

يقول النبى صلوات الله وسلامه عليه : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده .. فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » .

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٣٤ .

وأنت ترى أن المجتمع كله يمكن أن تنطمه مشاعر واحدة إزاء « المنكر » — أى منكر — سواء أكان من فرد أو جماعة .. من حاكم أو محكوم .. فالإنكار بالقلب للمنكر هو حال يجب أن يدخل فى قلب كل مسلم حين يرى المنكر ، فليس لمسلم عذر فى هذا ، وعدم إنكاره المنكر بقلبه معناه الرضا عنه ، فهو آثم ، لأن قلبه قد اطمأن إلى الإثم ورضى به !

فإنكار المنكر بالقلب فرضُ عينٍ على كل مسلم .. أما ماوراء ذلك من الإنكار باللسان أو اليد فذلك أمر متروك لظروف الناس وأحوالهم .

وثانيا : هذا الإنكار بالقلب ليس موقفاً سلبياً كما يبدو ، بل إنه بمثابة إعلان حرب على المنكر ، وعقد النية على هذا الحرب ، ثم تحويلها من القلب إلى اللسان واليد متى سنحت الفرصة لأى منهما ، وهيهات أن يمتد عمر منكر من المنكرات ، فى مجتمع ينطوى قلبه على إنكاره ، وإن لم يتحرك لسانه ، أو تعمل يده ! فإن امتداد الزمن كفيل بأن تتحرك الألسنة وتعمل الأيدى !

وثالثاً : قد لا يجد الإنكار بالقلب عزائم تستجيب لهذا النكران ، فتتجند الألسنة والأيدى لمحاربته .. وهنا تضيق الصدور ، وتتحال العزائم ، ويستحكم اليأس .. !

فهل يقف الإسلام بالمسلمين على هذا المرعى الوبيل ؟ كلا .. إنه يدعوهم إلى الصبر ، ويفتح لهم باب الرجاء فى رحمة الله وثوابه إذ ابتلوا فصبروا ..

عن الحسن البصرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا لا تسبُّوا الولاة ، فإنهم إن أحسنوا فلهم الأجر ، وعليكم الشكر ، وإن أساءوا فعليهم الوزر ، وعليكم الصبر ، وإنما هم — أى ولاة السوء — نقمة ينتقم الله بهم ممن يشاء ، فلا تستقبلوا نقمة بالحمية والغضب ، واستقبلوها بالاستكانة والتضرع[1] .

والحديث هنا أدب حكيم ، وتربية عالية ، وسياسة رشيدة فى حماية المجتمع

---

(١) خراج لأبى يوسف ص ١٠

الإسلامى من الثرثرة ، والجهر بالسوء ، وإشاعة الفاحشة فيه ، كما أن فيه رعاية لحق الحاكم ، وما ينبغى له من الاحترام والتوقير .. فإنه إذا لهج الناس بسب الحاكم ، وتطاولوا على مقامه ضعف سلطان الحكم فى نفوسهم ، وذهب بهم ذلك إلى الخروج على كل قانون وكل نظام ، وهنا يقع الناس فى بلاء عظيم ، وفى فتنة عمياء .

ولا تعارُض بين هذا الحديث وبين الحديث السابق الذى يجعل اللسان أداة من أدوات الحرب على المنكر ، وعلى الحاكم إذا انحرف .

فاللسان الذى يجعله الإسلام أداة من أدوات الحرب على المنكر ، وعلى الحكام المنحرفين هو اللسان الذى يريد الخير والإصلاح ، اللسان الذى يقدّم النصح ، ويجادل بالتى هى أحسن .. اللسان الذى يتحرك بالحكمة والموعظة الحسنة . وفى هذا يقول النبى الكريم: «الدّين النصيحة .. قالوا لمن يارسول الله؟ قال : لله ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم . . »

وليس كذلك الشأن فى اللسان الذى يتخذ السباب والبذاءة دعوةً لمحاربة الباطل . . فإن ذلك باطل يريد أن يَدْفع به باطلا . . وهيهات !

ثم إن فيما يدعو إليه الحديث الشريف من استقبال البلاء الناجم من تسلط الحاكم المستبد وبغيه — بالاستكانة والتضرع؛ فى هذه الدعوة تسكين لنفوس الناس من أن يستبد بها الجزع ، وتطمين لقلوبهم من أن يذهب بها اليأس من رَوْح الله ورحمته .. ، فليس هذا الصبر الذى يدعو إليه الإسلام هو الصبر الذى يلد الخنوع والانعزال عن الحياة ، وإنما هو صبر أولى البأس والعزم . حين تنزل بهم الشدائد وتغشاهم المحن ، فلا تحل لها عزائمهم ، ولا يضيق بها احتمالهم ، حتى تنجلى تلك الغاشية وتنقشع غيومها السوداء .

لقب الخليفة وما وراءه :

لم تكن كلمة « خليفة » من الألفاظ التى وقعت فى خواطر المسلمين أو جرت

على ألسنتهم فى اجتماعهم يوم السقيفة ، وتشاورهم فى اختيار من يتولى شئونهم بعد النبي صلى الله عليه وسلم . .

وأكثر الكلمات تداولا يومذاك كانت كلمة الإمارة أو الأمير ، مدلولا بها على اللقب الذى سيطلق على من يقع عليه الاختيار لهذا الأمر الذى اجتمعوا له.

وقد عرف المسلمون من الرسول صلوات الله وسلامه عليه إطلاق كلمة «أمير» على من كان يقوم على أية جماعة من جماعات المسلمين فى الغزو أو فى الحج مثلا .

فكان صلى الله عليه وسلم إذا بعث سرِّية جعل عليها « أميراً » هو بمنزلة القائد ، إلا أن سلطانه كان أكمل وأشمل ، إذ كان إلى جانب أعباء الحرب يؤمّ المسلمين فى الصلاة ، ويقيم لهم شعائر دينهم . . كذلك بعث الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر « أميراً » على الحج سنة تسع من الهجرة ؛

وفى الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » .

نقول: إن كلمة « خليفة » لم تكن من الكلمات التى جرت على ألسنة المسلمين يوم السقيفة أو وقعت فى خواطرهم ، إذ لم يكونوا يرون أنّ أحداً يكون عندهم خلفاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

يقول الأستاذ على عبد الرازق :

« كانوا يومئذ — يوم السقيفة — إنما يتشاورون فى أمر مملكة تقام، ودولة تشاد ، وحكومة تنشأ إنشاء ، ولذلك جرى على لسانهم يومئذ ذكر الإمارة والأمراء. والوزارة والوزراء . . وتذاكروا قوة السيف والعزة ، والثروة ، والعدد ، والمنعة ، والبأس والنجدة . وما كان ذلك إلا خوضاً فى الملك ، وقياماً بالدولة ، وكان من أثر ذلك ما كان من تنافس المهاجرين والأنصار وكبار الصحابة بعضهم مع بعض ، حتى تمت البيعة لأبى بكر . . فكان أول مَلِكٍ فى الإسلام »[1] .

---

(١) الاسلام وأصول الحكم ص ٩٢ .

ونعم ، فإن القوم تذاكروا فى ذلك اليوم كلمات الإمارة والوزارة والملك والسلطان .

قال الحُباب بن المنذر الأنصارى .. « منا أمير ومنهم أمير ! »

وقال أبو بكر رضى الله عنه للأنصار : « نحن الأمراء وأنتم الوزراء ! » .

وقال عمر رضى الله عنه يخاطب الأنصار : « إنه والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبيها من غيركم ... لنا على العرب الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين ... من ينازعنا سلطان محمد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدْلٍ بباطل ، أو متجانف لإثم ، أو متورط فى هلكة ! »[٢] .

من أين جاء لقب الخلافة ؟

لم يسجل التاريخ اليوم الذى ولدت فيه هذه الكلمة .. كلمة « خليفة » ، وإن كان من الثابت الذى يرتفع إلى مرتبة اليقين أنها أطلقت على أبى بكر رضى الله عنه .

وقد غلب هذا اللقب على أبى بكر ، فكان يخاطب بقولهم: يا خليفة رسول الله ، ولم يعرف أنهم خاطبوه بكلمة يا أمير المؤمنين ..

فمن أين جاء لقب الخلافة هذا ؟

إن « الخليفة » فى الاستعمال اللغوى هو من يقوم مقام الأصل الذى ذهب، كما يقوم الخلف بعد السلف .. و «الخِلْفة» تداول الأمرين طرفين متقابلين كالليل والنهار، قال الله تعالى : « وهو الذى جعل الليل والنهار خِلْفةً لمن أراد أن يذّكر أو أراد شكورا » أى مداولة ، فيخلف أحدهما الآخر .. والخَلْفُ ما وراء الشيء .. كأنه كان فيه ثم تركه ليشغل بغيره ..

ويرجح أن كلمة « خليفة » رسول الله التى أطلقها المسلمون على « أبى بكر » لم تكن تحمل عندهم هذا المعنى ، الذى أضفىَ عليها من إضافتها إلى الرسول

(١) الامامة والسياسة ص ٧

(٢) سورة الفرقان آية ٦٢ .

الكريم معانى الجلال والتقديس ، والذى صبغها بصبغة الدين ، وغمسها فيه غمساً ، حتى بدت وكأنها من الكلمات الشرعية ، كالصلاة ، والزكاة ، والصوم وغيرها ..

فالذين رأوا فى أبى بكر أنه « خليفة رسول الله » صلى الله عليه وسلم لم يروه يومذاك إلا والياً أو أميراً عليهم بعد أن أصبحوا بغير أمير أو والٍ بعد الرسول الذى كانوا تحت إمرته وولايته .. فهو خليفة رسول الله عليهم فى هذا المعنى وحده .. أى أنه رأس هذا المجتمع أو أميره ، أشبه بما كان للرسول من أمراء على البعوث التى يبعث بها إلى القبائل ، لدعوتها إلى الإسلام ، أو لتفقيهها فى الدين !

ولو أن لقب « خليفه رسول الله » كان له — فى حقيقته — نسب يصله بالنبوة ، ويُدنيه من النبىّ لعَضّ عليه عمر بن الخطاب بنواجذه . ولما تخلّى عنه فى غير حرج أو أسىً .. وعمر كما نعلم أحرص الناس على التأسّى برسول الله ، والتمسّح بكل ما كان للنبىّ ، وما كان من النبىّ .. !

هتف بعض المسلمين بأبى بكر « يا خليفة الله » ! فقال له أبو بكر لستُ خليفة الله ، ولكنى خليفة رسول الله !

يقول ابن خلدون : « واختُلف فى تسمية « خليفة الله » فأجازه بعضهم اقتباساً من الخلافة العامة التى للآدميين فى قوله تعالى : « إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة »[1] ومنع الجمهور منه لأن معنى الآية ليس عليه . . ولأن الاستخلاف إنما هو فى حق الغائب ، وأما الحاضر فلا .. »[2]

ولقد رآها أبو بكر كبيرة عليه أن يكون هو سلطانَ الله فى الأرض على عباده ، وحسبه أن يتولى من أمر الناس بعض ما كان يتولاه النبىّ من شئونهم.

وخليفة الله ، أو خليفة رسول الله سواء فى المعنى المراد منهما ، وهو أن من

---

(١) سورة البقرة آية ٣

(٢) مقدمة ابن خلدون

يقوم على الجماعة الإسلامية ، ويدبر شئونها ، وينظم أمورها هو ذو سلطان عامل فى حياة الجماعة من وراء سلطان الله الخفى الذى لا يُرى ، أو سلطان النبى الذى كان له فى حياته . ثم ارتفع بموته . .

هناك سلطان لله سبحانه على هذا الوجود ، هو السلطان الأعظم الذى يمسك بكل شىء ، ويدبر كل شىء . . ولكنه سلطان خفىّ لا يواجه الناس ، ولا يلامس حواسهم ، فإذا قام عليهم ذو سلطان يعمل فى حياتهم المادية المحسوسة ، ويسوسهم بسياسته وتدبيره ، كان سلطانه هذا المشهود ترجمةً صحيحة أو سقيمة لسلطان الله ، وكذلك شأن سلطانه معهم فيما كان للنبىّ عليهم من سلطان .

ولهذا ، فإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يرى سلطان الحاكم على الناس ظلاً لسلطان الله ، سواء أكان هذا الحاكم مستظلا بهذا الظل أو منحرفا عنه . . وقد قال عمر لسعد بن أبى وقاص وقد تخطى إليه رقاب الناس فعلاه بالدِّرَّة قائلا له : « لم تخف سلطان الله فى الأرض ، فأردت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك » !

فإذا جرت على الألسنة كلمة « خليفة الله » أو « خليفة رسول الله » ، فإنه كان ينظر إليها من خلال صاحبها الملقب بها ، وأنه أولا وقبل كل شىء إنسان منهم ، ليس له نسب ينتسب به إلى الله أو إلى رسول الله إلا عمله الذى يدنيه أو يبعده من الله ورسوله . . ولم يكن أحد ينظر إلى هذه الكلمة فى مدلولها الحرفىّ المنقطع عن صاحبها ، والذى ربما دخل على بعض العقول بشىء من الوهم الذى يحرّف الكَلِمَ عن مواضعه .

لقد ظلت كلمة «خليفة رسول الله » يتعامل بها المسلمون فى خلافة أبى بكر ، وليس لها من مفهوم عندهم أكثر من أنه « الأمير » القائم عليهم . . ولو وجد أبو بكر كلمة غير هذه الكلمة، تحدد منصبه هذا وتدل عليه ، لما وقف عند هذا اللقب ، ولما تمسك به . . بل إننا لنكاد نشعر أن أبا بكر عاش وفى نفسه شىء

من هـذا اللقب ، وأنه قد كان يراه ثوبا فضفاضاً عليه ، كما رأى فى لقب «خليفةالله» وعدل عنه إلى خليفة رسول الله .

نقول هذا ، ولناشاهدٌ صدقٍ عليه من أمير المؤمنين عمر بن الحطاب رضى الله عنه ، فإنه ما إن سمع قائلا يقول عنه « أمير المؤمنين » حتى وقع هـذا القول من نفسه موقع الرضا والغبطة . . وأصبح منذ ذلك الوقت يدعى « أمير المؤمنين » . .

ونقول مرة أخرى إن « عمر » ما كان يخلع أبدا بيديه لقب « الخلافة » .. خلافة رسول الله ، ويلبس مكانه هذا اللقب الجديد « أمير المؤمنين » — لو أنه كان فى نفسه أى شعور بأن لقب « الخلافة » يحمل فى كيانه شيئا — أى شىء — من رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وشاهد آخر على أن لقب « الخلافة » هو لقب اصطلاحى ، ولدته الظروف كما تولد الأسماء لمسمياتها — هذا الشاهد هو أنه لمـا توفى « أبو بكر » وتولى « عمر » الخلافة « من بعده جعل الناس يدعونه : خليفةَ خليفةِ رسول الله . . وكان المتوقع أن الخليفة الذى يخلف عمر سوف يدعى : خليفةَ خليفة خليفة رسول الله . . وهـكذا . . وهذا ما جعل عمر يتطلع إلى لقب يلقب به الخليفة غير هذا اللقب ، الذى سيزداد على الأيام طولا ، ويصبح التعامل به شاقاً عسيرا ..

ولو كانت « الخلافة » خلافةً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنها قبسٍ من أقباس النبوة ، وضوءة من مشكاتها لـكان كل من يلى أمر المسلمين خليفة لرسول الله ، ولمـا دُعى «عمر» خليفةَ خليفةِ رسول الله . حيث كان معنى ذلك أنه خليفة أبى بكر ، الذى هو خليفة رسول الله . .

ليست « الخلافة » إذن كلمة من كلمات الشريعة ، وليس « الخليفة » — حامل هذا اللقب — صاحبَ شرع ، وإنما هو واحد من آحاد أتباع هـذه الشريعة ، فإذا جعلوه أميراً لهم أو حاكما عليهم ، فليس له فى مكانه الجديد هذا ، إلا ما كان له ، من قبل أن يقوم فيه .. ينزل هو والناس جميعاً على حكم الشريعة سواء بسواء !

خداع الألقاب :

وقد تظاهرت أمور كثيرة لتخلع على هذا اللقب ـ الخليفة ـ خِلعَ القداسة ، والجلال ، والعصمة ، حتى لترتفع به أحياناً فوق ما ينبغى أن يكون للنبي من قداسة ، وجلال ، وعصمة .

فاحتكاك المسلمين بالأمم التى دخلت فى الإسلام من فرس وروم قد غير من المفاهيم والمدلولات التى كان يعيش بها المجتمع الإسلامى الأول . . وكان لمدلول « الخلافة » ومفهوم « الخليفة » نصيب من هذا التغيير . فإن ملوك الفرس كانوا فى مقام الآلهة أو ما يشبه الآلهة عند رعاياهم . . كلمتهم قانون ، وأمرهم شريعة . . !

وقد أصبح الفرس هم العنصر الغالب فى الدولة العباسية . وهم اليد العاملة فيها ، والعقل المفكر لها ، والذوق المتحكم فى وجدانها وشعورها . . فأصبح الخليفة محاطاً بمظاهر مادية تخيل للناس أنه عالم وحده . لا تراه العيون إلا من وراء حشود طويلة من الحجاب ، والخدم ، والحراس ، والوزراء . . فى قصر أشبه بما يقع فى خيال الناس من قصور الجنة . . سرر من ذهب وفضة ، وبسط من سندس وإستبرق ، وأباريق من فضة ، وكئوس من ذهب . . وجنات تجرى من تحتها الأنهار .

هذه المظاهر المعجبة الرائعة التى أحاط الفرس الخليفة بها ، كانت وحدها كافية أن ترفع لخيال الناس صورة الخليفة سابحة فى بحار من أضواء الجمال والجلال . ومع ذلك فقد نفض الفرس من مشاعرهم التى ورثوها عن آبائهم ، والتى نزعت بهم فى التشيع لآل البيت منزع التقديس لهم — نفضوا من هذه المشاعر على « الخليفة » وعلى الخلافة من معانى العظمة والجلال ما جعل لهذين الاسمين سلطاناً دينياً متمكناً فى قلوب المسلمين وعقولهم . . كما كانت لهما نغمة موحية بالتسلط والجبروت فى أكثر نفوس الخلفاء ، وأمراء المؤمنين .

يقول الأستاذ علي عبد الرازق :

« إن ذلك اللقب — لقب خليفة رسول الله — مع ما أحاط به من الاعتبارات التي أشرنا إليها ، ولم نشر إلى باقيها — كان سبباً من أسباب الخطأ الذي تسرب إلى عامة المسلمين ، فخيل إليهم أن الخلافة مركز ديني ، وأن من ولى أمر المسلمين فقد حلّ منهم في المقام الذي كان يحله رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

« وكذلك نشأ بين المسلمين منذ الصدر الأول الزعم بأن الخلافة مقام ديني ، ونيابة عن صاحب الشريعة عليه السلام . . » (١)

وهذا حق كله . . فإن إضافة الخلافة إلى رسول الله قد لعبت بمشاعر المسلمين ، وأثرت في وجداناتهم ، فنظروا من خلال هذه المشاعر وتلك الوجدانات إلى الخلافة نظرة تقديس وإجلال . . ولو أنهم نظروا إليها على ضوء الأحداث التي قامت فيها الخلافة الإسلامية لرأوا كما رأينا — وكما رأى السلف الأول — أنها حكومة من الناس وللناس . . من الناس الذين أقامهم الإسلام على شريعة ودين ، وللناس الذين استظلوا بهذه الشريعة وذلك الدين .

ولا نوافق أستاذنا علي عبد الرازق فيما يحدّث به عن الصدر الأول من المسلمين ونظرتهم إلى الخلافة بأنها مقام ديني ، وبأنها نيابة عن صاحب الشرع عليه السلام . . فقد رأيتَ فيما مضى وجهة نظرنا في مفهوم الخلافة عند المسلمين في الصدر الأول : وأن هذا المفهوم كان يضعها في حدود الملك ، أو الإمرة ، وأن المظهر الديني الذي كانت تظهر به هو لازم من لوازمها . لحاكم مسلم على جماعة مسلمة .. وما كان لهذا الحاكم ولا لهذه الجماعة أن تتعرّى حياتُها — بسبب الخلافة — من الدين ومظاهر الدين الذي أخذ أتباعَه بالعمل للدين والدنيا جميعاً .

---

(١) الإسلام وأصول الحكم ص ١٠١ .

الخلافة . . والدين :

وهذا العنصر الديني الذى امتزج بالخلافة الإسلامية ، وكان بعضَ ألوانها منذ يومها الأول — هـذا العنصر الديني . . ما هو ؟ . أهو أصل من أصول الخلافة حتى إذا انفصل عنها لم يكن لها مقام فى الحياة ؟ أم أنه شىء طارىء عليها ، إذا افتقدته يوماً لم تفقد وجودها وحياتها ؟

وللإجابة على هذا يجب أن نقرر :

أولا : أن الحكم ضرورة لازمة فى حياة المجتمع الإنسانى . . تطلبه المجتمعات كما تطلب الأمن ، والسـلام ، بل كما تطلب الحياة . . إذ لا حياة ، ولا أمن ، ولا سلام لمجتمع إنسانى لا يقوم عليه حاكم . .

ثانياً : أن أى حكم إنما يتلون بما فى كيان المجتمع من آراء ، ومذاهب ، ومعتقدات ، وأن قانون الجماعة الذى تساس به إنما هو نسيج عواطفها ووجدانها ، ونضيج آرائها ومذاهبها فى الحياة . . يستوى فى ذلك أرق الشعوب وأعرقها حضارة ومدنية ، مع أبعد الشعوب عن مجال الحضارة والمدنية .

فكل حكم — أياً كان — حضارياً ، أو بدائياً .. ديمقراطياً ، أو دكتاتورياً .. إشتراكياً ، أو رأسمالياً — إنما يأخذ صورته من الآراء والمذاهب والمعتقدات التى يعيش فيها المجتمع الذى يدين بهذا الحكم ، ويخضع له ، وهيهات أن يخضع مجتمع لغير الآراء التى يدين بها إلا فى ظروف استثنائية طارئة ، كأن يُفرض عليه حكم أجنبى ، أو نحو هذا . .

إذا تقرر هذا — ولا خلاف عليه فيما نظن — فإن الخلافة الإسلامية ، وهى ضرب من ضروب الحكم ، وأسلوب من أساليبه ، لا بد أن تخضع لهذه المقررات ؛ فيكون الإسلام الذى هو عقيدة مجتمع الخلافة لوناً بارزاً من ألوانها.. إذ كان الدين — من حيث هو دين يجمع بين طرفى الدنيا والآخرة — مستولياً على النصيب الأوفر من تفكير الإنسان ، ومشاعره ، ووجداناته .

وإذن فالحاكم المسلم الذى يحكم مجتمعا يدين بالإسلام لا يمكن أن يجرد أسلوب الحكم من سلطان الدين عليه ، وعلى كل شأن من شئون حياته ، كما لا يمكن أن يوجه سياسته وجهة متحررة تحرراً كاملا من مقررات الدين ومعطياته ، وإلا عزل نفسه عن المجتمع ، فكان فى جانب ؛ والناس والحياة فى جانب آخر .. وإذا صح القول بأن الناس على دين ملوكهم ؛ فإنه يصح أيضا أن يقال : إن الملوك على دين من يملكون ، إذا أرادوا أن يسكن إليهم الناس ، ويُلْقُون إليهم بالمودة والولاء .

يقول الفيلسوف المسلم « محمد إقبال » :

« طبيعة أى عمل مهما كان دنيويا فى فحواه ؛ إنما تشكلها النزعة العقلية التى تسيطر على القائم بهذا العمل !

« فما وراء العمل من تفكير لا تراه العين هو الذى يشكل آخر الأمر طبيعته . .

« والعمل يكون دنيويا ، أو طالحا ، إذا صدر عن روح بعيدة عما للحياة من مزيج لا نهاية لعناصره .

« ويكون روحانياً إذا صدر بوحى من هذا المزيج .

« والحقيقة فى نظر الإسلام هى بعينها . .

« تبدو ديناً إذا نظرنا إليها من ناحية .

وتبدو دولة إذا نظرنا إليها من ناحية أخرى[1] .

أرجو أن تقرأ هذا الذى يقوله « إقبال » هنا مرة أخرى ، أو أكثر ! فإنهن كلمات لهن دلالات مشرقة واعية فى تحديد النظرة إلى الخلافة الإسلامية ، وفى ضبط ميزانها الذى توزن به بين أنظمة الحكم . .

---

(١) تحديد التفكير الدينى فى الإسلام ص ١٧٧

الدين . . والدولة . .

وبهذا الميزان الذى وضعه «إقبال» بين يديك فى تلك المقررات السابقة ، يزن « الخلافة » ، ويترجم الدولة التى يدل عليها مؤشر هذا الميزان . . فيقول بعد هذا :

« ليس صحيحاً أن يقال إن الدين والدولة جانبان ، أو وجهان لشىء واحد .

« فالإسلام حقيقة مفردة لا تقبل التحليل . .

« وهو — الإسلام — يبدو فى صورة أو أخرى بحسب اختلاف نظرك إليه .

« وهذا الأمر بعيد الأثر . . وتوضيحه توضيحاً وافياً يزج بنا فى بحث فلسفى عميق ! .

« وحسبنا أن نقول إن الخطأ القديم — فى مفهوم الخلافة ، أو فى مفهوم الدين — نشأ عن تفريع وحدة الإنسان إلى حقيقتين ، منفصلتين ، متمايزتين ، تتصلان — إحداهما بالأخرى على وجه ما ، ولكنهما أساسياً متضادتان . .

هذا هو مبعث الخطأ . .

« والحق هو أن المادة هى الروح مضافةً إلى الزمان المكانى .

« والوحدة التى نسميها « الإنسان » هى جسم إذا نظرت إلى عملها بالنسبة لما نسميه بالعالم الخارجى . . وهى عقل أو نَفْس إذا نظرت إلى عملها باعتبار ما له من غاية ، وإلى المثل الأعلى الذى يستهدفه هذا العمل [1] » .

لعلّ من الخير أن نقف عند هذا القول وقفة تأمل لنتأكد من فهم مراميه ومقاصده التى قصد إليها هذا الفيلسوف ، وأرادها . .

فأولا : الدين والدنيا وجهان لشىء واحد . .

هذا الشىء هو دين ودنيا معاً . .

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام .

تنظر إليه من جانب فإذا هو دين . .

وتنظر إليه من جانب آخر فإذا هو دنيا . .

ولستَ بمستطيع أن ترى الدين كائنا وحده ، غير قائم على « فرش » من الدنيا ! .

ولست بمستطيع كذلك أن ترى الدنيا دنيا خالصة غير « مشبعة » بالدين ، أو ملونة به .

وثانياً : الدين حقيقة مفردة لا تقبل التحليل . .

ومعنى هذا أن ما يحمل الدينُ من مبادىء وتعاليم لا يمكن أن تحلل تحليلا كيميائيا ، أو حسابياً . . فيكون بعضها للدين ، وبعضها الآخر للدنيا ، أو يكون جانب منها للروح ، وجانب آخر للجسد . .

وذلك . . لأنه ليس من طبيعة حقائق الدين أن تنقسم ، وتتوزع ، كما أنه ليس هناك ما يمكن أن تتوزع إليه ، إذا كان من طبيعتها أن تتوزع — وهو أمر غير ممكن — فحقائق الدين تتجه إلى الإنسان على أنه كيان واحد ، ليس روحاً ، وليس جسدا ، وإنما هو روح وجسد معاً . .

وحقائق الدين تتجه إلى تنظيم وجود الإنسان . . وللإنسان وجود واحد يجمع بين الدنيا والآخرة .

نعود بعد هذا إلى «إقبال» فنصحبه في اتجاهه هذا مرحلة أخرى ، يحدثنا فيها عن الإسلام ومقامه فى الحياة ، وإمكانياته التى يفتح للناس مجال العمل فيها . .

يقول «إقبال» :

« وروح التوحيد « الإسلام » بوصفه فكرة قابلة للتنفيذ ، هو : المساواة ، والاتحاد ، والحرية .

«والدولة فى نظر الإسلام . . هى محاولة تبذل بقصد تحويل هذه المبادىء المثالية إلى قوى مكانية زمانية . . هى إلهام لتحقيق هذه المبادىء فى نظام إنسانى معين . .

«والدولة فى الإسلام . . ليست « ثيوقراطية[1] » أى دينية إلا بهذا المعنى وحده ، لا بمعنى أن على رأسها خليفة لله على الأرض ، يستطيع دائماً أن يستر إرادته المستبدة وراء عصمته المزعومة .

« وقد غاب هذا الاعتبار الهام عن أنظار نقّاد الإسلام .

« فالحقيقة القصوى فى نظر الإسلام روحية ، ووجودها يتحقق فى نشاطها الدنيوى .

« والروح تجد فُرَصَتَها فى : الطبيعى ، والمادى ، والدنيوى . .

« فكل ما هو دنيوى إذن ، هو طاهر ، ودينى . . فى جذور وجوده .

« وأعظم خدمة أداها التفكير العصرى للإسلام ، بل فى حقيقة الأمر إلى كل دين ، هى تمحيص ما نسميه مادياً أو طبيعياً تمحيصاً أظهر أن المادى فحسب لا يكون له حقيقة إلى أن نكتشف عن أصله متأصلا فيما هو روحانى . .

« فليس ثمة دنيا دنسة ، وكل هذه الكثرة من الكائنات المادية إنما هى مجال تحقق الروح وجودها فيه .

« فالكل أرض طَهور ، ولقد صور النبى هذا المعنى أجمل تصوير بقوله :

« جعلت لنا الأرض كلها مسجدا »[2] .

---

(١) ثيوقراطية : كلمة مأخوذة من كلمتين يونانيتين «ثيوس» بمعنى الله ، و «قراطوس» بمعنى قوة أو سلطان .

(٢) روى مسلم فى صحيحه عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فضلنا على الناس بثلاث . جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وجعلت تربتها لنا طهورا ، إذا لم نجد الماء » (صحيح مسلم جـ ١ ص ١٩٤ طبعة الحلبى)

« فالدولة فى نظر الإسلام ليست إلا محاولة لتحقيق الروحانية فى بناء المجتمع الإنسانى . . وبهذا المعنى تكون كل دولة ليست مؤسسة على مجرد السيادة والسلطان ، بل تهدف إلى تحقيق المبادىء المثالية — دولةً « ثيوقراطية[1] » أى دينية .

إن هذه النظرة العميقة الواعية التى نظر بها « إقبال » إلى « الخلافة » من خلال الدين الإسلامى هى التى ينبغى أن ينظر بها الناظرون إلى الخلافة الإسلامية ، وبهذا تصبح « الحكومة » — أى حكومة . فى المجتمع الإسلامى « خلافة » ويصبح الحاكم « خليفة » أى أميناً على هذا المجتمع ، قائداً له بقدر ما فى كيانه العقلى والروحى من أحاسيس وعواطف لهذا الدين ، مقدراً أن الدين ليس إلا بعض هذا المجتمع أو كله ، فى منازع تفكيره ، وفى اتجاهات سلوكه . وأن هذا المجتمع فى أفراده وجماعاته كائن تسرى فى روحه ، وفى دمه ، وفى أعصابه ، وفى كيانه كله ما يحمل الدين من عقيدة وشريعة .

إنا إذا نظرنا إلى « الخلافة » هذه النظرة — وهو ما ينبغى أن يكون — فإنا نضع « الخلافة » فى موضعها الصحيح الذى كثيراً ما نراها قد تجاوزته وبعدت عنه .

إن « الخلافة » — فى هذا الموضع — كائن له وجوده الذاتى ، فتصحّ أو تمرض ، وتستقيم أو تنحرف ، دون أن يحسب على الدين شىء من صحتها أو مرضها ، ومن استقامتها أو انحرافها . .

و « الخليفة » الذى يلبس ثوب الخلافة هو « حاكم » ، له ذاتيته ، . . حسابه لنفسه ، وعلى نفسه ، لا يحسب على الدين ، ولا يضاف إليه . .

وذلك كله لا يمنع بحال أبداً أن تسمى « الخلافة » بهذا الاسم ، وأن تضاف إلى الإسلام ، وتحسب عليه ، كما لا يمنع بحال أبداً أن تسمى كل حكومة قائمة فى مجتمع إسلامى « حكومة إسلامية » ، وأن تحسب على الإسلام وتضاف

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص ١٠٢ .

إليه . . تماماً ، كما ينتسب المسلمون إلى الإسلام ويحسبون فى المسلمين ، وإن اختلفت حظوظهم منه ، وتعددت منازلهم فيه . . إنهم مسلمون . . وإن حكامهم الذين يقومون عليهم حكام مسلمون أو خلفاء مسلمون ، يمثلون « الحكم الإسلامى » والخلافة الإسلامية . .

فأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، ومعاوية ، ويزيد ، ومروان بن الحكم ، وعبد الملك بن مروان . . وبقية الخلفاء الأمويين والعباسيين . . كلهم مسلمون ، على اختلاف حظوظهم من الإسلام ومنازلهم فيه . . وهم كذلك خلفاء على اختلاف حظ خلافتهم من الإسلام وموضعها منه .

لماذا هذا الفصل بين الدين والدولة ؟

وعلى هذا فلا وجه للفصل بين الدين والدولة . . كما لا يمكن الفصل بين الروح والجسد ، إذا أريد الاحتفاظ بالإنسان ككائن حى .

إن الدين وحده . . روح بلا جسد . .

والدولة وحدها . . جسد بلا روح . .

إذ أنه لا دين إلا إذا خالط تفكير الناس ، وتلبس بمشاعرهم .

وإنه لا دولة — بل لا إنسانية — إلا إذا كان لها مدارك تعقل ، ومشاعر تتأثر ، وإلا إذا دخل على عقلها مدركات ، وتسربت إلى مشاعرها مؤثرات .

وقد عرّفنا أن الإسلام ينظر إلى الإنسان باعتباره إنسانا ، ذا شخصية واحدة ، وكيان واحد ؛ هو « الإنسان » . وليس هو جسدا وروحاً .

وقد جاءت تعاليم الإسلام لتتعامل مع هذا الإنسان باعتباره كلاً ، فلا تتجه إلى روح وجسد منه ، وإنما تتجه إليه جميعه !

فإذا ساغ لذى نظر أن يرى الحياة ديناً فى جانب ، ودولة أو دنيا فى جانب آخر . . كان لنا عليه إذا سألناه : أين الدين وأين الدنيا — أن يشير إليهما ، وأن يحدد صفة كل منهما ومكانه . فيقول : هذا هو الدين ، ويكشف لنا عن

وجهه، ويحدد صفاته، ويحدث عن طبيعته ! ثم يقول : وهذه هى الدنيا، ويكشف عن وجهها، ويحدد صفاتها، ويبين طبيعتها، نريده أن يتجه إلى ناحية فيقول : هنا يوجد الدين، ثم يتجه إلى ناحية أخرى فيقول : هنا تقوم الدنيا.

ومحال أن يجد المرء لهذه الإشارة مدلولا أو مفهوماً !

فأين الدين ؟ أهو هذه المبادىء والمقررات المسطورة فى كتاب ؟

أدين من غير متدينين ؟ أمعبد بلا عباد، ومسجد ولا مصلين ؟

وأين هى الدنيا؟ وأين هم الناس ؟ عالم بلا عواطف، ولا مشاعر. بل ولا عقل ؟

إن عملية فصل الدين عن الدنيا عملية قد تستقيم فى التصورات الذهنية، ولكنها لا تستقيم فى واقع الحياة أبدا . .

من أين جاءت هذه الثنائية ؟

« التوحيد » هو شريعة الإسلام، أو هو حقيقة الإسلام . .

وكل مافى الإسلام قائم على « التوحيد » لا التفريق . .

والإنسان مخلوق على صورة الخالق الواحد .

ووجود الإنسان وجود واحد تتصل دنياه بأخراه !

وقد صبغ الإسلام العقلية الإسلامية بهذه الصبغة «الواحدية» حين جمع المسلمين على عبادة إله واحد، ورد أصلهم إلى أب واحدٍ، وجعلهم أمة واحدة . .

ولا نريد أن نضرب الأمثال لهذا من تاريخ التفكير الإسلامى، ومنازعه، وحسبنا أن نرى اتجاه هذا التفكير فى هذا الموضوع الذى بين أيدينا، وهو « الخلافة » . !

لقد عاشت « الخلافة » فى المجتمع الإسلامى على أنها القوة العاملة فى دنيا المسلمين ودينهم جميعا . والخليفة هو حاكم المسلمين الذى يقيم شئون دينهم ودنياهم معاً . . فهو إمامهم فى الصلاة، وقائدهم فى الحرب، وقاضيهم فى المنازعات

ولم يقع فى تفكير المسلمين حتى فى أقسى الظروف وأسوأ الأحوال التى أحاطت بهم فيها تلك الفتن ، والتى اقتتلوا فيها ، وتفرقوا مذاهب وشيعا . لم يقع فى تفكير المسلمين أن يجعلوا الخلافة خلافتين .. خلافة للدين ، وأخرى للدنيا ، كما لم يقع فى تفكيرهم أن يعزلوا الخلافة عن الدنيا ، ويجعلوها خلافة للدين وحده . لم يقع شيء من هذا فى تفكير المسلمين ، على اختلاف طوائفهم ومذاهبهم .. وأنت تعلم كيف تعددت هذه الفرق .. من سنية ، وشيعة ، وخوارج ! وكيف تفرقت تلك الفرق حتى كانت الخوارج نحو خمسين فرقة ، كما كانت الشيعة أكثر من سبعين فرقة . .

وهذه الفرق جميعها كانت تتقاتل بالرأى ، كما كانت تقتتل بالسيف — ومع هذا فإن أحدا لم ينسخ « بالخلافة » أو الخليفة منحى الدين أو الدنيا ، وإنما ظل الدين وظلت الدنيا إلى يد الخليفة ، وفى سلطانه . .

فمن أين جاءت إلى الإسلام فكرة فصل الدين عن الدولة ؟ ومن أى باب دخل على المسلمين هذا التفكير ؟

يرى الفيلسوف « إقبال » أن فكرة فصل الدين عن الدولة قد ولدت فى أعقاب الخلافة العثمانية ، بعد أن ضعف شأن الخلافة ؛ وغلبت على الخلفاء المنازع العصبية ، والأهواء الذاتية . .

يقول « إقبال » :

« إن رجال الحزب الوطنى التركى استقوا — فى الوقع — فكرة الفصل بين الدين والدولة من تاريخ النظريات السياسية الأوربية . . فالمسيحية البدائية لم تقم كوحدة سياسية أو مدنية ، وإنما كانت نظاما من الرهبنة فى عالم غير طَهور .. لا تحفل بأمور الدنيا ، وتدين للسلطة الرومانية بالطاعة فى كل أمر تقريبا .

« وكان من نتيجة هذا أن الدولة عندما أصبحت مسيحية وقفت هى والكنيسة موقف التعارض ، بوصفهما قوتين متمايزتين شجر بينهما الخلاف على تنازع الاختصاص ، ودبت بينهما لذلك خصومات لا حد لها .

« ومثل هذا لم يكن من الممكن أن يقع فى الإسلام ، لأن الإسلام كان من أول أمره مجتمعاً مدنيا عـنى بشئون الدنيا ، وأخذ عن القرآن طائفة من المبادىء التشريعية البسيطة ، كالألواح الاثنى عشر فى التشريع الرومانى ، انطوت — كما أسفرت التجارب — على إمكانيات عظيمة فى التوسع عن طريق التأويل والتفسير .

« وعلى هذا ، فالنظرية التى تقول بقومية الدولة تجرنا إلى الخطأ من حيث أنها تفترض ثنائية لاوجود لها فى الإسلام » (١) .

إذن فنظرية الفصل بين الدين والدولة ظهرت فى صورة حركة سياسية قام بها الحزب الوطنى التركى ، وأن أصحاب هذه الحركة قد تأثروا بالنظريات السياسية الأوربية التى تأثرت هى بدورها بالديانة المسيحية ؛ بعد أن أصبحت ديناً للدولة . .

هكذا يرى الفيلسوف محمد إقبال . . فى نشأة الفكرة القائلة بفصل الدين عن الدولة . . والذى نراه أن هذه الفكرة ليست بنت الحركة الإصلاحية التركية ، وإن كانت هذه الحركة قد دفعت بها إلى الحياة فى صورةٍ مُشْكِلة ، يدعى العالم الإسلامى إلى إيجاد حلٍّ لها ، ومخرج منها .

وقد سبق أن قلنا إن الفتن والحرب التى وقعت بين المسلمين من أجل الخلافة وتحت رايتها ، والتى تمزقت من أجلها الوحدة الإسلامية ، وتعددت فرقها ومذاهبها — هذه الفتن لم توجه أنظار هذه الفرق الكثيرة إلى فكرة الفصل بين الدّين والدولة ، ولم تحمل أحداً على أن يعزل الخلافة عن الدنيا ، أو يعزل الدنيا عن الدين . .

قلنا هذا من قبل ، أو مايشبه هذا . وذلك فى مقام الحديث عن نظرية قائمة تقول — بفصل الدين عن الدولة ، يدعو إليها كثير من الناس ، وتقوم لها أحزاب سياسية تدعو لها وتتعصب من أجلها . .

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص ١٧٩

ولكننا حين ننظر إلى تلك المسألة نظرة بعيدة عن هذه المناظرة ، نجد أن خطرات قد وقعت فى تفكير جماعات من المسلمين ، أثناء هذا الصراع الذى وقع بين علىّ رضى الله عنه ، وبين الخارجين عليه ، وأن هذه الخطرات لم تكن متجهة هذا الاتجاه الواضح فى الفصل بين الدين والدولة ، وإنما كانت ذات دلالات غايتها الانتصار للرأى ، فى مقام الخصومة والجدل . .

فى واقعة التحكيم بين «على» و«معاوية» وما انتهى إليه أمر الحكمين حين مكر أحدهما بالآخر ، وما أثار هذا الموقف من اضطراب وبلبلة بين المسلمين — فى هذه الواقعة همس هامس الفتنة فى أذن بعض الناس فى مجلس التحكيم بهذه الخاطرة : «لا حكم إلا لله» ! فرددها على لسانه ، ثم ألقى بها إلى من حوله ، فالتقطتها الآذان ، ودارت دورتها فى جماعات المسلمين ، وإذا هذا التخافت يصبح نداء مرددا . . لا حكم إلا الله » . . ثم لا يلبث هذا النداء الإقليلا حتى يجتمع عليه كثير من الناس ، ويتخذونه شعارا لهم . وراية يقاتلون تحتها . بالاسم الذى أطلقه المسلمون عليهم فيما بعد . وهو « الخوارج » .

«لا حكم إلا لله » . . هذه الكلمة التى اتخذها الخوارج حجة على تكفير الحكمين ؛ أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص ، والمحكّمين : على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان . . ومن كان من المسلمين مع هذا الفريق أو ذاك . . هذه الكلمة التى تدل دلالة صريحة على أن « الخلافة » أمر من أمور الدين لا يصحّ أن يحكّم الرجال فيها ، لم يكن مفهومها عند قائليها عزلَ الخلافة عن الدنيا ، وإقامة خليفتين على المسلمين ، واحدٍ للدين ، وآخر للدنيا . وإنما كانت — كما قلنا — رميةً طائشة ، لا يراد من ورائها إلا فتح طريق يخرج منه أولئك الذين استيأسوا من إصلاح ذات البين بين المسلمين ، فدفع بهم هذا اليأس إلى التردى فى مهاوى الفتنة ، والتخبط فى أمواجها المتلاطمة !

وقد رد الإمام علىّ رضى الله عنه هذه القولة بقوله : « إنها كلمة حق أريد بها باطل» . . وقد أمر الله بالتحكيم فى بهيمة ثمنها دراهم معدودات، فقال تعالى :

« لا تقتلوا الصيد ، وأنتم حُرُمٌ ، ومن قتَلَه منكم متعمِّداً ، فجزاءٌ مثلُ ما قتلَ من النَّعَم ، يحكم به ذوا عدلٍ منكم هَدْياً بالغ الكعبة[1] ».. فكيف لا يحكَّم فى أمر الحاكم الذى يوضع بين يديه أمر المسلمين جميعاً ؟

لقد ظل الخوارج يقاتلون تحت راية هذه الكلمة : « لا حكم إلا لله » من أجل الخلافة ، ولم يجعلوا الحكم فيها لله كما يدّعون ، إنما احتكموا إلى السيف فقَتَلوا ، وقُتِلوا ، وسالت الدماء أنهارا ، وأزهقت الأرواح ألوفا بعد ألوفٍ وكانت فتنة فى الأرض وفساد كبير . .

وكما نجد فى « الخوارج » هذه النزعة التى تدل على فصل الدين عن الدولة فى مفهوم قولهم « لا حكم إلا لله » ، ثم نجدهم لا ينزلون عند هذه الكلمة ، ولا يحتكمون إلى الله بل إلى السيف — كما نجد هذا عند الخوارج ، نجد شيئا منه عند « الشيعة » الذين جعلوا ولاءهم لآل البيت — رضى الله عنهم — ورأوا أن « الخلافة » ميراث النبوة ، وأنها دينية خالصة . . ومع هذا فإنهم لم يقفوا عند حدّ هذه العقيدة ، ولم يجعلوها مجرّد عاطفة دينية يجتمعون عليها ، بل احتكموا إلى السيف فى كثير من الأحوال التى أحسوا فيها القدرة على محاربة الخلفاء من الأمويين والعباسيين على السواء .. ولقد استشهد كثير من رجالات الشيعة وأئمتهم فى هذه المصادمات العنيفة بينهم وبين الخلفاء . .

* * *

هذه الخواطر التى جرت فى تفكير بعض المسلمين فى عزل الخلافة عن الدنيا ، والتى لم تتشكل فى واقع الحياة قولا أو عملا ، قد أصبحت فى الأيام الأخيرة للخلافة العثمانية حركة سياسية ، تقوم عليها أحزاب ، وتتحدث بها صحف .

وقد عرفنا — من قبل — رأى رجال الحزب الوطنى التركى كما يحدثنا عنه « إقبال » .

لماذا يُعزل الدين عن الدنيا ؟

وهذا « إقبال » يجيبنا على هذا السؤال من الخطة التى قام عليها حزب الإصلاح الدينى فى تركيا بزعامة الصدر الأعظم « سعيد حليم » . .

---

(١) سورة المائدة آية ٩٥

نظر حزب الإصلاح الدينى إلى الإسلام فى المجتمعات الإسلامية ، فرأى وحدته قد تمزقت ، وأن كل جماعة من هذه المجتمعات قد شكلت الدين بالشكل الذى يتفق وحياتها العقلية والروحية ، ولونته بالألوان التى تفيض بها عواطفها القومية والوطنية ، حتى بدا الإسلام أديانا لا ديناً واحدا . . كل مجتمع يدين منه بدين . .

وليس كذلك الإسلام . . إنه حقيقة واحدة ، غايتها ربط الإنسانية كلها برباط هذا الدين ، وجمعه على مبادئه .

هذا هو محور الحركة التى قام عليها تفكير حزب الإصلاح الدينى . والتى حاول فيها تلك المحاولة التى أراد أن يعزل بها الدين عن الدولة ؛ ليرفعه فوق القوميات ؛ وليتخطى به حدود الأوطان ، والأمم ، ليكون ديناً لجميع الأقوام والأوطان والأمم .

يقول الصدر الأعظم « سعيد حليم » :

« كما أنه لا توجد رياضة إنجليزية ، أو فلك ألمانى ، أو كيمياء فرنسية ، فليس يوجد كذلك إسلام تركى ، أو عربى ، أو فارسى ، أو هندى . .

« وكما أن الصبغة العالمية للحقائق العلمية تولد شتاتاً من ثقافات قومية علمية ، تمثل فى مجموعها المعرفة الإنسانية ، فكذلك بما يشبه هذا الأسلوب تنشىء الصفة العالمية لحقائق الإسلام أنواعاً من المثل العليا القومية والأخلاقية والاجتماعية » .

« إن المُثُلَ الاجتماعية والأخلاقية فى الإسلام بعدت عن الإسلام شيئاً فشيئاً على مر الأيام ، بتأثير من الخلق المحلى ، والخرافات التى كانت سائدة قبل الإسلام فى الشعوب الإسلامية .. وقد أصبحت هذه المثل الآن فارسية أو تركية أو عربية ، أكثر منها إسلامية ..

« ومبدأ التوحيد الطاهر النقى كاد يطبع بطابع من الوثنية ، وضاعت الصفة العالمية لمثل الإسلام الأخلاقية ، نتيجة لحركة القوميات المحلية . .

ثم يقول الصدر الأعظم :

« وعلى هذا فالسبيل الوحيد أمامنا هو أن ننزع عن الإسلام هذه القشرة الجافة التى أحالت إلى الجمود نظرةً إلى الحياة كانت فى جوهرها دائبة الحركة والنشاط . . وأن نعيد الكشف عن الحقائق الأصيلة ..حقائق الحرية والمساواة والاتحاد ، فنقيم على أساسها الأول فى البساطة والعالمية مثلنا العليا فى الأخلاق والاجتماع والسياسة »(١) .

وهذه النظرة إلى الإسلام باعتباره حقيقة عامة تتسع للإنسانية كلها — هى نظرة سليمة تنطوى على إدراك سليم لرسالة الإسلام .

ولكن الذى نخالف فيه أصحاب هذه النظرة هو فهمهم لهذه الحقيقة على أنها من الحقائق الذهنية ، والقضايا العقلية . كحقائق العلم وقضاياه . . إذ شبهوا مقررات الشريعة الإسلامية بنظريات الرياضة ، والهندسة ، والفلك، والكيمياء وقاسوها عليها .. ومن هنا بدا لهم هذا التفاوت الكبير بين حقائق الدين وحقائق العلم .. إذ رأوا الحقائق الدينية ملوّنة بألوان الشعوب والأمم ، مصطبغة بصبغة القوميات والأوطان .. بينما تقع حقائق العلم موقعا واحدا، وتبدو فى لون واحد فى جميع الأوطان وعند جميع الأمم . . فليس هناك — كما يقولون — هندسة ألمانية أو فلك إيطالى أو رياضة انجليزية .. وإنما الهندسة والفلك والرياضة هى هى فى جميع الأوطان والشعوب . .

ومن هنا أيضا كان منشأ الخطأ الذى تورط فيه حزب الإصلاح الدينى حين حسب حقائق الدين حقائق علميةً ذهنيةً . .

والواقع أن حقائق الدين — أى دين — ليست ذهنيات مجردة ، وإنما حقائق أشبه بحقائق الفنون الجميلة .. تثير الوجدان ، وتحرك الشعور ، وتغذى العاطفة . . كما أنها ترضى منازع العقل ، ومتجهات الفكر .

إن الدين عاطفة قبل كل شىء .. وإذا خلا الدين من العاطفة — وهيهات —

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص ١٨٥

لم يكن فيه مايقيم الناس عليه ، ويشدّهم إليه .. فى رجاء وخوف ، وأمل ، وألم ، وشوق ، ولهفة واطمئنان ، وقلق .

وماذا فى الدين ، وماذا تكون وظيفته فى الحياة إذا لم يُثر فى الإنسان هذه المشاعر من الرجاء والخوف ، والحب ، والشوق ، والأمل ، والألم ، والاطمئنان والقلق ؟

فهل فى الحقائق العلمية المودعة فى نظريات العلوم من هندسة ، وفلك ، وكيمياء ، مايبعث فى الإنسان أية عاطفة أو يثير أى شعور ؟

وإذا كان الدين يقع فى النفوس موقع الفنون الجميلة ، فإن الإسلام آية الآيات فى جلال الفنّ وجماله ، وروعته . . إنه من آيات الله . . وحسبه ذلك سموّا فوق كل فن ، وعلوّا فوق كل جلال وجمال »

وإذن فمن الطبيعى أن يكون للإسلام فى كل وطن من أوطانه مشاعر خاصة يجدها منه كل وطن ، وأن يكون لكل مجتمع من مجتمعات المسلمين مفهوم خاص للإسلام ، وحساب خاص معه — إلى جانب المشاعر العامة والمفاهيم المشتركة التى يلتقون عندها جميعاً . . على اختلاف الأمم والمجتمعات .

الشمس مثلا . . حقيقة عليا . . وفن رفيع فى بهائها وجلالها . .

يرى الناس منها جميعاً شعاعاً مرسلا ، وضوءا هاديا ، . إنها الشمس ، وإن الناس منها فى حياة ، لو افتقدوها لا فتقدوا الحياة وشيكا !

ولكن ليست الشمس فى نظر الناس جميعاً على سمت واحد ، وليست مشاعرهم جميعاً نحوها على درجة واحدة . .

سكان خط الاستواء لهم شمسهم ، وسكان « التندورا » لهم شمسهم .. وفيما بين خط الاستواء والتندورا شموس تغرب وتشرق على كل شعب بوجه غير الوجه الذى تشرق وتغرب به على أى شعب آخر . .

إن سكان خط الاستواء مثلا يكاد شعورهم بالشمس يكون ميتاً هامداً ،

بينما يجد سكان التندورا لمطلعها هزة فرح ، ونشوة غبطة تملأ عليهم وجودهم ، وتملك سمعهم وأبصارهم . .

إنهم منها فى عيد يوم تطالعهم بوجهها المشرق الما ىء . والشمس فى الموطن الواحد . . ليست شمساً واحدة ، وليس على حال واحد . . هى فى الشتاء غيرها فى الصيف ، غيرها فى الربيع ، وغيرها فى الخريف . . فى البلاد التى تتميز فيها الفصول الأربعة تميزا واضحا . . إنها فى كل فصل تلبس ثوبا جديدا ، وتثير فى الناس مشاعر جديدة . .

والشمس هى الشمس فى جميع أحوالها . . إنها فى فلكها العتيد ، لا تتحول ولا تتبدل ، وإنما الذى يتبدل ويتحول هم الناس ، حسب أوطانهم وأحوالهم . .

كذلك الدين : هو هو فى حقيقته الرفيعة العليا . . ولكن منازل الناس تختلف بالنسبة إليه .. فمنهم من يصحب الدين صحبة سكان خط الاستواء للشمس ، ومنهم يصحبه صحبة سكان التندورا لها .

ليس الدين إذن حقيقة رياضية ، أو نظرية هندسية .. لا يختلف الناس عليها ، ولا تتبدل مشاعرهم نحوها بعد أن تصبح من الحقائق المقررة والنظريات الثابتة.. بل إن الدين — كما قلنا — فن جميل.. يأخذ أرفع منزلة فى الفنون الجميلة الرفيعة..

والناس إذ يقفون من الفنون الجميلة الرفيعة موقف الإعجاب والتبهر والدّهش ، فإنهم يختلفون أشد الاختلاف فى إحساسهم بها وتذوقهم لها ..

وحقائق الإسلام تحمل من آيات الجلال والروعة ما يملأ قلوب الناس جميعاً جلالا وروعة ، ولكنّ لكل إنسان بعد هذا مشاعره وأحاسيسه ، وعواطفه التى لا يكاد يشاركه فيها أحد !

فالذين يريدون أن يجعلوا الإسلام حقيقة علمية حتى لا يقع عليها اختلاف بين الناس باختلاف بيئاتهم وأوطانهم ، وحتى يتسع الإسلام بهذا للإنسانية كلها، فيكون ديناً عالمياً ، وبذلك تتحقق دعواه التى يدّعيها بأنه دين الحياة ، ودين الناس جميعا — إن هؤلاء خرجوا بالدين عن طبيعته ، ولو استجاب لهم

— وهيهات — لكان شيئا من أشياء الحياة الميتة، ولاستحال رماداً من أول يوم يولد فيه على تلك الصفة العلمية .

ولكى تدرك هذا . . ضع بين يديك هاتين الحقيقتين :

حقيقة علمية تقول: أى ضلع فى المثلث أصغر من مجموع الضلعين الآخرين..»
لقد كانت هذه النظرية فتحاً من فتوحات العلم يوم ظهورها . حتى إذا استقر بها المقام فى الحياة ، بردت ، وماتت ، ولم يكن لها مجال فى تفكير الناس ، حتى فى أذهان طلبة العلم الذين يواجهونها لأول مرة . . لاتبيت معهم أكثر من ليلة أو نحوها . . ثم لاتكون شيئاً إذا التقوا بها بعد أن عرفوها لأول مرة.

وحقيقة فنية علياتقول: «ولاتَستَوى الحسَنَةُ ولا السَّيئَة ؛ ادفعْ بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة ، كأنه ولىٌّ حميم»[1] إنك إذ تلتقى بها لأول مرة يبهرك جمالها ، وحلالها ، وتجد لها فى كيانك دبيبا أشبه بدبيب العافية بعد السقم ، والرىّ بعد الظمأ ، ثم إنك تلقاها حالا بعد حال ، وزمناً بعد زمن . فإذا هى تطالعك فى كل حال ، وفى كل زمان ، بوجه أجمل جمالا ، وأبهى حسناً عما طالعتك به من قبل . .فهكذا شأن الفنون الجميلة الرفيعة ، فما بالك بآيات الله . . رب العالمين .

لقد كان بوسع الذين نحوْا بالدين هذا المنحى ليجعلوه دينا عالميا ؛ أن يبلغوا غايتهم من ذلك إلى أبعد مدى يريدون . وذلك بكشف حقيقة الدين الإسلامى بالذات على هذا النحو الذى نرى فيه الدين فناً رفيعا عالياً . لاحقائق علمية مقررة مجردة . .

ونفرض جدلا أن الدين الإسلامى مجرد حقائق علمية ، وأن هذه الحقائق قد أصبحت فى عقول الناس جميعاً فى جميع الأمم والشعوب ، شأنها شأن مسألة رياضية ، أو نظرية هندسية .

نفرض هذا ، ونفرض أنه صار حقيقة واقعة .

ونسأل :

---

(١) سورة فصلت آية ٣٤

أين هى هذه الرابطة التى تربط الناس بهذا الدين ؟ وهل أقامت الحقائق العلمية يوما رابطة بين الجماعة الإنسانية ؟ وهل تكون رابطة بغير مشاعر وعواطف ؟ إن ذلك محال ..

أين التعاطف ، والتوادّ ، والتراحم ، والحب الذى تُشِيعه الحقائق العلمية بين إنسان وإنسان ، بَلْهَ بين الناس والناس جميعا ؟

إن القول بأن الدين لا وطن له كلمة ظالمة للدين ، لا تمثل حقيقته ؛ ولا تَبِينُ عن مفهومه ؛ إذا فهمت على هذا الوجه الذى يجعل الدين حقيقة علمية ، لا تحمل من مشاعر الناس وعواطفهم شيئا . .

ولكنها تكون كلمة مفهومة مقبولة إذا فهمت على أن الدين يعيش فى كل وطن ويتعامل مع كل الأجناس والأمم . . كما تعيش الفنون الجميلة الرفيعة فى جميع الأوطان ؛ وتتعامل مع كل الأجناس والأمم . .

الموسيقى . . فن جميل رفيع . .

أى لحن موسيقى فى أية أمة يستطيع أن يجوب أقطار الأرض ، وأن يدخل إلى كل سمع ، وأن يتحدث إلى كل ذى عاطفة وشعور ، ثم هو مع هذا فيه طابع أمته ، وريح وطنه ، فهناك موسيقى شرقية وأخرى غربية ، وثالثة زنجية ، ورابعة غجرية . . وكل واحدة منها ذات طعوم وألوان متعددة بحسب أوطانها . . فالموسيقى الشرقية مثلا . . عربية ، وهندية ، وفارسية ، وتركية ، وصينية . . وهكذا . . لكل أمة أنغامها وألحانها . . وكذلك الموسيقى الغربية ، والزنجية ، والغجرية . . تتعدد بتعدد الأمم والأوطان . .

ومع ذلك ، فالموسيقى مع تعدد ألحانها وأنغامها فإن فيها جميعاً نفحة من الجمال ، تلتقى عندها مشاعر الناس جميعاً ، وتَهَشّ لها ، وتسعد بها ؛ وإن اختلفت فى ذلك آثارها فى مشاعر الناس أشد الاختلاف .

بهذا التشبيه — على بعد ما بين طرفيه من تفاوت بعيد — يمكن أن يفهم الإسلام ، ويمكن أن يملأ الحياة بأنغامه العلوية القدسية ، التى تخشع لها القلوب ،

وتسكن إليها النفوس ، دون أن يكون ذا نغم واحد ، ولحن واحد فى جميع الأوطان ، وعند جميع الناس ، بل هو أنغام ولحون . . فى أوطان الناس . . وطناً وطناً . . وفى أفراد الناس . . فردا فردا .

* * *

ومعذرة إذ نحن أطلنا وقوفنا هنا مع هذه الجزئية التى ساقنا إليها الحديث عن البحث فى الأسباب التى دعت إلى التفكير فى فصل الدين عن الدولة . . فإن هذا التفكير قد ألقى على « الخلافة » ظلا رهيباً مخيفا ، بل إنه تجاوز ذلك إلى حدّ أن جعل بين الدين والدنيا جفوة دائمة ، وقطيعة متصلة ، وأوقع من ذلك فى نفوس المسلمين حربا لا هوادة فيها بين الدين والدنيا . . فإذا أراد المسلم أن يلتقى بالدين أعلَنَ على الدنيا حربا شعواء ، وحسب أن أية مودة بينه وبين الدنيا خيانة لدينه ، وعدوان على مبادئه . . وإذا أراد أن يعيش فى الدنيا أو مع الدنيا : خُيِّل إليه أنه لن يستقيم له وجوده هنا إلا إذا عزل نفسه عن الدين ، ونفض قلبه من كل خالجة له فيه !!

فلنا العذر إذا نحن وقفنا هذه الوقفة عند تلك الفكرة الخاطئة، التى تجعل من الدين والدنيا حقيقتين متعاندتين أو متعاديتين . . الأمر الذى يضر — بل أضر فعلا — بالدين والدنيا جميعاً ، وأخلى يد المسلمين وقلوبهم من الدنيا والدين معا .

* * *

بقى هناك أمران ، نود أن نقف عندهما شيئاً ما قبل أن نترك مبحث « الخلافة » ، وهما :

هل المجتمع الإسلامى فى حاجة إلى « الخلافة » ؟

وإذا قامت « الخلافة » فعلى أى أسس تقوم ؟

وها نحن أولاء نجيب على هذين السؤالين . .

أولا :

هل المجتمع الإسلامى فى حاجة إلى الخلافة ؟

والخلافة التى نتحدث عنها هنا هى « الخلافة » كما نتصورها وكما صورناها من قبل ، وهى هذا الحكم الذى يقوم فى المجتمع الإسلامى ، على أساس دينى ودنيوى معاً . .

وأنا أعلم أن كثيراً من الناس سيلقَوْن هذا الرأى لقاء غير كريم ، يرجمونه بأفواههم « ويسلقونه بألسنتهم » ويجتمعون — على بعد ما بينهم من اختلاف فيه — لمحاربته والتشويش عليه .

فأولئك الذين يُعرَفون عند أنفسهم ، أو يعرفهم الناس بالتقدميين أو العصريين ، سيقولون : مالنا ولهذا الثوب البالى الذى عَفّى عليه الزمن ، نتزيّا به اليوم . ونخرج به على الناس عراة أو شبه عراة ؟

كيف ينظر العالم إلينا ؟ وماذا يقول عنا ؟ وهو يرانا فى تلك المرقّعات وفى هذه الخِرَق البالية ؟ . . « خلافة » ؟ و « خليفة » ؟ ما هذا ؟ وهل جاء يوم البعث ؟ وهل أخرجت الأرض أثقالها ؟

ثم ماذا وراء هذه « الخلافة » ؟ الدين ؟ وسدنة الدين ؟ وأصحاب الملابس الفضفاضة الضريحية ، والعمائم الضخمة من بيض ، وحمر ، وخضر ، وسود ؟

ما هذا « الكرنفال » الذى يراد لنا أن نغرق فيه ، وأن نمثل على مسرحه تلك الحياة الهزيلة ، التى يحياها الهازلون ، والمهرجون ؟

إن الحياة تخطو خطوات سريعة إلى الأمام ، ونحن نهوى إلى الوراء هُوِيّا بعيداً ، ونتخذ من أكفان الموتى أكفاناً لنا فى الحياة ؟

لا .. لا .. إن ذلك لن يكون أبداً .

إننا لم نجد وجودنا ، ولم نستشعر السلامة والعافية إلا حين تخفّفنا من هذه

الأثقال التي آدت ظهورنا ، وأثقلت خطوَنا ، وجعلتنا من مخلفات الحياة التي يطؤها الناس بالأقدام ؟

إن الدّين ما لبس أمة إلا ولبستها الذلة والمهانة والاستكانة . . وما خلعت أمة أسمال الدين ، وألقت به بعيداً عنها إلا خلعت الحياة عليها خلع القوة والعزّة والسيادة .. والسعادة .

هذه أوربا وأمريكا .. نَفضَت الدين عنها ، فملكت الأرض ، وكادت تبلغ السماء طولا ، وإنها لم تخرج من ظلام القرون الوسطى إلاّ حين تنبه فيها هذا الإحساس الذى باعد بينها وبين الدين .. ولو أنها ظلت على ولائها وخضوعها للدين وللكنيسة لما خرجت من ظلمات القرون الوسطى هذه ، ولتراكمت عليها ظلمات فوق ظلمات..

فما لنا وللدين إذن ؟ دعوا لنا حياتنا نحياها كما يحيا الناس .. ولا على مَن يريد الدين أن يَرِدَ موارده كيف شاء . ومتى شاء ، وأن يعبّ من صفوه وكدره ما يريد ..!!

إن الدين أمر شخصى . . شهوة من شهوات النفس ، أو نزعة من نزعات العقل ، أو نزغة من نزغات الشيطان . . أو وسوسة من وساوس الضمير . . وليس هناك ما يحجز الإنسان عن شهوات نفسه ، أو نزعات تفكيره ، أو نزغات شيطانه ، أو وساوس ضميره ، ما دام ذلك كله لا يمسّ أحداً غيره . . فللمرء أن يلبس من أثواب الدين مايشاء ، فى داخل حدوده الشخصية ، وكيانه الذاتى .. أما إذا خرج إلى الحياة ، وعاش فى الناس ، فينبغى أن يطرح هذه الأثواب جانباً ، وأن يلبس للحياة وللناس زىّ الدنيا الذى لا خيط من خيوط الدين فيه ..

هذا بعض ما يَلْقَى به هذا الرأىَ الداعىَ إلى «الخلافة» الإسلامية أولئك العصريون . أو المتعصرون .. فإنه لا أثقل على قلوبهم ، ولا أزكم لأنوفهم من الدّين ، وريح الدّين . .

وكذلك الدينيّون والمتدينون . .

لا يحمدون هذه الدعوة التى تدعو إلى التفكير فى « الخلافة » ، ولا يجدون فيها انتصاراً لجانب الدِّين الذى جارت عليه الدنيا ، وألجأته إلى الانسحاب فى زوايا الزوايا من بيوت الله .

ذلك أنهم يخشوْن على الدين إذا هو خرج من هذه الزوايا المتحصن بها ، والتقى بالحياة ، ودار مع الناس فى دنياهم ، شاهَ وجهه ، وتبدَّلت معالمه ، وضَمَر وجوده ، وهان على الناس شأنه ..

وخيرٌ للدين أن يظل محتفظاً بكيانه المضمر فى كتاب الله ، وفى سنة رسوله ، وفى قلوب المؤمنين به ، من أن ينزل إلى هــــذا المعترك الصاخب المائج فيتبدد ويضيع .!!

* * *

ونقول للدنيويين ، وللدينيين : مهلا .. مهلاً ..

لا تفزعنكم كلمة « الخلافة الإسلامية » هنا ..

فالإسلام — كما عرفتم — ليس عقيدة تعيش فى ضمير الإنسان .. وإنما هو عقيدة وشريعة .. تملأ ضمير الإنسان، وتعبىء مشاعره.وتحدد سلوكه فى الحياة ..

الإسلام « حياة » متكاملة .. تملأ وجود الإنسان كلّه ، وتحيط به .

وحيث يكون مسلمون، ويكون مجتمع إسلامى فإن الدين يملأ عليهم وجودهم، ويلقاهم حيث كانوا .. فى المسجد ، وفى المصنع ، وفى البيت ، وفى الحقل ، وفى السرّ ، وفى العلن .. ولن يستطيع « المسلم » فى أى حال من أحواله أن يعزل الإسلام عنه إلا إذا خلع نفسه منه جملة،وخرج خروجاً كاملا من هذا الدين .. وهنا لا حساب بين الإسلام وبينه ..

إن الإسلام ليس ثوباً يلبسه الإنسان فى حال ، ثم إذا شاء خلعه خلَعه يوماً أو بعض يوم ، كما يخلع ملابس نومه، ليرتدى الثوب الذى يخرج به إلى الناس .. ثم يعود فيلبس ثوب الإسلام من جديد كما يلبس ملابس النوم .. وكلا .. ثم كلا ..

الإسلام — كدين — ليس ثوباً ينزع ويلبس . وإنما هو روح قائم فى كيان الإنسان ، وحياة ممسكة بوجوده . .

فالذين ينكرون على الدين مقامه فى الحياة . إنما ينكرون أمراً واقعاً . والذين يحاولون أن يعزلوا أنفسهم عن الدين يحاولون محالاً !! وإن خرجوا على مقررات الدين ، واستباحوا حماه . . فإن أقلّ ما يبقى لديهم من الدين أنهم ينتسبون إليه ، ويحملون اسمه .. فيقولون : نحن مسلمون ، وهذا — على به من بعد عن حقيقة الدين . وما فيه من انخلاع روحى عنه — راية يستظل المسلم بظلها ، ويجتمع مع المسلمين عليها . وذلك من شأنه أن يشيع فى كيان هذا المسلم — الذى يحمل اسم الإسلام — عواطف إسلامية ، تقوى حيناً وتضعف حيناً حتى يدخل فى الإسلام ظاهراً وباطناً . أو ينفصل عنه ظاهراً وباطناً ، أو يموت تحت راية الإسلام،دون أن يشهد تحتها مشهداً من مشاهده ، أو يوماً من أيامه ..

شبهة وردُّها :

وقد يسأل سائل هنا : وأين الدين إذا لم يكن له فى نفس صاحبه حرمة ولا توقير ؟ وهل الدين مجرد اسم يطلقه المرء على نفسه ، ويعلقه على صدره ، كما تعلق الشارات المميزة لبعض أصحاب الوظائف والرتب ؟

ونقول ليس أمر الدين على هذه الصورة . . وإن صاحب الدين مهما بعد عنه ، ومهما فرط فى جنبه ، فإن ما بينه وبين الدين لا ينقطع أبداً وإن وهت حباله ، ورثّت عُقَده .

ومع هذا فالدين قول وعمل . . مظهر ومخبر .

والدين الإسلامى . . إسلام ، وإيمان .

والإسلام ، هو الشعار الظاهر الذى يتعارف به المسلمون ، ويدخل به المسلم فى مجتمع المسلمين . . فمن حمل هذا الشعار ، وقال : إنى من المسلمين ، فهو مسلم . .

ثم يبقى بعد ذلك « الإيمان » وهو ما يمكن أن يسمّى « الدين الشخصى » الذى يسكن كيانَ الإنسان ، ويدخل قلبه ، ويصاحب وجدانه .

فرق كبير بين الإسلام ، والإيمان . .

فهناك فى المسلمين من يعيش بالإسلام ، بلا إيمان . وكثير ما هم .

وهناك فى المسلمين من يعيش بالإسلام وبالايمان معاً . .وقليل ما هم .

ولهذا ، فرق الله سبحانه وتعالى بين الإسلام ، والإيمان، فى قوله جل شأنه: « قالت الأعراب آمنا . . قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم »[١] .

والمجتمع الإسلامى كله . . مجتمع مسلمٌ كله أيضاً . . مجتمع يدين بالإسلام ، وإن لم يكن كله مؤمناً . .

وإذ تقرر هذا ، ولا نظن أحداً من المسلمين — مجرد إسلام — أو المسلمين المؤمنين — يخالف فى هذا ، أو يدفعه . . بل نحسب أن أكثر من يحسبون فى الإسلام — مجرد مسلمين — لا يرضون أن ينزلوا هذه المنزلة ، ويأبون إلا أن يكونوا فى المسلمين المؤمنين !

نقول إذا تقرر هذا كان لنا أن نقول :

أولا : إنه لا عزلة بين الدين والدنيا فى المجتمع الإسلامى ، مهما بعد هذا المجتمع عن الدين .. وأن أقل ما يصحب هذا المجتمع — كما قلنا — هو الإسلام وإن لم يقارنه الإيمان عند جميع أفراد المجتمع المسلم .

ثانياً : الدنيويون مسلمون أيضاً ، وقد يكونون مؤمنين !

ثالثاً : الدينيون . . مسلمون طبعاً ، وقد لا يكونون مؤمنين !

رابعاً : الحكومة التى تحكم المجتمع الإسلامى ، وتقوم عليه من بين المسلمين — كبر هذا المجتمع أو صغر — هى حكومة إسلامية ، وقد تكون مؤمنة — وقد لا تكون !

---

(١) سورة الحجرات آية ١٤

وعلى هذا . .

فإن الحكم فى أى مجتمع « مسلم » هو حكم إسلامى ، أو هو « خلافة » إسلامية !

اعتراضان . وردهما :

ويبدو هنا اعتراضان :

الاعتراض الأول : يمكن أن يصور فى الصورة الآتية :

ماذا ينفع الإسلام أو المسلمين من هذا « الاسم » الذى لا حقيقة له ؟

إسلام ، ولا إيمان ؟ ماذا وراء هذا من خير ؟

وردنا على هذا الاعتراض : أن خيراً كثيراً يرجى من وراء هذا الاسم .

١ — أن أقل ما فيه أنه يحفظ وحدة المسلمين ، ويحدد مكانهم وأوطانهم فى الحياة .. إنه على الأقل ، « عَلَم » يعرف به المسلمون ، وراية يجتمعون عليها.

٢ — أن هذا الاسم يذكّر المسلمين دائماً بالإسلام ، ويوجه أبصارهم إليه ، ويفتح قلوب كثير منهم إلى حقائقه . .

وإنه لو كان المجتمع الإسلامى كله مجرد أفراد مسلمين — غير مؤمنين — لكان الدين فى صورته هذه ذا أثر بعيد فى توحيد المشاعر ، وربط القلوب .

إن فلسفة الأزياء ، وفلسفة الألوان تحدّث عن آثار قوية فى الحياة الإنسانية . فالزىّ الذى يتزيا به الإنسان . واللون الذى يؤثره فى حياته ، أو تفرضه عليه حياته ، كل ذلك ينفض عليه كثيراً من المشاعر والعواطف والأخلاقيات .

فكيف « بالإسلام » وإن يكن مجرداً من الإيمان ؟ إنه ليس مجرد ثوب أو مجرد لون ، بل هو حقيقة محملة بقوى حية ، تنطق بالعظات والزواجر .

ولعلنا نذكر هنا هذا الأسلوب النبوى الرائع من أساليب التربية والهداية فيما لقى به — صلوات الله وسلامه عليه — وفد ثقيف ، وقد جاءوا ليدخلوا

فى الإسلام ، ولكنهم اشترطوا ألا يجاهدوا فى سبيل الله ، وألا يؤدوا الزكاة .. هكذا يدخلون الإسلام بشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله !! وقد قبل النبى الكريم منهم هذا . ورأى صلوات الله وسلامه عليه — عجباً ، ودهشاً ، وحيرة ، فى وجوه أصحابه . . فقال صلى الله عليه وسلم : « سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا » .

فكيف والمجتمع الإسلامى يضم أعداداً كثيرة ، وكثيرة جداً من المسلمين المؤمنين ؟ وهذا جدير به أن يجعل الإسلام ليس مجرد اسم يحمله المجتمع ، بل يكون اسماً وحقيقة معاً .

٣ — لو فقد الدين « الإسلامى » هذا الاسم . . ماذا يكون ؟ ومن يدل عليه ، ومن يعرف أهله ؟ وكيف يتوارث المسلمون ، وكيف يتزوجون ؟

إن هناك حقائق كثيرة للإسلام لا تظهر إلا مجتمع فى إسلامى ، وفى قوم مسلمين . .

إنه لا بد أن يكون للإسلام مجتمع ، ووطن ، حتى يكون لهذا الدين مأوى يأوى إليه الناس ، وراية يجتمعون عليها .

إنه لو فقد الدين « الإسلامى » هذا الاسم لصار دعوة من تلك الدعوات السرية « كالماسونية » ونحوها . . لا يعرف لها وجه ولا وطن .

وقد لحظت الشعوب الإسلامية هذا الأثر القوى الذى تعمله كلمة « الإسلام » فى حياتها ، فتمسكت بها ، وجعلتها شعاراً لها ودثاراً . .

وقد استجابت « الحكومات » فى كثير من الشعوب الإسلامية لهذا الشعور فنصت دساتيرها على أن دولتها « دولة إسلامية » . . وكانت مصر أشد هذه الشعوب تمسكا بهذا الاسم ، وأكثرها وفاءاً له . فكان كل دستور من دساتيرها يحمل هذه المادة « الدين الرسمى للدولة هو الإسلام » .

وقد حرص ميثاق إعلان الوحدة بين الجمهورية العربية المتحدة ، وسورية

والعراق [1] على تأكيد هذه الحقيقة ، وإبرازها ، فنص على « أن دين الدولة الإسلام » . .

وهذا يعنى أن الحكومة حكومة إسلامية « أو خلافة إسلامية » على الوجه الذى قررناه .

الاعتراض الثانى :

أما الاعتراض الثانى الذى يقوم فى وجه القول بأن الحكم فى أى مجتمع مسلم هو حكم إسلامى — وخلافة إسلامية — فهو يمكن أن يصوّر فى هذا السؤال أو الأسئلة :

إن كلمة « خلافة » تعنى أن يقوم الحكم الإسلامى ، على النظام الفردى ، وأن يدين المجتمع الإسلامى كله لحاكم واحد هو الخليفة . .

فهل يمكن أن يقع هذا وقد تعددت أوطان الإسلام وقام على رأس كل وطن حاكم أو ملك ؟ وهل يرضى الحكام والملوك أن يعطوا الولاء لهذا الحاكم ، وأن ينزلوا له عما فى أيديهم طائعين ؟

وهل إذا رضى الحكام والملوك ترضى الأوطان ذاتها ، ولا تأخذها العزة لأوطانها وأجناسها ؟

ونحن ندفع هذا كله بما يأتى :

أولا : أن الصورة التى قام عليها الحكم الإسلامى فى الصدر الأول للإسلام ليس شريعة من شرائع الدين ، وإنما هو نظام رآه المسلمون قادراً على القيام بحاجات الحياة التى يحيونها . . وللمسلمين فى أى مجتمع ، وفى أى عصر أن يقيموا حكومتهم الإسلامية على الوجه الذى يرونه مناسباً لأحوالهم وأزمانهم . .

فإنه كما عدّل المسلمون وبدّلوا فى أنظمة الحكم الإسلامى الأول . .

---

(١) أعلن هذا الميثاق فى القاهرة فى ١٧ أبريل سنة ١٩٦٣ .

فى الأنظمة المالية ، والعسكرية ، والإدارية .. وغيرها حسب حاجات الحياة — إنه لا حرج عليهم أن يغيروا ويبدلوا ما شاءوا فى صورة « الحكومة » أو « الخلافة » .

ثانياً : الحكم الفردى ليس من طبيعة الروح الإسلامية ، إذ الإسلام يدعو المسلمين إلى التشاور فيما يعرض لهم فى الحياة . . والخلفاء الراشدون وإن كانوا فى مقام التفرد بالحكم والسلطة ، فقد كان أمرهم شورى بينهم وبين المسلمين، كما نطق بذلك القرآن الكريم .

وعلى هذا فإن الحكم « الجمهورى » الذى يعتمد على مبدأ الشورى ، ويقوم عليه ، هو أقرب صور الحكم إلى روح الإسلام .

يقول « محمد إقبال » :

« ونظام الحكم الجمهورى لا يتفق مع روح الإسلام فحسب ، بل لقد أصبح كذلك ضرورة من الضرورات ، نظراً للقوى الجديدة التى انطلقت من عقالها فى العالم الاسلامى » [1]

ثالثاً : إن تعدد أوطان المسلمين لا يحول دون قيام وحدة إسلامية بينهم . فالمشاعر الدينية التى بين أبناء الدين أقوى من أية رابطة تربط الإنسان بالإنسان . من وطن ، أو لغة ، أو دم . . إذ الدين روح يسرى فى كيان الإنسان ، وهو بهذا المعنى صلة بين الأرواح ، تتخطى السدود ، والحدود ، ولا تحمل الإنسان على أن يقطع علائق الصلات بين أبناء وطنه ، أو لغته ، أو جنسه .

إننا نرى فى الحياة أمماً مختلفة ، وأجناساً متباينة ، وأوطاناً متباعدة تعيش فى نظام واحد من الأنظمة الاقتصادية أو السياسية . . كالشيوعية مثلا . . وهى فى هذا النظام تنتظمها مشاعر توحد بينها ، على تباعد الأوطان ؛ وتباين

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص ١٨١

الأجناس ، واختلاف الأمم ؛ دون أن تتزل أمة عن مشاعرها لوطنها ، أو لغتها ، أو جنسها .

« والإسلام ليس قومية ، ولا فتحاً ، ولا استعماراً ، وإنما هو رابطة أمم تسلّم بما بينها من حدود صناعية ؛ وتشعر بما بينها من فوارق جنسية ، قُصد بها التعارف على كل شعب[1] ، لا تقييد الأفق الاجتماعى لأعضاء هذه الرابطة[2] » .

وفى الإسلام شعائر عملية من شأنها أن تخلق فى المجتمع الإسلامى عادات موحدة ؛ كالطهارة ؛ والوضوء وأعمال الصلاة فى أوقات محددة ، خمس مرات فى اليوم ، والاتجاه إلى قبلة واحدة — وهذه العادات من شأنها أن تقارب بين المجتمعات الإسلامية ، وأن تكون وسيلة من وسائل التفاهم المضمر بينها . .

« فالإسلام فى طبيعته دين غير إقليمى ؛ وغايته أن يقيم للإنسانية كلها مثالا للألفة والانسجام ؛ باجتذاب معتنقيه المنتسبين إلى أجناس متباينة ، ثم تحويل هذه المجموعة الذرية إلى أمة لها شعورها بذاتها ؛ وكيانها الخاص . .

« ولم يكن تحقيق هذا عملا سهلا ، ولكن الإسلام ، بما له من نظم رُسمت على خير وجه — وفق إلى حد كبير جداً ، إلى خلق ما يشبه إرادة عامة ، وضميراً جماعياً فى هذه الأوفاض من الأجناس ، « بل إن ثبات العرف الذى ليس له خطر اجتماعى — كالعرف المتعلق بالأكل والشرب والطهارة والنجاسة — يكون له فى تطور مجتمع كهذا قيمة حيوية خاصة ، من حيث أن من شأنه أن يجعل للمجتمع حياة نفسية مميزة له ، فلك إلى أن يكفل لأفراده الانسجام والوحدة فى الظاهر والباطن ، الأمر الذى من شأنه أن يقاوم عوامل الفرقة وعدم الانسجام ، التى تكمن دائماً فى الجماعات المؤلفة من أمم وشعوب مختلفة .

« فينبغى على من يتصدّى لنقد هذه النظم أن يسعى قبل أن يضطلع بمعالجتها إلى فهم مرامى هذه التجربة الاجتماعية التى ينطوى عليها الإسلام فهماً

---

(١) وفى هذا يتحقق معنى قوله تعالى : « وجعلنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .
(٢) تجديد التفكير الدينى الإسلامى ص ١٨٣

واضحاً سليما . . عليه أن ينظر إليها لا من حيث مالها من منافع بالنسبة لقوم أو مضار لغيرهم ، ولكن من حيث قصدها الأكبر الذى يسرى شيئاً فشيئاً فى الحياة الإنسانية عامة »[1] .

مرة أخرى نقول : إن تعدد أوطان المجتمع الإسلامى لا يقف حائلا دون الوحدة الإسلامية التى دعا إليها الإسلام ، وشرّع لها ، ورسم المنهج العملى الذى يقيمها فى نفوس المسلمين جميعاً . . فمن كان فى الجماعة الاسلامية ، ولبس ثوب الاسلام ظاهراً ، أو ظاهراً وباطناً ، فإنه بهذا الثوب — على أى لونيْه — يجد نفسه واحداً من آحاد هذا المجتمع ، وعضواً من أعضاء هذا الجسد الكبير .

ومهما يكن بين الحكومات الإسلامية من صلات طيبة أو غير طيبة ؛ فإن ما بين المسلمين فى جميع أوطان الإسلام من توادٍّ ، وتعاطف ، وتناصر قائم أبدا ؛ ماأقام الإسلام فى هذه الأوطان .

رابعاً : هل يمكن أن يجتمع المسلمون على حكومة إسلامية موحدة ؟

إن فكرة الحكومة الإسلامية التى تجمع العالم الاسلامى تحت رايتها أمل يملأ صدور المسلمين ويملك مشاعرهم . . فالأخوة الإسلامية لها حنينها ، ولها أشواقها ، وليس يروى ظمأ هذا الحنين ، ويطفىء وقدة الشوق مثل هذا اللقاء المادى الذى يجتمع فيه الأخوة فى كيان واحد ؛ فى دولة واحدة ، تحت علم واحد ؛ ودستور واحد .

إن الذى يشهد موسم الحج ؛ ويشارك المسلمين فى أداء هذه الفريضة ، يرى جماعات المسلمين قد صاروا أمة واحدة على اختلاف الألسنة ؛ والألوان ، والأوطان ؛ والأجناس . فمن كل أمة ؛ ومن كل جنس ؛ ومن كل لغة ؛ ومن كل بلد من بلاد العالم قد جاء المسلمون إلى البيت الحرام ، فما وجد واحد منهم غربة ، ولا أحس وحشة ، ولا ذكر شيئاً من لونه أو جنسه ، أو وطنه ، بل ولا لغته ؛

---

(١) انظر تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص ١٩٢

فإن الكلمات القليلة التى يحسن المسلم الأوربى ، أو الأمريكى ، أو الزنجى ، أو الصنى ، أوالروسى النطق بها من اللغة العربية كافية هناك فى نقل أنبل المشاعر الأخوية وأصفاها بين المسلم والمسلم . .

إن كلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » تكفى وحدها فى أن يتعارف المسلمون ، وأن يلتقوا جميعاً بعواطفهم وعقولهم عند دعوة الإسلام، وماتحمل إلى الناس من مودة ، وإخاء .

يكفى أن يلقى المسلمُ المسلمَ بأية كلمة من الكلمات الإسلامية ، فيدخل بها إلى قلبه ، ويسكن إلى نفسه ، وإذا تجاوب القلوب ، وتجاذب النفوس ، يغنيان عن اللسان ، والبيان ؛

هذه الصورة المصغرة التى يشهدها المرء من التلاحم والتقارب بين المسلمين فى الحج قد أطمعت كثيرا من مفكرى المسلمين أن يعملوا على إقامة وحدة عامة بين أمم الإسلام ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولم يعملوا حسابهم لهذه الفوارق الكثيرة التى بين وحداتهم المختلفة ، لأن شيئا من هذه الفوارق لم يبدُ له أثر حين تلاقى المسلمون واشتركوا فى مناسك الحج .

والحق أن هذه الفوارق الكثيرة التى بين المجتمعات الإسلامية : وإن ذابت فى حرارة اللقاء بين الحجيج ، ليس من اليسير التغلب عليها فى مواطنها ، حيث تحيط بالإنسان فى وطنه منازع كثيرة ، تدعوه إلى الولاء للوطن ، أو للجنس ، أو للغة ..

إذن فهناك عوائق كثيرة تقف أمام الوحدة الإسلامية ، وليس من الممكن أن تتم هذه الوحدة إلا إذا تغلب المسلمون على تلك العوائق ، وأزاحوها من طريقهم إلى الغاية المنشودة ، وإلى الوحدة الشاملة .

ماذا يقف فى طريق الوحدة الإسلامية ؟

لا بد من التعرف على هذه المعوّقات التى تقف فى طريق الوحدة الإسلامية حتى نعرف طبيعتها ، والقوى الكامنة فيها ، والعناصر التى تخلقت منها . . لا بد من هذا ، حتى نعمل على معالجتها بالوسائل الممكنة ، التى تتلاءم مع كل حالة منها ..

١ - القومية :

وأول ما يصادفنا هذه المعوقات القائمة فى طريق الوحدة الإسلامية هو التعصب « للقومية » فنحن حين ننظر فى المصور الجغرافى للعالم الإسلامى نجده يضم عديداً من القوميات المختلفة . . فهناك عرب ، وترك ، وباكستانيون ، وأندونيسيون ، وهناك فارسيون ، وأفغانيون ، وسنغاليون ، وصوماليون . .

هذا إلى جانب قوميات أخرى تمثل أقليات فى أوطانها كمسلمى الروس ، والصين ، وألبانيا ، ويوغوسلافيا وغيرها . .

هذه الأجناس المتعددة تعيش فى أوطان متباعدة ، وإن كانت جميعها تضم صدرها على الاسلام ، وتمنحه ولاءها الخالص المكين . . ولكنها تضم صدرها كذلك على قوميتها ، وتمنحها ولاءها وحبها . فنحن هنا أمام مجموعات من من المسلمين . . يجمعهم الولاء للدين ، ويفرقهم الولاء لأوطانهم وقومياتهم . .

فكيف تقوم وحدة إسلامية بين هذه الجماعات المتفقة المختلفة ، والمتقاربة المتباعدة ؟ ونسأل قبل الإجابة على هذا السؤال :

أولا : هل هناك تعارض بين الولاء للقومية والولاء للعقيدة ؟

وثانيا : وإذا كان هذا التعارض قائما ألا يمكن قيام تصالح بينهما ؟

ونجيب على هذه الأسئلة أولا . .

١ - هل هناك تعارض بين الولاء للدين والولاء للقومية ؟

إن الإسلام ، وإن دعا إلى الأخوة العامة الشاملة بين المسلمين ، وإلى ترك العصبيات التى تمزق وحدة الجماعة ، وتميت الإحساس بالأخوة ، فليس ذلك معناه أنه جعل الناس جميعاً فى قالب واحد ، وسمت واحد ، حتى لكأنهم نتاج مصنع تتشابه وحداته تشابهاً كاملا فى كل شىء ، فلا تكون لواحدة منها صفة تعرف بها من غيرها . .

وكلا . . فإن الإسلام قد احتفظ لكل فرد من أفراد الإنسانية بذاتيته ، وشخصيته التي فيها لا يشابهه أحد ، ولا يشابه هو أحد فيها .. فكل فرد عالَم قائم بذاته .. كما يقول الله تعالى : « ومن آياته خلْق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم[1] » ، وليس الأمر مقصورا على اختلاف الألسنة والألوان بين الناس . . فذلك هو الظاهر المشاهد . . ولكن هناك اختلاف كبير بين الناس في كيانهم الداخلي . . من إدراك ، وإحساس ، ووجدان . . إلى كثير غير ذلك من وجوه الاختلاف بين أفراد الناس . . فردا فردا . .

كذلك الناس في أجناسهم وقومياتهم . . هم جسد كبير له ذاتيته وشخصيته المميزة له . . كل قوم غير القوم الآخرين . . في ملامحهم الخارجية ، وفيما انطوى عليه وجودهم الداخلي ، من قوى عقلية وروحية ، ونفسية .

وفي هذا يقول الله تعالى : « يا أيها الناس . . إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . . وجعلناكم شعوبا ، وقبائل لتعارفوا[2] » فكما في كل إنسان علامات ظاهرة وباطنة مميزة له ، ومشخصة لشخصيته ، كذلك لكل قوم خصائص ظاهرة وباطنة مميزة لهم ، ومشخصة لوجودهم ، لا يشبهون أحدا ، ولا يشبههم أحد .

وكما يخاطب الإسلام الإنسان كفرد ، ويوجه إليه أوامره ونواهيه كذلك يخاطب الجماعة في قوميتها ، وجنسها ، فيوجه إليها أوامره ونواهيه : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخرْ قومٌ منْ قومٍ . . عسى أن يكون خيراً منهم » . . .

وعلى هذا نستطيع أن نقول إنه لا تعارض بين الولاء للدين والولاء القومية .. كما أنه لا تعارض بين ولاء المرء لنفسه . وولائه للجماعة التي يعيش فيها . .

فيستطيع المسلم أن يسع في قلبه الولاءين معاً . . الولاء للمسلمين جميعاً ، في كل موطن من مواطن الإسلام ، والولاء لوطنه ولأبناء جنسه ! . . فكما يمنح المرء حبه لأبنائه وذوى قرابته ، ولا يمنعه ذلك من أن يجد في قلبه متسعاً لحب أبناء وطنه ، بل لحب الناس جميعاً ! . . كذلك يستطيع أن يمنح ولاءه ، وحبه لبني جنسه ، ولا يمنعه ذلك من أن يمنح ولاءه وحبه للمسلمين جميعاً . .

(١) سورة الروم آية ٢٢ (٢) سورة الحجرات آية ١٣

وفى الحق إن الولاء الذى يمنحه الإنسان لقومه وبنى جنسه هو جزء من الولاء العام للمسلمين فإذا أعطى المرء ولاءه حبه للمسلمين عامة ، فإنه يكون قد أعطى — ضمنا — ولاءه لبنى جلسه ، وهم مسلمون أيضاً . .

وإذن فلا تعارض بين الولاء للدين والولاء للقومية .

٢ — إذا كان هذا التعارض قائما فهل يمكن التصالح بينهما ؟

إن الذى يعيش فى مبادىء الإسلام ، ويستقيم على شريعته لا يجد فى القومية ، والتعصب لها صدى قويا يزاحم الولاء للدين وللمسلمين .. فهو مسلم فى جماعة المسلمين كلها ، ومواطن فى أوطان المسلمين جميعها . . ولكن ضعف العقيدة الدينية فى النفوس قد يتيح للنوازع الأخرى فى نفس الإنسان أن تتسع وتتضخم حتى تجلى الدين عن مكانه منها ، وتزيله عن موضعه فيها ، فيحيا الإنسان على نوازعه من غير أن يكون للدين أثر فى سلوكه . . وهنا تظهر فى الناس نزعات التعصب ، وتستعلن فيهم دوافع التعالى والتفاخر بالأحساب والأنساب . وهنا تبرز حكمة الإسلام فى دعوته إلى التخفف من هذه النوازع ، وتلك الدوافع . فينزل الناس على حكم الأخوة التى يجمعهم إليها أصلهم الذى جاءوا منه . . «إنا خلقناكم من ذكر وأنثى» . . «كلكم لآدم،وآدم من تراب . .» « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . . .

فالتعارض الذى يقوم فى كيان الأفراد أو الجماعات بين الولاء للدين والولاء للقومية هو أمر عارض ، نشأ من ضعف الشعور الدينى ، ومن فتور الإحساس بالدين ، إحساساً واعياً صادقاً . . يقوم على مفهوم صحيح للدين ، وليس على مظاهر كاذبة . . لا تغنى من الحق شيئا . .

ولقد شهد المجتمع الإسلامى ألوانا صارخة من التعصب للقومية ، جار فيها المتعصبون جورا بالغاً على الإسلام،وعلى دعوته الكريمة إلى الإخاء الإسلامى.. الإنسانى .

وواجب الحق يقتضينا أن نقرر أن الإسلام قد حقق دعوته إلى الإخاء الإنسانى تحقيقا يكاد يكون كاملا فى الصدر الأول للإسلام ، وأن الفوارق التى كانت تعزل الناس قد ذهبت وزالت آثارها من العقول والقلوب . . وأخذ الناس منازلهم فى الإسلام لا بأحسابهم ، ولا بأنسابهم ، وإنما بالتقوى ، وصالح الأعمال : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وواجب الحق يقتضينا أيضا أن نقرر أن المسلمين لم يستقيموا على هذا الهدى هذه الاستقامة بعد عصر الراشدين .. فإنه سرعان ما هبت ريح التعصب ، وتمايزت القبائل .. فكانت عدنان وقحطان .. ثم كان العدنانيون قبائل وعشائر ، وكان القحطانيون قبائل وعشائر أيضا . . ثم كانت إلى جانب عصبيات القبائل عصبيات الأوطان . . فأهل الشام عصبة واحدة يجتمعون إلى معاوية وخلفائه ، وأهل العراق عصبة واحدة يجتمعون إلى على وشيعته . .

ثم أطلت من وراء ذلك كله عصبية العرب على العجم . . عصبية الفاتح الغالب ، على المهزوم المغلوب . . فنظرت الدولة الأموية إلى العرب نظرة غير نظرتها إلى المسلمين الفرس والروم .

وأخذ المسلمون من الفرس والروم وغيرهم من غير العرب يضعون للعرب مثالب تقابل تلك المفاخر التى حاول الشعراء والقصاص أن يبرزوها فى شعرهم وقصصهم مصوّرة أمجاد الأمة العربية فى جاهليتها ، وكأنهم يقولون للأمم المغلوبة ذات الحضارة والسيادة : إننا أمة عريقة فى المجد والحضارة ، وإن يكن الإسلام قد زادها مجدا وفخرا . . وما أن أتقن المسلمون من الفرس والروم اللغة العربية ، واستقامت ألسنتهم عليها ، وقويت ملكاتهم فيها حتى نبغ منهم الشعراء ، فاتخذوا من الشعر العربى أداة للدفاع والهجوم معاً . . فكانوا يصورون مثالب العرب من جهة ، ويفخرون بأصولهم من جهة أخرى . . فكان أبو نواس — على لهوه ومجونه — حامل الراية فى هذه الحركة ، ومعه كثير من الشعراء المتعرّبين كبشار ، ومهيار ، وابن الرومى ، وغيرهم . . ويكفى أن

نلتقط بيتاً من هنا أو هناك ليكشف لنا مدلوله عن تلك النفسية التى قيل فى جوها :

يقول أبو نواس متهكما على تلك « اللازمة » التى عرفت فى الشعر العربى ، وهى الوقوف على الأطلال وبكاء الأحباب :

يقول :

لاتبْكِ هنْداً ولاتطْربْ إلى دعْد واشربْ على الورد من حمراء كالورد

ويقول :

صفة الطلول بلاغة الفَــدْمِ فاجعلْ صفاتِك لابنة الكرم

ويقول متهكماً بالحياة فى البادية ، وبخشونة العيش فيها ، واعتمادها على « الحليب » ، وما كان يؤخذ منه :

إذا راب الحليب فبُــلْ عليه ولا تأثم ، فما ذاك حوب

ومهيار « الديلمى » يقول بملء فيه ، ويصك أسماع العرب :

وجَدِّيَ كسرى على إيوانه أين فى الناس أب مثل أبى ؟

قد جمعت المجد من أطرافه سؤددَ الفرس ، ودين العرب

فهذه « الشعوبية » التى تجمعت فى وجه العرب كانت فى الواقع رد فعل لما كان من العرب ، ومحاولة استئثارهم بالمكان الأول فى المجتمع الإسلامى . والذى كان العصر الأموى محققاً له فى هذا الجانب ، على حين كان العصر العباسى — وقد كان الفرس أكبر قوة له — مهيئاً للشعوبية فرصتها فى أن تكيل بالكيل الذى كيل لها به من قبل .

ثم لا تقف المسألة عند هذا الحد .. بل لقد عاود الفرس حنين إلى دولتهم التى ذهبت ، والتى أصبح الإسلام دينها وشريعتها ، واللغة العربية لسانها .. فلم يعد أحدٌ منهم يذكر عن لغة آبائه وأجداده شيئاً ..

ولو استطاع الفرس — فى حمية هذه العصبية — أن يتركوا الإسلام

الذى حمله العرب إليهم ، بلسان عربىّ مبين — لو استطاعوا أن يتركوا الإسلام إذ ذاك لتركوه ، حتى لايكون للعرب عليهم أى فضل . . ولكن الدين كان قد ملك قلوبهم ، وملأ مشاعرهم ، واستولى على وجودهم ، فلم يكن فى وسعهم — والأمر كذلك — أن ينخلعوا من الدين ، ولهذا فإنهم أخذوا يعدون أنفسهم لتجربة جديدة ، وهى ترك اللسان العربى ، والعودة إلى اللسان الفارسى ، بعد أن تعطل ، وعلاه الصدأ .. وكانت التجربة قاسية ، لأنها تهدم وتبنى فى آن معاً .. تهدم لغة ، وتقيم لغة . .

وقد كان السلطان « محمود بن سبكتكين » الغزنوى » — أول حاكم فارسى اجتمع له نفوذ وسلطان ، وقامت فى يده دولة — كان أول من دعا إلى إحياء اللغة الفارسية فدعا « الفردوسى » وكان ممن لا يزالون يحسنون الفارسية — دعاه إلى البدء بهذه التجربة . فنظم له « الشاهنامة » على نظام الشعر العربى فى أوزانه وقوافيه[1] .. كما أنها اتخذت الخط العربى أداة لها .. ومن ذلك اليوم أخذ الفرس ينسلخون شيئاً فشيئاً من اللغة العربية ، حتى استقام لهم لسانهم الفارسى ، فانسلخوا عن اللغة العربية جملة !

وقد شعر المتنبى بهذه الغربة والوحشة ، فى هذا الزمن المبكر فى مواطن الاسلام وهو يدخل أرض الفرس فيقول :

غريب الوجه واليد ، واللسان

ثم جاء دور الأتراك بعد هذا ، وكان قد ضعف شأن العرب . والفرس معاً .. وهم أمة ناشئة . تحمل فى كيانها عناصر الشباب ، فاستخفوا بالعرب ، وجعلوا للترك المقام الأول فى المجتمع الإسلامى الذى خضع معظمه لسلطانهم . فلما انتقلت الخلافة الإسلامية إليهم واجتمعت فى أيديهم القوة الروحية إلى

---

(١) تعتبر الشاهنامة أروع وأخلد الأدب الفارسى . وهى ملحمة تبلغ عدة أبياتها ستين ألف بيت . وعدد كلماتها أربعمائة ألف كلمة ، . وفيها أخبار ملوك الفرس وأحوالهم من بدء التاريخ إلى الفتح العربى .

جانب القوة المادية تأكدت فى نفوسهم مشاعر السيادة والاستعلاء . حتى لقد عدوا الدم التركى إذا جرى فى عرق إنسان اكتسب به مجداً ، واكتسى به عزاً ..

. وانتهى الأمر بالأتراك إلى أن تجسّدت هذه المشاعر السوداء فى كيانهم ، فكانت سياط عذاب تلهب الأمة العربية بصفة خاصة . إذ كانوا يرون فى العرب القوة الكامنة فى المجتمع الإسلامى ، التى يخشى منها على « الخلافة » التى فى أيديهم . وإذ كانوا هم أول من أخذ « الخلافة » من العرب . وأخرجوها منهم ، فهم لهذا يعيشون فى وسواس دائم من هذا الخاطر الذى يلقى فى روعهم أن العرب لن يسلموا لهم أبداً « بالخلافة » ..

وكان هذا الصراع الخفىّ والظاهر بين الترك والعرب مما عجّل بسقوط الخلافة التركية أو العثمانية . وتبديد الملك الشاسع الذى كان فى يدها . فانفراط عقد الدول التى كانت تحت سلطانها ، وتبدد شملها .

من هذا نرى أن العصبية « للجنس » والتعصب للقومية قد كان لهما دور كبير فى تمزيق الوحدة الإسلامية ، وفى توهين عرى المودة والإخاء بين المسلمين ،

ونسأل بعد هذا :

إذا قدر للمسلمين أن تقوم فيهم حكومة إسلامية واحدة ، فهل يعيد التاريخ — البعيد والقريب — سيرته فى جماعات المسلمين ، فتفرقهم « الخلافة » بدل أن تجمعهم وتوحد بينهم ؟ أم أن المسلمين قد أفادوا من تجارب الماضى ، ومن تلقيات الحاضر . . وأن دوافع الوحدة بينهم اليوم أقوى منها فى أى وقت مضى . . فإلى جانب الشعور الدينى الذى يهتف بهذه الوحدة ، يقوم داع آخر يدعو إليها بقوة . . وهو داعى السياسة .. فإن دواعى السياسة فى هذا العصر قد دعت إلى التقرب بين الأمم فى صورة أحلاف ، وإن لم يكن بينها رابطة قرابة من قومية أو دين . . وإنما المصلحة وحدها هى التى تجمع هذه الأمم إلى بعضها ، وتؤلف بين أشتاتها . .

والمسلمون فى عددهم ، وفى مساحة الأرض التى يعيشون عليها . وفى الموارد

الطبيعية ، والمواقع « الاستراتيجية » التى يملكونها .. كل هذا يجعل من وحدتهم قوة هائلة ، يعمل لها حسابها فى المجال الدولى ، فلا يطمع فيها طامع ، ولا تحدّث أحد نفسه بأن يطأ شبرا من أرضها

وإن أقل ما يضمنه المسلمون فى هذه الوحدة هو سلامة أوطانهم ، وكفالة أمنهم وسلامتهم .

ولكن لنا أن نسأل أيضا :

إذا سَلِمَ المسلمون فى ظل الوحدة الإسلامية ، من العدوان الخارجى فهل يسلمون من عدوان بعضهم على بعض .

أو بمعنى أصرح : ما الضمان الذى يحجز عدوان « الحاكم » العام للمسلمين وتسلطه عليهم ؟ مستعينا فى ذلك بأبناء قومه الذين لا شك أنهم واجدون فى سلطان « الحاكم » الذى هو منهم شعورا بالعزة والسيادة ، وإن ظلّ هذا الشعور مكبوتا زمنا ، فإنه لا بد أن ينضج ، ويعلن عن نفسه يوما ما .. فمن يضمن للمسلمين — إذا اتحدوا — أن تقوم فى داخل كيانهم نزعات قومية . وعصبيات للأهل والوطن ؟

هذه هى المشكلة ..

وليس حلها بالأمر العسير ..

إن الحل الوحيد لها — ولا حل غيره — هو أن تقوى مشاعر الدين فى الجماعات الإسلامية ، حتى تنكسر فى النفوس حدة الإحساس بالمشاعر القومية وحتى يخفت صوتها ، فلا يحس به أحد .

أذلك ممكن أن يكون ؟

ندع الجواب عليه الآن إلى حين .. فإن لنا مع الدين وقفة أخرى . بعد قليل ..

ب : اللغة :

وننظر الآن إلى اختلاف اللغة كعامل من عوامل التعويق للوحدة الإسلامية المنشودة .. إذ لا شك أن اختلاف الألسنة حاجز يحجز الناس بعضهم عن بعض ، وعلى هذا فإنه حين يلتقى المسلم بالمسلم وليس لهما لسان واحد يتفاهمان به ، ينعزل أحدهما عن الآخر انعزالا يكاد يكون تاماً .. لأن اللسان هو ترجمان الأفكار . والعواطف ، التى بدونها لا يجتمع إنسان إلى إنسان .

وهذا حق .. فإن المجتمعات الإسلامية يتكلم أهلها بعدة ألسنة ، ويعيشون فى عديد من اللغات .. وهذا من شأنه أن يجعل من الأمة الإسلامية أمما ، تتعدد بعدد لغاتها، وتختلف مشاعرها ووجداناتها .. فإن اللغة — فى حقيقتها — ليست مجرد أداة للتفاهم وحسب ، وإنما هى وجود كامل للمجتمع الذى يتعامل بها ويعيش فيها .. إنها عقل المجتمع ، ، وقلبه .. إنها المرآة التى يتجلى فيها النشاط الإنسانى كله .. العقلى ، والروحى ، والنفسى .. بل والسلوكى أيضا .. فما من عمل يعمله الإنسان إلا "صب" فى قالب لغوى ، فيصبح كلمات تجرى على الألسنة ومعاملة يتعامل بها الناس .. أخذاً وعطاء . .

وعلى هذا ، فاختلاف الألسنة فى الأوطان الإسلامية يستتبعه حتما اختلاف فى مناحى التفكير ، وفى أسلوب الحياة ، بل وفى مفهوم الدين ، وفى تصور حقائقه ، وفى الافادة منها .

إن اللغة كوسيلة للتفاهم يمكن الاستغناء عنها فى هذا المجال ، ويمكن التماس وسيلة — ولو مع شىء من العسر — تؤدى إلى هذا التفاهم على أية صورة .

ولكن اللغة — كما قلنا — وجود كامل تتجسد فيها ماديات الإنسان ومعنوياته . . أفكاره ، ووجداناته ، وآماله ، وأحلامه ، وذكرياته . . ثم هى ميراث الآباء ، والأجداد ، وتراث يحمل مخلفات الآباء والأجداد ، من ماديات حياتهم ومعنوياتها جميعاً . .

وليس من اليسير أن ينزل المرء عن هذه المعانى كلها ، وأن ينخلع عنها ويخلعها كما يخلع الثوب الخلق .

وماذا يبقى للإنسان إذا هو تعرّى عن أفكاره ، ووجداناته وآماله ، وذكرياته ، وتاريخ آبائه وأجداده ؟

إن الأمر — كما ترى — أعقد من ذنب الضب — كما يقولون . .

وهنا يطل علينا التاريخ بهذا السؤال : كيف استطاع الإسلام فى أيامه الأولى أن يحلّ هذه العقدة أو تلك العقد ، فيضع على ألسنة الناس لغة غير لغتهم كما وضع فى قلوبهم ديناً غير دينهم ؟ وكيف سوغ للناس أن يُسلِموا للإسلام ألسنتهم كما أسلموا له لغتهم .. والإسلام هو الإسلام ، والمسلمون هم المسلمون ؟ كيف غزت اللغة العربية الألسنة على هذا النحو الذى غزا به الإسلام العقول والقلوب ؟

والإجابة على هذه الأسئلة تحتاج إلى وقفة طويلة نستعرض فيها سير الدعوة الإسلامية وصحبة اللغة العربية لها ، من أول يوم خرج فيه الإسلام من الجزيرة العربية ، ليلتقى بالناس من كل جنس ، ومن كل ملة . . فى مشارق الأرض ومغاربها .. ثم ماجدّ بعد ذلك من أحداث عوقت سير اللغة ، أو ردتها على أعقابها . . إنه تاريخ طويل ، وأحداث متعددة متشابكة لا يسمح لنا المجال هنا باستعراض هذا التاريخ ، وتحليل تلك الأحداث . .

ومع هذا ، فإنه لابد من الإشارة إلى تلك العلاقة الوثيقة التى بين اللغة العربية وبين الاسلام — الأمر الذى جعل من الدعوة الاسلامية ، دعوة للغة العربية نفسها . .

ذلك أن اللغة العربية كانت هى اللسان الذى نطق بهذا الدين ، وصور تشريعاته وأحكامه . .

وقد يكون هذا الأمر غير ذى بال فى التمكين للغة العربية . وحمل من يدخل فى الإسلام على تعلمها . . ولكنه مع ذلك داعية من دواعى الإحساس بها ، والدنو منها ، لمن يريد أن يأخذ حظه كاملا من الدين ، إذ يتلو كلام الله باللغة التى نزل بها ، وإذ يسمع حديث الرسول باللسان الذى تحدث به . .

غير أن شأن اللغه العربية مع الإسلام أعظم من هذا الشأن ، وأبعد أثراً.. إذ ليست اللغة العربية مجرد أداة لنقل التشريعات والأحكام التى حملتها شريعة الإسلام ، ولكنها اللغة التى فيها « معجزة » الرسول الكبرى ، والتى حملت «الإعجاز » الذى تحدّى به الرسول الناس جميعاً . بل والجن معهم . . أن يأتوا بمثل هذا القرآن . . فى أسلوب عربى مبين .

فاللغة العربية من هذا الوجه هى الشاهد القائم أبد الدهر على معجزة الرسول الخالدة . . ولو نقل القرآن إلى أية لغة أخرى لذهب هذا الشاهد . ولسقطت حجة إعجازه . .

لهذا كانت اللغة العربية بعض هذا الدين ، وإحدى صفحتى وجه الإسلام لا يُرَى الإسلام فى بهائه وجلاله وروعته إلا وهو فى حلته تلك ، التى خلعها عليه ، وألبسها إياه المشرّع الأعظم . . سبحانه . . جل وعلا . .

ولهذا أيضاً حرص المسلمون من أول يومهم فى الاتصال بالأمم الداخلة فى الإسلام على أنه يدخل الدين إلى القلوب باللسان الذى نزل به ، وصور فيه . .

كتب عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى ، وهو قائده فى فتح الشام ، وحاكمه بعد الفتح : « أما بعد . . فتفقهوا فى السنة ، وتفقهوا فى العربية . . وأعربوا القرآن ، فإنه عربى »[1]

ويقول ابن تيمية : « ولهذا كان المسلمون المتقدمون لما سكنوا أرض الشام ، ومصر ، ولغة أهلها رومية . . وأرض العراق وخراسان ، ولغة أهلهما فارسية .. وأهل المغرب ، ولغة أهلها بربرية — عوّدوا أهل هذه البلاد العربية، حتى غلبت على أهل هذه الأمصار : مسلمهم وكافرهم . .

«وهكذا كانت خراسان قديماً — أى أنها استقامت على اللسان العربى — ثم إنهم تساهلوا فى أمر اللغة ، واعتادوا الخطاب بالفارسية حتى غلبت عليهم ،

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم . . لابن تيمية ص ٢٠٧

وصارت العربية مهجورة عند كثير منهم . . ولا ريب أن هذا مكروه — ديناً »[١] .

وقد أشرنا من قبل إلى تلك الأسباب التى دعت إلى عودة أهل خراسان — الفرس — إلى لسانهم الذى فارقوه ، بعد أن استشرت العصبية بينهم وبين العرب ؛ ففارقوا لغة العرب ، ولم يفارقوا دينهم .

ويقول ابن تيمية أيضاً :

« واعلم أن اعتياد اللغة يؤثر فى العقل ، والخلق والدين ، تأثيراً قوياً ، بيناً ، ويؤثر أيضاً فى مشابهته صدر هذه الأمة من الصحابة والتابعين .. ومشابهتهم تزيد العقل ، والدين ، والخلق . . »

ثم يقول :

« وأيضاً ، فإن نفس اللغة العربية من الدين ، ومعرفتها فرض واجب . . فإن فهم الكتاب والسنة فرض ، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية . . وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب »[٢] .

ويقول ابن تيمية فى موضع آخر : « . . . فإن اللسان العربى شعار الإسلام وأهله ، واللغات من أعظم شعائر الأمم التى بها يتميزون »[٣]

ويروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « تعلموا العربية ، فإنها من دينكم ، وتعلموا الفرائض ، فإنها من دينكم »[٤]

فاللغة العربية — كما ترى — عنصر قوى من عناصر الإسلام ، وركيزة من ركائزه ، يقوم بها ، ويستند إليها . .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ص ٢٠٦
(٢) » » » » » » ٢٠٧
(٣) » » » » » » ٢٠٣
(٤) » » » » » » ٢٠٧

« الوحدة العربية ، والوحدة الإسلامية »

هناك إذن الدين واللغة . . هما اللذان يعملان فى كيان المجتمع الإسلامى ، ويقيمان وجوده .. فإنه بغير الإسلام لا يكون المرء مسلماً ، ولا تكون الجماعة جماعة إسلامية .. وإنه بالاسلام وبغير اللغة العربية يكون المرء مسلماً ، وتكون الجماعة جماعة إسلامية ، ولكن الإسلام هنا يكون روحاً بلا جسد ، ومشاعر بلا كيان .. كما عرفنا من أن اللغة العربية بعض الدين ، وصفحة من أحد وجهيه . وأن هذا الدين لا يستقر فى كيان الإنسان استقراراً متمكناً إلا إذا دخل إلى العقل والقلب باللغة التى نزل بها كتاب الشريعة ، ونطق بها صاحب الرسالة . .

ولكن واقع العالم الإسلامى يبدو لنا وكأنه عالمان :

عالم دينه الاسلام ، ولسانه العربية . .

وعالم دينه الإسلام ، ولسانه ألسنة مختلفة ، ليس بينها اللسان العربى

والذى يسأل عنه هنا هو :

هل تقوم الدولة الإسلامية التى ندعو إليها — على اساس الدين وحده ، مع صرف النظر عن اللغة ؟

أم أنها تقوم على أساس الدين واللغة معاً . . ؟

ونضع هذين السؤالين موضع النظر والبحث . . كل على حدة :

هل تقوم الدولة الإسلامية على أساس الدين وحده ؟

الدعوة إلى قيام الدولة الإسلامية على أساس الدين وحده دون نظر إلى عامل اللغة ، واختلاف الألسنة بين جماعات المسلمين — هذه الدعوة قد كانت ولا تزال تدور فى عقول كثير من المسلمين ، وتجول فى خواطرهم ، وتجرى على ألسنتهم فيما يقولون ، وما يكتبون . .

وكثير منهم على هذا أنهم يقولون : إن الدين الإسلامى دين عالمى . . لا تقف دونه حواجز مادية أو معنوية . . إنه أكبر وأقوى من أن يقف وراء هذه الحواجز . . من اختلاف الأجناس ، والأوطان ، والألسنة .

إن الاسلام قد غزا قلوب الناس بمبادئه وأحكامه ، قبل أن يغزو ألسنتهم ، أو يغيّر لغتهم ، فآمنوا به دون أن يعرفوا بلاغة آياته ، وأسرار إعجازه القرآنى . .

بل وأكثر من هذا . فإن الغالبية العظمى ممن أصبحت العربية لهم لسانا لايتذوقون جمال القرآن ذلك التذوق الفنىّ ، الذى يدركون به سرّ الإعجاز ودلائله . .

فالإسلام — كدين — هو مبادىء ، وأحكام . . هو عقيدة وشريعة . . تؤدّى فى أى لغة ، وتحمَل فى أى أسلوب . .

وهم يقولون — نعم . . إن للغة العربية مكانها من الدين الإسلامى . . فنحن لاننكر هذا ، ولكننا لا نرى أن التدين بهذا الدين موقوف على تعلم اللغة العربية ، وتذوق آدابها ، وفنون بلاغتها . .

هذه نظرة بعض ذوى الرأى من المسلمين الداعين إلى الوحدة الإسلامية ، دون نظر إلى اللغة ، وتلك حجتهم على هذه الدعوة .

وهناك كثير من الداعين إلى تلك الوحدة لم يحاولوا أن يخفوا حقيقة ما فى عواطفهم من مشاعر تكلمه «الإسلام» وحماته ، . . . فالمسلم أخو المسلم حيث كان . . والأخوة الإسلامية أخوة مطلقة غير مشروطة بشرط الجنس ، أو الوطن . أو اللغة .

هذا ، وقد قامت الخلافة العثمانية — قبل سقوطها — بدور كبير فى الدعوة لهذا الرأى ، والدعاية له بكل وسيلة ممكنة . . وغير ممكنة . وذلك لأن لسانها ليس اللسان العربى ، كما أن أوطان المسلمين التى كانت تحت سلطانها لا تحس التركية ، ولا تتعامل بها . .

ولهذا دخل على كثير من زعماء المسلمين وقادتهم هذا الشعور تحت ضغط هذه الظروف المادية والمعنوية بسطتها يد الخلافة العثمانية — على المسلمين .

فالزعيم أحمد عرابى مثلا ، وقد كانت ثورته ثورة على الحكم التركى — نراه ملتق بهذا التصريح . فى كتاب بعث به إلى الأستاذ «جورجى زيدان» . . يقول :

« لم يخطر ببالي أصلا الاقتداء بالفاتحين والمتغلبين كما ذكرتم ، ولا تأليف دولة عربية ، كما أرجف المرجفون ، لأني أرى ذلك ضياعا للإسلام عن بكرة أبيه ، وخروجا عن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله »[1]

ولا نستطيع أن نجزم بحقيقة نوايا عرابي هنا . . وهل كان هذا الرأي هو رأيه فعلا ، الذي ينطوي عليه قلبه . . أم أن هذا أسلوب من أساليب السياسة ، دعاه إليه الحال ، وأملته عليه الظروف ؟ . . ليس ببعيد هذا ، أو ذاك .

فقد يكون عرابي مع كراهيته للحكم التركي — حريصا — في الوقت نفسه على الخلافة ! . لأنها — على ما بها من اختلال وفساد ، مظهر من مظاهر الوحدة الإسلامية ، ثم هي أيضا ميراث عزيز على المسلمين أن يبددوه ، ويفرطوا فيه ، بسبب تلك العوارض التي تعرض لهم ، وتوقع الشحناء ، والبغضاء بينهم .

وقد يكون ما بنفس عرابي غير كل هذا . . أو عكس كل هذا . . فقد يكون في ثورته داعية إلى تحرير مصر من يد الأتراك ، ثم تحرير الوطن العربي كله . . ليقيم من ذلك دولة عربية . . تكون « الخلافة » في يدها . . لأن الخلافة قد ظلت عربية منذ قامت ، إلى أن انتزعها الأتراك من يد العرب . .

ربما يكون هذا . أو ذاك .

جمال الدين الأفغاني . . والوحدة الإسلامية :

والمعروف عن جمال الدين الأفغاني أنه داعية من أكبر دعاة المسلمين في العصر الحديث إلى الوحدة الإسلامية .. ولهذا نراه يطوّف في أوطان المسلمين، وينتقل بينها كما ينتقل المرء من بلدة إلى بلدة في وطنه . .

وقد حمل « الأفغاني » دعوته الإصلاحية إلى مواطن الإسلام كلها ، فما نزل موطنا من هذه المواطن إلا أذّن فيه: «أن حيّ على الفلاح» .. وقد كان لآرائه

---

(١) نقلا من كتاب : « المجتمع العربي والقومية العربية » للدكتور مصطفى أبو زيد فهمي ص ٧٣ وقد أثبت جورجي زيدان هذا الخطاب في كتابه « مشاهير الشرق »

التى غرسها فى كل مكان حل به آثار طيبة فى إيقاظ المشاعر الإنسانية الكريمة التى أراد الإسلام أن يقيم عليها أتباعه .. من الحرية والعزة : والكرامة .

فلا عجب إذن أن يكون الأفغانى رائدَ الحركة الداعية إلى « الوحدة » الإسلامية فى هذا العصر ..

وقد كان قلم « الأفغانى » كما كان لسانه ترجمانا لهذه الرسالة التى آمن بها وعمل لها ، واحتمل فى سبيلها ما احتمل من اضطهاد ، ونفى ، وإزعاج عن مواطن الطمأنينة والاستقرار . بل إنه — على مايقال — سُقِىَ السم،ومات به من أجلها .

وقد كانت مجلة « العروة الوثقى » التى أنشأها الأفغانى ، وأصدرها فى باريس سنة ١٨٨٤ واشترك معه فى تحريرها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده — كانت هذه «المجلة» على رغم عمرها[1] القصير قذائف مزلزلة مدمرة للدسائس ، والمؤامرات التى كان يدبرها أعداء الإسلام للإسلام ، ويبغون بها تمزيق المشاعر الأخوية التى تربط المسلمين بعضهم ببعض .

يقول « الأفغانى » فى بعض مقالاته فى « العروة الوثقى » تحت عنوان : انحطاط المسلمين وسكوتهم .. وسبب ذلك » :

«إن للمسلمين شدّة فى دينهم ، وقوة فى إيمانهم ، وثباتاً على يقينهم ، يباهون به من عداهم من الملل ، وإن فى عقيدتهم أوثق الأسباب بالارتباط بعضهم ببعض .

« وما رسخ فى نفوسهم أن الإيمان بالله ، وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم — كفالة لسعادة الدارين .. ومن حُرِم الإيمان فقد حُرِمَ السعادتين ..

« ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشدّ مما يشفقون عليه من الموت والفناء ..!

---

(١) صدر العدد الأول منها فى جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ . الموافق ٨ مارس سنة ١٨٨٤ م . ولم يصدر منها إلا ثمانية عشر عددا ، ثم انقطع صدورها ، وتوقفت نهائيا بسبب محاربة الإنجليز لها .. وكان آخر عدد صدر منها فى ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ .

« وهذه الحال كما هى فى علمائهم .. متمكنة فى عامتهم » ..

ثم يقول :

« المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل فى ولايتهم من البلدان .. وكلهم مأمورون بذلك ، لا فرق بين قريبهم وبعيدهم ، ولا بين المتحدين فى الجنس ، ولا المختلفين فيه ..

« وهو فرض عين على كل واحد منهم ، إن لم يقم قوم بالحماية عن حوزتهم كان على الجميع أعظم الآثام ...

« المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه : يذكره بما تطالبه به الشريعة ، وما يفرض عليه الإيمان .. وهو هاتف الحق الذى يفىء إليه من إلهامات دينه[1] ... »

هذا هو الشعور الذى يقع فى نفس كل مسلم نحو جماعة المسلمين على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ولغاتهم ، كما يراه « الأفغانى » واقعاً فى الحياة ، ودعوةً من دعوات الإسلام .

وهو بهذا الفهم لدعوة الإسلام إلى الأخوة ، واستجابة المسلمين لها على بعد ما بينهم ، يجهد جهده لينبّه الغافلين ، ويوقظ النائمين ، ويدعو كل فرد أن يتحرّى مكان هذا الإحساس فى كيانه ، وأن يضع يده عليه .. إن كان حريصاً على دينه ، مستجيباً لدعوته .

ويتحدث « الافغانى » فى موضع آخر عن تلك الرابطة الأخوية بين المسلمين تحت عنوان : « الجنسية والديانة الإسلامية » فيكشف عن رابطة الجنس ، ويذهب إلى أنها ليست رابطة طبيعية ، ولكنها من الملكات العارضة .. ويضرب لذلك مثلا من الواقع ، وما نراه فى حال طفل ولد فى أمة من الأمم ، ثم نقل قبل التمييز إلى أرض أمة أخرى ، وربّى فيها إلى أن عقل ، ولم يُذكر له مولده ، فإنا لا نرى فى طبعه ميلا إليه ، بل يكون خالى الذهن من قِبَله ، ويكون مع سائر الأقطار سواء .. بل ربما كان آلفَ لمرباه ، وأميل إليه .. والطبيعى

(١) العروة الوثقى والثورة التحريرية الكبرى ص ٣٠

لا يتغير ، ولو كانت رابطة الجنس طبيعية . ما تغيرت بتغيّر المَسْرِق . .

ثم يتحدث عن رابطة الدين ، ويقرر أنها رابطة طبيعية . . لا تعتدو عليها تقلبات الأحوال والأزمان .. ثم يقول : « وهذا هو السّر فى إعراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ، ورفضهم أى نوع من أنواع العصبيات: ماعدا عصبيتهم الإسلامية .. فإن المتدين بالدين الإسلامى متى رسخ فيه اعتقاده يلهو عن جنسه ، وشعبه ، ويلتفت عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة ، وهى علاقة المعتقد ...

ثم يقول .. « هذا ما أرشدنا إليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم إلى الآن . لا يعتدّون برابطة الشعوب ، وعصبيات الأجناس ، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين .. لهذا ترى العربى لاينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندى يذعن لرياسة الأفغانى ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ، ولا انقباض !.. وإن المسلم فى تبدل حكوماته لايأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها ، وانتقالها من قبيل إلى قبيل ، مادام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ، ذاهباً مذاهبها ! [1] »

ومع هذا الإيمان العميق الذى ينبعث من صدر « الأفغانى » بالأخوة الإسلامية .. وبالوحدة الجامعة للمسلمين فى ظل الإسلام — مع هذا الإيمان العميق فإن « الأفغانى » يرى أن تلك الوحدة التى يحرص على قيامها لن تكون ذات أثر واضح فى حياة المسلمين ، ولن تعطى ثمراً نافعاً إلا إذا تخلصت أوطان الإسلام مما هى فيه من ضعف ، وتأخر مادى ، وعقلى ، ونفسى ..

إن الوحدة التى تقوم بين هذه الأوطان الضعيفة ، التى ركبها الجهل والفقر ، لاتنقذ هذه الأوطان من هذه الأدواء المتسلطة عليها . بل ربما زادت البلاءَ بلاءَ . وألقت إلى الدواء داء . .

ولهذا فقد حمل الأفغانى مع دعوته إلى الوحدة الإسلامية دعوة أخرى

---

(١) العروة الوثقى ، و ثورة التحريرية الكبرى ص ١٠

يبذرها فى كل وطن يحلّ فيه ، وهى أن يلتفت أبناء هذا الوطن إلى مشكلاتهم الخاصة ، وأن يعملوا على التخلص منها — وأن يذكروا فيما يذكرون وطنهم ، وقومهم ، وتاريخهم . . فهذا كله مما يشدّ العزائم ، ويقوّى الهمم فى العمل لهذه الغاية . .

وذلك أن «الأفغانى» لايخشى استصحاب الناس لعواطف الوطن، والجنس، والتاريخ ، والتزود بها فى معركة الإصلاح الداخلى ، أو دفع العدو الخارجى — لا يخشى من شىء من ذلك أن يجور على العاطفة الدينية . . لأنها عاطفة أصيلة متمكنة، لايزحزحها شىء ، وإنها حين تُذكر فى أى مجال تتصاغر لها كل عاطفة، ويستخزى لها كل شعور . .

الكواكبى والوحدة الإسلامية :

ثم جاءت بعد « الأفغانى » دعوات أخرى تدعو إلى تلك الوحدة الإسلامية العامة الشاملة بين مختلف الأوطان الإسلامية .

وقد كان « الكواكبى » ، وهو من تلاميذ الأفغانى ممن اقتفى أثر أستاذه فى هذا ، وحمل الراية من بعده . .

ففى كتابه «أم القرى» — وهو اسم « مكة » كما سمّاها به القرآن الكريم — فى هذا الكتاب يتصور الكواكبى مؤتمراً إسلامياً جامعاً انعقد فى مكة فى موسم الحج ، وقد شهده كثير من وجوه المسلمين وعلمائهم من مختلف الأجناس . . ثم يدير الكواكبى الحديث فى هذا المؤتمر على ألسنة هؤلاء الوجوه من ذوى المكانة والرأى فى المسلمين ، ويجرى على ألسنتهم ما تنطوى عليه صدورهم من مشاعر الإخاء والمودة بينهم ، وما تعلق به آمالهم من قيام وحدة إسلامية عامة، يلتقون عندها ، ويتنغسون فى جوها . .

وواضح أن حُلم «الكواكبى» هذا لم يتحقق ، ولا زالت هناك كثير من الأحلام لم يظهر تأويلها . . ولعل المؤتمر الإسلامى القائم فى مصر الآن يكون أصدق هذه الأحلام، فتحقق به أمنية عزيزة على الإسلام والمسلمين جميعاً .

ثانياً : الوحدة على أساس الدين واللغة معاً :

الدعوة إلى قيام وحدة إسلامية على أساس الدين واللغة أقرب إلى التحقق من الدعوة إلى تلك الوحدة التى تقوم على الدين وحده ، والتى كانت موضوع بحثنا فيما سبق .

وذلك :

أولا : أن وحدة الدين ، ووحدة اللغة . . كل منهما — على حدة — عامل أصيل من عوامل الترابط بين الجنسيات المختلفة، والأوطان المختلفة . فإذا اجتمع أحدهما إلى الآخر كان ذلك مدعاة إلى توثيق تلك الروابط ، وإحكام شدّها . . فإذا ضعف عند بعض الناس الشعور الدينى سانده الشعور اللغوى ، والعكس صحيح كذلك !

وثانياً أن اللغة العربية — كما قلنا — لها وزنها ، وحسابها مع الدين الإسلامى فهى بعض الدين ، وهى لسانه ، وترجمانه ، ومنطق إعجازه .

وثالثاً : أوطان العرب .. أوطان متقاربة ، متصلة ، أشبه بالوطن الواحد . وتاريخها تاريخ واحد ، والأحداث التى جرت عليها قد توزعت فى أقطارها ، وأخذ كل قطر نصيبه منها . . من غارات المغول والتتار ، ومن الحروب الصليبية ، ومن الاستعمار الأوروبى .. فقد كانت أوطان العرب مسرحاً واحداً لهذه الأحداث .

هذه العوامل مجتمعة فى الأوطان العربية من وحدة الدين ، واللغة ، والتحام الأوطان ، والتاريخ المشترك ، هـذه العوامل من شأنها أن تجعـل وحدة هذه الأوطان حقيقة واقعة ، لا حلماً ينتظر تأويله .

الاعتراضات القائمة فى وجه هذه الوحدة :

وإذا كانت هذه الوحدة واضحة الإمكان . . تقوم من بين يديها ومن خلفها كل الأسباب الداعية إليها ، بل والموجبة لها — فإن هناك من يثير فى وجهها

بعض المخاوف ، ويلقى فى قلوب المؤمنين بها بعض الشكوك والريب ، حتى يفتر حماسهم لها ، ويبرد شوقهم إليها . . وذلك بما يفتح للناس من مباحث تشرف بهم على خلافات جنسية ، ومذهبية ، وطائفية . . من شأنها أن تخلق فى الأفكار بلبلة ، وتثير فيها اضطراباً . .

وأكثر ما يدور على ألسنة أولئك الذين يعارضون هذه الوحدة العربية الإسلامية ، ويجرون أقلامهم فى مجال الكتابة فيه — أمران :

أولهما : أن الإسلام ليس وحده هو الذى يدين به جميع المواطنين فى الوطن العربى ، بل إن هناك ديانات اخرى — كالمسيحية ، واليهودية — يدين بها أعداد غير قليلة من الذين يعيشون فى هذا الوطن الكبير . ثم إن الذين يدينون بالإسلام فى أوطان العروبة ليسوا على طريق سواء فيه ، فهناك سنيون ، وشيعيون ، ودروز . . وكل طائفة من هذه الطوائف الثلاث منقسمة على نفسها ، ومختلفة فيما بينها . فالقول بوجود الوحدة الدينية فى الوطن العربى قول لا يتفق والواقع .

وثانياً : أن « العربية » التى يتصف بها المواطنون فى هذه الأوطان ليست وحدها هى الجنسية التى يرجع إليها جميع المواطنون . . وإنما هناك إلى جانبها « قوميات » أخرى لا تزال قائمة محتفظة بجنسيتها كالأكراد ، والأرمن . . كما أن هناك جنسيات مندسة فى كيان كثير من أبناء تلك الأوطان . . كالبربرية فى المغرب ، والفرعونية فى مصر ، والفينيقية فى الشام . .

فالقول بأن الأوطان العربية ذات جنسية واحدة قول لا يمثل الحقيقة أيضاً .

تلك هى أبرز ما يحاول دعاة الانعزالية فى الوطن العربى الكبير أن يثيروه من اعتراضات ، على قيام الوحدة الإسلامية العربية بين أوطان العروبة .

ولا بأس بعد أن التقينا بهذه الاعتراضات أن نعرضها فى مجال النظر والتمحيص ، لنعرف ما فيها من حق أو باطل ..

اولا : الإسلام والديانات الأخرى فى الوطن العربى

لا ينكر أحد أن الوطن العربى يدين بالإسلام، وأن هذا الدين هو العقيدة، الغالبة فى جميع أرجاء هذا الوطن .

كذلك لا ينكر أحد وجود متدينين فى بقاع مختلفة من أجزاء هذا الوطن يدينون بغير الإسلام من المسيحيين واليهود .

وإذا كان الإسلام هو دين الغالبية العظمى فى الوطن العربى ، فإن من طبيعة الامور أن يأخذ أبناء هذا الوطن جنسيتهم من هذا الدين كما تأخذ أوطانهم جنسيتها منه أيضا . .

فيقال أمة إسلامية ، وبلاد إسلامية ، وشعب مسلم . . وليس فى شىء من هذا كله افتيات على الأقلية التى تدين بغير الإسلام ، ولا اعتداء على حقها ، ولا إهدار لدينها الذى تدين به . .

إن « الأغلبية » لها وضع معترف به فى الحياة السياسية الديمقراطية . فى النظام الدولى العام، فحيث تكون أغلبية فى أى مجال من مجالات الحياة ، وحيث يكون احتكاك بين أكثرية وأقلية ، فإن القانون يعطى الأكثرية الحق فى أن تكون لها الكلمة العليا ، وأن تنزل الأقلية عند حكمها . .

هذا ما يقع فى معترك الحياة ، وفى مجال الرأى والسياسة . . فكيف لا يسلّم به فى مجال العقيدة ، وهى أكثر من رأى . . إنها رأى بلغ من العقل منطقة الإيمان ، ومن القلب موضع اليقين ؟ ؟

والإسلام — كما قلنا — ليس عقيدة شخصية ينطوى عليها كيان الإنسان ، وإنما هو مع هذا مبادىء وأحكام يعتقدها المسلم . ويتعامل فى الحياة بها .

فالذى يدخل فى عقل المسلم وفى قلبه من تعاليم الإسلام ، هو آراء محررة من شوائب الباطل: مصفّاة من عناصر الزيف — آراء علوية ، سماوية ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ، ولا من خلفها . .

وهذا من شأنه أن يربط بين قلوب الجماعة الإسلامية وبين عقولها ، حيث يتلاقون جميعاً عند هذه الآراء ، ويعيشون فيها .

فالأكثرية الإسلامية التى تتمثل فى سكان الأوطان العربية تعطيهم الحق كاملاً فى أن يجعلوا الإسلام الدين الرسمى لهذه الأوطان ، وأن يجعلوا شريعة الإسلام دستورهم الذى يعيشون فيه ، ويتعاملون به . . ولن يكون فى هذا اعتداء على وجود الأقليات التى لا تدين بالاسلام ، ولا جور على حقوقها . لأن الإسلام فى سماحته لا يضيق بمخالفيه ما لم يكيدوا له ، أو يفتنوا أهله . . والله سبحانه وتعالى يقول : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدّين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحبّ المقسطين[1] » .

أما الخلافات المذهبية ، أو الطائفية التى بين المسلمين فى هذه الأوطان فهى لا تخرج عن أن تكون واحدة من إحدى اثنتين من صور الخلاف :

أولاهما : أن تكون خلافات ناجمةً عن اجتهاد فى فهم النصوص من من الكتاب والسنة ، واستنباط الأحكام منها ، مراداً فى ذلك كلّه التماس الحق ، والوصول إلى أقرب الوجوه احتمالا لمراد الشارع ..

ومثل هذا الاختلاف لا يثير عداوة ، ولا يبعث فرقة ، بل إنه اختلاف محمود ؛ تبرز فيه شخصية المسلم ؛ وينضج به عقله ؛ وتتضح على شراراته معالم الحق . وذلك كالخلاف الواقع بين المذاهب الأربعة ؛ والخلاف الحادث بين بعض فرق الشيعة ، وبين أهل السنة فى بعض الفروع . . دون الأصول . .

فالجميع هنا مسلمون ؛ يسكن فى ضميرهم دين واحد ؛ وتعمر قلوبهم شريعة واحدة . .

---

(١) سورة الممتحنة آية ٨

وثانيتهما : أن تكون تلك الخلافات متولدة عن أهواء ، يراد بها الانتصار لمبدأ سياسى ، أو تحقيق غاية شخصية . أو كيد للإسلام ، وإفساد للعقيدة . .

وهذه الخلافات لا تحسَب على الإسلام ، ولا يحسب المتمذهبون بها فى المسلمين ، وبهذا يكون شأنهم فى المجتمع الإسلامى ، وفى الأوطان الإسلامية شأن الأقليات التى تدين بغير الإسلام .

* * *

إن أمر المسلمين واحد . . وأصول الإسلام لا خلاف بينهم عليها . . فمن استقام عليها وآمن بها فهو مسلم له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ، وإن كان له رأيه ، وله فهمه فى فروع الشريعة ، فيما لم يرد فيه نص قاطع ، لا يحتمل تأويلا .. فلكل مسلم هنا حق النظر ، وحق الفهم ، وحق الأخذ بما أدّى إليه نظره ، وفهمه .

ثانياً : الجنسيات غير العربية فى الوطن العربى

ولا نريد أن نعيد هنا بحث المقومات التى يقوم عليها مبدأ « الجنسية » . . وهل هو المولد ، أو الموطن ، أو اللغة . . . فقد كان فى أحاديثنا السابقة إشارات ، ومواقف كشفنا بها عن هذه المقومات ، وعن مكانها ، وقيمتها فى تكوين الجسد « القومى » للجماعة .

وعلى هذا فإننا نرى أن الأمر يقتضى وقفة مع « الجنسية » العربية هنا . لنعرف العنصر الأصيل الذى تقوم عليه .. أهو الدم ؟ أم الوطن؟ أم اللغة . ؟

وقد تحدثنا من قبل عن اللغة العربية ، وعن مكانتها فى حياة الأمة العربية باعتبارها عنصراً من عناصر الدين ، وبعضاً منه .

وقضية العرب والعروبة قضية قديمة ، كانت دائماً موضع بحث وجدل ، حول تحديد الصفات التى يكون بها العربى عربياً ، وذلك فى الفترات التى تتأزم

فيها الأمور بين العرب والجنسيات الأخرى، التي أدخلت في الإسلام، من فرس وترك، وروم، وهنود، وغيرهم . . فكان كل جنس ينزع إلى جنسه، ويتعصب له، ويعرض مفاخر أمته في الإسلام وقبل الإسلام . .

ولا تعجب إذا رأيت عالما جليلا، وإماماً كبيراً من أئمة المسلمين كابن تيمية يثير هذه المسألة، ويحاول أن يتحدث عن العرب والعروبة في المجتمع الإسلامي، ويكشف عن الخصائص التي ينبغي أن تكون فيمن يحمل الجنسية العربية — لا تعجب لهذا، فإن هذه المسألة كانت — كما قلنا « قضية » معروضة بين الجماعات الإسلامية . . كلٌّ يحكم فيها بالرأي الذي يراه .

ويحسبنا هنا أن نعرض رأي ابن تيمية في التعريف بالجنسية العربية . . فهو لا ينظر إلى المسألة من جانب التعصب للجنس كما يذهب إلى هذا المذهب كثير من الذين عرضوا لهذا الأمر، وإنما ينظر إليها في ضوء الاعتبارات الدينية، بحسبان أن اللغة العربية عنصر من عناصر الدين، وباعتبار أن العرب هم واجهة هذا الدين، وعنوانه . .

رأي ابن تيمية :

يقول ابن تيمية :

« واسم العرب في الأصل كان اسما لقوم جمعوا ثلاثة أوصاف :

أحدها : أن لسانهم كان اللغة العربية .

الثاني : أنهم كانوا من أولاد العرب .

الثالث : أن مساكنهم كانت أرض الجزيرة . وهي جزيرة العرب التي من بحر القلزم[1] إلى بحر البصرة، ومن أقصى حجر باليمن إلى أوائل الشام . بحيث كانت تدخل اليمن في دارهم . ولا تدخل فيها الشام . . وفي هذه الأرض كانت العرب، حين البعث وقبله . . [2] »

---

(١) البحر الأحمر

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية ١٦٦ .

وواضح من هذا أن ابن تيمية يحصر « الجنسية » القومية للعرب قبل الإسلام فى : اللسان ، والدم ، والموطن . .

أما بعد الإسلام ، وانتشار العرب خارج الجزيرة العربية حاملين دينهم ، ولغتهم ، إلى مختلف الأجناس ، والأوطان — فإن الأمر قد أخـــذ وضعاً آخر . .

يقول ابن تيمية : « فلما جاء الإسلام ، وفتحت الأمصار سكنوا — أى العرب — سائر البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، وإلى سواحل الشام وأرمينية ، وهذه كانت مساكن فارس والروم والبربر وغيرهم . . ثم انقسمت هذه البلاد قسمين :

« منها : ما غلب على أهله لسان العرب حتى لا تعرف عامتهم غيره ، أو يعرفونه ، وغيره . . مع مادخل على لسان العرب من اللّحن . . وهذا غالب مساكن الشام ، والعراق ، ومصر ، والأندلس . . ونحو ذلك . . وأظن أن أرض فارس وخراسان كانت هكذا قديماً . .

« ومنها : ما العجمة كثيرة فيهم ، أو غالبة عليهم ، كبلاد الترك ، وخراسان ، وأذربيجان ، ونحو ذلك . .

فهذه البقاع — التى دخلت فى الإسلام — انقسمت إلى ما هو عربى ابتداء ، وما هو عربى انتقالا ، وإلى ما هو عجمى .

ثم يقول ابن تيمية :

« وماذكرناه من حكم اللسان العربى وأخلاق العرب يثبت لمن كان كذلك ، وإن كان أصله فارسيا .. وينتفى عمن لم يكن كذلك وإن كان أصله هاشميا »[1] .

فالمعوّل عليه فى النسب عند ابن تيمية هو « اللسان » .. أو اللغة . . لأن اللغة هى ترجمان العقل ، ومجلَى العاطفة . . وفيها ينصهر كيان الإنسان ، وتتجسّد شخصيته . .

ولهذا يُروى عن الحسن (البصرى) عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه

(١) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية — ١٦٧ .

وسلم أنه قال : « من تكلّم العربيّة فهو عربيّ . . ومن أدرك له أبوان فى الإسلام فهو عربيّ » .

ويعلق ابن تيمية على هذا الحديث بقوله :

« فهذا إن صحّ هذا الحديث . قد عُلّقت العربية فيه — أى فى الانتساب إلى العربية — بمجرد اللسان .. وعُلّقت فى النسب بأن يدرك له أبوان فى الدولة الإسلامية العربية » .

ويروى عن مالك بن أنس عن الزهرى ، عن سَلَمة بن عبد الرحمن قال : « جاء قيس بن مطاطة إلى حلقة فيها « صهيب » الرومى ، و « سلمان » الفارسى ، و « بلال » الحبشى .. فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل — يشير إلى النبي صلى الله عليه وسلم — فما بال هؤلاء ؟ — يشير إلى صهيب ، وسلمان ، وبلال — فقام معاذ بن جبل فأخذ بتلابيبه .. ثم أتى به إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بمقالته .. فقام النبي صلى الله عليه وسلم مغضَباً يجرّ رداءه ، حتى دخل المسجد .. ثم نودى : أن الصلاة جامعة .. فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد أيها الناس .. إن الربّ ربٌّ واحد ، والأب أب واحد ، والدين دين واحد ، وإن العربيـة ليست لأحد بأب ، ولا أم ، وإنما هى لسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى » .

« فقام معاذ بن جبل فقال : بم تأمرنا فى هذا المنافق ؟ فقال : دعه إلى النار ، فكان « قيس » ممن ارتدّ ، فقتل فى الردّة » .

ويقول ابن تيمية : هذا الحديث ضعيف .. لكن معناه ليس ببعيد .. بل هو صحيح من بعض الوجوه[1] .. »

وعلى هذا ، فإننا نستطيع أن نقرر أن الجنسية العربية هى جنسية جميع المواطنين الذين اتخذوا أوطان العروبة وطناً ، كما اتخذوا لسان العرب لساناً لهم ..

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص ١٦٩

وعلى هذا أيضاً فإن وحدة الأوطان العربية وحدة متكاملة ، قد اجتمع لها كل مقومات الوحدة التى يقوم عليها الجسد « القومى » فى الوطن الواحد .. الدين ، واللغة ، والتاريخ المشترك .. إلى تجاور الأوطان ، وتقارب الأحوال فى صور الحياة ، وفى العادات والتقاليد الغالبة على أبناء هذا المجتمع الكبير ..

وإذن فوحدة الأوطان العربية ، واجتماعها فى قطاع موحد ، فى دولة موحدة ؛ أمر تنادى به طبيعة الأمور فى هذه الأوطان ، وتقتضيه مصلحتها .. فى دينها ودنياها جميعاً ..

وليس ثمة عائق يعوق قيام هـــذه الدولة الموحدة إلا نعرات زائفة ، وإلاَّ ضلالات وأحقاداً تعيش فى صدور نفرٍ ممن لا يرعون للإسلام حرمةً ، ولا للعروبة عهداً .. أما مشاعر الناس فى هذه الأوطان فهى مشاعر الأخوة .. أخوة الدم .. والدين .. واللسان .. والوطن ..

وليس ينتظم هذه المشاعر الأخوية ، ويتيح لها متنفساً طيباً تتنفس فيه إلا وحدة الوطن ، الذى يظله علم الدولة الإسلامية العربية ، ويخفق فى أرجائه .

فإذا أذن الله لهذه الدولة أن تقوم — وهذا ما نتمنى على الأيام تحقيقه — فإن قيام الوحدة الإسلامية الشاملة تحت علم دولة واحدة سيكون أقرب إلى التمام والكمال ، إذ أنه سيقوم حينئذ على دعائم وطيدة ثابتة ، ويستند إلى تلك الركيزة التى استندت إليها دولة الاسلام يوم قامت فى الوجود تلك الدولة .. فى ظل الاسلام ، وتحت راية العرب ..

ليس ببعيد ذلك اليوم الذى يتحقق فيه قيام الدولة الإسلامية ، التى تجمع أوطان الإسلام جميعها تحت حكومة واحدة ، وفى ظل راية واحدة ، فإن الرابطة التى بين الشعوب الإسلامية رابطة دائمة ، لا تتأثر فى صميمها بأحداث الحياة ، ولا تقلباتها .. لأنها من وحى العقيدة ، ومن معطيات الشريعة ..

فإذا وقعت أوطان المسلمين تحت ظروف قاسية — من الداخل أو الخارج — فإن هذه الرابطة قد ينكمش ظلها فى واقع الحياة ، ولكنها تظل على ما هى عليه

من قوة ، فى ضمير الجماعات الإسلامية ، تنتظر اللحظة التى تزول فيها هذه الظروف ، فتنطلق من مكمنها ، وتعبّر عن وجودها فى كل صورة ممكنة من صور التعبير .

وأقسى الظروف التى مرّت بالمجتمعات الإسلامية ، وأقامت الحواجز المادية بين الجماعات الإسلامية هى تلك الظروف التى وقعت فيها مواطن الاسلام فى يد الاستعمار .. فلقد ألقى الاستعمار على تلك الأوطان ليلا ثقيلا بارداً محملاً بالهموم ، والمظالم ، والمآسى ، وكان من هذا أن شغلت تلك الأوطان بما هى فيه من محنة وبلاء ، ولم تجد فى وجودها لحظة تلتفت فيها إلى غير ما هى فيه ، وإن ظلّ شعورها نحو المجتمعات الإسلامية مندسًّا فى كيانها ، قائماً فى تفكيرها ..

وقد أذن الله للمسلمين أن يتحرروا من المستعمرين ، وأن تنجلى من سماء أوطانهم سحب الاستعمار الكثيفة الثقيلة المظلمة .. فصارت إليهم مصائر أمورهم ، ومقدرات حياتهم . .

وأمّا وقد ملك المسلمون أمرهم ، فإنه لا شىء يحول دون هذه الوحدة المنشودة بينهم ، روحاً وجسداً ، وأن تقوم عليهم حكومة واحدة ، على رأسها حاكم واحد ، لدولة واحدة ، وأمة واحدة . .

يقول الشاعر التركى « ضيا » :

« ولكى يكون للإسلام وحدة حقيقية حقا يجب أولا : أن تصبح جميع البلاد الإسلامية دولة مستقلة ، ثم تخضع جميعاً لسلطان خليفة واحد . .

ثم يسأل الشاعر نفسه هذا السؤال :

وهل يستطاع أمر كهذا فى الوقت الحاضر ؟

ويجيب على ذلك بقوله :

« إن لم يكن ذلك ميسوراً اليوم ، فلا مفرّ لنا من الانتظار[1] » .

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص ١٨٣ نقلها المؤلف ملخصه من قصيدة للشاعر التركى « ضيا » عن ترجمة لها بالألمانية قام بها الأستاذ فيشر »

ولو كان الشاعر بيننا اليوم لرأى اليوم الذى كان يحلم به ، وينتظر لقاءه قد جاء ، فتحررت مواطن الإسلام كلها ! .

ثم إن الشاعر إذ يدعو إلى قيام خليفة على المسلمين ، كان يلتفت إلى الخلافة العثمانية التى كانت قائمة على دعائم فاسدة ، قد قوّض الظلم أركانها ، وتمشت حتى الاستبداد فى أوصالها . إن الشاعر وهو ينظر إلى المستقبل بعين ، وإلى الماضى بعينه الأخرى ، وإلى الواقع بعينيه معاً — ينصح للمسلمين أن يقيموا خلافتهم على أسس سليمة ، عصرية ، صالحة للحياة ، بحيث يتنفس فيها المجتمع الإسلامى فى جو مشبع بروح الإسلام الذى يحمل إلى الناس أسمى ما عرفت الحياة من مبادىء وتعاليم .

يقول الشاعر « ضيا » : « وفى الوقت نفسه يجب على الخليفة أن ينظم بيته هو ، وأن يقيم القواعد لدولة عصرية « صالحة » .

وقد أشرنا من قبل إلى أن قيام الحكم الجمهورى الديمقراطى هو الذى يتفق مع روح الإسلام ، وهو الذى يناسب ظروف الحياة الحديثة ، ويوائم أحدث النظم السياسية وأقربها إلى تصورات المصلحين ، وآمالهم فيما يرجون للإنسانية من تقدم ، ورخاء ، وسلام . !

فإذا اتحد المسلمون فى دولة ، وقامت عليهم حكومة لابسة ثوب أحدث النظم الديمقراطية القائمة على الانتخاب العام ، وعلى حكم الشعب للشعب . . كانت تلك الحكومة خلافة راشدة ، يبارك عليها الإسلام ، ويسعد فى ظلها المسلمون . !

* * *

تذييل
الشيعة والإمامة

يوم وفاة النبي :

الخلاف الذى وقع بين المهاجرين والأنصار يوم « السقيفة » على « الخلافة »، والذى انتهى بانتصار وجهة نظر المهاجرين وبيعة أبى بكر — هذا الخلاف لم يكن وحده هو الخلاف الذى ظهر فى هذا اليوم من أجل الخلافة . .

فقد عرفنا أن عليًّا كرم الله وجهه ، وعمه العباس ومعهما آل هاشم ، وطلحة ، والزبير ، وكثير من وجوه قريش ومواليهم — لم يشهدوا البيعة ، ولم يدلوا برأيهم فى هذا الخلاف الذى كان بين المهاجرين والأنصار — إذ كان « علىّ » والعباس ومن معهما مشغولين بما كانوا فيه من أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته ، وقبل أن يدفن .

قبل اليوم وبعده :

وليس ثمة شك فى أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم — من مهاجرين وأنصار — قد كان لهم وجوه من الرأى تدور فى خواطرهم عمن يلى أمر المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأن هذا الذى كانوا فيه يوم السقيفة من خلاف وجدل لم يكن وليد يومه ، وإنما هو وليد تلك الخواطر التى كانت تطوف بهم قبل وفاة الرسول ، والتى كانت تورق كثيرا منهم ، وتصور له قسوة الحياة ومرارتها إذا خلت من الرسول ، وانقطعت عن المسلمين أنوار السماء وأمدادها .

وليس يبعيد أن تكون هذه الخواطر قد جرت على الألسنة ، وسارّ بها بعض المسلمين بعضا ! !

رَوى ابن سعد عن عكرمة قال : قال « العباس » : لأعلمنّ بقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا . . فقال له : يارسول الله . . لو اتخذت لك عرشا ؟ فإن الناس قد آذوْك ! قال : « والله لا أزال بين ظهرانَيْهم . . ينازعونى ردائى . . ويصيبنى غبارهم ، حتى يكون الله يريحنى منهم : » قال العباس : فعرفت أن بقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا قليل » (١)

ونستطيع أن نفهم من هذا أن « العباس » كان يتوقع شيئا ، ولا يتحققه .. كان يتوقع قرب موت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لم يكن على بينة من هذا، إذ ربما كان للنبي شأن غير شأن الناس مع الموت . . لهذا سعى إلى النبي بهذا الرأى ليرى ما وراءه ، فلما كشف له النبي صلى الله عليه وسلم عما اختار الله له ، وأنه سيريحه مما يعانى من الناس ، وضحت له الحقيقة ، وعرف أن بقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم قليل .

والعباس لم يسع هـذا السعى إلا حين بدت أمارات كثيرة تشير إلى أن الرسول سيفارق هذه الدنيا عما قليل . . ومن هذهْ الأمارات تلك الآية الكريمة التى كانت من أواخر الآيات نزولا ، وهى قوله تعالى : « اليومَ أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا »(٢) .

ومن هذه الأمارات أيضا ذلك المرض الذى اشتد على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته ، والذى ظل اثنى عشر يوما . .

من هذه الأمارات وأمثالها وقع فى نفوس المسلمين ماوقع من تخوفهم لفراق رسول الله لهم ، وما يطرقهم من الأحداث من بعده .

وطبيعى أن هذه الإرهاصات قد عملت عملها فى الجماعة الإسلامية ، وخاصة فى صحابة رسول الله ، وآل بيته . . فدارت فى رءوسهم كثير من الأفكار ، حبسها بعضهم فى صدره ، وتحدّث بها بعضهم إلى بعض ، وجادل فيها بعضهم بعضا . . بل ربما انتهت هذه الآراء إلى مقررات وخطط . . ولنا أن نحسب

---

(١) نهاية الأرب جزء ١٨ ص ٦٠
(٢) سورة المائدة آية ٣

هذا الاجتماع الذى شهدته سقيفة بنى ساعدة نتيجة مسبوقة بهذه الآراء والمقررات والخطط التى شهدتها مدينة الرسول أثناء مرضه ، وقبيل مرضه .. إذ ليس مما يقبله العقل أن يجتمع المسلمون لأمر لم يكن فى أنفسهم شىء له ، أو حديث عنه ، أو تشاور فيه — فى هذا اليوم الذى آذنهم فيه رسول الله بالفراق ، وتركهم وما بين أيديهم من كتاب الله وسنته ورسوله . . إنه ليس مما يعقل أن يسعى الناس لهذا الاجتماع فى هذا الوقت العصيب ، ومع هذه النازلة المفجعة التى نزلت بهم دون أن يكون لهم بهذا الأمر الذى اجتمعوا له سابقة رأى ونظر فيه .

يوم السقيفة وما بعده :

وربما كان من المتعذر أن يعرف المرء المناحى التى كانت تنتحبها هذه المقررات وتلك الخطط قبل وفاة الرسول . إذ كان أكثرها هامساً خافتاً ، كما كان بعضها فى دور التكوين . . لم تتضح معالمها ، ولم تنكشف صورتها حتى عند أصحابها . .

أما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن صرحت الصدور عن مكنونها ، وكشفت عما يدور فيها — فقد أصبحت الرؤية بعد هذا ممكنة ، وأصبحت الاتجاهات واضحة متميزة :

فهناك الأنصار .. لهم رأيهم ، ولهم حجتهم فى طلب الامارة بعد النبي .

وهناك المهاجرون .. ولهم رأيهم ، ولهم حجتهم . .

وهناك آل هاشم ، وعلى رأسهم علىّ والعباس .. لهم رأيهم ولهم حجتهم . .
هذه هى أهم الاتجاهات التى بدت واضحة منذ يوم السقيفة .

أما فريق الأنصار فقد سلّم — بعد لأْيٍ — زمامَ هذا الأمر للمهاجرين ، وإن كان مرشحهم « سعد بن عبادة » قد ظل على رأيه ، وعلى خلافه لِما اجتمع

عليه الناس ، وسلّم به قومه .. بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا ، فاعتزل الجماعة الإسلامية مدةَ خلافة أبي بكر ، وخلافة عمر إلى أن توفى!

يقول صاحب الإمامة والسياسة : « لم يبايع سعد بن عبادة « أبا بكر » رضى الله عنه ، ولم يبايع « عمر » من بعده ، وكان لا يصلى بصلاتهم ، ولا يجتمع بجمعتهم ، ولا يفيض إفاضتهم »[1] ومع هذا فلم يعدّه الخليفتان ، ولا المسلمون خارجا على الدين ، ولم يعامَل معاملة المرتدين .. وإنما هو رأى رآه .. ولو أن الخلافة كانت من صميم الدين لما سكت الخليفتان عن مخالفته تلك ، ولأخذوه حتى يستجيب لما استجاب له الناس ، ويدخل فيما دخلوا فيه ، أو يقتل .

وعلى أى فقد انتهى أمر « سعد بن عبادة » بموته ، الذى تضاربت فيه الأقوال ، واختلفت عليه الروايات ، حتى لقد قيل إنه اختبل واختلّ ، وهام على وجهه ، ثم وُجد مقتولا بسهم ، قيل إن « الجن » هى التى رمته به !! وإن الجن أذاعت هذا النبأ فى شعر لها ، ألقته إلى أسماع الناس ، وأرسلته على ألسنتهم .. وفى هذا الشعر تقول :

وقتلنا سيّد الخز رج سعد بن عبادهْ
ورميناه بسهـ ـمين فلم نخطِ فؤاده

وبموت سعد بن عبادة انحسم أمر هذا الخلاف، ولم يقم من بعده فى الأنصار من الأوس أو الخزرج من يأخذ مكانه ، ويدعو دعوته .

أما آل هاشم فإنهم رشحوا الإمام علىّ رضى الله عنه للخلافة أو الإمارة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وكانوا يرون أنهم أحق بميراث رسول الله ؛ وأن « عليا » أحقهم به . لما قام عندهم من شواهد وإمارات ، تجعل هذا الأمر فيه ، وفى ذريته من بعده . .

« لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قال العباس لعلى بن أبي طالب

---

(١) الإمامة ولسياسة ص ٤

كرم الله وجهه . . ابسط يدك أبايعك ، فيقال : عم رسول الله بايع ابن عم رسول الله ! ويبايعك أهل بيتك ، فإن هذا الأمر إذا كان لم يقل . . فقال علي كرم الله وجهه : ومن يطلب هذا الأمر غيرنا ؟ »(١)

وقد عرفنا بعض ماحدث يوم السقيفة . . من بيعة المسلمين لأبي بكر ، ومن تخلف «علي» عن البيعة ، وما كان من أخذ ورد ، بينه وبين أبي بكر وعمر ، حتى بايع أبا بكر وبايع معه من كان قد تخلف .

ثم كان أن دب دبيب الفتنة في جسم المجتمع الإسلامي كله ، فكانت الحرب التي بين « علي » و «عائشة» ثم التي بينه وبين معاوية ، ثم بينه وبين الخوارج . . وتمخضت هذه الأحداث عن مقتل الإمام علي بيد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي .

وتتابعت الأحداث . . فبايع الناس الحسن بن علي بالخلافة ، على حين كان معاوية يدعيها لنفسه ، ويدعو الناس إلى بيعته بها . . وكادت تكون حرب طاحنة بين الحسن ومعاوية ، ولكن الحسن — رضي الله عنه — آثر العافية لنفسه ، وللمسلمين فعقد مع معاوية صلحاً ، يسلم لمعاويه فيه بالخلافة ، على أن تكون له من بعده . . ومات الحسن في خلافة معاوية ، ودعا معاوية إلى البيعة لابنه يزيد من بعده ، فأجابه إلى ذلك أعداد كثيرة من المسلمين رغبة ورهبة ، وتأبى عليه بعض وجوه الصحابة والتابعين ، وكان الحسين بن علي رضي الله عنهما ممن أبى البيعة ، وكانت الأنظار تتجه إليه ، ليكون الخليفة المؤمل بعد موت أخيه الحسن ، رضي الله عنه .

عاطفة تلدها المحنة :

في خلال هذه الأحداث تجسدت تلك العاطفة القوية التي تملأ صدور كثير من المسلمين رحمة وعطفا ، ومودة لآل البيت ، وتنظر إليهم نظر المظلومين

---

(١) الامامة والسياسة ص ٤

الذين لم يجدوا من المسلمين التقدير والولاء الذى ينبغى لهم . بل إن الظروف التى مرت بهم بعد موت النبى أوقعت فى كثير من العقول أن ماوقع لآل البيت كان نتيجة لمكر سيّ ، وتدبير دُبّر بليل .

فهذا « علىّ » زوج فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ووالد سبطيه : الحسن والحسين رضى الله عنهما يصرَف عن الخلافة فى قوة . ويبايع بالخلافة للخليفة الأول ، دون أن يكون له مشهد أو رأى فيها ، . . ثم إذا ولى الخلافة انثالت عليه الفتن من كل جهة ، لا ينتهى من حرب إلا ليلتقى بحرب . . حتى لقى مصرعه برمية ظالمة من يد ظالمة آثمة . . .(1)

ثم هذا ابنه « الحسن » سبط الرسول تملى عليه الظروف أن ينفض يده من الخلافة ، وينزل عنها لمعاوية . . ثم لا يترك بعد هذا حتى يدس له السم ، فيموت بيد الغدر والخيانة . . ثم تبلغ المأساة غايتها بمقتل « الحسين » رضى الله عنه فى موقعة « كربلاء » ومقتل آل بيته معه . . كباراً وصغاراً ، لم ينج فيهم إلا بعض الأطفال والأجنة . . لقد كانت موقعة « كربلاء » وما لقى فيها آل البيت من قتل ، وتمثيل بالقتلى ، واستحياء للحرائر — كان هذا آخر درجات الغليان للغيظ المكتوم فى الصدور ، لما نزل بآل البيت ، من محن ، وما سلط من بلاء . . فتفجرت براكين الثورة ، وجعلت ترمى بحممها الخلافةَ الأموية ، بكل ما اجتمع لها من كيد ، وما قدرت عليه من تدبير .

---

(1) يروى أن الحسن بن على رضى الله عنهما سقى السم أكثر من مرة ، ولما سقى السم الذى مات فيه تقطع كبده ، فقال : إنى سقيت السم مرارا ، فلم أسق مثل هذه المرة !

ولما أحس رضى الله عنه بدنو أجله قال له الحسين رضى الله عنه : ياأخى . . من تتهم ؟ قال لم ؟ قال ؟ لتقتله ! قال : إن يكن الذى أظنه فالله أشد بأسا وأشد تنكيلا . وإن لم يكن فما أحب أن يقتل بى برىء » .

وروى المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » أن جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندى هى التى سقت الحسن رضى الله عنه السم ، وكان معاوية قد دس إليها : « إنك إن احتلت فى قتل الحسن وجهت إليك بمئة ألف درهم وزوجتك يزيد » ، فكان ذلك الذى بعثها على سمه ، فلما مات وفى لها معاوية بالمال ، وأرسل إليها : إنا نحب حياة يزيد ! ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه ! »

مولد الشيعة :

والحق أن آل البيت قد امتحنوا امتحاناً قاسياً فى الحياة ، وكان من حقهم على المسلمين أن يكونوا بالمكان الذى يلقون فيه المودة الخالصة ، والحب الصادق ، والولاء المكين . . فهم آل بيت النبوة ؛ ومن بينهم طلع الهدَى الذى أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، والذى بلغ بالعرب ماهم فيه من دولة ، وملك وسلطان ! ! أفيكون ذلك جزاء أهله ، وبعض ولده ؟

والحق أيضا أن هذه الأحداث المؤلمة المؤسفة التى نزلت بآل البيت كانت تَـضيح أحقاد جاهلية ، ومنزع عصبيات وثارات لم يقتلع الإسلام جذورها من الصدور ، فما هى إلا أن أخلى الرسول مكانه حتى تحركت هذه الأحقاد ، ورمت بشررها من قريب وبعيد ..

يقول السيد مرتضى العسكرى فى كتابه « عبد الله بن سبأ » :

«برزت العصبية الجاهلية سافرة بعد وفاة الرسول .. فالأنصار عندما اجتمعوا فى سقيفتهم ليبايعوا « سعدا » إنما لبوا داعى العصبية وحدها ؛ فإنهم كانوا يعلمون بأن فى المهاجرين من هو أفضل من سعد وأتق . . وكذلك الأوس قد اندفعت بداعى العصبية إلى المبادرة لبيعة أبى بكر لتدفع الإمارة عن الخزرج . . غير أن عليًّـا قد شذ عن هذه الفكرة ، ولم يرض أن يستولى على الحكم بالنعرة العصبية ، وهو الذى اتبع الرسول فى حربه للعصبية اتباع الفصيل أثر أمه ! فهو يريدها دينية قرآنية ، لا قبلية جاهلية . . ويطلب أنصاراً من قبيل سلمان ، وأبى ذر ، وعمار ونظرائهم ممن يحدو بهم المبدأ والعقيدة إلى نصرته ، ويأبى قبول نصرة أبى سفيان بداعى العصبية ، فإن فيه إحياء أمر الجاهلية[1] »

---

(١) عبد الله بن سبأ ص ٨٣

« لقد تعصبت قريش على بنى هاشم حتى لايجتمع لهم شرف النبوة ، وسلطان الخلافة . . ويروى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه كان يقول فى أيام عثمان رضى الله عنه : « على ابن أبى طالب وصى محمد ووارث علمه . . أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها . . أما لو قدمتم من قدم الله ، وأخرتم من أخر الله ، وأقررتم الولاية والوراثة فى أهل بيت نبيكم لأ كلتم من فوق رءوسكم ، ومن تحت أقدامكم ، ولما عال ولى الله ، ولا طاش سهم من فرائض الله ، ولا اختلف اثنان فى حكم الله ، إلا وجدتم علم ذلك عندهم من كتاب الله ، وسنة نبيه ، فأما إذا فعلتم ما فعلتم فذوقوا وبال أمركم ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون[1] » .

إن المسلمين من الموالى الذين لم تمل بهم عصبية إلى قريش أو غيرها أمثال أبى ذر ، وعمار ، وسلمان ، ومن إليهم من الفرس والروم الذين دخلوا فى الإسلام قد صاروا فى جملتهم عصبية لعلى رضى الله عنه ولآل البيت . . لأنهم كانوا ينظرون إلى الأمر من وجهة واحدة . هى وجهة الدين ، وكانوا يرون أن « الخلافة » ميراث النبوة ، وأن آل « محمد » صلى الله عليه وسلم أحق بهذا الميراث ، وأن من ينازعهم فيه ، أو يصرفه عنهم جائر عن سواء السبيل .. ومن هنا تجمعت هذه الآراء المتناثرة ، وتلاقت تلك الآحاد المتفرقة فكانت مذهباً ، وكانت مجتمعاً كبيراً من مجتمعات المسلمين يعرف بالشيعة .

والشيعة — كما يقول صاحب الملل والنحل — هم الذين شايعوا علياً على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته ، نصاً ، ووصية .. إما جلياً ، وإما خفياً . . واعتقدوا أن الإمامة لاتخرج من أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره ، أو بتقية من عنده ..قالوا : وليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة ، وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هى قضية أصولية ، هى ركن الدين ، لا يجوز للرسول عليه السلام إهماله ، وإغفاله ، ولا تفويضه إلى العامة ، وإرساله »[2] .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ص١٢٠ نقلا عن كتاب عبد الله بن سبأ ص٧٨

(٢) الملل والنحل ج ص٢٣٤ .

الشيعة والخلافة :

ولا نريد أن نعرض هنا المذهب التشيع ، ولا لطبيعة نشأته ، ولا للدوافع الصحيحة أو المغرضة التى التقت عنده ، واجتمعت عليه . . كما لا نريد أن نعرض للخلاف الذى وقع بين الشيعة وفرّق مجتمعهم الأول إلى فرق وطوائف . . لا نريد أن نعرض لهذا ، فذلك مما يعنى غيرنا ممن يؤرخ للمذاهب الشيعية ، ويتقصّى أخبارها . .

ونحن هنا نريد أن نأخذ من الشيعة رأيها فى الخلافة الإسلامية ، وموقفها منها ، ونظرتها إليها ، وإلى الجهة التى تستحقها !

وآراء الشيعة مختلفة متباينة فى هذا الأمر باختلاف فرقها وطوائفها . .

ولهذا ، فإننا سنكتفى بفرقة واحدة من تلك الفرق . . هى فرقة الشيعة « الإمامية » التى تعد أصل هذه الفرق ، وأعدلها رأياً ، وأقومها طريقاً ، وأقربها إلى أهل السُّنة مذهباً .

والأصول الأولى للمذهب الشيعى — ونقصد منذ الآن الشيعة الإمامية — يقوم على أن « الخلافة » أمر دينى ، لا يعرف إلا بالنص ، وقد نص الرسول صلى الله عليه وسلم على من يخلفه ، وهو « على » كرم الله وجهه . ثم تكون فى أولاده من بعده ، لأنها ميراث عن النبوة ، ينتقل من الأصول إلى الفروع ، كما ينتقل الميراث من الأصل إلى فرعه .

هذا هو مجمل الرأى عندهم فى استحقاق «الخلافة» .. ولهذا الإجمال تفصيل نعرض له بعد قليل . .

غير أننا قبل أن نلتقى بآراء الشيعة فى الخلافة منذ أن أصبحت تلك الآراء مذهباً وحزباً ، ينبغى أن ننظر إلى الوراء قليلا ، وأن نراجع بعض الآراء

والمواقف التي كانت لعليّ ولأشياعه في هذا الأمر ، وكيف كانت نظرته ونظرتهم إليه . .

وقد مرت بنا بعض مواقف للإمام عليّ ، وللعباس ، ولأبي ذر وغيرهم وكلها تقوم على أن « الخلافة » ميراث عن النبي ، وأن آل بيته هم أولى الناس بهذا الميراث . .

ولا بأس أن نعرض هنا من تلك المواقف ما نذكّر به من مواقف الإمام « علي » كرم الله وجهه . ليكون شاهداً من شواهد هذه القضية .

يروى أن علياً كرم الله وجهه حين كان بالمدينة ينتظر رد معاوية على كتابه الذي بعث به إليه ، يطلب البيعة — تلقى من أخيه عقيل بن أبي طالب كتاباً يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . أما بعد يا أخي كلأك الله ، والله مجيرك من كل سوء ، وعاصمك من كل مكروه على كل حال . . وإني خرجت معتمرا ، فلقيت عائشة معها طلحة والزبير ، وذووهما . وهم متوجهون إلى البصرة . قد أظهروا الخلاف . ونكثوا البيعة ، وركبوا عليك قتل عثمان ، وتبعهم على ذلك كثير من الناس ، من طغامهم ، وأوباشهم ، ثم مر عبدالله بن أبي السرح في أربعين راكبا من أولاد الطلقاء[1] من بني أمية ، فقلت لهم ، وعرفت النكر في وجوههم : « أبمعاوية تلحقون ؟ . . عداوة والله منكم ظاهرة غير مستنكرة ، تريدون بها إطفاء نور الله ، وتغيير أمر الله » . . فأسمعني القوم ، وأسمعتهم . . ثم قدمت مكة ، فسمعت أهلها يتحدثون : أن الضحاك بن قيس أغار على الحيرة واليمامة ، فأصاب ما شاء من أموالهما . . ثم انكفأ راجعاً إلى الشام . .

فأفٍّ لحياة في زمن جرّأ عليك الضحاك . . وما الضحاك إلا فقع بقرقرة[2] . . فظننت حين بلغني ذلك أن أنصارك خذلوك . فاكتب إلي يا ابن أمي برأيك وأمرك . .

---

(١) الطلقاء : الذين أسلموا من أهل مكة يوم الفتح ، حين وقف النبي صلى الله عليه وسلم على باب الكعبة ، وقال : يامعشر قريش . ماترون أني فاعل بكم ؟ « قالوا : خيرا . . أخ كريم وابن أخ كريم . . قال : « اذهبوا ، فأنتم الطلقاء » . . فعفا عنهم .

(٢) الفقع البيضاء الرخوة من الكمأة ، والكماة تمر ردىء . يوكل .

فإن كنت الموت تريد ، حملت إليك بنى أخيك ، وولد أبيك ، فعشنا ماعشت ، ومتنا معك إذا مت ، فوالله ما أحب أن أبقى بعدك ! . . . »

فكتب إليه الإمام « علىّ » رضى الله عنه يقول له : « أما بعد يا أخى ، فكلأك الله كلاءة من يخشاه ، إنه حميد مجيد . . قدم علىّ عبد الرحمن الأزدى بكتابك ، تذكر فيه أنك لقيت ابن أبى سرح فى أربعين من أبناء الطلقاء من بنى أمية ، متوجهين إلى المغرب . . وابن أبى سرح — ياأخى — طالما كاد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدّ عن كتابه ، وسنّته ، وبغاها عِوَجا . .

« فدع ابن أبى سرح وقريشا ، وتركاضهم فى الضلال !

« فإن قريشا قد اجتمعت على حرب أخيك اجتماعها على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلَ اليوم ، وجهلوا حقى ، وجحدوا فضلى ، ونصبوا لى الحرب ، وجدّوا فى إطفاء نور الله . .

«اللهم فاجْز قريشا عنى بفعالها . . فقد قطعت رحمى ، وظاهرت علىّ ، وسلبتنى سلطان ابن عمى ، وسلمت ذلك لمن ليس فى قرابتى وحقى فى الإسلام ، وسابقتى التى لايدّعى مثلها مدّع ، إلا أن يدّعى مالا أعرف . . والحمد لله على ذلك كثيراً . . .

« وأما ماسألت أن أكتب إليك فيه برأيى ، فإن رأيى جهادُ المحقين ، حتى ألقى الله . . لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزة . ولا تفرقهم عنى وحشة ، لأنى مُحِقّ ، والله مع الحق ، وما أكره الموت على الحق ، لأن الخير كله بعد الموت من عَقل [illegible] دعا إلى الحق . . . »(١)

ويكاد يشك فى أن هذا الكتاب من إملاء الإمام علىّ ، أو بخطه ، فإن كلمات ابن أبى طالب [illegible] التها ، ونصاعتها ، وتماسك بنائها . .

وسواء أكان ذلك من أسلوب الإمام علىّ أو لم يكن ، فإن الحال قد استعملت هذه الكلمات ، واستلهمها من يجرى على نسقه ، وبخاصة قوله :

---

(١) الإمامة والسياسة ٥٥ — ٥٦

إن قريشاً قد اجتمعت على حربه كما اجتمعت على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنها قد سلبته سلطان ابن عمه . .

وهذا ما نقف عنده كشاهد من شواهد الشيعة على أحقية علىّ بالخلافة ، وبميراثه إياها عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وواضح من هذا أن الإمام « علىّ » لم يُروَ عنه فى أى موقف من مواقفه فى الخلافة أنه جعل من حجته على استحقاقها أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بها له ، أو لأحد من آل البيت . . ، وأن حجة الإمام « على » كانت قائمة دائماً على قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى سابقته فى الإسلام ، وبلائه فى جهاد الكافرين والمشركين .

ومن كتاب بعث به الإمام « علىّ » إلى أهل العراق . . يقول فيه :

« أما بعد .. فإن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم نذيراً للعالمين ، وأمينا على التنزيل ، وشهيداً على هذه الأمة . . وأنتم يامعشر العرب على غير دين ، وفى شرّ دار ، تسفكون دماءكم ، وتقتلون أولادكم ، وتقطعون أرحامكم ، وتأكلون أموالكم بينكم بالباطل . . فمنّ الله عليكم ، فبعث محمداً إليكم بلسانكم فكنتم أنتم المؤمنين ، وكان الرسول فيكم ، ومنكم.. تعرفون وجهه ونسبه ، فعلّمكم الكتاب والحكمة ، والسنة والفرائض ، وأمركم بصلة الأرحام . وحقن الدماء ، وإصلاح ذات بينكم ، وأن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . . . .

«فلما استكمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدته من الدنيا توفاه الله وهو مشكور سعيُه ، مرضىٌّ عمله ، مغفور له ذنبه ، شريف عند الله نُزُله . . فيا لِموته مصيبةً خصّت الأقربين وعمّت المؤمنين . .

« فلما مضى تنازع المسلمون الأمر بعده .

« فوالله ما كان يُلقَى فى رُوعى ، ولا يخطر على بالى أن العرب تعدل هذا الأمر عنى ! . . فما راعنى إلا إقبال الناس على أبى بكر ، وإجفالهم عليه .

فأمسكت يدى ، ورأيت أنى أحق بمقام «محمد» فى الناس ممن تولى الأمور علىّ فلبثت بذلك ما شاء الله . . ثم رأيت راجعة من الناس رجعت عن الإسلام ، يدعون إلى محو دين محمد ، وملة إبراهيم عليهما السلام ، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله ؛ أن أرى فى الإسلام ثلماً وهدما تكون المصيبة به علىّ أعظمَ من فوت ولاية أمركم ، التى إنما هى متاع أيام قلائل ، ثم يزول ما كان منها كما يزول السراب . . ! فمشيت عند ذلك إلى أبى بكر فبايعته ، ونهضت معه فى تلك الأحداث ، حتى زهق الباطل ، وكانت كلمة الله هى العليا ، وأن يرغمَ الكافرين . . فتولى أبو بكر رضى الله عنه تلك الأمور ، فيسّر ، وسدّد ، وقارب ، واقتصد .. فصحبته مناصحاً ، وأطعته فيما أطاع الله فيه جاهدا . . فلما احتضر بعث إلى عمر فولاه . . فسمعنا وأطعنا ، وبايعنا ، ونصحنا ، فتولى تلك الأمور ، فكان مرضىّ السيرة ، ميمون النقيبة أيام حياته . .

« فلما احتضر قلت فى نفسى . ليس يصرف هذا الأمر عنى ! فجعلها شورى ، وجعلنى سادس ستة . . فما كانوا لولاية أحد منهم بأكره منهم لولايتى : لأنهم كانوا يسمعوننى وأنا أحاجّ أبا بكر فأقول : يامعشر قريش : إنّا أحق بهذا الأمر منكم ، ماكان منا من يقرأ القرآن ، ويعرف السنة : فخشوا إن وليت عليهم ألا يكون لهم فى هذا الأمر نصيب : فبايعوا إجماعَ رجل واحد ، حتى صرفوا الأمر عنى لعثمان ، فأخرجونى منها ، رجاء أن يتداولوها ، حين يئسوا أن ينالوها . . !!

« ثم قالوا لى : هلمّ فبايع ، وإلا جاهدناك ؛ فبايعت مستكرها ، وصبرت محتسباً ! وقائل قائلهم : إنك يا ابن أبى طالب على الأمر لحريص . . . قلت لهم : أنتم أحرص . أما أنا ، إذ طلبت ميراث ابن أبى وحقه ، وأنتم ، إذ دخلتم بينى ، وبينه وتضربون وجهى دونه .

« اللهم إنى أستعين بك على قريش ، فإنهم قطعوا رحمى ، وصغروا عظيم منزلتى ، وفضلى ، واجتمعوا على منازعتى حقا كنت أولى به منهم ، فسلبونيه ، ثم قالوا : اصبر كمداً ، وعش متأسفاً . فنظرت فإذا ليس معى رفاقة ولا مساعد إلا

أهل بيتي ، فضننت بهم على الهلاك .. فأغضيت عيني على القَذَى ، وتجرعت ريقي على الشجا ، وصبرت من كظم الغيظ على أمرّ من العلقم طعما ، وآلم للقلب من حز الحديد . »(١)

ونكاد نقطع بأن هذا الكتاب أيضا ليس من كلام الإمام عليّ ، لأنه بعيد عن أسلوبه ، بل وبعيد أيضا عن طابع العصر ، وخارج عن حدود الإيجاز الذي كان يبلغ حد الإيماء في أسلوب الرسائل لهذه الأيام ..

وقد حرصنا على نقل هذه الفقرات الكثيرة من هذا الكتاب — مع رأينا هذا فيه — لأنه يصوّر الواقع ، ويحدّث عما كان يجري على الألسنة ، ويدور في المحاورات والمجادلات بين « علي » وأتباع عليّ من جهة ، وبين الذي حالوا بينه وبين الخلافة من جهة أخرى ..

ولو لم يكن هذا الكتاب صادرا من الإمام عليّ — وهذا رأينا فيه — فإنه صفحة من صفحات التاريخ ، سجلها من شاهد هذه الأحداث ، أو شارك فيها .

وعلى أيّ ، فإن موقف الإمام عليّ من « الخلافة » هو هذا الموقف كما صوّره هذا الكتاب ، والكتاب الذي قبله ، والذي بعث به — كما يقال — إلى أخيه عقيل بن أبي طالب . وكذلك هو موقفه في المقولات والمحاورات التي رويناها عنه في حديثنا عن « الخلافة » والبيعة لأبي بكر .

إن الإمام كرّم الله وجهه لم يقل أبداً إنه وصيّ النبي . ولم يكن ذلك من الحجج التي حاجّ بها أبا بكر وعمر وغيرهما .. ولو أنه حاج بهذه الحجة ، وجاء عليها من الرسول صلى الله عليه وسلم بشاهد ، لما رغب في وجهه أحد ، ولكان أبو بكر وعمر أول من يسلم بذلك ، امتثالا لأمر الله ، وأمر رسوله .

ويقول صاحب « الملل والنحل » رأى زيد بن علي بن الحسين بن عليّ

---

(١) الإمامة والسياسة جزء أول ص ١٦١ وما بعدها .

رضى الله عنهم — فى أحقية « على » بالخلافة ، ولم يستند فى هـذا إلى ما يرويه الشيعة بعد هذا من أن النبى صلى الله عليه وسلم قد وصّى بالخلافة لعلىّ كرم الله وجهه . .

يقول زيد بن على — فيما يروى صاحب الملل والنحل : « كان على بن أبى طالب أفضل الصحابة ، الا أن الخلافة فوّضت إلى أبى بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها .. من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة . .

« فإن عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين « على » عليه السلام من دماء المشركين من قريش لم يجف بعد ، والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى .. فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، وكان المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد ، والتقدم بالسن ، والسبق فى الإسلام ، والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ..»[1] .

لقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين بعده شورى بينهم ، ليلقوا الحياة وحدهم بعد أن بلغ بهم مبلغ الرشد ، وبعد أن أرسى لهم قواعد دينهم ودنياهم جميعا ..

يقول صاحب كتاب الإمامة والسياسة :

« كان » العباس رضى الله عنه لقى أبا بكر فقال : هل أوصاك رسول الله بشىء ؟ قال : لا .. ولقى أيضا عمر فقال له مثل ذلك . . فقال عمر : لا .. فقال العباس لعلىّ : ابسط يدك أبايعك ويبايعك أهل بيتك »[2]

وروايات التاريخ التى تحدث عن الخلافة والخلاف فيها منذ يومها الأول لم يكن من بينها خبر واحد ـ ولو ضعيف ـ يشير إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم نص على الإمام ، أو الأمير أو الخليفة الذى يلى أمر المسلمين من بعده . .

---

(١) الملل والنحل ١ ص ٢٥

(٢) الإمامة والسياسة جزء أول — ص ٤ وما بعدها .

وقد روى صاحب الإمامة والسياسة هذا الخبر :

« عن محمد بن الزبير قال : أرسلني عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصرى رحمهما الله تعالى — أسأله إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف أبابكر رضى الله عنه ، فأتيته ، فاستوى جالسا ، وقال : إى والذى لا إله إلا هو ، استخلفه ! وهو كان أعلم بالله تعالى ، وأتقى من أن يتوثب عليهم لو لم يؤمره »[1] وإذا صح هذا الخبر الذى يرويه صاحب الإمامة والسياسة عن الحسن البصرى رضى الله عنه، فإنه لا يدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم استخلف أبا بكر بمعنى أنه صلى الله عليه وسلم أعلن ذلك فى المسلمين ، وصرح به . . وغاية ما يمكن أن يُحمل عليه كلام الحسن البصرى هنا أنه أخذ من استخلاف الرسول صلى الله عليه وسلم أبابكر للصلاة بالمسلمين حين اشتد عليه المرض — أخذ من هذا — كما أخذ المسلمون من قبله — دلالة حال تشهد لأبى بكر بمكان الفضل على المسلمين عند رسول الله ، ولهذا قالوا فيه يوم بعثته : « قد رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا أفلا نرضاه لدنيانا ؟ » .. وعن هذا الرأى قال الحسن البصرى قولته تلك ! . . .

وأكثر من هذا ، فإن الإمام علىّ كرم الله وجهه يكشف عن هذا الأمر فى جلاء ، لا لبس فيه ، ولا خفاء معه . .

دخل الإمام « على » البصرة بعد موقعة الجمل ، التى قُتل فيها طلحة مع من قتل، ودخل عليه موسى بن طلحة، فقال له « على » كرم الله وجهه: إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك كما قال الله فيهم: « ونزعنا ما فى صدورهم من غِلّ إخوانا على سرر متقابلين » . . وأمسى على بالبصرة ذلك اليوم الذى أتاه فيه موسى بن طلحة . . فقال ابن الكوّاء[2] : أمسيتَ بالبصرة يا أمير المؤمنين ؟ فقال : كان عندى ابن أخى .. قال : ومن هو ؟ قال : موسى بن طلحة ! قال ابن الكواء : لقد

---

(١) الإمامة والسياسة جزء أول ص ٢
(٢) ابن الكواء رأس من رءوس الشيعة

شقينا إن كان ابنَ أخيك ! فقال على : ويحك !.. إن الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ماشئتم ، فقد غفرت لكم ! قال ابن الكواء : ياأمير المؤمنين . . من أخبرك بمسيرك هذا الذى سرتَ فيه ، تضرب الناس بعضهم ببعض ، وتستولى بالأمر عليهم ؟ أرأى رأيته حين تفرقت الأمة ، واختلفت الدعوة ، فرأيت أنك أحق بهذا الأمر منهم لقرابتك ؟ فإن كان رأيا رأيته أجبناك فيه ، وإن كان عهدا عهده إليك رسول الله — فأنت الموثوق به ، المأمون على رسول الله فيما حدثت عنه ! فقال «على» : أنا أول من صدقه فلا أكون أول من كَذَّب عليه: أمّا أن يكون عندى عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا والله .. ولكن لما قتل الناس عثمان نظرت فى أمرى ، فإذا الخليفتان اللذان أخذاها من رسول الله قد هلكا، ولا عهد لهما وإذا الخليفة الذى أخذها بمشورة المسلمين قد قتل وخرجت ربقته من عنقى ولا عهد له ...[1] »

فالإمام « على » يصرّح فى هذا الخبر ، فى وضوح، بأن ليس معه عهد من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أنه لم يكن مع أحد غيره عهد من النبى أيضا . . ولا ينبغى أن يفهم من قوله هنا عن أبى بكر وعمر — رضى الله عنهما — أنهما أخذا الخلافة من رسول الله — أى بعهد منه ، فذلك لم يكن أبدا ، ولو كان ذلك لكان أقوى حجة يوم السقيفة ، بل ولما كان لاجتماع يوم السقيفة داعية مع هذا العهد ! .

لا نصّ إذن على الخلافة ، ولا عهد . . لا لعلى ، ولا لغيره من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأكثر من هذا تدبّرٌ هذا .. التدبير السماوى ، وهذا التقدير الحكيم من ربّ العالمين فى إخلاء يد النبي صلى الله عليه وسلم من الولد الذى يحمل اسمه من بعده ..

لقد أمتع الله قلب رسوله وأقر عينه بالولد فى حياته ، فوهبه عبد الله والقاسم ، وإبراهيم . . وفاطمة ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم .

---

(١) الإمامة والسياسة جزء ص ٨١

ثم استردّهم الله سبحانه وتعالى ولدا ولدا ، وبنتا بنتا فى حياته صلى الله عليه وسلم ،ولم يبق من بعده إلا فاطمة رضى الله عنها ، وقد لحقت به بعد بضعة أشهر !!

فلماذا لم يكن للرسول ولد من بعده ؟

والجواب على هذا هو :

وماذا لو كان للرسول صلى الله عليه وسلم ولد بعده ؟

لاشك أن أقل ما يكون من ذلك أن يجتمع المسلمون عليه ، وأن يقيموه فيهم مقام الرسول صلوات الله وسلامه عليه .!

ثم ماذا لو ذهب هذا الخَلَفُ بالمسلمين مذهباً لايرضى الله ورسوله ؟

أيتركونه يذهب بهم المذهب الذى يراه رعايةً لرسول الله فيه.. أم يخرجون عليه ويثورون فى وجهه . . وفى ذلك ما فيه من حرج وألم ؟

وقد تقول : إنه ابن « النبى » ، وهيهات أن يسقط أو يزلّ ، ونقول : إنه إنسان ! ليس له شىء من عصمة النبى ، ولا صلة له بالسماء . . والنبوة والرسالة « للنبى » وحده ، وما لا حد بعده نصيب من أى منهما .

ثم ماذا يكون الأمر بعد هذا الابن ؟ ثم بعد ابن الابن . . وهكذا ؟

أتستمرّ هذه السلسلة حلقة بعد حلقة . . إلى آخر الدهر ؟ وهل هناك عهد على الأيام ألا يكون فى حلقات هذه السلسلة الطويلة حلقة ضعيفة أو معوجة؟. ولو كان هناك مثل هذا العهد مع الأيام لكان معنى هذا أن المسلمين دائما فى ظل نبوة متصلة . . وهذا كما قلنا من قبل — يعطل إرادة المجتمع الإسلامى ، ويوهن عزمه ويجعله دائما فى ظل وصاية لايبلغ معها مبلغ الرشد أبدا .. والإسلام إنما جاء ليعلن فى مجتمعه: أن الإنسان قد بلغ رشده ،واستأهل أن يكشف الطريق بنفسه ، ولنفسه .

من أجل هذا اختار الله لأمة « محمد » أن يدعها نبيها من غير أن يقيم عليها وصيّا ، أو يترك فيها ولدا.. لم يَتْرُكْ ولدا ينسبه إليه ، ولم يَتْرُكْ أحدا بوصاته له . . ترك المسلمين ليتفاضلوا بالعمل ، وليكرموا بالتقوى .

وقد عدّ بعض المستشرقين ذلك قصورا فى التشريع الإسلامى ، وأنه كان ينبغى ألا يترك الرسول — صلى الله عليه وسلم — المجتمع الذى أقامه من غير نظام يقوم عليه ..

يقول الكاتب الإنجليزى ه . و . ويلز فى كتابه : « على هامش التاريخ الإسلامى » : « لقد كان الأحرى بالرسول أن يضع قواعد للحكم قبل وفاته ، حتى يسير عليها المسلمون من بعده . . ولكنه ترك الأمر بدون وصاية ، لتصرّف المسلمين » ! !

وقول ويلز : « ولكنه - أى النبى - ترك الأمر بدون وصاية لتصرف المسلمين » هو خير رد عليه ، فيما يأخذ على الإسلام وعلى نبى الإسلام من تقصير ، فى بناء بناء الجسد الاجتماعى والسياسى ، للمجتمع الإسلامى . .

لقد ترك الرسول صلى الله عليه وسلم أمر « الحكم » بدون وصاية ، لتصرّف المسلمين ، لأنهم أهل لأن يختاروا لأنفسهم أسلوب الحكم ، على الوجه الذى يقتضيه زمانهم ومكانهم فى الحياة . . إذ أن الحياة حركة دائبة متطورة ، ونظام الحكم يتبع الحياة فى حركتها وتطورها .. ولو وضع الإسلام قالبا معينا للحكم لقيد الجماعة الإسلامية بقيد ثقيل ، ولأقامها على حال لا تتحول عنها أبدا . . وهذا مما يخالف سنة الحياة ، ويناقض شريعة الإسلام التى جاءت لترفع من شأن الإنسان ، ولتدفع به إلى كل سبيل من سبل الخير والفلاح ! .

لقد وضع الإسلام المبادىء العامة التى لا تتغير مع الزمن . ولا تتبدل مع الأحوال .. «العدل ، والإحسان» ، وجعل الشورى المبدأ الذى يقوم عليه نظام الجماعة فى المجتمع الإسلامى . . وفى هذه المجالات العامة الرحيبة يتحرك المسلمون ، حالاً بعد حال ، وزمناً بعد زمن ، يتحركون ومعهم عقولهم ، وإراداتهم ، ووجودهم كله ، إلى جانب ما فى أيديهم من شريعة الإسلام . !

ولو فرض أن النبى صلى الله عليه وسلم نص على اختيار الخليفة من بعده .. فماذا يكون ؟ هل ينقطع ذلك الأمر ويحسم فى شأن الخلافة ؟ وإذا مات الخليفة

الذى أختاره النبى — ولا بد أن يموت — فماذا يكون الأمر من بعده ؟ إنه قد يوصى بها من بعده لمن يراه ، والذى من بعده يوصى بها أيضاً لمن يراه .. وهكذا ..!

فهل يسكن الناس إلى هذا الاختيار ؟ وهل يرضونه ؟ وهل يكون لهؤلاء الخلفاء المتتابعين العصمةَ التى تُلزم الناس الوقوف عند رأيهم ، والنزول على حكمهم ! ؟

لقد ارتضى الشيعة هذا الرأى ، وأقاموا الخلافة عليه ، ونصّبوا أئمتهم به .. فماذا حدث ، لقد كانت تجربة غير ناجحة .. إذ فرّقت الشيعة فرقاً ، ومزقتهم مزقا .. وهم فى هذا كله على غير ملك وسلطان ! فكيف لو كانت إمامتهم ذات ملك وسلطان ؟

* * *

وقد آن الآن أن نلتق بالشيعة ، وبرأيهم فى الخلافة .. أو « الإمامة » كما يحبون أن يطلقوا هذا الاسم على الخلافة .! إذ خصوا عليًّا باسم «الإمام»، نعتاً له بالإمامة ، التى هى أخت الخلافة ، وتعريضا بمذهبهم فى أنه أحق بإمامة الصلاة من أبى بكر .. فخصوه بهذا اللقب ، ولمن يسوقون إليه منصب « الخلافة » من بعده »(١)

قلنا : إن الشيعة تذهب مذهبا خاصًّا تخالف فيه أهل السنة فى «الخلافة» من حيث صلتها بالدين ، وفى « الخليفة » من حيث صفته الدينية ، ومن حيث النص على تعيينه ..

وقلنا : إن الشيعة تفرقت فى هذا فرقا كثيرة . وأننا سنكتفى من آرائها هنا بالشيعة « الإمامية » لأنها — كما قلنا — أكبر فرق الشيعة وأبرزها فى المجتمع الإسلامى ، ولأنها — من جهة ثانية — أقرب إلى أهـل السنة ، وأبعد من الغلوّ الذى باعد بين كثير من فرق الشيعة وبين الجماعة الإسلامية ..

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٥

قلنا هذا . .

ونقول الآن . . إن الشيعة الأمامية يرون الإمامة من أصول الدين ، التى ينبغى الاعتقاد بها ، والعمل على تحقيقها . . إذ لا يتم الإيمان إلا إذا استقام عليها المسلم معتَقَداً وعملاً . . كالصلاة ، والصوم والزكاة والحج .

يقول السيد « محمد رضا المظفر » [1] فى كتابه « عقائد الإمامية » :

« نعتقد أن الإمامة أصل من أصول الدين لا يتم الايمان إلا بالاعتقاد بها.. ولا يجوز فيها تقليد الآباء والأهل والمربين ، مهما عظموا وكبروا . . بل يجب النظر فيها كما يجب النظر فى التوحيد والنبوة ! . »

وأنت ترى أن مكانة الإمامة فوق مقام الصلاة وغيرها من أركان الدين . . إذ الصلاة وغيرها من أمور الدين يجوز التقليد فيها — حسب مذهب أهل السنة — وذلك رفعاً للحرج عن العامة ، الذين ليس فى إمكانهم النظر فى حقائق الدين نظراً يُستدل به على تلك الحقائق ، ومعرفة الأحكام المتعلقة بها من الكتاب والسُّنة . .

يقول صاحب الملل والنحل : « وأما العامى فيجب عليه تقليد المجتهد ، وإنما مذهبه فيما يسأله مذهبُ من يسأل عنه » [2]

والإمامة عند الشيعة لا ينبغى التقليد فيها — كما رأيت — بل يجب على كل مسلم — حسب هذا المعتقد — أن يكون هو الذى ينظر فى « الامامة » ، ويطلب الدليل عليها ، ويقيم الحجج لها ، حتى تقع من قلبه وعقله موقع الإيمان !..

ثم يقول السيد المظفر :

« كما نعتقد أنها — الإمامة — كالنبوة لطف من الله تعالى !

« فلا بد أن يكون فى كل عصر إمام هاد يخلف النبى فى وظائفه ، من هداية البشر ، وإرشادهم إلى ما فيه الصلاح والسعادة فى النشأتين . . »

---

(١) السيد محمد رضا المظفر من كبار فقهاء الشيعة الإمامية وعلمائهم فى هذا العصر .
(٢) الملل والنحل جزء ١ ص ٣٥٧

ويفهم من هذا أن النبوة قائمة لا تنقطع أبداً ، إذ الإمام هو قائم مقام النبي ، وله ما للنبي من العصمة ، والولاية العامة على الناس !

وفى هذا يقول السيد المظفر أيضاً :

« وله — أى الإمام — ما للنبي من الولاية العامة على الناس ، لتدبير شئونهم ومصالحهم ، وإقامة العدل بينهم ، ورفع الظلم والعدوان من بينهم . . !! [1]

ويقول :

« وعلى هذا فالإمامة استمرار للنبوة ، والدليل الذى يوجب إرسال الرسل ، وبعث الأنبياء ؛ هو نفسه يوجب أيضاً نصب الإمام بعد الرسول . !

« فلذلك نقول : إن الإمامة لا تكون إلا بالنص من الله تعالى على لسان النبي ، أو على لسان الإمام الذى قبله — أى قبـــل الإمام — . . وليس هى بالاختيار ، والانتخاب . . من الناس ! .

« فليس لهم — أى للناس — إذا شاءوا أن ينصبوا أحداً نصبوه ، وإذا شاءوا أن يعينوا إماماً عينوه ، ومتى شاءوا أن يتركوا تعيينه تركوه ليصح لهم البقاء بلا إمام . . بل « من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » على ما ثبت ذلك عن الرسول الأعظم بالحديث المستفيض .

ثم يقول أيضاً :

« وعليه . . لا يجوز أن يخلو عصر من العصور من إمام مفروض الطاعة ، منصوب من الله تعالى . . سواء أبى البشر أم لم يأبوا ، وسواء ناصروه أم لم ينصروه . . وسواء أكان حاضراً أم غائباً عن أعين الناس . . !!

« إذ كما يصح أن يغيب النبي ، كغيبته فى الغار والشعب صح أن يغيب الإمام ، ولا فرق فى العقل بين طول الغيبة وقصرها .. قال تعالى : « ولكل قوم هادٍ » وقال تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير[2] » .

---

(١) عقائد الامامية ص ٤٩ — ٥١ (٢) سورة فاطر آية ٢٤

وفى هذه المقولات نظر لناظر ، واعتراض لمعترض .

فأولا : القول بأن الإمامة استمرار للنبوة . . هذا القول يعطى للإمام الحق فى أن يشرّع ، وأن يتناول أحكام الشريعة الإسلامية بالمحو والإثبات ، والنسخ ، لأنه امتداد للنبوة . والنبى قد فارق الدنيا بعد أن أتم الله تعالى على يديه دينه . . فقال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ؛ وأتممت عليكم نعمتى ؛ ورضيت لكم الاسلام ديناً »[1] . . فليس لأحد بعد النبي أكثر من الاجتهاد فى فهم الشريعة مما بين دفتى المصحف ؛ وما سن الرسول من قول أو عمل .

وثانيا : قوله : لا يجوز أن يخلو عصر من إمام مفروض الطاعة ؛ منصوب . من الله تعالى » . . هذا القول يضع الداخلين تحت حكمه فى محنة قاسية ؛ إذ يسلط عليهم شعوراً إيمانياً يسلمون به وجودهم كله لأى مدع يدعى «الإمامة» أو يدعيها له غيره . . وقد حفظ التاريخ كثيراً من أولئك الأئمة الذين لبسوا لقب الإمامة ؛ وخرجوا به على الناس ؛ وداروا بهم فى الحياة دورات مضطربة ؛ أفقدتهم وعيهم ؛ وغشت على أبصارهم ؛ فصاروا مِقْوَداً فى أى يد تقودهم ولو إلى الهاوية . .

يحدّث صاحب الملل والنحل عن أخبار المختار بن عبيد ؛ وكان داعية لمحمد ابن الحنفية رضى الله عنه . . فيقول :

« فمن مخاريقه — أى المختار — أنه كان عنده كرسى قديم قد غشاه بالديباج؛ وزينه بأنواع الزينة ؛ ثم خرج به على الناس ؛ وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين « علىّ » عليه السلام . وهو بمنزلة التابوت لبنى إسرائيل . فكان إذا حارب خصومه يضعه فى بَرَاحِ الصف ؛ ويقول : « قاتلوا ولكم الظفر والنصرة ؛ وهذا الكرسى محله فيكم محل التابوت فى بنى إسرائيل ؛ وفيه السكينة . والبقية ؛ والملائكة من فوقكم ينزلون مدداً لكم » »[2] .

---

(١) سورة المائدة آية ٣ .

(٢) الملل والنحل جزء ١ ص ٢٣٩

وهذا الصندوق — كما يقول ابن الأثير فى كتابه النهاية — كان عند زيات ؛ قد تلطخ بالزيت زمناً ؛ فرآه أحد أصحاب المختار واسمه « الطفيل بن جعدة » ؛ فحمله إلى داره ؛ وغسله ؛ فوجده قد اكتسب لوناً كالنضار ؛ فبدا له أن يحمله إلى « المختار » ويدعى فيه دعوى أنه أثر من آثار « على » كرّم الله وجهه . . فاهتبلها « المختار » فرصة ، وأعلى أمره فى الناس ؛ ففتنوا به . .[1] »

هذا شأن داعية من دعاة الإمام فى تخدير العقول بهذا الشعور الدينى الغامض ، الذى يأتى من عالم المجهول ؛ فيستولى على وجود الإنسان كله . . فكيف بالإمام نفسه إذا بدا له أن ينحو هذا المنحى من الاستيلاء على عقول الناس والاستبداد بها ؟

وطبيعى أن الأئمة المهديين من آل البيت رضى الله عنهم — كانوا فى دينهم ؛ وعقلهم ؛ ومروءتهم بمنأى عن هذا الهوس الذى كان يدور فى رأس « المختار » وعبد الله بن سبأ ؛ وغيرهما ممن ألَّهوا عليّاً ؛ وبعض بنيه من بعده .

ولقد أنكر محمد بن الحنفية على المختار أسلوبه هذا ؛ وتبرأ منه ؛ كما فعل الإمام على بعبد الله بن سبأ وهدد بالقائه فى النار حياً . .

« إمام مفروض الطاعة . . منصوص عليه من الله . . »

من فرض طاعته ؟ وبأى كتاب وبأية سنة ؟ . . وما هذا النص الذى جاء من عند الله فى حقه ؟ ما اسمه ؟ وما زمنه ؟ . . أهو سر لا يعلمه أحد إلا الإمام القائم الذى ينقل إليه الإمامة من بعده ؟ أهذا نص من الله ؟ وهل فى الشريعة نصوص مقصورة على فرد من أفراد الناس ؟ وكيف يحمل الناس على ما فى صدور الناس ؟ وأين البلاغ الذى أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته[2] » .. وفى قوله جل شأنه : « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب[3] » ومفهوم هذا أنه لا حساب إلا بعد البلاغ .. فكيف يجب على الناس الإيمان بإمام لم يجدوا له وجوداً فى شريعتهم ؟

---

(١) النهاية لابن الأثير جزء ٤ ص ١٠٨ (نقلا عن هامش الملل جزء ١ ص ٢٢٩)
(٢) سورة المائدة آية ٦٧ (٣) سورة الرعد آية ٤٠

وثالثاً : هذا القول بأنه يجوز أن يكون الإمام غائباً ، أى أنه قد اختفى تقية مع وجوده ، أو أنه لم يظهر بعد !.

ونسأل : إلى متى تظل غيبة الإمام ؟ إنهم لا يضعون حداً لغيبته ، فقد تطول وتطول مئات السنين !.

ونسأل أيضاً : إذا ظهر الإمام بعد غيبته الطويلة .. فمن تلقى النص على إمامته ؟ ثم أهو المهدىّ المنتظر ؟ وإذن فهناك أكثر من مهدى ؟. ثم ـ أيضاً ـ أيظل الناس فى هذا الفراغ الروحى والمادى ، بلا إمام ، ولا حاكم .؟ أيتعللون بهذا الأمل أجيالاً بعد أجيال ؟ وكيف والشيعة يقولون : من مات ولم يعرف إمامه مات ميتة جاهلية ، ويصلون هذا القول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟.

الحق أنى مخلص أشد الإخلاص فى البحث عن الحقيقة التى أجد عندها برد الطمأنينة فى هذا التصور « للإمام » وما يتصل به من مقولات ! أريد معقولية هذه المقولات ، وقياسها بمقاييس المنطق الذى تقبله الحياة ، ويتعامل به الناس ! .

إننى أحمل بين جنبىّ أطيب المشاعر من الحب والتوقير لآل البيت ، وشيعة آل البيت ، وكل مسلم مطالب بأن يحمل مثل هذه المشاعر لهم ، فقد وضع الله آل البيت فى الناس موضعاً كريما ، وخصَّهم بكثير من رحمته وفضله.. كما فى قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »[1] . وكقوله تعالى : « رحمة الله وبركاته عليكم أهلَ البيت[2] » .. فقد رحمهم الله تعالى ، وبارك عليهم !.

وليس مما يرفع من قدر هذا الحب ، أن يكون حبًّا أعمى ، لا يقوم على منطق ، ولا يستند إلى فهم . . فإن مثل هذا الحب لا يعمر طويلا فى الحياة ، لأن عمره موقوف على هذه الغاشية العمياء التى تغشى المحبين ، فإذا صحا منها المرء — ولا بد أن يصحو — ذاب هذا الحب كما يذوب الثلج فى وهج الشمس !.

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٣ . (٢) سورة هود آية ٧٣ .

والحب الذى يحيا فى الحياة هو الحب الذى يقوم على حقائق لا ينكرها العقل إذا صحا ، ولا يأباها القلب إذا سلم ..

ولهذا فإنى حريص على أن أتحرّى جانب الحق ، والواقع ، فيما يدخل على عقلى وقلبى مما يمس العقيدة من بعيد أو قريب ، لأنى حريص على أن يستقر مقام هذه الحقائق التى تقوم عليها عقيدتى ، حتى تعمق جذورها فى كيانى ، فتثبت فى وجه الأعاصير التى تثيرها الفتن والأحداث !! ..

« نعود — بعد هذا — لنصل ما انقطع من حديثنا مع السيد محمد رضا المظفر ، المتحدث بلسان الشيعة والمقرر لمذهبها فى الإمامة .

يقول السيد المظفر :

« نعتقد أن الإمامة كالنبوّة .. لا تكون إلا بالنص من الله تعالى ، على لسان رسوله ، أو لسان الإمام المنصوب بالنصّ ، إذا أراد أن ينص على الإمام من بعده[1] .. وحكمه فى ذلك حكم النبوّة .. بلا فرق ! فليس للناس أن يتحكموا فيمن يعينه الله هادياً ومرشداً لعامة البشر ، كما ليس لهم حق تعيينه أو ترشيحه ، أو انتخابه ، لأن الشخص الذى له من نفسه « القدسية » استعداد لتحمل أعباء الإمامة العامة وهداية البشر قاطبة يجب ألا يعرف إلا بتعريف الله ، ولا يعيّن إلا بتعيينه . »[2]

وهذا الكلام قد سبق تقرير مثله ، كما سبق ردنا عليه ، وقد نقلناه هنا لأنه أصرح وأوضح فى هذا المعنى !.

ثم يقول السيد المظفر :

« ونعتقد أن النبى صلى الله عليه وسلم نص على خليفته أو الإمام فى البرية من بعده .

---

(١) فى نص الشيعة من كلمة « إذا أراد أن ينص على الإمام من بعده » . فإن معنى هذا أنه يجوز للإمام ألا ينص على من بعده . والسؤال هنا هو : ما حال الناس على الإمام ، فى هذه الحال ، وقد تركهم [illegible] من غير أن يعين إماما لهم ، ولم ينص عليه ؟

(٢) عقائد الشيعة ص ٦٠

« فعين ابن عمه عليّ بن أبي طالب أميراً للمؤمنين ، وأميناً للوحى ، وإماماً للخلق ، فى عدة مواطن ، ونصّبه ، وأخذ البيعـــة له بإمرة المؤمنين يوم الغدير [١] ، فقال : « ألا من كنت مولاه ، فهذا « عليّ » مولاه . . اللهم والِ من والاه ، وعادِ من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدِرِ الحقّ معه كيفما دار » .

ثم يقول :

« ومن أدل مواطن النص على إمامته قوله صلى الله عليه وسلم حينما دعا أقرباءه الأدنين ، وعشيرته الأقربين فقال : « هذا أخى ووصيّ وخليفتى ، فاسمعوا له وأطيعوا » .. وهو يومئذ صبى لم يبلغ الحلم ، وكرر قوله فى عدة مرات : « أنت منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لا نبيّ بعدى » . . إلى غير ذلك من روايات ، وآيات كريمة دلّت على ثبوت الولاية العامة له ، كآية المائدة : [آية ٥٥] « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » وقد نزلت فيه عند ما تصدق بالخاتم ، وهو راكع » [٢] .

ونقف من هذه الشواهد موقف شك وتردد ، إذ لا نجد فيها هذه الدلالات التى يستخرجها منها إخواننا من الشيعة . . بل إن الذى يردّ الألفاظ إلى معانيها التى وضعت لها ، دون أن يحمل لها محاميل أخرى مختفية وراء ظاهرها — الذى يرد الألفاظ إلى معانيها اللغوية يجد فى هذه النصوص أكثر من شاهد يشهد بأن هذا التخريج الذى خرّجت عليه تنكره ألفاظها ، وتأباه أشد الإباء .

فأولا : الحديث الوارد فى غدير « خم » إذا فرضت صحته ، يكون دعاء من الرسول الكريم ، ودعاؤه صلى الله عليه وسلم مستجاب من غير شك أو ارتياب ! ويكون قوله : « انصر من نصره » قوة عاملة مع « عليّ » رضى الله عنه ، ومع كلّ من ينتصر له فى حياته أو بعد موته . . وهذا يعنى أن يكون النصر دائما فى جانب عليّ ، وفى جانب شيعته أبداً . . وهذا مالم يشهد به الواقع ، فقد هزم

---

(١) الغدير هو غدير خم

(٢) عقائد الشيعة ص ٦٠

أشياع «على» فى مواطن كثيرة ، وسالت دماؤهم أنهارا ، واستشهد الحسين بن على رضى الله عنهما ، ومعه أكثر أهل بيته .. ثم تتابعت مصارعهم فى خلافة الأمويين والعباسيين . . وهذا شاهد قائم على أن هذا الحديث غير صحيح ، ولا يشفع لصحته أن يحمل النصر على غير محمله هذا ، فيقال إنه نصر من نوع آخر . . نصر فى الغلبة على أهواء النفس مثلا ! . أو نحو هذا . .

وثانياً : وأما النص الثانى وهو مايروى عن دعوة النبىّ لأقربائه وعشيرته وإعلانه فيهم أن « عليا » أخوه ، ووصيه ، وخليفته . . وأن عليهم أن يسمعوا له ويطيعوا . . هذا النص — إن صح — يكون مفعوله مقصوراً على بنى هاشم وحدهم .. الذين وجّه إليهم هذا البلاغ .. وليس لعامة المسلمين شأن به ، إذ لو كان أمراً عاما لما قصره الرسول على أهله ، وأهله لم يكونوا أسبق الناس إلى الإسلام ، ولا أكثرهم يوم قيل هذا القول .. فلو كان دعوةً عامة لدعا النبى صلى الله عليه وسلم جماعة المسلمين الذين كانوا معـــه يومئذ فى مكة ، ولأذاع هذا القول فيهم ! .

فهذا الحديث أيضاً ظاهر الوضع ، فإن فيه إلى جانب هذا ، أن الذين دُعوا من آ ل هاشم كان معظمهم من الذين لم يدخلوا فى الإسلام ، بل ومن الذين كانوا أشد الناس حربا على الإسلام . . فلقد شهد أبو جهل هذه الدعوة (١) ! . وليس لهذا الصنيع مفهوم ، ولا لهذه الدعوة مبرر فى هذا الوضع وعلى تلك الصورة .. وهل كان أبو جهل ممن يدعى ليشهد هذا الاجتماع ، ويستمع لما دعا إليه الرسول فى شأن « علىّ » رضى الله عنه ؟ .

وثالثاً : الآية الكريمة : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » . . هذه الآية كيف يقال إنهـا نزلت فى « علىّ » كرّم الله وجهه ؟ !

---

(١) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة جزء ١٣

(٢) سورة المائدة آية ٥٥

أن الولاية هنا معناها المودة والمحبة لله ولرسوله وللمؤمنين . . وهذا ما تشهد به مواقف كثيرة فى القرآن الكريم تدعو المؤمنين إلى أن تكون ولايتهم لله ، ولرسوله ، ولهم .. فيما بينهم ، وألا تكون بينهم مودة وموالاة لمن حارب الله ورسوله .

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ يخرجونَ الرّسول وإياكم .. أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تُسِرّون إليهم بالمودّة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل »[1] .

ويقول : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم »[2] .

ثم إن هذه الآية التى يُستشهد بها هنا على أن المراد بالذين آمنوا هو « على » كرّم الله وجهه . هذه الآية مسبوقة ومتبوعة بآيات كلها تدعو إلى أن يتولى المؤمنون بعضهم بعضاً ، وألا تكون بينهم وبين من حارب الله ورسوله موالاة .

فى هذه الآيات تجىء هذه الدعوة مترابطة . . عامة ، لتكون سياسةً من سياسة المسلمين ، وشريعة من شريعة دينهم . .

يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياءَ ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولّهم منكم فإنه منهم . . إن الله لا يهدى القوم الظالمين . . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتىَ بالفتح أو أمرٍ من عنده ، فيصبحوا على

---

(١) سورة الممتحنة آية ١

(٢) سورة التوبة آية ٧١

ما أسَرُّوا فى أنفسهم نادمين .. ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم إنهم لمعكم ؟ حبطت أعمالهم ، فأصبحوا خاسرين .. يأيها الذين آمنوا من يرتدَّ منكم عن دينه ؛ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلَّة على المؤمنين ؛ أعزَّةٍ على الكافرين . يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومْةَ لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم »[1] .

فهذه دعوة عامة من الله سبحانه وتعالى إلى المؤمنين ألا يتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض .. فإن عواطف المودَّة والحب إنما تكون بين الأصفياء الذين لا يضمر بعضهم لبعض عداوة ، ولا يبيت سوءاً ..

ثم تجىء بعد هذه الآيات مباشرة الآية التى هى موضع الاستشهاد عند الشيعة : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا .. الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون .. »[2]

ثم تجىء بعدها مباشرة أيضاً الآيات : « ومن يتولَّ اللهَ ورسولَه ، والذين آمنوا فإنَّ حزب الله هم الغالبون ... يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً — من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار — أولياءَ ؛ واتقوا الله إن كنتم مؤمنين »[3] .

فهذا الترابط الذى بين هذه الآيات يجعل منها جميعاً وحدة واحدة ، ونسقاً متصلا . لتقرير المعنى الذى قصدت إليه . وهو أن يصرف المؤمنون مودَّتهم وحبهم.. لله ولرسوله وللمؤمنين، وألا يُلقوا بالمودّة إلى من نصب الحرب لله ولرسوله وللمؤمنين .

وليس بمستساغ أبداً فى وسط هذه الدعوة العامة ، وهذا التوجيه الشامل

---

(١) سورة المائدة آية ٥٢ — ٥٤

(٢) سورة المائدة آية ٥٥

(٣) سورة المائدة آية ٥٦ ، ٥٧

أن تَضْمُر هذه الدعوة؛ وأن ينكمش هذا التوجيه الذى يجعل من المؤمنين وحدة واحدة مترابطة بالحب والمودّة — فيكون «علىّ» هو متوجّه هذا الحب وتلك المودة .. ويكون «الذين آمنوا» التى وردت أكثر من مرة فى هذه الآيات مراداً بها «علىّ» كرم الله وجهه .. إن التعسف فى تأويل هذه الآيات — مهما تكن حدّته وانحرافه — لايمكن أن يخرج منه هذا المعنى الذى أوّلَ به «الشيعة» الآية الكريمة، وفهموها عليه .. إن ذلك أكثر من تعسف وأكثر من انحراف .. إنه خروج عن المعنى الأصلى خروجاً عنادياً صريحاً، يراد منه كسب الدعوى المدّعاة بأى ثمن!

وقد يستند «الشيعة» فى هذا إلى أن بعض المفسرين من أهل السُّنة قد خرّجوا الآية على هذا الوجه ..

ونقول: إن المفسرين الذين ذكروا هذا الوجه من التفسير للآية إنما ذكروه على أنه قول قيل فيها، وليس هو الرأى المعوّل عليه ... وأصحاب التفاسير ينقلون كثيراً من الروايات، والقصص الواهية الضعيفة، إلى جانب ما يروون من أخبار صحيحة، وآراء سليمة مستقيمة .. ويكون هذا عرضاً كاشفاً للرأى السليم، حين يُنظر إليه فى مواجهة تلك الآراء السقيمة، فإن الحسن فى مواجهة القبيح يزداد حسناً!

وفى هذه الآية قد روى «ابن كثير» وجوهاً كثيرة من الرأى، ومن بينها الوجه الذى يقول إنها نزلت فى الإمام «على» رضى الله عنه، وروى له أكثر من خبر؛ ولكنه قال عنها جميعها: «وليس يصح شىء منها لضعف أسانيدها، وجهالة رجالها». ثم يروى عن ابن جرير عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية: «من أسلم فقد تولى الله ورسوله، والذين آمنوا». وكذلك روى فيها أيضاً عن ابن جرير عن هَنادٍ عن عبدة عن عبد الملك عن أبى جعفر؛ قال: سألته — أى ابن عباس — عن هذه الآية: «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا .. الخ»

قلنا : من الذين آمنوا ؟ قال : الذين آمنوا !! قلنا : بلغنا أنها نزلت فى علىّ بن أبى طالب . فقال : « علىّ من الذين آمنوا ؟ ! . » [1]

هذا ، ومن الآيات التى يستدل بها الشيعة على ما لآل البيت على المسلمين من حق ، قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » [2] .

وفيها وجوه كثيرة ، أضعفها الوجه الذى يخصّ المودة بآل البيت .

* * *

ونعود مرة أخرى لنصل ما انقطع من حديثنا مع السيد المظفر ..

يقول السيد :

« ونعتقد أن الإمام كالنبىّ .. يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ، ما ظهر منها وما بطن . من الطفولة إلى الموت عمداً وسهواً .. كما يجب أن يكون معصوماً من السهو ، والخطأ ، والنسيان .. لأن الأئمة حفظة الشرع ، والقوامون عليه .. حالهم فى ذلك حال النبىّ .. والدليل الذى اقتضانا أن نعتقد بعصمة الأنبياء هو نفسه يقتضينا أن نعتقد بعصمة الأئمة . بلا فرق .

ثم يستشهد على هذا بقول الشاعر [3] :

وليس على الله بمستكثر ... أن يجمع العالم فى واحد ! [4]

وفى هذه المقولة أقوال :

١ — « إن الإمام كالنبىّ . . يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ماظهر منها ومابطن .. من الطفولة إلى الموت .. عمداً ، وسهواً » .

الإمام إذن نبى بعد النبى . . سواء بسواء . . وقد قلنا من قبل إن هذا يقتضى ألا يكون « محمد » خاتم النبيين ، وأن يكون الأئمة من بعده أنبياء . . ومعنى هذا أن تتبدل الشريعة حالا بعد حال . . فكما أن للنبىّ أن يشرّع ، كذلك الإمام هو صاحب شرع أيضاً .. ولا عليه إذن إذا جاء بشرع جديد وبدين جديد ! .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير — الجزء الثانى — سورة المائدة ص ٧١

(٢) سورة الشورى آية ٢٣

(٣) الشاعر هو أبو نواس .. وهذا البيت من قصيدة يمدح بها أحد الخلفاء العباسيين

(٤) عقائد الشيعة ص ٥١

فأين إذن الكتاب الذى نزل على الإمام ليشهد له بصدق دعواه ، وليجعل له على الناس الحجة ؟ أ كل دعوى يقبلها الناس كهذا من غير شاهد أو دليل ؟ إن ذلك لن يخلق فى قلوب الناس إيماناً ، ولا يمسك ديناً !

ثم إن وجوب العصمة للإمام من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها ، وما بطن .. من الطفولة إلى الموت .. عمداً وسهواً .. » — من أوجبها ؟ وما مستندها ؟ أدعوى بلا دليل ؟ إن فى وسع كل إنسان أن يدعى ما يشاء من كمالات ، وكرامات ، ونبوة ، بل وألوهية ! .. ولكن كل دعوى بلا دليل ساقطة .. لا حساب لها !

٢ — « الإمام معصوم من السهو ، والخطأ ، والنسيان ! » .

إن ذلك يضع الإمام فى منزلة فوق منزلة النبي .. فلقد سها النبي صلى الله عليه وسلم ، بل وأخطأ مجتهداً ..

فالنبيّ يخطىء فى اجتهاده ، ولكن السماء لا تقره على هذا الخطأ ، بل تجعل هذا الخطأ تجربة يدخل فيها المسلمون ، ثم يجىء توجيه السماء منبهاً للسهو ، مصححاً للخطأ ..

وهذا لا شك عارض من عوارض البشرية التى تندس فى كيان النبي ، والتى ينبغى أن تعبر عن وجودها فى كثير من أحواله التى لا تمس التشريع !

فكيف إذن يكون الإمام معصوماً عصمة مطلقة ، ولا يجوز عليه الخطأ ، ولا السهو ، ولا النسيان ؟ إنه إذن إله مع الله .. لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم !!.

* * *

ومرة أخرى أقول : كم يسعدنى أن ألتقى مع شيعة آل البيت ، وأن أجد « للإمام » المفهومَ الذى يستريح إليه عقلى ، ويطمئن به قلبى ! وأن يكون الأمر بيننا قائماً على صريح الكتاب والسّنة ، جارياً على منطق العقل وواقع الحياة .. إن الإسلام دين واضح المعالم ، بيِّن الدلالات .. ليس فيه أسرار ،

وليس عليه حجب وأستار ، وفى مستطاع كل إنسان أن يبصر طريقه فيه ، ويعرف عقيدته وشريعته منه . . ! .

* * *

ولكن هل انتهت « عقائد الشيعة » عند هذا فى شأن الإمام ؟ كلا . . فهناك مقولات كثيرة ، تسوق إلى « الإمام » خصائص وصفات ، نرى من الخير أن نعرضها هنا ، لتكتمل لنا الصورة ، فنرْاها على قريب . . من الوجه الذى يراها عليه أصحابها . .

يقول السيد المظفر :

« نعتقد أن الأئمة هم أولوا الأمر ، الذين أمر الله تعالى بطاعتهم ، وأنهم الشهداء على الناس ، وأنهم أبواب الله ، والسبل إليه ! والأدلاء عليه ، وأنهم عَيْبَةَ[1] علم الله ، وتراجمة وحيه ، وأركان توحيده ، وخزّان معرفته ، ولهذا كانوا أماناً لأهل الأرض ، كما أن النجوم أمان لأهل السماء ! . .

« وكذلك أن مقامهم فى هذه الأمة كسفينة نوح . . من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق وهوى ! وأنهم حسب ما جاء فى الكتاب المجيد « عباد الله المكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون[2] » .

« بل نعتقد أن أمرهم أمر الله ونهيهم نهيه ، وطاعتهم طاعته ، ومعصيتهم معصيته . ووليهم وليه ، وعدوهم عدوه ! .

« ولا يجوز الرد عليهم ، والرادّ عليهم كالراد على الرسول ، والرادّ على الرسول كالرادّ على الله تعالى . .

« فيجب الانقياد لأمرهم ، والأخذ بقولهم ! .

---

(١) العيبة : الحقيبة .. الخرج الذى يحمل فيه المسافر أمتعته

(٢) هذه الآيات فى وصف « الملائكة » بصريح القرآن . . « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . . سبحانه . . بل عباد مكرمون . . » وذلك فى الرد على القائلين بأن الملائكة هم أبناء الله ! وقد وردت الآية محرفة .. وصحتها ما أثبتناه هنا

ثم يقول السيد المظفر :

« ولهذا نعتقد أن الأحكام الشرعية الإلٓهية لا تُستَقَى إلا من نمير مائهم ، ولا يصح أخذها إلا منهم ، ولا تفرغ ذمة المكلف بالرجوع إلى غيرهم ، ولا يطمئن بينه وبين الله إلى أنه قد أدى ما عليه من التكاليف المفروضة إلا من طريقتهم .. إنهم كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق فى هذا البحر المائج الزاخر بأمواج الشبه والضلالات ، والادعاءات والمنازعات . .[1] »

ويحس الإنسان وهو يقرأ هذه الآيات التى ترتل فى تمجيد الإمام ، وفى التسبيح بذاته وصفاته أنه أمام إله يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور ! . . فالإمام عَيْبة علم الله ، وترجمان وحيه ، وأركان توحيده ، وخازن معرفته . . وهو أمان لأهل الأرض ، كما أن النجوم أمان لأهل السماء ! .

إن الشعور الذى يدخل على المرء وهو يتمثل صورة « الإمام » من خلال هذه الأوصاف يلقى فى روعه أن « الإمام » هو الإلٓه المتصرف فى الناس ، وفى هذا العالم الأرضى كله ، وأن الله تعالى قد سلَّم إليه مقاليد الأمر والتدبير فى الأرض . . يبسط الرزق لمن يشاء ، ويقْدِر له . . يعزّ من يشاء ويذل من يشاء . . بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ! .

وما الفرق إذن بين « الإمام » وبين الله إذا كان أمره أمر الله ، ونهيه نهيه ، وطاعته طاعته ، ومعصيته معصيته ؟ ! إنه لا فرق ! .

إن الناس فى ظل « الإمام » ـ فى حضرته وغيبته ـ ليسوا ناساً ذوى عقول . ومشاعر ، ووجدانات .. إنهم آلات صماء لا إرادة لهم ولا أمل فيهم ، ولا رجاء عندهم . . هم أطفال فى مسالخ رجال ! .. فالأئمة لا يجوز الرد عليهم والرادّ عليهم كالراد على الرسول ، والراد على الرسول كالراد على الله . . ! ! .

إن الرسالة المحمدية ما كانت خاتمة الرسالات إلا لتقول للناس إنكم قد

---

(١) عقائد الشيعة ص ٥٥

ونقول : هذا القول ينقض القول الأول بتسوية الأئمة بالنبيّ . . فالنبيّ صلى الله عليه وسلم لم يكن بالذى لا يقول لا أدرى إذا سئل عن شىء ، ولم يكن عنده علم !! لأنه — صلى الله عليه وسلم — يعرف حدوده التى أقامه الله عندها . . والله سبحانه وتعالى يقول على لسانه . « قلْ ما كنت بِدْعاً من الرسل ، وما أدرى ما يفْعَلُ بى ولا بكم »(١) . . فقد نطق القرآن هنا بأن النبى قال « لا أدرى » ! . . ويقول الحق جلّ وعلا على لسانه أيضا : « وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون »(٢و٣) . « وإن أدرى لعله فتنةٌ لكم ، ومتاعٌ إلى حين (٤) » . . والله سبحانه وتعالى يخاطبه : « وما يدريك لعله يزّكى(٥) » . . وبقوله . « لا تدرى : لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » (٦) !.

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من سؤال ، فلم يقل للسائل : إليك الجواب . . بل كان يقول : لا أدرى ، . . ثم ينتظر رد السماء . . وقد لا يأتى الرد إلا بعد حين ! . .

« ويسألونك عن الروح .. قل الروح من أمر ربى »(٧) .. « ويسألونك ماذا ينفقون .. قل : العفو(٨) .. » .. « يسألونك عن الخمر والميسر . . قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس »(٩) وهكذا كان شأن الرسول فى كل حادثة ، وفى كل أمر يعرض . . إذا وجد الجواب أجاب ، وإلا انتظر أمر ربه فيه . .

ولقد رُميت السيدة عائشة رضى الله عنها ، وأوذيت فى عرضها ، وأوذى النبيّ من ذلك أذى كبيراً . . ومع هذا فما قال كلمة تبرئها أو تدينها .. وظل الحال مع ذلك أياماً بلغت عددا . . حتى نزلت آيات الكتاب تشهد لها ، وتعلى فى المحصنات الطاهرات ، العفيفات قدرها !.

وأحسب أن فى هذا القدر الذى عرضناه من آراء الشيعة فى « الإمامة » و « الإمام » ما يكفى لبيان حقيقة المذهب ورأيه فى هذا الأمر .

---

(١) سورة الأحقاف آية ٩

(٢،٣،٤) إن هنا نافية ، ومعناها ما أدرى — هاتان الآيتان فى سورة الأنبياء ١٠٩ ، ١١١

(٥) سورة عبس آية ٣ (٦) سورة الطلاق آية ١

(٧) سورة الإسراء آية ٨٥ (٨و٩) سورة البقرة آية ٢١٩

ويلاحظ أننا لم نردد النظر فى مؤلفات « الشيعة » وفى مقولات علمائها وفقهائها فى « الإمامة » بل إننا قصرنا نظرتنا على ما جاء فى مؤلف السيد رضا المظفر « عقائد الشيعة » . . وذلك أن السيد المظفر لم يقل إلا ما تقرّر فى المذهب ، وما أصبح بموضع التسليم ، والاتفاق بين أتباعه . .

ونستطيع بعد هذا أن نقرر أن المجتمع الإسلامى لايمكن بحال أبدا أن يحتمل حكومة تقوم فيه على هذا الوجه الذى يمثله « الإمام » . ! فإن ذلك « الحكم » يسلب المسلمين إرادتهم ، ويمسخ وجودهم ، ويحيلهم أقزاماً تحت قدمى عملاق . . يضع قدميه على الأرض . ورأسه فى السماء ! وهيهات أن يكون بين هذا المخلوق العجيب وبين الناس صلة جامعة . . إنهم من عالم ، وهو من عالم آخر . . إنهم ناس ، وهو إله أو شبه إله ! !

والإسلام دين سماوى ، ولكن موطنه الأرض ، ومغرسه قلوب الناس وعقولهم . . إنه مدد من أمداد السماء ، وخير من خيرها ، يعيشون به ، ويرزقون منه .. أشبه بمايتزل من السماء من ماء ، وما ينبعث من الشمس من ضوء ، وما يسرى من القمر من نور . . ينفع الناس . ولا يغيّر من وجودهم ، أو يضعف من شخصيتهم ، أو يجور على إنسانيتهم . . وقد عاش المسلمون فى فترة النبوّة بكل ذاتياتهم ، وشخصياتهم ، لم يعطل النبىّ تفكيرهم ، ولم يسلبهم وجودهم . . بل أقامه الله تعالى بينهم بشراً سويا . . يأكل مما يأكلون ويلبس مما يلبسون . . وتحكمه الضرورات البشرية كما تحكمهم . . فلم يجدوا فى وجودهم فى ظلال النبوة أنهم غرباء فى حضرة هذا النبى . ولم يفتقدوا فى حال أبداً إنسانيته بينهم ، حتى فى حال اتصاله بالسماء . . إذ كان يتزل عليه الوحى وهو بينهم ، وتتزل عليه آيات السماء حيث كان فيهم . . فى حضر أو سفر ! .

وليس ذلك كله إلا ليظل الناس على إنسانيتهم ، أوفياء لوجودهم . . لا تذوب شخصيتهم ، ولا تنحلّ إرادتهم .. ولو كانوا فى ظل النبوة ، وفى حضرة النبى .

إن المجتمع الإسلامى مجتمع إنسانى يعيش بذاتيته ، ويتحرك بإرادته ، ويفكر بعقله .. وليس يستقيم له شىء من ذلك أبدا إذا هو عاش فى ظل « الامام » وخضع لحكومته ، إذ ليس له مع الإمام ذاتية ، ولا إرادة ، ولا عقل . !

* * *

ولا نريد أن نذهب مع مذاهب الشيعة فى « الإمامة » إلى أبعد من هذا . . فقد آثرنا ألا نفتح بابا من أبواب الخلاف بين المسلمين إذا نحن التقينا مع غير الشيعة الإمامية التى نقلنا رأيها هنا ، والتى هى أقرب مذاهب الشيعة إلى أهل السنة . . فهناك من مذاهب الشيعة وفرقها من اتسعت شقة الخلاف بينه وبين الإسلام والمسلمين إلى حدٍّ بعيد لا يمكن التجاوز عنه ، أو التسامح فيه ، إلا إذا ترخص المرء فى عقيدته ، أو زهد فيها .

على أنا نبغى من وراء هذا الإمساك عن الحديث فى تلك المذاهب التى انحرفت هذا الانحراف الحاد عن جادة الطريق — نبغى غاية أخرى غير البعد عن مواطن الخلاف والفرقة — وهى إتاحة الفرصة المواتية فى هذا العصر للقضاء على تلك الضلالات التى زحفت على العقيدة الإسلامية ، وأفسدت على كثير من الناس دينهم ودنياهم جميعاً . .

إن العلم الذى يغزو كل ركن من أركان العالم فى هذا العصر ، والذى يجىء إلى الناس فى صور وأشكال شتى ، لا تحول دونه المحيطات الواسعة ، ولا الجبال الشاهقة ، ولا الصحارى المقفرة — هذا العلم سينزع من تلك الرءوس ما دخل عليها من خرافات وأوهام ، وسيجلو هذا الصدأ الذى شوه معالم الدين ، وذهب بوضاءته وإشراقه ، ويومئذ يلتقى المسلمون جميعاً على كلمة التوحيد الخالص من نزعات الهوى ، ونزغات الضلال .

« قل يا أهلَ الكتابِ تَعَالَوْا إلى كلمة سواءٍ بينَنَا وبينكم ألا نعبدَ إلا الله ، ولا نشركَ به شيئاً ، ولا يتخذَ بعضُنا بعضاً أربابا من دون الله ، فإن تولَّوْا ، فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (١) .

---

(١) سورة آل عمران آية ٦٤

خـاتمـة

شوقى .. والخلافة

كنت على نيّـة أن أجعل فصلا من فصول هذا الكتاب حديثاً خاصّـا عن : « شوقى والخلافة » .. إذ كان للشاعر مواقف كثيرة مع الخلافة ، حيث عاصر الأحداث التى مرت بها ، وشهد الأعاصير التى هبّـت عليها ، ثم رأى أخيراً مصرعها بعد أن صحبت المسلمين أكثر من مرة ، فى أكثر من ثلاثة عشر قرناً ..

و « شوقى » ليس مجرد معاصر ، أو مشاهد لهـذه الأحداث .. ولكنه شاعر ، بل وأمير شعراء عصره ، على أقل حساب يحاسب به ، إن لم يكن أمير الشعر العربى كله على الإطلاق !

والخلافة وأحداثها وسقوطها .. ليست مجرّد ظاهرة من تلك الظواهر التى تطلع فى المجتمع فيتغير بها وجه من وجوهه ، أو تتبدل بها حال من أحواله ، وإنما هى زلزلة عاتية تصدع لها كيان المجتمع الإسلامى كله ، تصدعاً شمل حياته المادية ، والروحية .. جميعاً ..

فإذا استقبلت شاعرية « شوقى » هذه الأحداث الدائرة حول الخلافة ، وإذا جلاّها بيانه فى معرض الشعر — كان ذلك إرهاصا بميلاد أروع آيات الشعر وأخلده .. لأنه شعر ينتسب إلى أبوين نجيبين : حدث عظيم ، وشاعر عظيم .

لهذا كله كنتُ على تلك النيّة التى أشرت إليها ، وهى أن أجعل « لشوقى والخلافة » باباً من أبواب هذا البحث ، ولكنى عدت فآثرت آخر الأمر أن يكون ذلك « خاتمة » يختم بها الكتاب .. وذلك لما وقع فى نفسى من أن الشعر وإن لبس كثيراً من الحقائق إلا أن هذه الحقائق تتشح فى أغلب الأحيان بأردية الخيال ، وتتلوّن بألوان العاطفة ، ونحن نريد أن نقدم الحقائق التى نقدمها فى هذا البحث بعيدة عن الخيال والعاطفة على قدر ما نستطيع .. لأننا نعرض قضية

من أدق القضايا وأهمها عند المسلمين ، ولن يسفر وجهها إلا إذا خلا من هذه « المساحيق » وتلك « الأصباغ » .. مساحيق الخيال ، وأصباغ العاطفة !

* * *

وإذا كان الشعر غير محمود فى مواطن البحث عن الحقائق المجردة ، فإن مقامه ليحمد حين تسفر الحقيقة ، وينكشف وجهها ، إذ يمكن لها حينئذ فى القلوب ، ويفسح لها فى العقول ، بما يلقى عليها من أضواء ، أو ظلال ، تزيد فى وضوحها وجلائها .

والحق أن الخيال فى شعر شوقى ليس خيالا مطلقاً جامحاً ، بل هو خيال يجرى بين يدى الحكمة ، ويتحرك فى مجال الحقيقة . . وكذلك شأن العاطفة مع شاعرية شوقى . . هى عاطفة تمسك بالعقل ، وتستقى من موارده . . ولهذا كان شعر « شوقى » قطعة من حياة مصر ، وصحفاً صادقة من صحائف تاريخها .. بحيث يستطيع المؤرخ أن يجعل دواوين شوقى مرجعاً يعتمد عليه — إلى حد كبير — فى تقرير الوقائع والأحداث التى مرت بمصر ، وبالعالم العربى والإسلامى .. منذ شباب شوقى إلى يوم وفاته .. بل وإن المؤرخ ليجد فى شعر شوقى إلى جانب الوقائع والأحداث مواقع العبرة والعظة من كل واقعة أو حدث ، موزونة بميزان السياسى الأريب ، والمربى الحكيم ، والمصلح المجرّب . . .

* * *

وعلى الرغم من أن « شوقى » كان شاعر « القصر » أو شاعر « الأمير » كما كان يقال ، وكما يقول هو عن نفسه فى بعض قصائده :

شاعر الأمير وما بالقليـــل ذا اللقب

على الرغم من هذا ، وعلى الرغم من أن شوقى كان حريصاً أشد الحرص على أن يسكن إلى الحياة فى هذا القفص الذهبى وألا يتجاوز تغريده جدران القصر ، وألا ترى عيناه ما وراء شخص الأمير — فإن شاعرية شوقى وهى

هى فى قوتها وانطلاقها قد استطاعت تتخطى حدود القصر وأن تغرد فوق كل أيكة ، وأن تسمع العالم أنغامها العبقرية .

إن العبقرى من الفنون هو ميراث الإنسانية كلها ، لا يختص به شعب دون شعب ، ولا جيل دون جيل ، أشبه بالآيات الكونية التى تملأ الوجود زماناً ومكاناً .. وكذلك شعر « شوقى » آية من آيات العبقرية ، وفريدة من فرائدها .

* * *

والعاطفة الدينية عند « شوقى » ترتفع إلى مستوى عبقريته فى الشعر ، فهى عاطفة قوية يقظى ، تلتقط كل حَـدَث يجرى فى العالم الإسلامى ، صغر شأن هذا الحدث أو عظم ، فإذا كل حدث من تلك الأحداث مشاعر متدفقة ، وأحاسيس متوقدة ، وإذا قلب الشاعر خفقات موزعة بين أوطان الإسلام .. فى مصر ، والشام ، والعراق .. وفيما بين الهند ، والمغرب الأقصى من إسلام ومسلمين ..

ولم يكن شوقى مع هذه المشاعر الدينية اليقظى ، ومع تلك العاطفة المتوقدة ـ لم يكن متعصباً متزمتا ، شأن كثير من أصحاب الحماس الدينى ، بل كان إنسانياً ، متسامحاً ، متسامياً .. يرى الدين رحمة للناس ، وخيراً وبركة عليهم .. وليس اختلاف الأديان ـ فى نظر شوقى — بالسبب الذى يقطع أواصر الإنسانية بين الناس ، ويوقد نار العداوة والبغضاء بينهم .. فليس هذا من سبيل الدين — أى دين — وإن كان سبيلا لكثير من المتدينين الذين لا يتجاوز الدين أفواههم وألسنتهم إلى عقولهم أو قلوبهم :

الدّين للدّيان جلّ جلاله   لوشاء ربك وحّد الأقواما

هكذا يقول شوقى .. وهكذا كان إيمانه ، وكان سلوكه ، وهكذا كان مفهوم الإسلام عنده .. رحمة ، ومحبة ، وسلام .. فإذا لهج شوقى بالإسلام ، وحمل همّ المسلمين ، وبات مسهّدا من كل طارق يطرق أوطان الإسلام فليس ذلك بداع من التعصب الذى لا يعرف غير الكراهية والحقد للناس ، ولا يضمر

غير العداوة والبغضاء لمن لا يدينون بدينه . . وإنما هو دفاع عن مبادئ كريمة يمثلها الإسلام ، وعطف ورحمة بمستضعفين مقهورين يمثلهم المسلمون . !

* * *

وشوقى حين يتحدث عن الخلافة ، والخليفة ينظر إليهما من خلال عاطفته الدينية تلك . . إذ هما عنده بعض عقيدته ، وجانب من دينه . .

فالخلافة — كما يرى شوقى — ليست مجرد حكومة مدنية تقوم على مجتمع من المجتمعات ، وإنما هى خلافة « نبوّة » ، تحمل نفحات طيبة من صاحب الشريعة ، وتستند إلى ركن متين منه . .

والخليفة . . إنما يقوم مقام « النبى » فى المجتمع الإسلامى . . ينفذ أحكام الشريعة ، ويحفظ كيان الإسلام .. من بين يديه يفيض الخير على العباد والبلاد ، ومن فمه تنطلق الحكمة والموعظة الحسنة !! .

يقول فى السلطان عبد الحميد :

حكمةٌ حال كل هذا التجلى دونها — أن تنالها الأفهام
يسأل الناسُ عندها الناسَ هل فى النا س ذو المقلة التى لا تنام ؟
أم من الناس بعدُ من قوله وحـىٌ كريم وفعله إلهامُ ؟
صدق الخلق أنت هذا وهذا ياعظيما ما جازه إعظـام

ثم يقول :

ما تتوّجتَ بالخلافة حتى تُوج البائسون والأيتام
ومرى الخصبُ والنماء ووافى الـبشر ، والظلُّ والجنَى والغمام (١)

فالخليفة — كما يرى شوقى — هو فى هذه المنزلة التى يعلو بها الناس جميعاً ..

---

(١) الشوقيات : الجزء الأول ص ٢٨٢

قوله وحى كريم ، وفعله إلهام ؛ وهو لا ينام كما ينام الناس ؛ ولا ينطق بغير الحكمة ،كما ينطق الناس . . إنه وارث نبوّة . وخليفة نبىّ !!

يقول فى الخليفة « محمد رشاد » :

عرش النبى « محمـــد » جنباته نور ورفـــرفه الطّهور غمامُ
لمـا جلستَ سمـا وعزّ كأنمـا هارون وابناه عليه قيامُ

ولسنا نبرىء « شوقى » من الميل إلى محاباة العنصر التركى ، وإلى رفع مكانة هذا العنصر فى نصرة الإسلام ، وبلائه فى الدفاع عن المسلمين ، وذلك ليمكن لهم فى المجتمع الإسلامى ، وليجعل لقيام الخليفة فيهم واختيار الخلفاء منهم مبررات تقع من المسلمين موقع القبول والرضا . .

ومن أجل هذا أكثر شوقى من عقد المقارنات بين فتوحات الترك وحروبهم ، وبين فتوحات المسلمين فى الصدر الأول وحروبهم ، فجعل هذه من تلك . . سواء بسواء . .

يقول فى مطلع إحدى قصائده :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب ياخالد الترك جـدّدْ خالد العرب

فالقائد التركى « مصطفى كمال » يصل بفتوحاته الرائعة ما انقطع من فتوحات خالد بن الوليد وبطولاته .!!

ويقول فى هذه القصيدة أيضاً :

يوم « كبدر » ، فخيل الحق راقصة على الصعيد ، وخيل الله فى السحبِ
غر تظللها غـــراءُ وارفة «بدرية» العود والديباج والعَذَبِ (١)
تذكّرُ الأرضَ مالم تنسَ من زَبَدٍ
كالمسك من جنبات « السَّكْب » منسكبِ (٢)

---

(١) يريد بالغراء الوارفة راية القتال « العلم »
(٢) السكب : اسم فرس من أفراس النبى صلى الله عليه وسلم

وفيها يقول مخاطباً الغازى « مصطفى كمال » :

من فلّ جيش ، ومن أنقاض مملكة ... ومن بقيـة قوم جئت بالعجب
أخرجت للناس من ذلٍّ ومن فشل ... شعباً وراء العوالى غـير منشعب
لما أتيت « ببدر » من مطالعها ... تلفت «البيت» فى الأستار والحُجُبِ
وهشّت الروضة الفيحاء ضاحكة ... إلى « المنوّرة » المسكية الترب

فهذه الحروب الدائرة بين الترك وبين أمم « البلقان » هى حرب بين الإسلام وأعداء الإسلام وهى تمثل موقفاً حاسماً للإسلام . . فإنه إن ينهزم المسلمون فى هذه الحرب يتبدّد شمل دولتهم . وتتقاسم أشلاءها أمم الغرب ! ومن هنا ساغ لشوقى أن يجعل بينها وبين يوم « بدر » نسباً ! وأن يستجلب لها أمداد الملائكة التى أمدّ الله بها المسلمين يومئذ فى موقعة « بدر » ! !

ولا يقف « شوقى » عند هذه المشابه التى تبدو له فى تلك المواقف الحربية لأبطال الترك وأبطال المسلمين فى صدر الإسلام ، بل إنه ليذهب إلى أبعد من هذا ، فيحاول فى مواقف كثيرة أن يعقد مشابه بين أفراد من أصحاب الحكم والسلطان ، وبين آل بيت النبى صلوات الله وسلامه عليه وآله . .

وشوقى بهذا إنما يحاول أن يقرّب بين العرب والترك ، وأن يجعل هذه المشابه نسباً يصل بين الأمتين ، وذلك بعد أن اتسعت بينهما شقة الخلاف ، واشتد النزاع ، وذهب مذاهب شتى ، حتى لقد كان فريق كبير من العرب يقاتل فى الجبهة المعادية لجبهة الأتراك فى الحرب العالمية الأولى . .

يقول شوقى معزياً أم الخديو « عباس الثانى » فى وفاة حفيدها الأمير « عبد القادر » :

شفّه الأيك حنيناً فقضى ... وكرام الطير يرديها الحنينْ
ووجدنا عند ذكرى دمه ... طيب أبناء « الحسين » الطاهرينْ
وكأن الآل فيه « هاشم » ... وكأن الميْت « زين العابدينْ » !

قد أستأنف فى الخلد الصِّبا بين حور قاصرات الطرف عينْ
حلّ « بالقاسم » مصباح الهدى و « بإبراهيم » نور المتقين [1]

فهذا الميت يشَمّ فيه « شوقى » ريح الشهداء من آل البيت فى « كربلاء » ، كما يرى فى موكب « جنازته » آل « هاشم » يسيرون خلف النعْش ، وأما الميت فهو « زين العابدين » بن على بن الحسين .. وهو سينزل فى الجنة إلى جوار القاسم وإبراهيم ولدى رسول الله صلى الله عليه وسلم !

ولا نعتذر لشوقى بأنه « شاعر » جمح به الخيال ، فإن شوقى — كما قلنا لم — يكن ممن يغلبهم الخيال ، ويستعلى على تفكيرهم .. إن شوقى وزن هذا القول بميزان العقل قبل أن يصوغه شعرا ، فرضيه ، وأباح لشاعريته أن تنسجه هذا النسج الرائع المحكم .

وإذ قلنا إننا لا نبرىء شوقى من الميل إلى محاباة الترك فإنه فى هذا الميل لم يكن متعصباً لهم على الرغم مما كان يجرى فى عروقه من الدم التركى ، وإنما كان محمولا على ذلك بدافع الغَيْرة على وحدة المسلمين ، وجمعهم على الإسلام ، بعد أن أصارتهم العصبية شيعاً وأحزاباً يذيق بعضهم بأس بعض ! وبعد أن ذهب الترك فى وجه ، وذهبت القوميات الأخرى فى وجه .

يقول المرحوم أمين سعيد فى كتابه « الثورة العربية الكبرى »

« وهبت على أوربا بعد الثورة الفرنسوية فى القرن التاسع عشر ريح القومية ، وكشف البخار فى القرن التاسع عشر فاقترب الشرق والغرب ، واختصرت المسافات ، واتصلت الأمم بالأمم والشعوب بالشعوب !

« وكانت بضاعة « القومية » فى جملة صادرات الغرب الجديدة إلى الشرق فجاءت ـ القومية ـ تجرر ثوبا قشيبا ، يغرى ويفتن .. إلا أن تأثيرها ظل محدودا خلال القرن التاسع عشر بسبب الجهل الذى كان مستحكما وسائدا .

---

(١) القاسم وإبراهيم من أولاد النبى صلى الله عليه وسلم .

« بيد أن الفوز الذى أدركه فتيان الترك فى أوائل القرن العشرين على السلطان عبد الحميد ـ وقد تشبع بعضهم بفكرة القومية ـ كان مقدمة تحول عظيم فى صلات هاتين الأمتين ـ العرب والترك ـ وقد ختم هذا الدور [١٩٠٨ — ١٩١٨] بانفصالهما عن بعضهما بعد أن عاشا متحدين قرابة أربعة قرون[١] ، يخضعان لنظام واحد . . فانهار بهذا النظام بناء الجمهورية العثمانية ، وقامت مقامها جمهورية « أنقرة » الجديدة ، وقد اعتنقت مبدأ القومية ، واتخذته شعارا لها ودثارا . . كما قامت الدول العربية المنبثة فى بلاد العرب من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب »[٢] .

ثم يقول : « ومما لا شك فيه أن حركة هذه العناصر ـ العربية وغيرها ـ وتشددها فى المقاومة والنضال أوحى إلى الاتحاديين[٣] الاعتماد على العنصر التركى وحده فى الدفاع عن دولتهم وتأييدها ، فوجهوا عنايتهم إلى تنشيطه ، كما وقفوا الكثير من مناصب الدولة على أبناء الترك ، وهكذا تحولت الدولة إلى حكومة «طورانية» ، للتركى فيها المقام الأول ، وللغة الترك الجانب الأعظم من عنايتها ، وللشبيبة التركية الحظ الأوفر من مناصبها ووظائفها ، فزاد ذلك من حقد العناصر واستيائها ، لأنها تعد نفسها شريكة للتركى ، لها ما له من حقوق .

« ولا ريب أن اشتداد الخلاف بين العناصر والترك ، وتمسك كل فريق بقوميته وعنصريته لا يحيد عنها ـ عجل فى إضرام الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ ، وفى خروج الترك من مقدونية على تلك الحال السيئة التى خرجوا عليها ، كما عجل بخروجهم من بلاد العرب بعد ذلك ، فانكمشوا فى داخل حدودهم القومية »[٤] .

ولا شك أن هذه الأحداث كانت بمرأى ومسمع من شوقى ، بل إنه كان

---

(١) بل أكثر من خمسة قرون .

(٢) الثورة العربية الكبرى ص ٢

(٣) أصحاب جمعية الاتحاد والترقى ، ومن مبادئها الاستعلاء بالعنصر التركى .

(٤) المصدر السابق ص ٥ .

من أقرب الناس إلى هذه الأحداث وأكثرهم علما بها . . ظاهرا وباطنا ، إذ كان فى حاشية السلطان ، وأقرب المقربين إليه ، حيث تكثر موارد الأخبار والأسرار !

وما كان لشوقى أن يرى وحدة المسلمين تتمزق هذا التمزق ثم يسكت ، دون أن يبلى بلاءه ، لجمع الكلمة ، وتوحيد القوة ، فى وجه العدو الراصد المتربص !

* * *

لقد كان شوقى يحمل همّ المسلمين ، ويبيت من هذا الهمّ موجعاً مسهّداً ، لا يجد ما يخفف به لواعج الأسى والحزن على ما أصاب المسلمين من تخاذل وضعف — إلا قيثارة شاعريته ، يردد عليها أناته وزفراته ، فى أكثر ألحانه التى تغنى بها فى شعره .

فها هو ذا يودّع الخديوى عباس ، وقد سافر إلى البيت الحرام حاجّـا . . ويلقى بين يديه « شوقية » من شوقياته . . ثم يجعل كلّ مطلبه إليه أن يتوسل برسول الله ، ويدعو للمسلمين فى هذا الموطن الطاهر أن يهبوا من سباتهم ، وأن يأخذوا مكانهم فى الحياة . .

يقول مخاطبا عباساً :

إذا جئتَ يامولاى قبر « محمد » وقبّلت مثوى الأعظم العَطِرات
فقل لرسول الله : ياخير مرسل أبثك ما تدرى من الحسرات
شعوبك فى شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف فى عميق سبات
بأيمانهم نوران : ذكر ، وسُنّة فما بالهم فى حالك الظلمات ؟
فقلْ يارب وفّق للعظائم أمتى وزين لها الأفعال والعَزَمَات(١)

وإذن فلم يكن شوقى بالمتهم فى ممالأة الترك على حساب العروبة ، أو الإسلام ،

(١) الشوقيات : الجزء الأول ص١٠٩

وإنما الذى كان قد وقع فى نفس شوقى وهو يقف هـذا الموقف هو أن الترك كانوا أقوى قوة فى المجتمع الإسلامى ، وكان لهم مواقف محمودة فى الدفاع عن حوزة الإسلام ، فأراد أن يمسك بهذه القوة ، وأن يحتفظ بمكانها فى المجتمع الإسلامى حين رأى بوادر التعصب للقومية التركية تدعو القوم إلى قطع صلاتهم بالعرب ، و بلغة العرب . بل وبالسرق كله ، وحين رأى الدعوة المتسلطة على عقول الترك لاستخدام الحروف اللاتينية ، وإجلاء الكلمات العربية عن اللسان التركى ، حتى ما كان من العبادات . . كالآذان والصلاة . . !

لقد كان تيار هذه الدعوة الانعزالية ، بل الانتقامية تيارا جارفاً ، فتصدّى شوقى لها ، وجاء إلى الترك يهتف بهم : أن انظروا لماضيكم ، ولما بنت أيديكم من أمجاد للإسلام ، وخذوا طريقكم إلى الإصلاح الذى تنشدون .. فى رفق ، ولا يحملنكم التهوّر على اطراح كل زاد وضعه السلف بين أيديكم . . فإن من لا قديم له ، لا جديد له . . !

يقول شوقى مخاطباً الترك :

يا فتية الترك حيّا الله طلعتكم ... وصانكم ، وهدا كم صادق الخِـدَمِ
أنتم غدُ الملك والإسلام ، لا برحا ... منكم بخيرِ غـدٍ فى المجد مبتسم
تحـلـكم مصر منهـا فى ضمائرها ... وتعلن الحبَّ جمّـا غـير متّهم
فنحن إن بعدت دار وإن قربت
جاران فى « الضاد » أوفى البيت والحرم
ناهيك بالسبب الشرقىّ من سبب ... وحبذا نسب الإسلام من رَحِمِ
شمل اللغات لدى الأقوام ملتئم ... و « الضاد » فينا بشمل غير ملتئم
فقرّبوا بيننا فيهـا وبينـكم ... فإنهـا أوثق الأسباب والذّمم
فلا تـكونُنّ تركيّا الفتاة ولا ... تلك العجوزِ ، وكونوا تركيا القِـدَمِ

وقد وقع ما كان يخشى « شوقى » فأعطت تركيا ظهرها للشرق ، وأضافت

نفسها إلى « أوربا » متلصصلة متطفلة . . لم تجد لها مكانا بين أمم الغرب فظلت واقفة فى مكانها ، تدور حول نفسها . . حتى كادت تسقط إعياءً ، وتهلك ظمئاً وجوعاً . .

يقول محمد كرد على فى مذكراته :

« بقدر ما أحسن أتاتورك « مصطفى كمال » إلى تركيا : بجمع شملها ، والنهوض بها ، أساء إليها عندما حاول القضاء على لسانها ، وخطّها ، ومدنيتها القديمة . «وتتريك» كل شىء .. حتى الأذان.والخطبة ، والصلاة ، والقرآن .

« وكان يرجى من خلفه « عصمت أينونو » أن يعيد النظر فيما ابتدعه الرئيس السابق من الأوضاع المعوجة ، ويرجع إلى ما كانوا عليه من الاعتماد على اللغة العربية فى شئونهم الدينية ، ولكنه ماشى الكماليين ، فأبقى كل شىء كما كان وضعه الرئيس الأول . »(١)

وهكذا قطعت تركيا صلتها بالعالم العربى ، بل والإسلامى ، وحسبت أنها بهذا تنتقم من العرب ، ومن كل شىء دخل عليهم من العرب .. حتى الدين . . ولكنهم وجدوا أنفسهم آخر الأمر بمعزل عن العالم ، فلم يصبحوا أوربيين كما قدّروا ، ولم يقهروا سلطان الإسلام فى نفوسهم كما أحبوا ، وإذا هم بعد تجربة قاسية خائبة يدخلون شيئا شيئا إلى الإسلام من بابه ، وبلغة كتابه التى نزل بها ، فيرتفع على المآذن من جديد أذان الإسلام بلغة الإسلام ، وتقام الصلاة ، ويرتل القرآن . بلغة القرآن !

* * *

وكل شىء عند « شوقى » يهون ، وإن جل وإن عظم إلا ما يتصل بالخلافة أو الخليفة ! فهما عنده بعض نفسه ، ومِلاك عقيدته .. إن سلماً فلا بأس إذا ساءت الأحوال ، وأصاب المسلمين ما أصابهم من بأساء وضراء . فنى الخلافة

(١) المذكرات : لمحمد كرد على الجزء الرابع ص ١٩٤

والخليفة ما يضمن إصلاح ما فسد من أمر ، وإزالة ما نزل من بأس وضر !

في سنة ١٩٠٥ ألقيت قذيفة على « الخليفة » — السلطان عبد الحميد — ثم شاء الله أن يكتب له النجاة منها .. وتلتقط شاعرية « شوقي » هذه الحادثة : وتحشد لها مشاهد الإسلام وشعائره ، لتجعل من هذه وتلك عرائس ، يشهدن موكب الفرحة بنجاة « الخليفة » وينشدن فيه نشيد الحمد والثناء لله رب العالمين ، إذ حفظ الخليفة ، ودفع عنه هذا الكيد الذي كيد له .

يقول شوقي :

هنيئاً أمير المؤمنين فإنما ... نجاتك للدين الحنيف نجاةُ
هنيئاً لطه[1] ، والكتاب ، وأمة ... بقاؤك إبقاء لها وحياة
أخذتَ على الأقدار عهداً وموثقا ... فلستَ الذي ترقى إليه أذاة !!
ومن يك في بُرْدِ « النبيّ » وثوبه ... تجُزْه إلى أعدائه الرميات
يكاد يسير البيت شكرا لربه ... إليك ، ويسعى هاتفاً عرفاتُ
وتستوهب الصفحَ المساجدُ خشّعاً ... وتبسط راح التوبة الجُمعات

ويقول أيضا :

تمشيت في برد « الخليل »[2] نخضتها ... سلاما وبرداً حولك الغمرات
يحوطك إن خان الحماة انتباهُهم ... ملائك من عند الإله حماةُ
فلولاك ملك المسلمين مضيّع ... ولولاك شمل المسلمين شتاتٌ

ويجعل « شوقي » نفسه من الخليفة بمنزلة « حسان بن ثابت » من الرسول صلوات الله وسلامه عليه . . فيقول :

ملكتَ أميرَ المؤمنين « ابن هانئ »[3] ... بفضل له الألباب ممتلكاتُ

---

(١) طه : اسم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم

(٢) الخليل : ابراهيم عليه السلام ، وقد ألقي في النار فجعلها الله بردا وسلاما عليه

(٣) ابن هانئ : لقب أبي نواس شاعر الخليفة هارون الرشيد ، ويريد به شوقي نفسه

وما زلتْ «حسَّانَ» المقام ولم تزلْ ... تليني وتسرى منك لى النفحاتُ
زهدت الذى فى راحتيك وشاقنى ... جوائز عنـــد الله مبتغيات
ومن كان مثلى أحمَدَ الوقت لم تجز ... عليه ـ ولو من مثلك ـ الصدقات!
نجحت أمة لما نجوت ودوركت ... بلاد ، وطالت للسرير حياة (١)

هكذا كان مفهوم الخلافة والخليفة عند شوقى .. هما راية الإسلام ، وملاك أمر المسلمين ، فإذا أصابهما سوء ، أو نزل بهما مكروه فاضت نفس « شوقى » حسرة وألماً ، وبات موجعاً مسهداً ، يعالج همـا مبرحاً ، ويمسك قلباً متصدعا !

وماذا يكون الحال إذن لو أن أمر « الخلافة » قد ذهب جملة ، وزال ظلها .. فلا خلافة فى الأرض ولا خليفة ؟

إنها زلزلة الساعة ، ورجفة القيامة !

ذلك ما يقع فى نفس شوقى ، لو أن هذا الأمر قد حدث !

وقد حدث الأمر فعلا ، ووقعت الواقعة .. فذهبت نفس الشاعر تَنعَـاعاً ، وبدا له أن يومه هذا هو يوم النشور ..

وتتحرك شاعرية شوقى فتجوس خلال هذا الحدث الجلل فى ذهول .. لا تدرى ما تأخذ أو تدع منه ..

إنها ترى الغازى « مصطفى كمال » الذى كان الشاعر بالأمس القريب يتبع سير موكبه المظفر ، ويتغنى ببطولاته وفتوحاته ، ترى هذا الذى كان يعده الشاعر من المجاهدين فى سبيل الله ، والمجددين لفتوحات الإسلام الأولى — تراه هو الذى يرمى « الخلافة » بسهمه فيصيب منها مقتلاً ، فتقع صريعة ، يتعفر بالتراب جبينها ، ويسيل على الصعيد دمها !

إنه موقف حَـرِج ، يضلّ فيه الفكر ، ويحار معه اللبّ ، وتستغلق فيه

---

(١) الشوقيات جزء ١ ص ١٠١

أبواب الرأى ! وليس من هو أبرع من شاعرية شوقى ، ولا أروع منها فى تصوير مثل هذا الموقف فى . دقة ، وبراعة ، وكياسة !

وقد يكتب الكاتبون ، ويؤرخ المؤرخون ، ويقول القائلون من أعداء الخلافة وأوليائها ، فلا يبلغ أحد من هؤلاء وهؤلاء جميعاً شأو « شوقى » فى تحليله لهذا الحدَث ، وفى دقة تصويره لمشاعر الناس إزاءه ! وستظل قصيدة شوقى فى سقوط الخلافة، أصدق ، وأعدل شاهد يحدّث عن أخبارها ، ويمسك بما فى مشاعر الناس من حمد أو ذم لها . .

إذن فاستمع لما قال :

عادت أغانى العرسِ رَجْعَ نواحِ ... ونُعيتِ بين معالم الأفراحِ
كفّنتِ فى ليل الزّفاف بثوبه ... ودفنتِ عند تبلّج الإصباحِ
شيعتِ من هلع بعبرة ضاحك ... فى كل ناحية وسكرة صاحِ
ضجّتْ عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالك ونواحِ
« الهند » والهة و « مصر » حزينة ... تبكى عليك بمدمع سحّاحِ
و « الشام » تسأل ، و « العراق » ، و « فارس »
أمحا من الأرض « الخلافة » ماحِ ؟
وأتت لك « الجمع » الجلائل مأتما ... فقعدن فيه مقاعد الأنواحِ
يا للرّجال لحرة موءودةٍ ... قتلت بغير جريرةٍ وجناحِ
إن الذين أست جراحك حربهم ... قتلت سلمهمو بغير جراحِ
هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم ... موشية بمواهب الفتاحِ
نزعوا عن الأعناق خير قلادة ... ونضوا عن الأعطاف خير وشاحِ
حَسَبٌ أتى طول الليالى دونه ... قد طاح بين عشية وصباحِ
وعلاقة فصمت عرى أسبابها ... كانت أبرّ علائق الأرواحِ
جمعت على البرّ الحضور ، وربما ... جمعت عليه سرائر النزّاحِ
نظَمَتْ صفوف المسلمين وخطوهم ... فى كل غدوة جمعة ورواحِ

بكت الصلاة .. وتلك فتنة عابث بالشرع عِرْبيدِ القضاء وقاح
أفتى "خزَعْبَلةً" وقال ضلالة وأتى بكفر فى البلاد بَرَاح
إن الذين جرى عليهم فقهه خلقوا لفقه كتيبة وسلاح
إن حَدّثوا نطقوا بخرس كتائب أو خوطبوا سمعوا بصمّ رماح

وأنت ترى شوقى يرمى أولئك الذين أفتوا بانحلال الخلافة من رجال الدين — بالكفر والإلحاد ، وأن الذين تلقوا هذه الفتوى لم يكونوا أهلاً للنظر فيها ، أو الأخذ بها . . إنهم رجال حرب ، لا يعرفون إلا صليل السيوف ، وتشاجر الرماح ؛ ثم ما حاجتهم إلى هذه الفتوى ؟ إن السيف وحده هو الذى تولىّ هذا الأمر ، وأزال الخلافة عن موضعها !

ثم يأخذ شوقى بعد هذا فى تسوية موقفه الذى يقفه فى يومه هذا من الخلافة، وموقفه الذى كان بالأمس مع الذين أطاحوا بالخلافة . . !!

يقول :

أستغفر الأخلاق ، لست بجاحد من كنت أدفع دونه وألاحى
مالى أطوقه الملام وطالما قلدته المأثور من أمداحى ؟(١)
هو ركن مملكة ، وحائط دولة وقريع شهباءِ وكبش نطاح
أأقول من أحياء الجماعة ملحدٌ وأقول من ردّ الحقوق إباحى ؟
الحقّ أولى من وليّك حرمةً وأحق منك بنصرة وكفاح
فامدح على الحق الرجال ولمهمو أو خلّ عنك مواقف النصّاح

ثم يلتفت إلى المحيطين بموكب «الغازى» والمعجبين بفتوحاته . . فيقول لهم :

أدّوا إلى الغازى النصيحة ينتصح إن الجواد يثوب بعد جِمَاح
إن الغرور سقى الرئيس براحه كيف احتيالك فى صريع الرَاح ؟
نقل الشرائع ، والعقائد، والقرى والناس نقلَ كتائب فى الساح
تركَتْه كالشبح المؤله أمة لم تسلُ بعدُ عبادة الأشباح

---

(١) ولقد قالها فعلا . . كما ترى .

هم أطلقوا يده « كقيصر » فيهمُ   حتى تناول كلَّ غــــير مباح !

ثم يتجه بعد هـــــذا إلى المسلمين لتحدث إليهم عن العهد الذى فى أعناقهم — كما فى عنقه — للخليفة ، وما ينبغى أن يبذلوا للوفاء بهذا العهد من تضحية وفداء . . أما هو فلا يملك إلا قلب مؤمن ، ولسان شاعر ، وقد وهبهما للدفاع عن هذه القضية . .

مَن قائـــل للسلمين مقالةً   لم يوحِها غير النصيحة واحِ
عهْد الخلافةِ فىّ أول ذائد   عن حوضها بيراعه نضاح
حب لذات الله كان ولم يزل   وهوًى لذات الحق والإصلاح
إنى أنا المصباح لستُ بضائع   حتى أكون فراشة المصباح ! !

ثم يختم « شوقى » قصيدته هذه بتحذير المسلمين من الفتن التى ستطلع عليهم بعد ضياع الخلافة ، وأن هناك أدعياء سيقومون هنا وهناك يطالبون بها ، بل لقد لاح فى الأفق يومذاك واحد من هؤلاء الأدعياء هو « حسين بن على » شريف مكة ، الذى أعدّ نفسه ، ليكون الخليفة الذى يقوم على المسلمين بعد زوال الخلافة التركية ، ومد يده إلى الإنجليز ليكونوا عونه على هذا الأمر !

يقول شوقى :

لا تبذلوا بُرد النبىّ لعاجز   عُـزْلٍ يدافِع دونه بالرّاحِ (١)
بالأمس أوهى المسلمين جراحةً   واليوم مدّ لهم يدَ الجرّاح (٢)
فلتسمعنّ بكل أرض داعيا   يدعو إلى «الكذاب» أو «لسجاح» (٣)

---

(١) يريد بالعاجز . «الحسين بن على» شريف مكة ، وهو أعزل من كل قوة ، لا يملك شيئا للدفاع عن الخلافة غير راحته التى فرغت من كل شىء !

(٢) يشير الشاعر إلى ما كان من الحسين بن على من خروج على المسلمين ومحاربته فى صفوف الإنجليز فى الحرب العالمية الأولى

(٣) الكذاب هو « مسيلمة الكذاب » و « سجاح » امرأة ادعت النبوة مع مسيلمة ، وقد حاربهما أبو بكر رضى الله عنه ، وأسكت فتنتهما .

ولتشهدنّ بكل أرض فتنة ... فيها يباع الدّين بيع سماحِ
يُفتى على ذهب « المعز » وسيفه ... وهوى النفوس وحقدها الملحاح

ولا أحسب أن هذه القصيدة قد شفت غليل « شوقى » أو آست جراحه التى ظلت تدمى طول حياته ، أسىً على « الخلافة » وحسرة . . فلقد كانت « الخلافة » تحيا فى كيان الشاعر ، وتنبض فى قلبه ، وتتوارد على خاطره ، وكان لا يدع مجالا يطيب فيه ذكرها إلا ذكرها ، ولا يجد مناسبة يطرق بها قلوب المسلمين ويفتحها لها إلا كان سباقاً إلى ذلك ، فى حكمة الحكيم ، وكياسة الأريب .

فحين نقل « الغازى » العاصمة من الآستانة إلى أنقرة ، لم يفت شوقى أن يسجل هذا الحدث ، كما لم يفته أن يذكر عاصمة الخلافة ، ويواسى جرحها . . بل إنه ليذكر « الخلافة » ويتمنى على الأيام عودتها .

ويكشف لنا « شوقى » هنا عما كان فى نفسه من « الخلافة » الذاهبة ، وما كان يتسم به معظم الخلفاء من فساد الرأى ، وسوء التدبير ، والاستبداد بالحكم والتفرد بالسلطان ، دون أن يسمحوا لأحد أن يراجعهم فى قول أو فعل . .

كان شوقى يرى هذا كله ، ولكنه مع هذا كان حريصاً على بقاء الخلافة ، فهى — على ما بها — راية يجتمع عليها المسلمون ، وقد تجىء الأيام بما يقيم الخلفاء على الحق والعدل والإحسان .. الذى هو شريعة الإسلام !!

كان « شوقى » يؤمن أوثق الإيمان بمبدأ الشورى الذى جعله الإسلام شريعة من شرائعه ، إذ أمر الله نبيه أن يشرك المسلمين معه فى الرأى ، وهو المعصوم الموجه من السماء . . فيقول له سبحانه وتعالى : « وشاورهم فى الأمر »

وحين تنكر السلطان عبد الحميد للدستور ، وعزل من الخلافة قال شوقى قصيدة يبكيه فيها ، ويرثى له . . ثم يعتب عليه عتباً رفيقاً لتبرمه بالدستور وضيقه به . . فيقول له : [1]

---

(١) الشوقيات جزء ١ ص ١٩٦

أوذيت من دستورهم وحننت للحكم العسيرِ
وغضبت كالمنصور أو هارون فى خالى العصورِ
ضنوا بضائع حقهم وضننت بالدنيا الغرورِ
هلا احتفظت به احتفا ظ مرحب فرحٍ قريرِ
هو حلية الملك الرشيد وعصمة الملك الغريرِ
وبه يبارَك فى المما لك والملوك على الدهورِ

فإذا كان لشوقى أن يطمع فى عودة «الخلافة» وإذ جعل ذلك أملا مرجوًّا، وأمنية مرتقبة، فإنه يريدها خلافة راشدة، وليست هذه الخلافة الغاشمة التى كان يحملها فى قلبه حمل الأب ولده المريض المعلول!

يقول شوقى وقد حركت أشجانه وأثارت جنينه مأساة عزل «الآستانة» وإقامة أنقرة عاصمة بدلا عنها . . :

قل للخلافة قول باكٍ شمسَها بالأمس لما آذنت بدلوكِ
ياجذوة التوحيد . . هل لك مطفىء والله جلّ جلاله مذكيك
خَلت القرون، وأنتِ حرب ممالك لم يُخفِ ضدُّك، أو ينم شانيك
يرميك بالأمم الزمانُ وتارة بالفرد واستبداده يرميك
عودى إلى ما كنت فى فجر الهدى «عمر» يسوسك و«العتيق» يليك(١)
إن الذين توارثوك على الهدى بعد ابن «هند» طالما كذبوك(٢)
لم يلبسوا برد النبى وإنما لبسوا طقوس الروم إذ لبسوك
إنى أعيدك أن تُرَى جبارة كالبابوية فى يدى «ردريك»(٣)

---

(١) عمر هو عمر بن الخطاب، و «العتيق» هو أبو بكر الصديق . . رضى الله عنهما
(٢) ابن هندى: هو معاوية بن أبى سفيان
(٣) ردريك: أحد بابوات رومة المستبدين

أو أن تـزُفَّ لك الوراثة فاسقا « كيزيد » أو كالحاكم المأفوك (١)
قُضِيّ نيوب الفرد ثم خــذى به في أى ثوبيـــه به جاءوك (٢)
لا فرق بـــين مسلط متتوج ومسلط في غـــير ثوب مليك
إنّى أرى الشورى التي اعتصموا بها هي حبـــل ربك أو زمام نبيك

في هذه الأبيات القليلة كشف « شوقى » عن الآفات التي عرضت للخلافة الإسلامية ، وشوهت وجهها . وأشنع هذه الآفات وأبشعها هو الأخذ بنظام الوراثة ، وعدم الأخذ بمبدأ الشورى .. فولدت الآفة الأولى ورثة لا يصلحون للقيام على شأن أنفسهم ، بله شأن دولة مترامية الأطراف ، إذ كثيرا ما كان من بين أولياء العهود أطفال ، أو ضعاف أحلام ، أو سفهاء .. وولدت الآفة الثانية خلفاء مستبدين متسلطين ، يركب أحدهم رأسه فيورد الأمة معه موارد التهلكة والضياع . . !

فإذا كان للمسلمين هوًى في الخلافة ، وإذا هيأ الله لهم أسبابها وجمعهم عليها ، فلتكن خلافة قائمة على انتخاب أصلح المسلمين لهـا ، على أن تكون الشورى هي دستور الحكم ، وشريعة الحاكمين والمحكومين جميعا . . كما يقول سبحانه وتعالى في صفة المسلمين : « وأمرهم شورَى بينهم » .

« والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل »

وصلاة الله ، وسلامه ، على « محمد » نبيّ الرحمة ، وعلى آله وصحبه .

« وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين »

* * *

---

(١) يزيد : هو يزيد بن الوليد أحد خلفاء بنى أمية ، والحاكم المأفوك : هو الحاكم بأمر الله الفاطمى

(٢) قضى نيوب الفرد : أى انزعيها ، فى أى ثوب : أى ثوب الملك أو الخلافة

مراجع الكتاب

نذكر هنا أهم المراجع التى كانت فى مجال نظرنا عند إعداد هذا البحث .٠.

أولا : كتب فى التفسير والحديث والفقه

١ — تفسير ابن كثير

٢ — تفسير الزمخشرى

٣ — تفسير القرطبي

٤ — صحيح البخارى

٥ — صحيح مسلم

٦ — سنن أبى داود

٧ — أحاديث أم المؤمنين عائشة — تأليف مرتضى العسكرى — مطبعة الحيدرى ببغداد

٨ — المبانى لنظم المعانى — (مقدمتان فى علوم القرآن) بتحقيق المستشرق أرثر جفرى سنة ١٩٥٤

٩ — السياسة الشرعية لابن تيمية ، المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٢ هـ .

١٠ — الطرق الحكمية لابن قيم الجوزية ، تحقيق الشيخ حامد الفقى سنة ١٩٥٣

١١ — نظرية العقد — لابن تيمية ، تحقيق الشيخ حامد الفقى سنة ١٩٤٩

١٢ — اقتضاء الصراط المستقيم . لابن تيمية

١٣ — الخراج لأبى يوسف

١٤ — الإجماع فى الشريعة الإسلامية ، للأستاذ على عبد الرازق دار الفكر العربى

١٥ — عقائد الشيعة الإمامية ، تأليف محمد رضا المظفر - مكتبة النجاح - ببغداد

ثانيا : كتب فى التاريخ

١٦ — نهاية الأرب ، للنويرى — مطبعة دار الكتب سنة ١٩٣٨
١٧ — الإمامة والسياسة ، لابن قتيبة الدينورى — الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧
١٨ — النهاية لابن الأثير
١٩ — عبدالله بن سبأ ، تأليف مرتضى العسكرى - طبعة ثانية - دار الكتاب العربى
٢٠ — الفتنة الكبرى — الجزء الأول للدكتور طه حسين — دار المعارف .
٢١ — الفخرى، لابن طباطبا ، مكتبة مصطفى محمد سنة ١٩٢٧
٢٢ — الرياض النضرة فى مناقب العشرة ، للمحب الطبرى — الطبعة الثانية — مطبعة دار التأليف سنة ١٩٥٣ .
٢٣ — تاريخ الطبرى ، الطبعة الأولى (مصر)
٢٤ — تاريخ اليعقوبى ، الطبعة الأولى (بيروت)
٢٥ — السيرة ، لابن هشام ، مطبعة محمد على صبيح
٢٦ — الثورة العربية الكبرى ، لأمين سعيد سنة ١٣٢٩ هـ
٢٧ — النبى محمد للمؤلف ، دار الفكر العربى سنة ١٩٦٣

ثالثا : كتب اجتماعية وفلسفية وسياسية

٢٨ — مقدمة ابن خلدون ، المطبعة الأميرية — الطبعه الثالثة سنة ١٣٢٠هـ
٢٩ — الإسلام وأصول الحكم للأستاذ على عبد الرازق مطبعة مصر — الطبعة الثانية
٣٠ — حضارة الإسلام ، تأليف جوستاف جرونيباوم
ترجمة عبد العزيز جاويد (الألف كتاب)
٣١ — تجديد التفكير الدينى فى الإسلام تأليف : محمد إقبال
ترجمة عباس محمود سنة ١٩٥٥
٣٢ — قصة الحضارة تأليف ول ديورانت - عشرون جزءا - جامعة الدول العربية
٣٣ — السياسة لأرسطو ترجمها أحمد لطفى السيد — الدار القومية للطباعة والنشر
٣٤ — آراء أهل المدينة الفاضلة . لابن الفارابى — مطبعة السعادة سنة ١٩٠٦م

٣٥ — العثمانية (للجاحظ)، تحقيق عبد السلام هارون
مطبعة دار الكتاب العربي سنة ١٩٥٥

٣٦ — الملل والنحل ، تحقيق الشيخ أحمد فهمي محمد سنة ١٩٤٨

٣٧ — العقد الاجتماعي لجان جاك روسو ، ودافيدهيوم ، ولوك
ترجمة عبد الكريم أحمد (الألف كتاب)

٣٨ — الفقه السياسي عند المسلمين للمرحوم محمد فياض — المجموعة الثانية
من سلسلة الثقافة الإسلامية

٣٩ — المسئولية في الإسلام ، للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز
المجموعة الثانية من سلسلة الثقافة الإسلامية

٤٠ — المذكرات : لمحمد كرد علي مطبعة دمشق سنة ١٩٥١

٤١ — المجتمع العربي للدكتور مصطفى أبو زيد فهمي
الأستاذ بكلية حقوق جامعة الإسكندرية

٤٢ — العروة الوثقى، والثورة التحريرية الكبرى — مكتبة العرب

للمؤلف

* القضاء والقدر . . بين الفلسفة والدين
* السياسة المالية فى الإسلام . . وصلتها بالمعاملات المعاصرة
* الدعاء المستجاب .
* فى طريق الإسلام .
* عمر بن الخطاب : الوثيقة الخالدة . . للدين الخالد .
* ثمرات من الحقل الإسلامى .
* محمد بن عبد الوهاب : العقل الحر ، والقلب السليم .
* نشأة التصوف . .
* قضية الألوهية : بين الفلسفه والدين [فى كتابين]

الأول : الله . . ذاتا وموضوعا

الثانى : الله . . والإنسان

* النبي محمد صلى الله عليه وسلم : إنسان الإنسانية ، ونبىّ الأنبياء ..

تحت الطبع :

* من آيات الإعجاز فى القرآن
* القصة فى للقرآن .

فهرس الكتاب

الموضوع — الصفحة

الكتاب الأول

المجتمع الإنسانى . . نشأته وتطوره

الباب الأول

تاريخ الإنسان . . ومتى بدأ ؟

الكتاب الثانى

الخلافة والإمامة فى الإسلام

الباب الثانى

الخلاف فى الخلافة

الباب الثالث

الباب الرابع

الموضوع | الصفحة

الباب الخامس

الباب السادس

مطابع
دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

هذا الكتاب

• من مأثورات الإسلام تلك الكلمة الطيبة : « من لم يحمل همّ المسلمين فليس منهم . »

وهموم المسلمين فادحة ثقال ، تنوء بالعصبة أولى القوة !

فلقد استبدّت بالمسلمين — فى مهابّ الفتن والمكايد التى كيد بها للإسلام — عاطفة العصبية القومية ، فغلبت على عاطفة الدين ، وجعلت من الأمة الإسلامية أمماً متباعدة ، متباغضة . . شأن ذوى القربى حين يدب فيهم دبيب الجفوة والبغضاء . . !

ويذكر التاريخ القريب ، والبعيد ، أمماً إسلامية كانت اللغة العربية لغة دينها ، ولسان أدبها ، وخطابها ، فدفعها الحقد الأعمى على العرب أن تهجر اللغـــة العربية ، وأن تجلوها عن أوطانها . . وكادت تهم بهجر الإسلام . . إمعاناً فى الجفوة والقطيعة للعرب ؛ ولغة العرب ، ودين العرب !!

• والعرب هم مادة الإسلام ، وراية المسلمين . . ولذلك فهم أولى الناس بهـذا الدين . . بهم قامت دولته أولا ، وبهم تقوم دولته ثانيا . . ودائمـــا . .

• وهذا الكتاب هو « بطاقة » دعوة إلى الأمة العربية بخاصة ، أن يحمل كل فرد من أبنائها نصيبه ، من هذا الهم الذى يعانيه الإسلام ، من تمزّق أوطانه ، وتفرّق جماعاته .. فإنه بغير العرب ، وبغير وحدة العرب لن تتوحّد أوطان الإسلام ، ولن يجتمع شمل المسلمين . . والله سبحانه وتعالى قد ندبهم لهذا الدين ورفع ذكرهم به ، وهو سائلهم عنه ، ومحاسبهم عن التقصير فى حقه . . حيث يقول جلّ شأنه ، مخاطبا نبيه الكريم : « وإنه لذكر لك ، ولقومك ، وسوف تسألون »

الثمن ٥٠ قرشاً